



أيمن العتوم



يا صاحبَي السجن

الطبعة الثالثة 3



أيمن العتوم

يا صاحبَي السجن





يا صاحبَي السجن

يا صاحبَي السجن / رواية عربيّة
أيمن العتوم / مؤلّف من الأردنّ
الطبعة الثانية، 2013



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 - الأردنّ،
هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيف ® عمّان ☎ 95297109 7 00962
لوحة الغلاف: آزاد علي/ الأردنّ
التنضيدّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **المطبعة الوطنيّة / عمّان، الأردنّ**

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة في المملكة الأردنيّة الهاشميّة: 29/ 1/ 2012
ISBN 978-614-419-290-0

(٠)

«مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها»

كم أضعنا أنفسنا في متاهة الحياة . . . ولكنّنا التقينا بها مصادفةً أو قَدَرًا ونحن ننبش ذكرياتنا . . . نحن ما ننسى فنغفو في ذواتنا ، أو ما نتذكّر فنصحو على فجائعنا وخيباتنا . . . لم يكن الإنسان - يومًا - ما يأكل أو يشرب ؛ مثل ذلك تفعله الحيوانات والدّوابّ . . . إنّنا ما نحاول أن نتذكّره فنعيش من جديد ؛ ولأنّ الذّكريات استعادةٌ للإنسانيّة حين تغيب في ممرّ السّنين اللّولبيّ ، خرجتُ من ذاتي العميقة ، لأروي لكم فصلاً من حياتي بعد غيابٍ طوعيّ طويل . . .

كثيرًا ما كنتُ أتساءل عن جدوى ما أقوم به الآن . . . فقد صرختُ في وجه كينونتي مؤنّبًا : مَنْ كان مستعداً أن يسمع صدى صوتك وأنت تصرخ في الجبّ ، وحده القابع في قعر تلك البئر كان ينادي بلا مجيب ، ويصرخ ويذهب صدى صُراخه هباء . . . وحده كان يستمتع بجدران البئر المطليّة بغبار السّنين ، وفي كلّ ذرّة من هذا الغبار المتناثر حوله وبين يديه كان يرى قصّة أو حكاية جديرة بأن تُروى . . . غير أنّه يستيقظ من أحلامه ليصرخ فيها من جديد : لِمَن تُروى؟ ولماذا؟ وهل من أحدٍ حين تناديه سوف يُصيخ لك السّمع؟!

ما أصعبَ أن يجمع المرء من الغبار المتناثر في الأجواء خيوط الحكاية! لِيُعيد نسجها ، وتَخرُجَ ثوبًا جديدًا قد حيك الآن ، وليس كما لو مضى عليه أكثر من أربعة عشر عامًا . . . غير أنّ الألوان قد تبدو غيرها إذا لم يُحسن المرء الأناة في الاختيار ، ويغوص في الماضي بتؤدةٍ من أجل أن

يكون أمينًا . . . أمينًا لأنّ التّاريخ شاهدٌ ولن يرحم المُزايدين ، ولن يغفر للكَذَبة . . . ها هو يحاول - ما استطاع - أن يكون ذلك الّذي توقّف عنده الزّمن خارج الحياة وداخل قضبان السّجن في تلك الحقبة من حياته . . .

في لحظات الصّمت الرّهيبة ، كان يحدّق في الأفق ، وأيّ أفق تحمله البئر المسكينة؟ لكنّه ببصيرة جاءت من السّماء تكشّفَ له هذا الأفق عن مدى واسع . . . اخترق المسافة الشّحيحة عند أوّل اصطدام بهذا الجدار الأبله ، لكي يصنع أفقه الخاصّ به ، أفقه الّذي امتدّ بعيداً بعيدًا . . . وصنع فيه حكايات وحكايات . . .

في البئر وجد كثيرًا من الكنوز المدفونة . . . رموه هناك وقالوا : يلتقطْه بعض السّيّارة ، ولم يعلموا أنّ النبوءة أوّلها إلقاءٌ في الجبّ . . .!! مساكين أولئك الّذين ظنّوا أنّ الموت أو الغياب السّحيق سوف يُودي بصاحب الجبّ ، لم يَدُر في خَلَدهم يومًا أنّ الفضاءات المُطلقة تبدأ من الجحور الضّيّقة . . . هُناك تُصنع الحياة ، ويُعاد ترتيب مكوّناتها . . . هناك يتهجأ الإنسان حروف ولادته من جديد . . .

وبلا ادّعاء أو عجرفة . . . لقد كنتُ - حقًا - هناك . . .!!

إلاّ أنّ الذّكريات رصاصةٌ طائشة ؛ قد تقتلك وأنت غير مستعدّ لبقعة دم كبيرة تحيط بك مُلقىً على فراش الحنين . . . وقد لا تُحدث إلاّ ضجيجًا يمرّ قريبًا من أذنٍ تتشهّى سماع أخبارٍ تُوهِمُ نفسها بأنّها سارّة وهي ليست كذلك أبدًا . . .

بين فاصلين زمنيَّين يلتقط المرء أنفاسه ، ليُصغي إلى إيقاعها وهي تدور من جديد ، بين رصاصتَين يلتقط القتيل جسده ليصبح شاهدًا على زمن الظّلم ، وبين كلمتَين يصنع الشّاعر مجده حين يتقن حَرْفَ الحَرْفِ ، ويذهب عميقًا في التّأويل والتّأمّل . . .

ليس سهلاً أن أَقفَني لأُسلّم عَليّ ، بعد أنْ أَنْكَرْتُني . . . لا أدري لماذا نتنكّر لأنفسنا أحيانًا ، نخون ذلك الملاك الّذي يعيش فينا . . . لم يكن

ملاكًا ، فأنا لست يونانيًا يحاول أن يمجّد الآلهة . . . أنا إنسان يطفح في الجبّ بماء الشّعور . . . أنا شاعر بسيط يحاول أن يبتلع آلة الزّمن ليرجع بذاكرته إلى الوراء قليلاً فيكتب ما غيّبته سجونُ الأيّام والسّنين . . . لكنّ ألف صارخة في الطّريق تُعول وتصيح ، ليس لأنّها ثكلى ، ولكنّها تفعل ذلك لكي لا تمنحني الطّمأنينة والسّكينة اللّتين بهما أكون قادرًا على استصفاء مجاري النّبع في مخيّلتي فأكتب بأمانة ، أو قل بدقّة معقولة . . .

ها أنذا أصمّ أذني - وأنا أسير واثق الخطوة - عن كلّ ناعقات الطّريق ، استخدمتُ قُطن الحقيقة من أجل أن أنجح في مسعاي الصّعب هذا . . . تراني أنجح؟ ربّما . تُراني أُخفِق؟ ربّما . . . . ولكنْ يكفيني أنّني حاولت . . .!!!

(١)
(يَقُصُّ الحَقّ)

عجلون الّتي ترتفع في سماء التّاريخ شامخة ، هي أمّ بارّة بأبنائها . . . وأنا أحد أبنائها . . . دَعَتْني ذات مساءٍ إلى قلعتها ، وحين تدعوك أمّ مثلها ، فلا يمكن أن تتأخّر أو تتذرّع بالأعذار الواهية . . . تعرف هذه الأمّ أنّ الشّاعر السّاكن في أعماقي أبرّ بها منّي ، فلا تفوّت فرصةً واحدة لمثل هذا اللّقاء دون أن تستميله بقصيدة ينثرها لئالئ أمام قدميها ، طالبًا منها الدّعاء . . .

لبّيتُ ، وشعورٌ بالحميميّة يغمر كياني ، وهُرعت إلى حيثُ كَتَبَ صلاح الدّين على حجارتها تاريخ الحرّيّة والشّهادة ، بدماء لم تسل هدرًا وهي تحفظ لنا عالَمنا في البقاع المباركة ، الخالدة بخلود آيةٍ في كتاب الله العزيز . . .

لم أصبح نقابيًّا بعدُ ، حين دعتني نقابة أطبّاء الأسنان إلى تلك الأمسية الشّعريّة الطّافحة . وصعودًا إلى قمّتها حيثُ القلعة ، ثمّ صعودًا آخر إلى حيث قمّة القلعة ، وقفتُ في مهبّ الرّيح ، أتلو نشيدي ، أو قل نشيجي ؛ فمنذ أن احترفت الشّعر ، واحترقت بلهبه المُقدّس ، كان صوت بُكائي يرافقني أكثر ممّا يرافقني إيقاع غنائي ، ولكَ أن تُسمّي غنائي – إن كان موجودًا يومها – بُكاءً بلون الحُرقة . . . وقفتُ كأيّ مواطن أتلو يوميّاتي في القلعة ، وابتدأ الإيقاع على لحن الجوع والفقر في قصيدة : (يوميّات مواطن) ، ولعلّ الشّعور بالجوع يورثُ النّقمة لدى بعض المُترَفين ، أو لعلّك ترتكب جريمة ، حين تفتح عيون المُتخَمين على واقع الجوع والفقر

والتّهميش ، ولعلّ شاعرًا مثلي لم يكن يحقّ له - في عرف الدّولة بالطّبع - أن ينحاز إلى جانب الفقراء . . . بل تعوّدتِ الدّولة على شعراء من نوع خاصّ ؛ شعراء يلهثون وراء بريق المنصب والشّهرة والمال ، فيبيعون كلّ شيء من أجل الحصول على شيء من ذلك البريق . . . وأنا أعترف اليوم أنّه بريقٌ خُلّب ، يخدع المضبوعين ، وأولي النّظر القصير . . . تعوّدتِ الدّولةُ على شعراء السّلاطين ، وقلّما ينهض في الأردنّ شاعر يخرج عن هذه الدّائرة ، ولأنّني رسمتُ لنفسي دائرتي الخاصّة البعيدة عن الزّعيق والتّطبيل والتّزمير ، كنتُ عرضةً لسهامهم ، وكنتُ هدفًا سهلاً لبنادق صيدهم - ربّما - وأنا أغرّد خارج السّرب . . . غير أنّ الطّيور تحمل غريزة الحرّيّة قبل كلّ شيء ، وهي الّتي تدفعها للغناء ، بل هي الّتي تُحافِظُ على صوتها . . . آه لولا توقنا إلى الحرّيّة لفقدنا أصواتنا منذ زمن بعيد . . .

بعد إلقائي القصيدة ، شعرت بقلعة عجلون تشدّني من يدي إلى زاوية من زواياها القصيّة ، حينها تشكّلت القلعة أنثى في ذلك المساء ، وراحت تسألني بعض الوقت معها ، كنتُ - من أجل عينيها - مستعداً أن أبقى مُسامرًا لها حتّى ظهور صلاح الدّين مرّة ثانية ، أو حتّى يطلع علينا أسامة بن منقذ ممتطيًا صهوة جواده عابرًا الممرّات المتشابكة ، وصولاً إلينا هناك ، حيث التّاريخ يُسجّل لقاء استثنائيًا بين عاشِقَين . .!!

تنهّدت القلعة طويلاً ، أشفقتُ عليها يومها ، وراحت تتمتم بعبارات غامضة ، لم أتبيّن ما تقوله ؛ خلتُ أنّني أسمع نشيجًا ، لم يكن كذلك ، أقصد أنّني سمعتُ سيمفونيّة حزينة ، غنّتها بصوت هادئ ساحر ، وشعرتُ - كما لم أشعر من قبل - بحبّ عتيق يجتاح جوارحي جمعاء ؛ كان صوتها يشدّني إليها أكثر ، ويجعلني أنحني لأطبع قبلةً على ترابها المضمّخ بالمسك . . . لم أقل كلمة واحدة ، ظللتُ حتّى هبوط اللّيل أستمع إلى موسيقاها الشّجيّة ، وحين لاح القمر في الأفق ، كان نصفُه مضيئًا ، بدأ يقترب منّا وهو يصعد ليصبح مشرِفًا علينا من علٍ . . . كان ظلّي يرتمي

بين يدي القلعة ، وحينَ غادرتها تركتُ ظلّي هناك ، وجعلتُ القمر عليه دليلاً . . .

مرّ أسبوع على الأقلّ منذ منتصف شهر آب في العام ١٩٩٦م ، التّاريخ الّذي ألقيتُ فيه فاجعتي والتقيتُ فيه رائعتي ، ولا زالت جوارحي معطّرة بلقاء القلعة ، يرافقني اللّقاء حيثُ أذهب ، أخرج من البيت فيخرج معي ، أصعد الباص فيفعل مثلي ، أدخل الجامعة فلا يتركني ، وحين أهمّ بقراءة كتاب ، تخرج ظِلاله من بين السّطور . . . ولا يختفي ، بل قل لا ينزوي جانبًا إلاّ حين ألتقي بعض الأصدقاء القُدامى أو الزّملاء . . . ثمّ يُعاود الظّهور مرّة أخرى حالما أفارقهم . أحد الزّملاء نظر إليّ مستغربًا ، قال لي :

- لم أتوقّع أن أراك هنا !!

- ماذا تعني (أخاطبه وأنا أمسك بعيِّنة من التّربة بين يديّ في المختبر لأفحصها . . .) ؟!

- ألم يأتك زوّار اللّيل . . .؟!

- زوّار اللّيل . . . لا تزورني في اللّيل إلاّ قصائدي !!

- لا تتحذلق . .!!

- يا رجل . . . ماذا تقصد بزوّار اللّيل . .؟!

- لقد علمتُ من قريبٍ لي في المُخابرات أنّهم يتحيّنون الفرصة لإلقاء القبض عليك . .؟!

- ولماذا (بلامبالاة) ؟! وبتهمة ماذا؟

- يريدون القبض عليك ، هذا كلّ ما علمته . . . ولا تُخبر أحدًا أنّني أخبرتك . . .

- ليفعلوا ما بدا لهم . . .!!

- لستَ خائفًا !!

- ولماذا أخاف . . . لم أرتكب ذنبًا غير الشّعر . . . هل هو خطيئة . . .؟!

- . . . . . !!!!!

مرّ أسبوع آخر أو يزيد قليلاً على هذا الحوار العابر ، نسيت ما دار بيننا أو تناسيته ، لم أعد أدري . ولكنّي استسلمت من جديد لروتين الحياة .

صيفٌ قائظ ، لم يكن آب قد ودّعَنا تمامًا ، رحل تاركًا شيئًا منه مع أوّل أيلول ، وأيلول أسود دائمًا ، حتّى في تركيّا والمغرب يسمّونه كذلك . . . ورجلٌ متكرّشٌ يلهث وهو يصعد المرتفع الّذي يسبق الانعطاف إلى البيت ، جوعٌ دائمٌ ، وعطشٌ قديم ، لا بدّ من إفراغ دلوٍ كاملٍ من الماء في الجوف (هكذا حدّثتُ نفسي) .

لحظات للمرور إلى المخبز ، هناك حلويّات من النوع المحبوب ، وقليلٌ من الكعك الشّهيّ ، جزءٌ من مسار التّسمين قبل تناول العشاء الدّسم كالعادة . كيس الخبز في يدي ، وشعورٌ يزداد بشدّة العطش ، والأمتار القليلة الّتي تفصلني عن البيت تُخفّف من غُلواء العرق الّذي لا يُفارقني مع كلّ مشوار . آه يا أبي . . . فصلٌ واحدٌ يقف بيني وبين باب اليقين ، فصلٌ واحدٌ هو كلّ ما تبقّى لي كي أصبح (باش مُهندس) . تُرى هل أحمل إليه هذا القلب بلا أسئلة؟ أيّ أحمق مثلي لا يستفزّه قلق السّؤال؟!! لماذا أنا هنا بحقّ السّماء؟ سوف أكره أستاذ الكيمياء ؛ لأنّه علّمني أنّه لا بدّ لكلّ تفاعل من مُحدِّدٍ له ، أين يمكن أن أسيطر على مُحدِّد تفاعل كلّ هذه الهواجس الّتي تثقب ذاكرتي ، لأواجهها فأخرج بنتيجة بدل كلّ هذا الهذيان؟! يا لها من ذاكرةٍ تلك الّتي تتحمّل كلّ الطّعنات القديمة ، وتستوعب كلّ هذا النّزيف ، وتحتفظ بالتّفاصيل ، ولم يرشح منها شيء!!!

آه لو يعرف الإنسان ما تُخبّئ له الأيّام ، لاستطاع أن يتحكّم بذهوله على الأقلّ ، ولا يتفاجأ إلاّ في الزّوايا الميّتة الّتي لا تُخفي شيئًا!! لم أكن أدري حتّى تلك اللّحظة كم هي الأيّام جميلة ، وكم هي مُباغِتة ، وإلى أيّ حدّ نحن نجهلها !!

خطوات أخرى وستكون أمّي على الشّرفة تنتظرني ، وتعرف مسبقًا كم أنا عَطِش وجائع وحزين!!

مساء الخير . . . رأيتك في القلب هذا المساء ، كان وجهك شاحِبًا ، لم أعرف السّبب . حاولتُ أن أمسح عن عينيك دمعةً باردة استقرّت منذ زمن بعيد على جفنيك المُقرَّحَين . لا أدري لماذا شعرتُ وقتها بالحنين القاتل! أيهاجمني هذا الشّعور وأنتِ تستقرّين في ذلك المهوى العميق من قلبي؟! أشحْتِ بوجهك عنّي فجأةً ، كان الموقف مؤثِّرًا جداً ، لأوّل مرّة أشاهدُ هذا الأسى في حياتي ، كانت دموعكِ تزيدني لوعةً! أهي دموعي أم دموعكِ تلك الّتي تتساقط كينابيع الوجع ؟!! كنتِ تبدين هزيلةً ، لم أعرف ماذا أفعل أو أقول ؛ أأسألكِ عن ماضٍ أليم ما زال ينخر في الأحشاء . . . أم أسألكِ عنّي ، أم عنكِ ، عمّا فعلتْ بكِ الأيّام . . . عن الزّمن السّارق . . . أم عن الحياة الحُلم . . . أم عن القلب الذّبيح؟!! لم أستطع أن أحدّد هل أنا أسالكِ أم أسأل نفسي!! أيُّ جزءٍ من الماضي شكّلكِ أمامي؟!! أينَ يُمكن أن أثقَ بقدرتي على التّمييز بين ما كان بالأمس ، وما هو كائنٌ الآن ، وما سيكون غدًا؟! هل أستطيع أن أدركَ جدوى الأسئلة في الزّمن الخاطئ؟!

على أيّ جنبٍ يا أُميمَ يروحُ
مُحِبٌّ له بين الجنائبِ روحُ
يرى الرّكبَ يطوي البِيدَ للحبّ طائعًا
فيقعد يبكي مُثقَلاً وينوحُ

لم تكوني طيفًا . . . لم أغرق بعد في لجّ الهذيان . كنتِ أنت ، ولكنّك مختلفةٌ تمامًا ؛ الشّحوب الّذي أرعبني . . . العيون الّتي غارتْ في المَحجَرين . . . الهُزال الّذي كاد يقضي عليك . . . الجسد الّذي يتماثل للانهيار . . . والجفنان اللّذان يرجفان كعصفور خائف . . . والخدّان اللّذان يبدُوَان كأوراق يابسة . . . والبسمة الّتي ضاعت ، واللّفتة الّتي خُنقت ، والصّوت الّذي اختفى . . . اقتربْتُ منكِ لأعرفَ أنّني ما أزال أراكِ ،

وهمستُ في أذنيكِ وأنا أرتجف :

- لا يمكن أن يستمرّ الحال هكذا!! نحن نسير إلى الحتف باختيارِنا . . إنّـ . . .

(قاطعْتِني بابتعاد آخر لخطوتين من مركز القلب) :

- ليس بعدُ . أنا أقف مكاني . . . أنتَ الّذي تسير ، ليس من شأن الغيوم أن تستقرّ فوق أرضٍ ثابتة . أنا أختار الحتف واقفةً ، أمّا أنتَ فتبحث عنه . ليسَ لك من أسبابٍ ، أمّا أنا فلي . ليس لك من عُذرٍ ، أمّا أنا فقد صُنعت الأعذار من أجلي . . . لا تستطيع الورود أن تبرح مكانها ، وهناك مَنْ يتسلّط على ضعفها بحركةٍ فاضحة . أنتَ لم تُحسِن الحركة المُناسِبة . وللورود عاداتُها في التّعامل مع القادمين إليها . . . ألم تتعلّمْ بعدُ ؟!!

- ولكنّني لستُ تلك الغيوم الّتي تتحدّثين عنها ؛ أنا سماؤك الّتي تُظلّ هذه الصّحراء العقيمة . أما تشتاق هذه الصّحارى القاحلة إلى وابلٍ ، فإن لم يُصِبْها وابلٌ فَطلّ؟!! وأنا أرضك الّتي سوف تُنبِتُ لك أجملَ أزهارها . . .

- ليس هذا وقت التّباكي !!

- ما هذه القسوة الّتي تُفاجئينَ بها ذاكرتي . أنا أكثر ثباتًا من الصّخور في أعماق الوِديان . . . أليسـ . . .

قاطَعَتْني مرّة أخرى :

- كان في اللّيل قافلةٌ تنتظر حاديها ، لم يأتِ . مع الصّباح ارتحلتْ بدون حادٍ ، ليس شرطًا أن يكون في القافلة مَنْ يُشعِلُ جذوة الشّوق العارمة في صدور هذه الإبل المسكينة . يكفيها تعب الرّحلة الطّويلة ، وعطش اللّيالي المُضنية ، وذلك الّذي لا بُدّ له من أن يكون قائدَها !!

- ولكنّني دخلتُ وطنَ الحبّ لأحفظ النّشيد الّذي سأرتّله على مسامعها . ليسَ عدلاً أن ترحل دوني!! أما من أحدٍ ينتظر دقائق أخرى!!

- شروق الشّمس لا ينتظر النّائمين .

- لم يكن الأمر بيدي . قالوا لي : إنّ القافلة لا يمكن أن يستخفّها الطّرب بدون حادٍ يحفظ أغنياته . . .

- أنتَ واهمٌ !!

- صدّقيني . دخلتُ لأحفظ تضاريس وطني ، دخلتُ لكي أستطيع رسم خارطة بلادي على جدار القلوب الميّتة . لم يكن معي غير الحرف ، كان أحمر وكانت القلوب حمراء ، إنّها تجربتي الأولى ، وإلاّ فما حاجة القلوب الحمراء إلى حروفٍ حمراء مثلها . . . يا لأسايَ ؛ لم تحفظ تلك القلوب شيئًا !!

- ألم أقل إنّك واهم . هذه ليست تضاريس لوطن ؛ لكنّها وطنٌ يُصنع لتضاريس . إنّهم يرسمون لك حدود بيتك ، ويقيسون بطباشيرهم دائرة حياتك . هل تستطيع أن ترسم بغير طباشيرهم ؟!! حبُّكَ لي لم يزدْكَ إلاّ ضلالاً !!

- ولكنْ أعرفُ النّاس بالحبّ أجهلُهم . اعتمدتُ على بوصلة الحبّ العفويّ . هل يُمكن للنّجوم أن تغيّر مسارها وهي تدور دورتها الأزليّة حول مركزها؟! أنا لم أكن إلاّ نجمةً في سمائك ، لا يُمكن أن أتصوّر أنّني أُخطئ دورتي حول مركزك أبدًا !!

كانت العاشرة مساء ، لستّة أيّام خلتْ من أيلول ، لأربعة أعوام بقيتْ من عمر القرن العشرين . . . العاشرة مساءً من زمن الأحلام المسفوحة ، وأنا أجلس فوق حصير الألم ، وأنتظر ساعات الفجر لكي أمارس طقوسي في تعتيق الحبّ المُركّز . . . تمرّ - أحيانًا - الدّقائق أثقل من جبال الأوهام ، وهي تُصارع مدّ البحر القادم من زمن الله . كم تحتاج عقارب السّاعة من القوّة لتتغلّب على جاذبيّة الوقت الثّقيل !!!

أنظر إلى قلب أمّي قبل دخول غرفتي . . . أتذكّر (مكسيم غوركي) : «قلب الأمّ زهرة لا تذبل» . إنّها الآن معي لكي تشهد مع أبي كم نحن نحبّ ، وكم نحن نعشق!!

لا تُهاجِمُك الذّئاب إلاّ إذا كنتَ مُعطَّرًا بدماء الحبّ ؛ الذّئاب تتبع رائحة الدّماء ، والنّساء تتبع دمَ الرّائحة ، وفي تلك اللّيلة بالذّات ، كنتُ مُثخَنًا بدماء الحبّ ، وعلى موعدٍ رائع مع الذّئاب . . . وكأنّ الله هيّأ أمّي - ذات القلب الفائق الأحاسيس - لأوّل مشهد حقيقيّ .

طَرَقاتٌ مُتقطّعة على الباب . أعرفُ مِنْ إيقاعها أنّها غريبة ، وأنّها جافّة . دلفتُ في الممرّ الطّويل خارجًا من البيت باتّجاه الباب الرّئيسيّ ، لألتقي وأبي الخارج من غرفته القريبة من الباب هناك . . . ومعًا فتحناه وتواجهنا مع صورةٍ جديدةٍ للوحة لم تقف بكامل ألوانها أمامنا فيما مضى . . . ثلاثةٌ بلباسٍ مدنيّ ، ورابعٌ بلباس عسكريّ ، يزدهون بأجهزة اللاسلكيّ الجوفاء في أيديهم ، وهي تُصدر زعيقًا متواصلاً ، أشبه ما يكون في بعض الأحيان بهرير نَمِرةٍ جريحة .

دفع العسكريّ - وهو ضابط برتبة ملازم - يده بالورقة الّتي بين يديه إلى أبي ، قرأها أبي . . . وحتّى هذه اللّحظة أعرف أنّني أنا المقصود ، غير أنّ أبي الّذي لم تتغيّر ملامح وجهه قال بنبرةٍ واثقة ، ولكنّها خفيضةٌ بعضَ الشّيء : انتظروا قليلاً . وهَمّ بأن يُغلق الباب في وجوههم . أعرف أنّه كان يريد أن يفعل ذلك ليعطيني فرصةً للاطّلاع على محتوى الورقة ، ولكي يناقشني في كيفيّة التّصرّف حيالها . . . غير أنّ الضّابط والآخرين ساوَرَتْهم الشّكوكُ فجأة ، وعدُّوا ذلك من قبيل الرّفض أو التّهرّب ، لم يُكمل أبي إغلاق الباب حين وضع الضّابط يده في الفراغ المتبقّي قبيل أن ينغلق الباب تمامًا ، وحينَ انفتح الباب ثانية ، رأيتُ على وجه الضّابط المسكين علامات الرّجاء اليائس ، بأن يُنفّذ الأمر حالاً . خِلتُ وجهه اسودّ في تلك اللحظة ربّما خوفًا على نفسه من أن يفشل في مهمّة بسيطةٍ كهذه ، ويشهد على ذلك ثلاثة من ضُبّاط المخابرات يقفون خلفه مُتحفّزين . . . لم نقاوم انفتاح الباب أنا وأبي أمامهم . . . أفسح أبي الطّريق ، وأشار دون أن يتكلّم إلى غرفتي . . .

كانت الورقة ، من مدّعي عام محكمة أمن الدّولة ، تُعطي الجوقة الّتي حلّت علينا ضيفًا غير مُتوقَّع في ذلك المساء الحقَّ بتفتيش الغرفة ، ومصادرة كلّ ما يُمكن أن يهدّدَ أمن الدّولة واستقرارَها . . .!! الضّابط ذو اللّباس العسكريّ احتلَّ زاويةً في الغرفة ، وأقعى فيها دون أن يتحرّك شبرًا واحدًا . . . الثّلاثة الآخرون هم الّذين بدؤوا يمارسون هوايتهم المُفضّلة في نبش كلّ ما يقع تحت أيديهم . . . بدا الأوّل طويلاً جهمًا ممتلئ الجسم ، يتهدّل ما فاض من كرشه عن حِزام البطن ، وعيناه ملوّنتان ، غاض فيهما البشْر ، وتملكتْهُما الغلظة . . . الآخران مربوعان ، أحدهما نحيلٌ مفرطٌ في النَّحول لم أره من قبلَ ، والثّاني لم يكن شكله غريبًا عليّ لكثرة ما رأيته في المظاهرات والمسيرات والنّدوات الّتي يُقيمها اتّحاد الطّلبة في جامعة العلوم والتّكنولوجيا . . . لطالما استمع إليّ وأنا ألقي قصائدي وبدا من أكثر المتحمّسين لشعري!!

كانت غرفتي متواضعة الأثاث ، تخلو من كلّ شيء عدا مكتبي الّذي تناثرت فوقه بعض الكتب والأوراق ، ومكتبتي الّتي تحوي من نُثارات قصائدي أكثر مما تحتويه من الكتب . . . وخزانة فيها بعض الأشرطة والدّروع . . . بهذه المواصفات البسيطة بدت غرفتي كنزًا ثمينًا لزوّار اللّيل (تذكّرت كلمة زوّار اللّيل الّتي قالها زميلي ونحن في مختبر التّربة في الجامعة) . هجموا على كلّ ورقة مكتوبة ، وأخذوها ، شريط الفيديو كان مادّة إثبات التّهمة عليّ ؛ إذ إنّه كان شريط الأمسية الشّعريّة في قلعة عجلون ، والّذي بسببها تُقام الحفلة الآن . جواز السّفر الّذي وقع بين يدي أحدهم ، تصفّحه ، ثمّ مدّ به إلى أبي ، كأنّما يُشعره بمنّة عظيمة أنّه لم يأخذه . قال له أبي : بالطّبع لن تأخذه . فردّ عليه باستعلاء وعجرفة : أتريدني أن أصادره؟! فبادره أبي قائلاً : ليس لك الحقّ في ذلك! ليس من قانون يتيح لك هذا الأمر . ولأنّ ضابط المخابرات تذكّر أنّ مهمّته مصادرة كلّ ما يعرّض أمن الدّولة للخطر فقد كفّ عن الاستمرار في

مناكفة أبي، ولعلّه رجع إلى نفسه فقال: يا لَغبائي، هذا جوازٌ تُصدره الدّولة؟ فكيف يُمكن أن تُصدر الدّولة ما يُهدّد أمنَها؟!

كان اثنان آخران في الخارج قد تمركزوا بجانب البيت تحسُّبًا لأيّ تفكيرٍ من جهتي بالهرب، ولأنّ البيت ذو طابق واحد، فقد كانوا قريبين بحركتهم هذه من النّوافذ، مِمّا أغضب أبي، فصرخ فيهم، ونَهَرهم، وعاب على الضّابط فِعلتهم، فاضطرّ هذا الأخير إلى أن يصرفهم ليعاودوا الاختباء في سيّارتهم المنزوية. الهَرب، قلتُ في نفسي!! ما أبعده عنّي وما أبعدني عنه، وأنا في هذه الهيئة من وزني الثّقيل. غير أنّهم لم يدروا أنّهم كانوا بذلك ينقشون هذا المُصطَلحَ في ذهني، ليقفز ذات مرّة إلى السّطح في إحدى ليالي السّجن الباردة.

تابعَت الجوقةُ تفتيشَها الدّقيق، لم تترك ورقةً واحدة مطبوعةً عليها قصيدة، أو بضعة أبيات، أو ما هو مخطوط بخطّ يدي إلاّ جمّعَتْه، وألقت به في (كرتونةٍ) كبيرة، وكأنّها تجمع دُررًا ولئالي... وقد كانت في نَظَرِنا كذلك!!

في غمرة هذه التّفتيشات الدّقيقة، أخذني الضّابط الّذي كان شكله مألوفًا لديّ، وانتحى بي في إحدى نواحي الغرفة، وخاطبني بصوت خفيض: لقد قرأت لك قبل أيّام قصيدة: (قالوا حجابك)، وإنّها من أروع ما قرأتُ لك... كم أنت جميلٌ أيّها الشّاعر... لم أكن أدري لماذا فعل معي ذلك؟ هل كان بهذا التّصريح بعيدًا عن الأعين والأسماع ينطق بحقيقة ما يُكنّه لشعري؟! أم أنّه قال ذلك من باب تلطيف الأجواء بعد أن رأى أنّ غيومًا من التّوتّر تسود الغرفة آنذاك، فأراد أن يبدّدها بمعسول من الكلام؟! لا أدري... ولكنّه - بالفعل - نجح في أن ينقلني أنا - بالذّات - إلى مراتب أخرى امّحت فيها بعض التوجّسات من ذهني. هتفتُ به: حقًا؟! فأجاب: أنتَ لا تحتاج منّي إلى مدح، فشعرك معروف. اكتفى بذلك، وانضمّ إلى زميليه الأخرَين ينهشان في جسد غرفتي الّتي

أصبحت الكرتونة في منتصفها تُشبه مركزًا يجذب إليه الأوراق من كلّ صوبٍ وناحية . . . استغرق تفتيش الغرفة ما يزيد عن ساعةٍ ، وبعد أن شعرتِ الجوقة بالامتلاء ، قال لي أحدهم : كلّ هذه الأوراقٍ تستطيع استعادتها ، بعد أيّام قليلة ، هي لك ومن حقّك المراجعة بشأنها ، ساعة تشاء . . . والآن عليكَ أن تتفضّل معنا ، لبعض الإجراءات الرّوتينيّة ، لن يستغرق ذلك أكثر من ساعتين ، بعض التّحقيق في أمورٍ بسيطة وتعود إلى أهلك . . .

كنتُ حينها قد وصلتُ إلى درجةٍ كبيرةٍ من اللامُبالاة ، أو قل من التّحدّي ، الورقة الّتي مَهَرها مدّعي عام مًحكمةً أمن الدّولة بتوقيعه كانت تقضي بالإضافة إلى تفتيش غرفتي ، أن تعتقلني ، وتحوّل الضّابط ذا اللّباس العسكريّ بذلك . قلتُ لهم : إنّني أريد أن ألبس ثيابي لأذهب معكم ، قبلوا الأمر بعد تردّد ، وظنّوا أنّني سأهرب في هذه الأثناء ، ولكنّي طلبتُ هذا الأمر من أجل أن أذهب في الدّاخل إلى أمّي . ودّعتُها - ومع أنّني كنتُ أشعر بأنّ الغياب سيطول - إلاّ أنّني خاطبْتُها لأطمئنَها : سأعود بعد ساعتين يا حَجّة . . . لا داعي للقلق . . . نظرتْ إليّ بعينين تفيضان حنوًا وشكًا . . . كدتُ أضعف أمامهما : ولكنّي أعدتُ على مسامعها : لا تخافي ، سأعود قريبًا . . ليس أكثر من ساعتين إن شاء الله . . . خرجتُ وكأنّ سكّينا من الإشفاق على أمّي انغرز في ظهري ، لم أكن أريد أن أسبّب لها الأسى . . . غير أنّ الأقدار تمضي على غير اختيار . . .

أحاط بي اثنان منهم ، وتوجّهوا بي إلى سيّارة المخابرات الّتي اختارت النّاحية المُعتمة من قطعة الأرض الّتي تربض في الجهة الغربيّة من البيت ، ومعها سيّارة الشّرطة . أجلسوني بين فردين من أفراد الأمن في المقعد الخلفيّ ، كانت المسدّسات تستقرّ على جانب كلّ شرطيّ ، وأنا قابع بين مُسدَّسين .

كانت السّيّارة المُسلّحة تقطع بي الطّريق اللّيليّ إلى الدّائرة . لأوّل مرّة أشعر بي ؛ نِعمةٌ كبيرةٌ يُسديها إليكَ الآخرون ، حين يُشعرونك كم أنتَ أنتَ . وَشْوشَات الجِهاز كانت تقطع عليّ أحلامًا تمتدّ لسنوات أصنعها في لحظة . تبدأ الآن فرص الحياة بالتّقافز ، لأوّل مرّة يتغيّر روتين حياتي ؛ أشعر بالجديد في رتابة أجوائي ، لا بدّ أنّني مُقدِمٌ على مرحلة عشق جديدة ، كسر مرحلة الجمود والرّتابة لا يحدث معي إلاّ في حالات العشق!! أيُعقَل أنّني أمارس الآن واحدًا من طقوسه ؟!

كانت عيوني تُقبّل الأرض ، وأعمدة الرّوح تنير الطّريق ، والسّماء تبتسم للتّراب ، والأرض والطّريق والتّراب كلّها مجتمعةً تُشكّل الجسد الجديد لمحبوبتي القديمة . . . أنظر إلى الأرصفة والطّرق ، كنتُ قبل هذا اليوم أحفظها غيبًا ، أمّا اليوم فأنا أرسمها ، أكاد أجزم بأنّ سيّارة الأمن سارت في الطّريق الّذي رسمْتُهُ في مخيّلتي ، رغم أنّه لم يكن غريبًا على أحد فينا ، ولكنّه كان من صُنعي أنا!

أيّها الوطن ؛ فاتحة البدء : مساء الخير! أوّل مرّة أعرفك على هذا النّحو ، أتُصدّق؟!! إنّها المرّة الأولى الّتي أشعر فيها كم أنا أحبّك ، وكم أنتَ مخبوءٌ فِيّ . أيّها الطّائر الّذي يستيقظ من جديد : ها أنذا أهيئ لك أعماقي لتتغلغل فيها . . . لقد جئت على قَدَرٍ . . . يا . . . وطني!!

(٢)
«ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بعْضٍ إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا»

استقرّت السّيّارة قريبًا من منتصف اللّيل في باحة قسم المخابرات في إربد . . . طوال هذه الرّحلة القصيرة من بيتنا إلى الدّائرة ، كانت سيّارة الشّرطة تتقدّمنا ، وخلتُ أنّ سيّارة أخرى للأمن تلحق بنا ، وأنا في السّيارة الوُسطَى . . . ومع أنّني مُحاصرٌ من الجهتين ، وحَريٌّ بواحد مثلي أن يستبدّ به القلق ، ويجد الخوفُ إلى نفسه سبيلاً ، غير أنّني شعرتُ بأنّني رجلٌ مهمّ وخطير ، لم أستوعب أنّهم احتاجوا إلى ثلاث سيّارات كي ترافقني في مشوار قصير كهذا . . . برزت الخطورة في مشهد حَرَكيّ آخر ، كانت أضواء سيّارة الشّرطة في المقدّمة والتّي تعلو رأسها ، تتحرّك بشكل دائريّ ، وحين يلامس ضوؤها - في دورتها - وجهي ، تلمع عيناي بين رَجُلي الأمن من خلف الزّجاج ، فأبدو كزعيم سياسيّ خطير . . . لن تصدّقوا أنّ هذا الشّعور ملأني بالغِبطة ، وأضاف إليّ تجربةً جديدة .

على مدخل دائرة المُخابرات في مدينتي ، توقّفت السّيارة للحظات ، وقبل أن تتابع مسيرها إلى الدّاخل ، رأيت العسكريّ الّذي على الباب ، يَدرُج من مقصورته ، ويقترب من السّيّارة ، وبعد أن عاينَ أفرادها ، وتأكّد من هويّاتهم ، شدّ جسمه بطريقة مَدروسة ، وأدّى التّحيّة ، ومرّة أخرى شعرت بأنّني رجلٌ مهمّ ، إذ لم أشكّ لحظةً بأنّ هذه التّحيّة كانت لي!!

سيّارة الشّرطة الّتي كانت تسبقنا انتظرت في الخارج ، أمّا سيّارتنا المُبجَّلة فقد دخلت ، ثمّ دارت بشكل نصف دائريّ إلى يسار المبنى ، نزل الحارِسان قبلي بخفّة ، وأشارا لي بالنّزول ، وفور نزولي الثّقيل أحاطا بي ،

وأمرهما الضّابط الّذي كان يجلس في المقدّمة بأن يقتاداني إلى الدّاخل . . . دخلنا ، وفي غرفة صمّاء لا يوجد فيها غير بضعة كراسيّ مُتهالِكة ، خشبها مهترئ ، وقوائمها حديديّة معوجّة ، جلستُ أنا وحارساي الأمينان ، ودخل الضّابط إلى داخل الدّهاليز الّتي لا أدري إلى أين تُفضي . طوال هذه الطّريق لم ينبس الحارسان بكلمة واحدة . . . حين استقرّ بي المقام على أحد هذه الكراسيّ حانت منّي التفاتة إلى وجه الّذي على يمني ، أمّا هو فلم يبادلني هذه الالتفاتة ، وظلّ متسمّرًا في مكانه كأنّه صنم ، وفعلتُ مثل ذلك مع الّذي على يساري ، ففعل هذا الثّاني مثل صاحبه الأوّل . . . شعرتُ أو فكّرتُ بالإشفاق عليهما ، وهما يتجمّدان داخل تِمثالَيْهِما ، غير أنّي بدّدتُ التّفكير بمثل هذا الشّعور ، وأجلتُ النّظر في الغرفة . . . يبدو أنّ الضّابط الّذي دخل ، كان يتأكّد من خلوّ واحدة من الزّنازين كي يُودِعني فيها . . . وهذا ما حدث بالضّبط . . . لم تمرّ غير دقائق معدودة ، حين عاد الضّابط وأشار لنا بأن نتبعه ، لم نكد نصل إلى باب هذه الغرفة حتى غادرنا الحارسان الأمينان ، ووجدت نفسي وحيدًا مع الضّابط ، أفضى بنا باب الغرفة إلى دهليزٍ مُعتم ، لا أدري إن كان مُعتمًا بالأساس ، أم أنّه أُعتِمَ لحظة وصولي إلى هنا . . . مشى أمامي الضّابط ، وتبعته . . . كان الظّلام يغلّف الدّهليز غير بصيص من النّور خِلته أتى من أحد السّلالم في الطّابق الثّاني . . . مال الضّابط يمينًا ، وسلك دهليزًا آخر أشدّ ظلمة ، وفتح بابًا قصيرًا ، خلتُ أنّني سأستقرّ هنا ، غير أنّه تقدّمني ، خفضتُ رأسي لكي لا يرتطم بهذا الباب وأنا أتبعه ، ثمّ مشى أمتارًا قليلة ، وإذ بنا نواجه بابًا أقصر من سابِقَيه ، تساءلتُ في نفسي : لماذا تقصر الأبواب كلّما تقدّمنا ، وتُظلِمُ الممرّات كلّما مشينا؟! لم أجد – بالطّبع – جوابًا على سؤالي ، بدا الباب الثّالث أنّه باب زنزانتي ، وكان بالفعل كذلك ، فتحه الضّابط ، ودعاني إلى الدّخول . كان باب زنزانتي من حديدٍ ثقيل ، حين همّ الضّابط بفتحه ، استجمع كلّ قواه كي يُزيح

المزلاج الّذي كان يحتلّ وسط هذا الباب، لم تمنعني الظّلمة من أن أميّز لونه الرّصاصيّ، صرّ الباب في يد الضّابط وهو يدفعه إلى الدّاخل، ويُشير بيده كي أدخل . . . دخلتُ . . . أغلق الباب، وقال لي من كوّة استقرّت في الثّلث الأعلى من الباب: هل تريد مُصحفًا؟! هتفتُ: نعم. غاب قليلاً، ثمّ عاد: ناولني المُصحف من الكوّة، وقال لي بلهجة استهزاء واضحة: خُذ، تستطيع الآن أن تُنشِد: السّجن جنّاتٌ ونار . . . وأنا المُغامِرُ والغِمار . . . ثمّ ابتسم ابتسامة باهتة، وقال: أنا متأكّد من أنّك تحفظها! هذا هو الوقت المُناسب لتغنّيها هنا!! أدهشتْني قُدرته الفائقة على السّخرية، وفي الوقت نفسه أعجبتْني حذاقته في هذه اللّحظة العصيبة . . . وتمتَمْت في سرّي: هذا السّاخِرُ يعرف كلّ شيء، غير مُستبعد أنّه كان يردّدها معنا - كواحد منّا - حين كنّا نبيت اللّيالي الصّيفيّة في مخيّمات دبّين، أو اللّياليَ الشّتويّة في مخيّمات وادي اليابس!!

أغلق فتحة الباب العلويّة بإحكام، وسمعتُ صرير المزلاج، وأيقنت أنّ الأقفال عادت تمارس دورها الّذي صُنعت من أجله . . . واستبدّت العتمة بالمكان.

تركني وحيدًا في الظّلمة، لأوّل مرّة في حياتي أجد نفسي في زنزانةٍ انفراديّة، لا أدري كيف يُمكن أن أستعيد تلك اللّحظة الفارقة في حياتي، وأستحضر الشّعور الحقيقي حينها . . . كان شعورًا مزيجًا من الدّهشة والخوف والقلق والتّرقّب والانبهار وعدم التّصديق . . . كلّ ذلك يتضارب في الآن نفسه . . . تحسّستُ المصحف في يدي لأدرك أنّني هنا أجابه حقيقة اعتقالي، كررت ذلك مرّتين وتأكّدتُ من الحقيقة . . . حاولتُ أن أعيد التّعريف بنفسي في تلك اللحظة . . . مَنْ أنا؟ سألت القابع في أعماقي، وهتفت: أنا معتقلٌ سياسيٌّ، في قسم المخابرات، في زنزانة انفراديّة، في منتصف اللّيل، على رقعة وطني الحبيب . . . لم

يُعجبني هذا التّعريف ، فأعدتُه على النحو الآتي : أنا شاعرٌ يحبّ وطنه وهذا الحبّ أوصله إلى هنا!! أعجبني هذا التّعريف أكثر من سابقه ، فكرّرتُه لأقنع نفسي به . . . كنتُ لا أزال واقفًا حتّى تلك اللّحظة مقابل فتحة الباب حيثُ سمعتُ آخر مواعظ الضّابط ، ففطنتُ إلى نفسي ، استدرت إلى الخلف لأواجه جدران الزّنزانة . . . كان الظّلام سيّد الموقف ، لم أر شيئًا ، خلتُ أنّني أسبح في أمواج اللّيل ، لا أدري كيف قفز إلى ذهني المُشوَّش بيت امرئ القيس :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ
عَلَيَّ بِأَنْواعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلِي

في البداية ، كان من المتعذّر أن أرى شيئًا ، غَير أنّ الظّلمة تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى صديق تُقاسمه الوقت ، وهكذا اتسّعت حدقتا البؤبؤ وتكيّفتا مع الظّلام ، فبدأتُ أميّز الأشياء الموجودة في الزّنزانة . . . كانت زنزانةً فريدة من نوعها ؛ إذ لم تكن غيرَ سريرٍ معدنيّ يأكل نصفَ مساحتها ، البالغة مترين عرضًا ، وثلاثةً طولاً ، السّرير المعدني هو ذاته الّذي يُخصّص لأفراد الجيش في مَناماتهم ، وهو ذات النّوعيّة الّتي انتشرت في الحرب العالميّة الأولى . . . يبدو أنّ الجيوش لا تغيّر عاداتها . . . على هذا السّرير استقرّت (بطّانيّة) واحدة ، كان عليّ أن أجعلها غطائي أو فِراشي ، إذْ لم تكن الفرشة الإسفنجيّة تقي من وخزات (رفّاس) السّرير . . . من تحت شقوق الباب ، تسرّب كمٌّ ضئيل من الضّوء ليخفّف حِدّة الظّلام الجارحة . . . أمسكتُ بالمُصحف ، ثمّ تمتمت : يبدو أنّ الضّابط كان يسخر منّي ، إذ كيف أستطيع القراءة في هذا الجوّ؟!! ثمّ أحسنتُ الظّنّ ، فقلت : ربّما كان يقصد القراءة غدًا بعد أن يكون الصّباح قد طلع . . . تحسّستُ السّرير ، لمتُ نفسي على تفكيري بأنّه غير ملائم ، جلستُ على طرفه ، ثمّ فكّرت : يصنع الإنسان في الظّروف الصّعبة عالمه الخاصّ ، ليس مهمًا السّرير وصلاحيّته للنّوم عليه ؛ بل المهمّ أن يكون استعدادي النّفسيّ قد تمّ لمواجهة

الأسوأ!! ليس السّرير الوثير هو الّذي يوفّر لك النّومة الهادئة ، كم من أناس أسَرَهم الأرق ، وهم يتقلّبون على أفخر أنواع الأَسِرَّة ، وكم من أناسٍ غفَوا ليلهم الطّويل ، وهم ينامون على قوارع الطّرق ، أو على ألواحٍ من الخشب . . . أليست حصيرة بالية مهترئة ينام عليها عُفاة الأنفُس المتصالحون مع أنفسهم خيرًا من فُرش الذهب والاستبرق ينام عليها المرضى والمعتلّون . . .؟! قرّرتُ يومها أن أبدأ ترويض نفسي ، وتذليل مراسها الصّعب ، وهتفت : لن أنام على السّرير ، سوف أسحب عنه البَطّانية ، وأفترش نصفها ، وأغطّي نفسي بالنّصف الآخر ، ولكنّي حين استعرضتُ البطّانيّة شككت في أنّها يمكن أن تتسع للأمرين معًا ، فانتقلت إلى التّفكير الآخر : سوف أفترشها دون أن أغطّي نفسي . . . فجأة سمعت طرقًا غليظًا ، أخرجني من غمرة أفكاري . . . صمتُّ وأصختُ السّمع ، توقّف الصّوت ، فظننتُ أنّني بدأتُ أتخيّل ، غير أنّ الصّوت ما لبث أن عاد من جديد ، حينها أَمَلْتُ عنقي باتّجاه الصّوت ، وكتمتُ أنفاسي ترقّبًا لما يحدث ، في البداية ظننت أنّه الضّابط . . . فكّرت : ربّما أحسّ بالوحدة فجاء لأسامره ، غير أنّ الضّابط إن جاء فسيفتح الباب أو كُوّته ، ولن يطرقه بأيّ حالٍ من الأحوال ، ثمّ إنّ هذا الصّوت لا يُشبه طرقًا على الأبواب ، إنّه يُشبه طرقًا على الجدران . . . بعد لحظات من الصّمت صدق حدسي كان أحدهم يضرب الجدار المُقابل بيده ، ويُتبعه بصوتٍ خفيض ، مُحاولاً ألاّ يخرج الصّوتُ عن دائرتنا . في البداية عَقَدتِ الدّهشةُ لساني فلَم أبرح مكاني ، ولم أنطق بحرف . . . غير أنّ صاحب الطّرق عاد ليفعل ذلك من جديد ، ويهتف بكلمات لم أتبيّن ما يقصد بها . وبحذر شديد اقتربتُ من الجدار ، وانتظرتُ مُتسمّرًا قربه ، فأعاد الكَرّة ، وسمعتُه حينها يقول :

– مَنْ أنتَ؟

كان سؤالاً يبدو ساذجًا بالنّسبة لي ، ويبدو أنّ صاحبه توقّع منّي أن

أجيب على الفور . . . ولكنّي خيّبتُ ظنّه . . . وعاد المكان ليغرق في الصّمت من جديد . . .

لم ييأس صاحب الطَّرق ، فأعاد طَرْقه من جديد ، ولكنّي كنتُ لا أزال متشكّكًا في أنّه أحد حرّاس المعتقل يريد أن يستلّ منّي معلوماتٍ مُعيّنة ، أو يستدرجني إلى ساحته ، ويُوقعَ بي . . . كان حسّي الأمني يفرض عليّ - وأنا في تلك الحالة - أن أحافظ على هدوئي ، وأراقب الأشياء من حولي دون أن أُحدثَ أيّة ضوضاء . . .

أعجبني إصرار صاحب الطّرقات ، إذ إنّ شحنة الأمل عنده لم تنفد بعدُ . هذه المرّة طَرَقَ على الجدار بشدّة أكبر من سابقاتها ، وتحدّث بصوت أعلى :

- يا رجل ، لا تخفْ . . . أنا . . . معتقل مثلك . . . سمعتُ خطواتك عندما قدمتَ إلى هنا ، وسمعت الضّابط اللّعين وهو يُخاطبك . . .

لم أكن قد اطمأننتُ بعدُ إلى أنّه ليس من ضُبّاط المعتقل أو مُخبريه ، ولكنّي تشجّعتُ قليلاً ، وأجبت :

- وماذا تريد منّي؟

- لا شيء . . . فقط شعرتُ بالوحدة ، فأردتُ أن أسرّي عن نفسي .

- يعني . . . مِين إنتَ؟

- أنا سَعـ . . . معتقل هنا لأنّي من الجماعات الإسلاميّة .

- الجماعات الإسلاميّة؟!!

- جماعة السّلفيّة الجهاديّة . . . التّكفير والهجرة . . . جماعة التّوحيد . . . لنا أسماء كثيرة ، سَمِّنا ما شئت .

- وماذا فعلتَ حتّى تكون جاري هنا في المعتقل؟!

- مجرّد خُطبة في مسجد!!

كنتُ قد بدأتُ أرتاح قليلاً ، وأشعر بالطّمأنينة ، أو قل أقنعتُ نفسي بذلك ، لأنّني وجدتُ في هذا الحديث متعة فائقة ، فقرّرت التوّغل فيه

مهما كلّف الثّمن . . . تابعتُ من آخر جملة له ، وقلتُ بلهجة المازح :

- يا رجل . . . خُطبة . . . على مين . . .

- والله خُطبة . . .

- وبعدين .

- اتْعَرّضُولْنا المخابرات ، فَطَعْمِيناهُم الّي فيه النّصيب .

- شو كان نصيبهم .

- قَتْلة مرتّبة . . . (قالها بلهجة المُفتخر) .

شعرتُ حينها بالرّيبة أكثر ممّا مضى ، وتخيّلت أنّني وقعتُ في مستنقع كثير الطّين والوخم . . . فقرّرت أن أتوقّف عن الحديث . . . وكأنّ جاري حِيَنَ لاحظَ أنّني صمتُّ قليلاً قد قرأ أفكاري ، فهتف :

- أَيْ ، لا تْخافْ . . . احنا متعوّدين على هيك شغلة . . . (صَمَتَ ، ثمّ تابع) : لكن ما حَكَيْتلي ليش جابوك هون؟

- على قصائد شعريّة!!

وكأنّ جاري حانت له الفرصة المُناسبة ليقتصّ من استهزائي السّابق لي ، فقال لي بنفس النّغمة الّتي أسمعتُهُ إيّاها قبل قليل :

- يا رجل . . . قصائد شعريّة . . . على مين . . .؟!!

شعرتُ أنّ الحديث يجب أن يتوقّف عندها ، تركتُه يتحرّق وهو ينتظر منّي جوابًا ، وعدتُ أتلمّس طريقي إلى السّرير . . . سمعتُهُ بعدها يعاوِدُ الطّرق ، ويتكلّم ، غير أنّي لم أردّ . . . صاح :

يا رجل ردّ عليّ . . . لا تروح . . . بكّير على النّوم . . . أرجوووك . . . احكي اشي . . .

كلّ نداءاته المتكرّرة لم تجد منّي إلاّ أذنًا صمّاء . . . كان هذا أحد تدريباتي الأولى ، لكي أسيطر على حواسّي ومشاعري ، حين يستعدي ذئبُ الرّغبة على قطيع الشّهوة ، كنتُ أطلِق عليه سهم الإرادة فأجرحه أو أصيب فيه مقتلاً .

في اللّحظة الّتي كنتُ محتاجًا إلى كائن بشريّ أسامره لكي أخفّف من الظلام الّذي يحيط بكلّ شيء ، تخلّيتُ عن هذه المسامرة مُكرِهًا نفسي على الصّمت ، كي لا أذلّ أمامها أو أنهزم ، فأفقد احترامها لي . . . كان تدريبًا ناجحًا إلى حدٍّ ما . . . في المستقبل - هكذا تمتمت - سأطوّع نفسي أكثر . . .

نظرتُ في السّاعة ، كانت عقاربها الفسفوريّة تُشير إلى الواحدة بعد منتصف اللّيل . . . مرّت ليلتي الأولى كسلحفاة في مضمار سباق . . . سحبْتُ الغطاء ، وألقيتُ به على الأرض ، وأقسمتُ سِرًا أن أنام على البلاط . . .

كانت الزّنزانة خانقة ، لا مسرب للهواء حتّى ولو كان حارًا كي يدخل إليها ، أنفاسي الّتي تتقطّع لُهاثًا بسبب وزني الثّقيل زادتني اختناقًا . . . حاولتُ أن أنام لكي أتناسى ما أنا فيه . . . وعبثًا ذهبتْ كلّ محاولاتي . . . تقلّبت على البلاط ، وباغتني سيلٌ من الأسئلة الّتي لا تصحو إلاّ عندما تريدُ أنتَ أن تنام . . .

لماذا أنا هنا؟ وما الّذي جاء بي؟ وكم سأمكث في هذه الزّنزانة؟ وهل سأرى النّور غدًا أم سأبقى غارقًا في السّدفات؟ وماذا تفعل أمّي الآن؟ وكيف يقضي أبي وقته بعد أن شاهدني أُعتَقل اعتقالاً صارِخًا أمام عينيه؟

لم يقطع وتيرة تساؤلاتي غير صوت شخير جاري ، الّذي استسلم للنّوم بعد أن يئس من أن أردّ عليه . . . لوهلة حسدتُه على أنّه نام ، وأنا هنا لا أستطيع فِعل ذلك . . . تقلّبت مرّة بعد أخرى . . . غطّيْتُ عينيّ بساعدي الأيسر ، وجعلت من ساعدي الأيمن وِسادة نومي . . . ولم أُفلح ، بقيتُ مستيقظًا . . .

جلستُ متربّعًا ، وحدّقتُ في العتمة ، أردتُ أن أرى فيها أو من خلالها ما أريد ، لم تخذلني في تلك اللّيلة . . . استحضرتُ العائلة بأكملها . . . أبي وأمّي وإخواني وأخواتي ، جلسوا من حولي ، بدت

طيوفهم ملائكيّةً ، تنضح بالنّور ، أيقنت أنّ عتمتي ما هي إلاّ عارضٌ زائل ، ها أنذا أبدّدها بهذا الحضور البهيّ . . . نظر الجميع إليّ كأنّما ينتظرون منّي حديثًا ، قلت لهم : نعم ، تريدون أن أسمعكم آخر قصائدي . لم يتكلّم منهم حينها أحد ، فقط حرّكوا رؤوسهم علامة الموافقة . فتابعت :

ما زالت رايتي خفّاقة . . . تستطيعون أن تروها فوق هذا المعتقل حين تغادرون إلى بيتنا . . . وسأبقى بعدكم هنا لأحرسها!! لا تخافوا عليّ ، إنّ الرّياح تهبّ على المعتقلات وعلى حقول القمح سواء . . . حين كان جدّي يزرع القمح في أرضنا ، كنتُ أرى السّنابل الشّامخة تموج كأنّها الرّايات . . . اليوم عندما دخلتُ إلى هنا شاهدتُ جدّي على بوّابة المعتقل وهو يحمل هذه السّنابل ، ويقدّمها لي . . .

أنتم تعلمون أنّني كنتُ هادئًا في صغري - قلتُ ذلك والتفتُّ إلى أمّي - ولكنْ لا بدّ للهلال أن يصير بدرًا - قلتُ ذلك والتفتُّ إلى أبي - وحين يصير الهلال بدرًا لا بدّ أن يغطّي ضوؤه مساحات شاسعةً لم تصل إليها أضواؤه حين كان هلالاً . . . وأنا اليوم لم أعد طفلاً ، لقد استيقظ مارد الشّعر في أعماقي . . . وإذا كان هذا المارد يُخيفهم ، فليكن . وإذا كانَ يسبّب لي مثل هذه الوخزات فليكنْ . . .

تغيّر صوتي فجأة . . . أصبح أعلى ، ويحمل نبرةَ تحدٍّ ومجابهة . . . غاب أبي في الظّلام ، ثمّ اختفى إخواني ، وأخواتي بعد ذلك . . . بقيت أمّي إلى جواري ، خفّضتُ من صوتي قليلاً في حضرتها ، وخاطبْتُها بلطف : لا تتركيني هنا وحدي . . . بدأ طيفُها الملائكيّ يخبو شيئًا فشيئًا إلى أن سقط رأسي على صدري . . . ثمّ شعرتُ بي وأنا أميل على جنبي فأهوي على البلاط . . .

حينَ أيقظني الحارس في صبيحة اليوم التّالي ، لم أستطع أن أتبيّن إن كان ما حدث ليلة أمس حلمًا أم هلوسةً ؟!

(٣)
﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

صوت أقفال الباب من الخارج، وصرير الباب كانا قد أيقظاني. الحارس الّذي دخل مشى خطوتين ثقيلتين، ووضع أمامي صينيّة صغيرة، وخرج دون أن يتفوّه بكلمة، أغلق الباب خلفه، وتركني مع فطوري: قطعة خبز صغيرة، وبيضة مسلوقة، ولا شيء آخر... ولأنّي لم أعتد الجوع، ولم أفكّر في أن أتكيّف معه بعد، ولأنّ ليلة من الهواجس والأحلام قد مرّت بطولها، وهضمتْ كلّ شيء في معدتي، فقد رأيت أنّ طعامًا كهذا يبدو فاخرًا جداً. لقد جاء في وقته، وأنا مستعدّ لأنّ أبتلعه كاملاً في جوفي... كاملاً!! لقد كان بيضة واحدة. قشّرتُها بتلذّد، ورحتُ أقضم منها قضمة، وأتبعها بقضمة أخرى من الخبز، كان الخبز يابسًا، والبيض يحتاج إلى مَنْ يصرفه وهو يتمسّك بجدار بلعومي رافضًا الهبوط إلى معدتي... كان بلع الطّعام صعبًا غير أنّه يجب أن أقنع نفسي أنّه لا صعبَ بعد اليوم...

لم أكد أكمل فطوري، حتّى دخل ضابط الأمس هذه المرّة إلى زنزانتي، ابتسم في وجهي كصديق، وأشار إليّ، هيّا. قلتُ في نفسي: إلى أين؟ ولأنّ الآمال فسحة الحياة كما يقول الشّاعر: (ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل)، فقد راودني أملٌ بأنّهم سيُفرِجون عنّي، أو على الأقلّ سيقومون بتحقيق بسيط ثمّ لا ألبث حتّى أرى نفسي خارج هذه الجدران الميّتة عائدًا إلى أهلي وبيتي... قطع عليّ رفيف آمالي الضّابط وهو يشدّني من يدي، ونخرج معًا ليسلّمني إلى أفراد أمنٍ آخرين، تفاهم

معهم بطريقته الخاصّة ، وقال لهم : كلّ شيء تمام . يمكنكم الانطلاق .

ما إن استلمني الرّجلان الآخران ، حتّى قيّداني وشدّا الوثاق على يديّ ، لأوّل مرّة تُوضع القيود في يديّ بهذه الطّريقة الفَظّة ، وصدقًا شعرتُ بقدْرٍ كبيرٍ من المهانة ، كادت دمعةٌ تطفر من عيني لولا أنّني عاجلْتُها بالكتمان . . . دفعني الاثنان من ظهري وعَبَرَا بي بضعة أمتار حيث كانت سيّارة من نوع (فولفو) تقف ، وأخرى من نوع (مرسيدس) بجانبها ، أصعداني في سيّارة (الفولفو) وركب أحدهم عن يميني والآخر عن يساري . كان السّائق فيها . لم يركب أحدٌ في الكرسيّ الأمامي ، ظلّ شاغرًا . لم تَدُرْ عجلات سيّارتنا إلاّ بعد أن انطلقت سيّارة المرسيدس في المقدّمة ، وكان فيها سائق بلباس الشّرطة ، وضابط أمن بلباس الشّرطة أيضًا . أمّا الّذين كانوا يجلسون معي في السّيارة فقد كانوا بلباسٍ مدنيّ . . .

لم يكن أمر تقييد يديّ بأسلوب مهينٍ هو صدمة بالمعنى الكامل ، بيد أنّ ما صدمني هو الرّجلان اللّذان اقتاداني ، كانا يحملان رشّاشَيْن ، ويقودانني كمجرمٍ خطير ، ويجلسان عن جنبيّ تحسّبًا لأيّ تحرّك من جهتي . ظلاّ صامتينً معظم الطّريق .

هذا هو يوم السّبت ١٩٩٦/٩/٧م ، والسّاعة تشير إلى العاشرة صباحًا . مشت السّيّارة في طريقها ، كلّ الأماكن في إربد الّتي عشتُ فيها مألوفةٌ بالنّسبة لي ، هذا هو التّلّ ، هوينا باتّجاه دوّار وصفي التّلّ ، الحياة عاديّة ؛ النّاس يسيرون في الطّرقات بشكلٍ طبيعيّ ، هناك الباعة المتجوّلون ، هناك المحلاّت التّجاريّة بعضها كانٍ مفتوحًا ، وبعضها الآخر كانت أصوات أبوابها تفتح للتّوّ ، بسطات الخُضار تنتشر هنا وهناك في السّوق المركزيّ ، صياح أصحاب البسطات على بضائعهم يملأ الجوّ بين حين لآخر . . . انعطفت السّيّارة باتّجاه شارع الحصن ، ولم تقف على الإشارة ، واستمرّت في مسيرها . . . أحفظ هذه الأمكنة غيبًا . . . غير أنّي شعرت أنّي في عالَم ، والنّاس في عالَمٍ آخر . . . لم يُعرني أحدٌ من المارّة

أدنى اهتمام ، أيعقل أن تُستلَب حرّيّتي بهذه الطّريقة ولا ينتبه إليّ أحد؟! أين مَنْ يحسّ بطوفان المشاعر الّتي تجتاحني الآن ، بدا أنّني مع النّاس ولستُ معهم . . . صورهم تتحرّك أمامي كالأشباح ، وبدا أنّني أراهم ، ولكنّهم لا يرونني . . . أمعقول أن يتركوني بين أيدي هؤلاء الغرباء يقتادونني بهذه الطّريقة المهينة؟ توقّفت قليلاً عن التّفكير بهذه الطّريقة ، ثمّ قلتُ في سرّي : أنتَ أبله . أتظنّ أنّ أحدًا يشعر حتّى بمرورك من هنا . النّاس مشغولة من رأسها حتّى أخمص قدميها في همومها الخاصّة . . . الفقر يأكل النّاس ، والجوع ينهش الأرواح ، والآباء يكدحون من أجل لقمة خبزٍ يوفّرونها بعد عناءٍ لأطفالهم . . . ما لهم ولك أيّها الشّاعر؟ مَنْ كان يدري أصلاً أنّ هناك في إربد شاعرًا . وإن كانوا يعرفون ، مَنْ كان يُصدّق أنّه يُحبَس لأجل شعره؟!! أمام شبح الجوع ، واللّهاث خلف كسرة الخبز مَنْ من النّاس يسمع الشّعر هذه الأيّام . . . تذكّرتُ صديقي الّذي كان شاعرًا ثمّ اعتزل ؛ قال له أبوه ذات مرّة : ابحث لك عن وظيفة محترمة يا بنيّ ؛ الشّعر لا يُطعم خبزًا . وقد سمع الشّاعر نصيحة أبيه فاعتزل النّشيد إلى غير رجعة . . . لمع في ذهني خاطر مُشابه : أمعقولٌ أنّ أبي سيقول لي – يومًا – كلامًا من هذا القبيل؟!! هززت رأسي لأطرد طيف هذا السّؤال ، وتمتمت سِراً : مستحيل!!

تابعت السّيّارة مسيرها في شارع الحصن ، شاقني منظر النّاس ، شعرتُ بأنّ أحدًا ما في داخلي يريد أن يخرج منّي ، ويصيح : أنا هنا . . . أنا هنا . . . أخبروا أهلي أنّني متّجه إلى . . . وتوقفتُ . . . فعلاً إلى أين نتّجه . . .

تركنا إربد وراءنا ، ووصلنا جرش ، ولاحت لي قريتي سوف من بعيد ، حينَ رأيتها تستقرّ على سفوح الجبال هاجت عاصفةٌ من المشاعر في داخلي ، وشعرت بعاطفة جامحة تُجاهها . غمرني الحبّ ، وركّز الشّوق رايته فوق قلبي . . .

ليتني أستطيع اليوم استعادة تلك الأحاسيس الّتي تملكّتني في ذلك اليوم . . . كان يومًا حافلاً ، واستثنائيًا . . .

ظلّت الأشجار ترافقنا على جانبيّ الطّريق لفترة غير قليلة ، لأوّل مرّة أهمّ في خيالي باحتضانها ، وتلمُّس أوراقها ورقةً ورقة . . . ظلالها ألقت بالطّمأنينة على نفسي ، لم يتمكّن الرّشاشان المُحيطان بي من كَسْر هذه الظّلال . فكرت : أيكون ظلّ الشّجرة أقوى تأثيرًا من الرّشاش . أجبت : نعم . كم مرّة تتغلّب الوردة على السّكين!!

تركْنا جرش وراءنا ، وسرنا باتّجاه عمّان . . . شعرتُ بالقيود تحزّ يديّ ، وتؤلمانني ألمًا شديدًا ، نظرت باتّجاه رجل الأمن القابع على يميني ، ذي البدلة العسكريّة المُبرقَعة ، ففهم ، وسّع دائرة القيد حول المعصم فبان أثر القيد ، وقد حزّ اليدين وترك أثرًا عميقًا مختلطًا ببعض الدّم . مضينا قدمًا كانت السيّارة تقصد مبنى مخابرات عمّان الجديد ، لم يأخذونا إلى فندق (محمّد رسول) ، فذلك مبنى قديم ، ربّما تتغيّر الجدران ، ولكن هيهات للقلوب أن تفعل . . .

اجتزنا بعض الحواجز ، دخلنا إحدى السّاحات ، نزلنا جميعًا ، اقتيد الشّاعر إلى داخل المبنى ، واجتزنا ممرًا طويلاً تصطفّ على جانبيه مكاتب ضبّاط المخابرات وأفراده ، لم أكن أعرف أنّ استراق النّظر عبر المكاتب من المحرّمات ، كنتُ لا أزال أنظر في كلّ غرفة ، حين هوت يدٌ من خلفي على رأسي وأدارتْهُ بغلظة إلى الجهة المقابلة للممرّ الطّويل ، حيث تواجه الحائط فحسب . . . غير أنّي - قبل أن يهوي الضّابط بيده الغليظة على رأسي - استطعتُ أن أميّز بعض الجالسين خلف تلك المكاتب . . . وللحقّ أنّ صاعقةً ذات خدرٍ غائم هبطت على رأسي حين أبصرت اثنين من زملائي في قسم الهندسة في جامعة العلوم والتّكنولوجيا يجلسان بكامل زهوهما خلف بعض هذه المكاتب . . . يبدو أنّ السّذاجة هي عنوان حياتي السّابقة . . . حوّلتُ سيل الأفكار للجهة الأخرى ، ومحوت آثار الصّدمة وعددْتُ الأمر عاديًا ،

فمن الطّبيعيّ أن يكون حماة الوطن طلابًا في أقسام الهندسة؟!!! ما الّذي يمنع؟! وهم بِجَمْعهم بين التّلمذة وبين الانتساب إلى طاقم المخابرات يؤكّدون ألقَ مواهبهم، وسعة طاقاتهم . . . ظلّ بعض حرّاسي يصرخون وهم يدفعونني من الخلف : راسك بالحيط يا . . . راسك بالحيط يا . . .

في نهاية إحدى الممرّات ، استلموا أغراضي ، أو قل استلبوا هذه الأغراض ، كانت تتلخّص في الآتي : ساعة يد ، ومحفظة فيها بعض الأوراق ، ومفتاح غرفتي ، وقرش أحمر . . . نعثوا المحفظة بما فيها من الأوراق ، وقرؤوا كلّ الأسماء ، وسجّلوا ملاحظاتهم الخاصّة . . .

دُفِعت باتّجاه إحدى الزّنزانات ، كانت تحمل الرّقم (٦٧) . . . كانت السّاعة حسب تقديري قد تجاوزت الواحدة ظهرًا . . . مِمّا يعني دخول صلاة الظّهر . . .

الزّنازين أوطان المعتقلين ، وملاجِئهم الاضطراريّة ، وحقول قَمْحِهم ؛ عندما تستقبلك زنزانةٌ ما ، فإنّها تمدّ لَك ذراعيها بداهةً ، وهي تقول لك : إمّا أن تحبّني أو تكرهني ، الحبّ والكره قضيّة شخصيّة . . . ولكن عليك أن تعتاد التّعايش معي . . . . الزّنزانة أنثى ، إذا عانَدْتَها عانَدَتْك ، وإذا تودّدْتَ إليها تودّدتْ إليك . . . الفرق بينهما أنّ الزّنزانة لا تتكلّم ، وحين تغيب في جَوفها تتمنّى أنّها تتكلّم ، ويقتلك صمتُها . . . عجبًا : أليس من طبيعة الأنثى أن تفيضَ كلامًا !!!

كانت الزّنازين تحتل جانبي الممرّ الطّويل الّذي سرنا فيه إلى ما قبل آخره ، وفي نهاية هذا الممرّ قبل أن يأخذك بزاوية قائمة إلى اليمين ، تقع على اليسار في تلك الزاوية زنزانة في الجدار مكشوفة ، ولها باب بعرضها الّذي يقرب من ستّة أمتار ، وقضبانها الحديديّة الّتي تشكّل الباب تمتدّ حتّى السّقف ، رأيتُ فيها أكثر من عشرة مساجين يذرعون أرضيّتها ذاهبئن جائين ، ولا أدري لماذا؟ كان معظمهم يعتمر قبّعات بيضاء وسوداء ورصاصيّة ، وتطول لحاهم إلى منتصف صدورهم ، ويتهامسون فيما

بينهم . . . قدّرتُ أنّهم من سجناء التّنظيمات الإسلاميّة . . . فيما بعد سيصبح غيرُ واحدٍ منهم رفيقًا دائمًا بعد أن تتوزّعَنا السّجون . . . .

سلّمني الحارسان الأمينان إلى يد الحجّي . تَفاهَما فيما بينهما ، (الحجّي) تعني الحارس الموكّل بحراسة الزّنازين في دائرة المخابرات . . . كلّ ممرّ يحتوي حوالي عشر زنازين ، يقوم على حراستها حجيٌّ أو اثنان . . .

دخلتُ موطني ؛ أعني زنزانتي . . . ويا لها من زنزانة . . . إنّها تُعدّ قصرًا بالنّسبة للزّنزانة الّتي قضيتُ فيها اللّيلة الأولى أمس في دائرة مخابرات إربد . . .

الزّنزانة طولها متران ونصف وبهذا العرض أيضًا ، يااااه . . . إنّها أصغر من الزّنزانة في إربد . . . غير أنّ المسألة ليس بالحجم ، ولا بالسّعة . . . فهنا من الخدمات ما لا يمكن أن يُقارَن بما هو هناك . . . على يميني مقعدة لقضاء الحاجة ، وبجانبها مغسلة صغيرة جداً بالكاد تتسع لوضع رِجْلٍ فيها . . . وعلى الأرض فرشةٌ واحدة ، والأرض حافية ، وملابسي هي هي . . . بالقرب من الفرشة هناك مُصحف ، وكتاب تفسير للقرآن ، تبيّنتُ - فيما بعد - أنّ التّفاسير خيارٌ مُتاح للنّزلاء هنا . . . تستطيع أن تقرأ في التّفسير الّذي في غرفتك ، وإذا أنهيتَه ، أو رغبتَ بسواه فما عليك إلاّ أن تطرق طرقًا مسموعًا على الباب ، فيأتيك الحجّي ، يفتح كوّة الزّنزانة ، ويكشّر في وجهك - بالمناسبة الكشرة ليست اصطناعًا في هذا الحارس ، إنّها طبيعة . . . يقولون عن الشّعب الأردنيّ عبوس وأنّه دائمًا مُكشّر . . . هنا يبدو هذا الحكم علينا نحن الأردنيّين في أدقّ لهجاته صِدقًا - يفتح الحارس الكوّة ويسألك بصوت يحمل وهج التّذمّر من استدعائه :

- شو بدّك؟!

- تفسير آخر . . .!!

- لويش . . . شو مش عاجبك إلّي عندك . . .

- أستغفر الله . . . عاجبني طبعًا . . . ولكّني خلّصتُه . . .

- طب هات الّي عندك حتّى أجيبلك واحد ثاني . . .

أكاد أجزم أنّ هذا الحارس الّذي كان موكّلاً بصفّ الزنازين الّذي تقع فيه زنزانتي كان يكرهني . . . وذلك لكثرة ما كنتُ أطلب منه تغيير التّفاسير . . .

ألقيت بجسمي على الفرشة وتمدّدت طويلاً . . . شعرتُ براحة جسديّة فائقة . . . بعد كلّ هذه المشاوير المتعبة ، ها أنذا أجد مكانًا ألقي عليه بثقلي . . . غير أنّي ما لبثتُ أن هببتُ واقفًا . . . تذكّرتُ الصّلاة . . . آه . . . يجب أن أقضي حاجتي . . . كانت المِقعدة في مواجهة كوّة الزّنزانة . . . كم شعرتُ بالخجل والحياء . . . الكوّة مفتوحة ، والحجّي قد يقصد أن يتلصّص عليّ . . . تردّدت قبل أن أفعلها مئات المرّات ، وفي كلّ مرّة أتخيّل الحجّي أو أحد الضّباط يُبحلق فيّ عبر الكُوّة . . . أوّل درس شعرتُ أنّهم يريدون إجباري على تعلّمه ، هو : يجب أن تكسر حاجز الحياء عندك!! أو عليك أن تفهم أنّك لا تغيب عن أعيننا حتّى في هذه اللحظات الّتي تغيب فيها أنتَ عن نفسك . . . قلت في سرّي : يا لهم من مجموعة سَفَلة !!

قرأتُ وقرأتُ . . . حتّى هبط اللّيل . . . الزّنزانة كانت مُضاءة عندما وصلتُ هنا في عزّ الظّهر وبقيت مُضاءة طوال اللّيل . . . وليس عندي في الدّاخل أيّ مفتاح أستطيع أن أطفئ به هذا الضّوء المزعج شديد التّوهُّج . طرقتُ على الباب ، فأتى الحجّي ، قال بتذمّر :

- ماذا تريد؟ جبتلك كلّ التّفاسير !!!

- لا ، أنا أريد أن أنام . . .

- نام يا . . . وأنا شو دخلني !!

- الضوء يا حجّي . . .

- بتفكّر حالك ببيتكو ، هُون ما في ضَو ينطفي . . . رَحْ تنام وهو مشغّل . .

- . . . .

عدتُ خائبًا . . . قرّرتُ أن أقرأ المزيد . . . في زنازين المخابرات ، كان هناك تفسير الجلالين ، بالإضافة إلى تفسير ابن كثير ، لستُ متأكّدًا إذا كان تفسير القرطبيّ موجودًا أم لا؟ لا يمكن أن يجتمع لديك التّفسير كاملاً . . . عليك أن تقرأ فيه مُجزّأً . . . فقد يكون عندك الجزء الثّاني من تفسير ابن كثير ، وحين يأتيك مجلّد جديد تكتشف أنّه الجزء الرّابع أو تفسير آخر . . .

في منتصف اللّيل تمنّيت أن يُطفئوا الضّوء لكي أنام ، وأنعم بساعة صفاء ، وجلوسٍ مع النّفس . . . لم أتمكّن من النّوم ، وكما قررتُ - وأنا في ليلتي الأولى الدّامسة في مخابرات إربد - أن أستدعي الضّوء ، قررتُ هنا في هذا الضّوء الباهر أن أستدعي العتمة . . . أغمضتُ عينيّ ، وبدأت تأمّلاتي . . .

يولد النّاس أحـرارًا ، هكذا صـرخ ابن الخّطاب في وجـه ابن العاص . . . حقيقة بديهيّة ، غير أنّ الإنسان كما استطاع أن يشوّه وجه الأرض الطّبيعيّ ، وبِساطها الأخضر بإتخامها بالملوّثات الصّناعيّة ، استطاع أن يشوّه حقيقة الحرّيّة حين ظنّ أنّ القوّة تملكها ، وأنّ النّاس عبيد السّلطة . . . وقد تواطأ النّاس عبر العصور على ذلك ، فَعَاشُوا أرقّاء حين نكّسوا رؤوسهم أمام السّيف والنّطع ، وحين تستنهض غريزة الحريّة الكامنة في أعماقهم ، يصمتون ، ويخفضون أبصارهم قائلين : ﴿إِنّا وَجَدْنا آباءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ . . . ألا بئست هداية من هذا النّوع ، إنّها ليستْ هداية ولكنّها الضّلال بعينه . . .

آه ما أصعب أن يكون الإنسان حرًا !! ما أقسى تبعات ذلك . . . !! إنّ الحريّة صرخة (لا) في وجه طوفان (نعم) ، حين تكون (نعم) غِناء القطيع ، الّذي لا يعرف غير هزّ الرّؤوس والأذناب . . .

الحـرّيّة . . . الدّين . . . الإيمان . . . الأخـلاق . . . تَعِبَ النّاس وهم

يحاولون إيجاد تعريفات لها . . . غير أنّي لم أجد للحرّيّة تعريفًا من بين هذه المفاهيم أشدّ وضوحًا من الحالة الّتي أعيشها الآن في هذه الزّنزانة . . . إنّني حرّ بالمعنى الحقيقيّ رغم هذه القضبان ؛ لأنّني استطعت ألاّ أشتم نفسي حتّى هذه اللّحظة بخوضي مع الخائضين ، وانبطاحي مع المنبطحين . . . لا تتجلّى الحرّيّة في مكان ما أكثر من السّجن ، إنّها تُباغتك برائحتها الشّذيّة ، تقول الرّائحة الطّيّبة : أنت حرّ لأنّك استطعت أن تصرخ بـ : (لا) !! كم من النّاس يتمنّون أن يفعلوا ما فعلت ، غير أنّ (نعم) حكمت عليهم بالعبوديّة المَقيتة . . . أقرع على جدار الزّنزانة ذاهبًا إلى أقصى درجات الترنّم :

رَمَلُ الأبحرِ ترويه الثّقاتُ

لا لَـ لا لا . . . لا لَـ لا لا . . . لا لَـ لا لا . . .

أيّة متعة يحسّ بها الشّعراء وهم يرفضون أن يُنعّموا بـ (نعم) خلفيّات الزّعماء . . .

لم يكن جوع الإنسان إلى الطّعام أكثر إلحاحًا من جوعه إلى الشّعور بإنسانيّته ، أنتَ تقطف وردةً وتُهديها لمن تحبّ ، من أجل أن يقول لك : شكرًا ، كم هي جميلة . . . ومع أنّه مدح الوردة ولم يمدحك أنتَ ، إلاّ أنّك شعرتَ بإنسانيّتك ، حين احترمها الآخر وقال لك : شكرًا . . . إنّه الجوع إلى الإنسانيّة ، إلى احترام الذّات . . .!! تفعل مثل هذا حين تقدّم بحثًا مُميّزًا إلى أستاذك في الجامعة . . . أو تُقبّل يد والدك أوّل ما تقابله . . . أو تُجيب عن سؤال لم يجب عنه بقيّة التّلاميذ في الصّفّ . . . أو تأتي بهديّة إلى صديقك وأمام أعين الحاضرين جميعًا تقدّمها ، وأنت تقول بلا وعي : (شغلة بسيطة . . . ما فيش إشي من الواجب . . .) وأنت تعني عكس ذلك تمامًا . . . تعني أن ترمقك الأعين كلّها ، وتنصبّ عليك من الزّوايا . . . أليست هذه الأفعال كلّها كانت بدافع الجوع إلى كلمة : (شكرًا) . . . بدافع الجوع إلى احترام الآخرين لذاتك . . . إذًا ففيم يقبل

الإنسان أن يُهين نفسه ويُذلّها ويطلب من الآخرين أن يحترموه . . .؟!
حتّى تتكامل إنسانيّتك ، عليك أن تبدأ باحترامك لنفسك قبل أن تطلب من الآخرين أن يفعلوا ذلك . . .

طال اللّيل في الزّنزانة . . . الدّهشة الّتي كانت سربال العقل في اللّيلة الأولى جعلتْها تمرّ أسرع من ليلتي الثّانية هذه . . . إذ هنا بدأ العقل يصحو من غيبته . . . بدأت أتحسّس الأشياء . . . طفتُ بعينيّ على جدران الزّنزانة . . . سقفها يعلو أربعة أمتار ، وفي نصف المتر الأخير شبّاك يدخل من خلاله ضوء الشّمس . . . سأكتشف فيما بعد أنّ هذا الشّبّاك وإن كان صغيرًا ، فإنّه نافذة السّجين على الحياة ، وهمزة الوصل بينه وبين العالم الخارجيّ ، وهو البَرْزخ الّذي يشدّك عن درب الموت إلى فسحة العيش . . .

في السّقف هذا الضوء اللّعين . . . تساءلت : ما أغرب الإنسان . . .!!
أمسِ ، وأمسِ فقط كنت أتمنّى أن أجد بصيصًا من النّور في زنزانتي ، واليوم في هذه الزنزانة ألعن هذا النّور . . . بين المتناقضات يصنع الإنسان عالَمه الخاصّ ، ويفكّر به على طريقته هو . . . ليس شرطًا أن تُعجِب هذه الطّريقةُ الآخرين ، بل ليس شرطًا أن تُعجِبَ صاحبها ، في لحظةٍ ما قد يتخلّى عنها مَن صنَعها دون سابق إنذار ، وبدون أيّ شعورٍ بالنّدم . . . هذا هو الإنسان !!!

أدرتُ بصري إلى الجدار الّذي خلفي . . . إذا لم تقترب منه ، وتمعن النّظر ، فلن تكتشف أن بعض المعتقلين مِمّن سبقوني إلى هذه الزّنزانة قد مرّوا من هنا ، وكتبوا بعض خواطرهم على الجِدار . . . حاولتُ أن أتبيّن بعض الكتابات . . . لا زلتُ أتذكّر بعضها :

- (فصبرٌ جميل والله المستعان) .
- (ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظّالمون) . . .
- لن أركع . . .

- تعبتُ من . . . لا أقوى على . . . ليتني الآن في . . .

- هذا درب الأنبياء . . . لستَ أحسن من يوسف . . . ولا أكرم على الله من يونس . . .

- أنتَ هنا لتفهم حقيقة التّوحيد . . .

والكثير من العبارات والإشارات الّتي اختلط فيها كلام البشر بكلام الله تعالى . . . وجدتُ فيها شيئًا من التّسلية . . . بعض الخطوط لم تكن واضحة ، استمتعتُ وأنا أقضي زمنًا طويلاً في تحليلها . . . لم تكن الخواطر كلّها كتابات ، كان هناك إشارات ، وخطوط متقاطعة وأشكال هندسيّة . . . غير أنّ الجامع بينها أنّها كانت بالكاد تُرى ، وعن قريب ، ذلك أنّ كاتبيها استخدموا أظافرهم ، وحفروا ما أرادوا هنا بصعوبة بالغة . . . لم يكن مسموحًا لأيّ معتقل في الزّنازين أن يحمل قلمًا ولا ورقة . . . ولا ساعة . . . ولا أيّ شيء يعينه على تمضية الوقت . . . اللهمّ إلاّ مَنْ كان يحبّ القراءة ، فهو محكوم بنوع واحد منها . . .

آه القلم . . . كان مُفتقدًا عزيزًا . . . وكان أكبر غائب مُنتَظر . . . لم أدرك أهميّة القلم ولا قيمته إلاّ عندما عزّ الحصول عليه . . . لم أفهم أنّ القلم سرّ الحياة الأولى ، وقَسَم الله الأعظم ، إلاّ وأنا أردّد بذهول : (ن ، وَالقَلَم وما يَسْطُرُونَ) . . .

ظَلّ القلم حلمًا صعب المنال حتّى فترة متأخّرة من السّجن . . .

أمسكتُ بتفسير القرطبيّ ، كان فتحًا عظيمًا أن يكون بين يديّ ، أنا أحبّ هذا الكتاب منذ أزمان . . . قبل أن أدخل إلى هنا كان رفيقي ، أطالع فيها كلّما شدّتني آيةٌ من كتابِ الله لأعرف سرّ استخدام لفظةٍ دون أخرى . . . كان هو وتفسير الكَشّاف للزّمخشريّ يُشبعان نَهَمي إلى استكناه إعجاز القرآن البيانيّ . . .

قرأتُ قبل أن أستسلم للنّوم : (لو كان عَرَضًا قريبًا وسفرًا قاصِدًا لاتّبعوك . . .) نمت وأنا لا أدري إن كنتُ أتممْتُها أم لا . . .

ليس من أشكال الحرّيّة هنا أن تعرف الوقت . . . عليك أن تُخمّنه . . . في البداية كان بندول الوقت مُعطّلاً لديّ ، يتراقص حسب تموّجات ذهني ، مرّة تراه يفعل ذلك ببطء شديد ، ومرّة يتمايل بشدّة كأنّما يريد أن ينفلت من مكانه . . . كانت الأوقات تتماهى . . . فيما بعد تعلّمت أن أضبط إيقاع البندول وأتمكّن من أن أكون دقيقًا إلى حدٍّ كبير . . .

تسلّلتْ شمسُ الصّباح بلطف من نافذة الحياة إلى وجهي . . . فكّرت . . . نحن مثل النّبات توقظنا الشّمس وهي تداعب أوراقنا بعد أن تركنا اللّيل أسرى سكونه . . .

لم أحادث غير نفسي بعد ولوجي إلى هذه الزّنزانة . . .سأكون ممتنًا لأيّ بشر يرغب في الحديث معي في أيّ موضوع . . . لم يطل رجائي كثيرًا . . . حين أطلّ وجهٌ جديد من كوّة الباب ، صاح بغلظة :

– صايم ولاّ مفطِر . . .

– فاجأني السّؤال . . . غير أنّي اكتشفت فيما بعد أنّ هذا الجناح مخصّص لمعتقلي التّنظيمات الإسلاميّة ، وأنّهم يقضون معظم أيّامهم هنا في هذه الزنازين صائمين . . . فأراد الحارس بهذا أن يحصي الصّائمين من غيرهم . . . كي يأتي بصواني الإفطار لغير الصّائمين فحسب . . .

لم أكن قد نويت الصّيام ولا أعلنتُ ذلك إلاّ حين رددتُ على سؤال الحجّي قائلاً :

– صايم . . .!!

وذهب دون أيّة كلمة أخرى . . .

أحسستُ بأنّني وقعتُ في فخّ السّؤال المُباغِت . . .وأنّني فعلتُ ذلك دون وعي . . . تحقّق قوله صلّى الله عليه وسلّمَ : (يُؤجَر المرءُ رغم أنفهِ) واقعًا عمليًا . . .

ولكنّ الوقت يمرّ كأنّه عجوز في التّسعين يتسلّق جبالاً شاهقة . . .

قرّرتُ أن أفعل شيئًا مُفيدًا . . . بدأت بوضع الخيارات :

- أكتب قصيدة . . . (ولكن أين القلم والورقة . . .؟!!)
- أقرأ في التّفاسير . . . (ولكنّي أنهيتُ ما بين يديّ ، ولا أرغب بالمزيد)
- أحفر على الجدار بعض العبارات أسوة ببقيّة مَنْ سبقوني إلى هذه الزّنزانة (ولكنّ أظافري لم تطلْ بعدُ) .
- أضبط بندول الوقت لكي أميّز أوقات الصّلاة (ولكن كيفَ؟!)

بقي السّؤال الأخير مفتوحًا ، وهذا ما شجّعني . . . دَعْني أصنعْ طريقتي الخاصّة في معرفة الوقت . . . سأبدأ بمراقبة الأشياء من حولي بدقّة . . .

أوّلاً سأبقى مستيقظًا في اللّيلة القادمة حتّى أعرف متى تشرق الشّمس ، قبل شروقها بقليل أستطيع أن أعرف أنّ السّاعة هي ما بين الخامسة والخامسة والنّصف صباحًا ، تشرق الشّمس حوالي السّادسة . . .

سأفترض أنّ الحجّي الّذي يأتي بالفطور ، يأتي به في السّاعة الثّامنة صباحًا . . . قد أكون مُصيبًا في ذلك أو مُخطئًا ، ولكن يمكن أن أتأكّد غدًا صباحًا ، سأحاول أن أعدّ المسافة الزّمنيّة بين الشّروق ومجيء الفطور . . .

سيرفعون الفطور بعد ساعة ، لأنّ توزيعة يستغرق نصف ساعة على الزّنازين ، ونصف ساعة يُمهلون بها المعتقلين لتناول إفطارهم . . . إذًا في التّاسعة سأرى الحجّي يطلّ بوجهه مرّة ثانية يطلب الصّينيّة . . .

اليوم صباحًا قبل مجيء الحجّي ، تناهى إلى سمعي صوت شاحنة وهدير محرّكها ، يبدو أنّها تستقرّ في السّاحة المجاورة للزّنازين ، تفرّغ حمولتها من الطّعام الّذي جاءت به من المطبخ (هكذا فكّرتُ وتخيّلت) إذا صحّ حدسي فإنّني يُمكن أن أسمع هدير محرّكها حوالي السّابعة صباحًا . . .

صمتّ قليلاً . . . ولكن كلّ هذه الحسابات لفترة ما قبل الظّهر . . .

ماذا عن ضبط الوقت بعد ذلك . . .

أمسِ بعد أن استقرّ بي المقام هنا ، سمعتُ بعض أبواب الزّنازين المُجاورة تُفتح وتُغلَق . . . وأصوات مساجين وحُرّاس يصيحون . . . وبعد حوالي السّاعة من هذه الأصوات سمعتُ الأصوات ذاتها وأبواب الزّنازين نفسها . . . فكّرت : ماذا يمكن أن يكون ذلك؟

قلت في نفسي : لا بدّ أنّها فترة التّحقيقات ، وأنّ هؤلاء المُعتَقلين يُذهب بهم إلى المحقّقين . . . أقنعتُ نفسي بذلك ، وتخيّلت أنّ ذلك حدث أمس في السّاعة التّاسعة ليلاً . . . هي ما زالت فرضيّة حتّى الآن . . . اليوم أو غدًا حين يطلبونني للتّحقيق سوف أثبّتها أو أبحث عن تفسيرٍ آخر لها . . .

عدتُ كم صفحة من كتب التّفاسير قرأت أمسِ . . . وحين رجعتُ في ذهني إلى الأعداد : قدّرتها بمئتين وخمسين صفحة ، وبما أنّني أقرأ في السّاعة بين (٣٠-٣٥) صفحة ، فمعنى ذلك أنّني قضيتُ في القراءة ما لا يقلّ عن (٨) ساعات ، وبما أنّ دخولي أمس إلى هذه الزّنزانة كان في الواحدة ظهرًا ، إذْ كانت ساعة اليد معي ولم تؤخذ منّي إلاّ بعد دخولي إلى الزّنزانة . . . فهذا يعني أنّني أنهيتُ القراءة في حوالي التّاسعة . . . وهو الوقت الّذي تزامن مع سماعي لأصوات أبواب الزّنازين وأصوات المعتقلين . . . إذاً فرضيّة أنّ وقت التّحقيق مع المعتلقين هو التّاسعة ليلاً فرضيّة قويّة وهذا إثبات أوّليّ ومبدئيّ لها . . . اليوم مساءً أو غدًا سيتكشّف المزيد . . .

مرّ الوقت وأنا أنشئ فرضيّة جديدة في حساب الوقت ، مِمّا ساعدني على التّخلّص من ضجر الزّمن . . . نسيت أن أثبت في بندولي وقت المغرب . . . ليس من الصعب تحديده ، إنّه وقت قرع أبواب الزّنازين من أجل وجبة إفطار الصّائمين . . .

مع الأيّام صار بندولي أكثر دقّة . . . ولا أبالغ إن قلت : إنّني صرت

أتوقّع الحدث قبل حدوثه . . .!!

تغلّبتُ على سحابة اليوم ، وحَفَل وقت الغروب بارتقاء روحيّ عندي . . . أطلّ الحجّي من الكوّة ، وصاح : الفطور !! مددت يدي لأتناول الصّينيّة الّتي اخترقت الكوّة ووصلتْ إليّ . . . هتفتُ وأنا أضعها على الأرض : يا سلاااام . . . ما هذاااا الدلال . . .!! كان الإفطار شهيًا ، يبدو أنّ للجوع أثرًا بيّنًا في ذلك . . . بالرّغم أنّه لا أحدَ منّا نحن المعتقلين في زنازين المخابرات والّذين سيغادرون إلى السّجون بعد أيّام أو شهور يستطيع أن يُنكر أنّ الطّعام هنا من أحسن الفقرات الّتي كنّا نعيشها . . . وهو أفضل بمراحل من الطّعام الّذي سيقدّم لنا في باقي السّجون الّتي تنقّلنا خلالها . ومَرَدّ ذلك لأسبابٍ عديدة ؛ أوّلاً : شهيّ ؛ يبدو أنّ طبّاخين مهرة يقومون على طبخه . وثانيًا : متنوّع ؛ يبدو أنّهم يستدرجوننا إلى ساحتهم . وثالثًا : يأتيك ساخنًا كما لو كان لم يمض على إعداده غير بضع دقائق ، أي : (من الطّنجرة للحنجرة) . . .!!

المهمّ أمسكتُ بحصّتي من الطّعام ؛ كانت شوربة خضار ساخنة ، نزلت عبر المريء إلى جوفي حرًا وسلامًا . وصحن أرزّ طُبِخَ كما لو أنّ كلّ حبّة أعدّت على حدة من شدّة إتقانه . وقطعة دجاج مُحمَّرة تتوسّط أعلى الصّحن . ورغيفين من الخبز الطّريّ الّذي يطاوعك في التّثنّي وأنت تقتسم منه اللّقيمات . . . أكلتُ فطوري بشهيّة متناهية إلى الحدّ الّذي نسيت فيه أنّني أقبع في زنزانة انفراديّة . . . يبدو أنّ الجوع يوصل الإنسان إلى الهَذيان ، ويسحبه إلى متاهات الخيال . . .!!

لم أكد أكمل حتّى انتبهتُ ثانية إلى العودة لضبط بندول الوقت . . . إنّ فرضيّتي السّابقة ، تقول : سوف يبدأ الهياج ، وتعلو الأصوات في التّاسعة حين يُؤخذ المعتقلون إلى التّحقيق . . . وبما أنّ أذان المغرب يكون في السّابعة ، وباحتساب وقت الصّلاة ، ووقت الإفطار ، فإنّ الحجّي سيعود ليصيح لأخذ صينيّة الطّعام في حوالي الثّامنة . . . وبالفعل أيقظني من

موجة افتراضاتي صوت الحجّي ، هتفت كمن انتصر في حلبة مصارعة : نعم . . . السّاعة الثّامنة . . . لم يفهم الحجّي سببًا لصراخي ، رمقني بنظرة غاضبة وأخذ الصّينيّة ومضى . . . هُرِعت إلى أحد كتب التّفاسير بين يديّ ، وسأبدأ العدّ : بعد قراءة ما بين (٣٠ -٣٥) صفحة ستكون السّاعة حوالي التّاسعة ، إذا سمعتُ أصوات المعتقلين والحرّاس ، فسأثبت صحّة فرضيّاتي . . .

بدأ قلبي يدقّ بسرعة عندما أنهيت ثلاثين صفحة من تفسير القرطبيّ . . . بعد دقائق معدودة سمعتُ صوت باب زنزانتي يُفتَح ، ويدخل اثنان من الحرس . . . اقتاداني من يديّ ، وضعا العصابة على عيني ، وسارا بي لا أدري إلى أين . . .؟! ومع أنّ الموقف فاجأني ؛ فلأوّل مرّة أخرج بهذه الطّريقة ، إلاّ أنّني أملت رأسي إلى اليمين قليلاً ، وسألت حارسي في تلك النّاحية : أليست السّاعة التّاسعة؟! ظلّ الحارس صامتًا ولكنّه دفعني بقوّة أشدّ . . .

صوت مصعد يُفتَح ، ويغلق . . . هبوط أو صعود لا أدري . . . أدراج أخرى ، وممرّات رحتُ أعدّ خطواتي فيها لأعرف مسافتها ، غير أنّه كانت تقاطعني المنعطفات فجأة ، فيختلطُ العدّ عليّ . . . أخيرًا يبدو أنّنا وصلنا إلى غرفة التّحقيق . . .

دخلنا الغرفة ، أزالا العصابة عن عينيّ ، وانتظرا في الخارج . كانت الغرفة تبتلع مكتبًا يجلس إليه ضابط قدّرتُ عمره في السّتين ، قد وخط الشّيب رأسه . يلبس بدلة (فوتيك) عسكريّة ، لونها الأخضر الغامق قليلاً حرّك في نفسي شعورًا باللامبالاة . . . رفع بصره إليّ ، أسمر الوجه . . . عركتْه السّنون والأيّام ، غير أنّ الهدوء القاتل كان سِمَته الطّافحة . . . بدأ يقلّب أوراقًا بين يديه ، ثمّ هتف :

- يوميّات مواطن . . . السّلم للأجيال . . . عطش التّاريخ . . .يا زلمه إنتا ما بتّوب!!

- . . . . . .

- اسمك؟

- أيمن العتوم !!

- هذا الشّعر الّذي قرأت لك عناوين بعض قصائده . . . هل أنت كاتبه؟

- نعم ، وبكلّ فخر!!

- الشّعر الّذي يأتيك بالمصائب ، لماذا تكتبه؟ (الباب إلّي بجيك منّه رِيحْ سِدّه واسترِيْحْ)

- ومَنْ أدراني أيّ باب ستأتي منه الرّيح لأسدّه وأستريح . . .؟!

- ألم تُفصَل من الجامعة على قصيدة : السّلم للأجيال؟

- بلى !!

- فلماذا لم تتب عن قول مثل هذا الشّعر؟

- هل تاب العصفور عن غنائه . . .!!

- دعنا من فلسفاتك . . . ولا تجعل نفسك جريئًا هنا . . .

- أنا . . .

- هذا الشّعر يذهب بك إلى الدّواهي . . .

- وكيف لي أن أعرف . . .

- أليس وجودك هنا دليلاً كافيًا . . .

- للنّهر أن يسيل . . . ولكنّه يجهل أين يصبّ . . . يتدفّق بالغريزة ، ويسير حرّاً . . . حتّى لو وجد عقبة عاجلها بالتّماهي معها . . .

- (بصوتٍ أعلى . . . ونبرة تخويف) : قلت لك لا تتفلسف . . . ما في عندي هون حدا يُعرُط[(١)] عليّ . . .

- وإنت شو بدّك منّي . . .

---

(١) يُعرُط باللهجة الأردنيّة المحكيّة تعني : يكذب أو يستعرض .

- (بصوت آخر تخويفيّ) : اسكُتْ أنا الّذي أطرح الأسئلة ، وعليك أن تجيب . . . تفكّرنا مش عارفين كلّ شي عنّك ؟!

- طبعًا تعرفون كلّ شيء . . . أنتم تتقاضون راتبًا من أجل هذه المعرفة . . . أرجو أن يكون حلالاً . . .!!

فزّ الضّابط من مكانه وبعصبيّة واضحة رفع الأوراق ورماها بقوّة على المكتب . . . وعاود الجلوس ، بعد أن هدأ . . . ربّما شعر بأنّ موقفه أصبح ضعيفًا . . . .

- سؤال واحد وجوابه كلمة . . . هل هذا الشّعر لك؟

- قلت لك : نعم ، وأفتخر بذلك . . .

(ضغط على الجرس مطوّلاً . . . جاء الحارسان . . . شدّاني وأعاداني إلى الزّنزانة) . . .

يبدو أنّي أثرتُ حفيظة الضّابط في ذلك التّحقيق ، فبدأت المصائب تنهال بعدها . . .

جلستُ أفكّر في نصف السّاعة السّابقة ، وانتابني مزيجٌ مختلطٌ من الشّعور ، الفخر من جهة أنّني واجهت المحقّق بإجاباتي الخاصّة ، دون أن يجرّني إلى إجاباتٍ بعينها ، وأنّني امتلكتُ الجرأة على التّفلسف أمامه كما قال . . . ومن جهةٍ أخرى ، قلت لنفسي : لماذا أفعل ذلك؟ لماذا أجلب المشاكل لنفسي؟ لِمَ لا أختار أهون الشّرّين ؟!

لم يطل المقام بهذه الهواجس إلاّ بضع دقائق . . . إعادة إلى التّحقيق . . . سرتُ معصوب العينين . . . ولكن هذه المرّة بخفّة ونشاطٍ ملحوظين ، يبدو أنّ أقدامي أصبحت تعرف الطّريق . . . تُرى هل للأقدامٍ عيون . . .؟!!

دخلتُ . . . الغرفة ذاتها . . . المكتب إيّاه . . . المحقّق شخصٌ آخر . . . أقلّ في العمر من سابقه ، ربّما لا يزيد عن الأربعين . . . كان يلبس لباسًا مدنيًا . . . لا أدري كيف سيكون مستوى اللهجة مع هذا المحقّق الجديد . . .

السّابق كان يمكن نعته بأنّه هادئ ، غير بعض الشّعطات في النّهاية دفعتُه أنا إليها دفعًا ، وربّما كان ضجر الدّوام قد بلغ به منتهاه فتصرّف على النّحو الّذي كان . . . غير أنّ هذا يبدو وجهه بلا ماء . . . كان صفيقًا ، يلبس نظّارة تجعل من عينيه نقطتين غائرتين . صوته – عندما دعاني إلى الجلوس - كان حادًا ، أقرب إلى الزّعيق منه إلى الصّفير . . . بدا الأوّل مريحًا أكثر من هذا . . .

ظلّ صامتًا زمنًا ظننتُ أنّه طال لعشر ساعات ، ثمّ عدّل بإصبع سبّابته نظّارته ، وهتف :

– نحن لا نطلب منك شيئًا كثيرًا .

– . . . . .

– مجرّد اعتراف بسيط . . .

– . . . . .

– نحن نريد منك أن تأخذ فكرةً حسنةً عنّا . . .

– . . . . .

– نحن لسنا كما تظنّ . . .

– . . . .

– نحن مؤسّسة وطنيّة ، تحافظ على أمن البلد ، وأنتَ مواطن أردنيّ شريف . .

– . . . . .

بدا أنّه يرمي بدلو من المعلومات ، يريد توصيلها إليّ . . . تعوّدتُ في التّحقيق ، أن تنهال عليّ الأسئلة الصّارخة ، وتضرب رأسي بطرفها المُدبّب . . .

تابع بصوته الحادّ الّذي لفت انتباهي أكثر مِمّا فعلتْ كلماته :

– وقّع على ورقة أنّ هذه الأشعار لا تقصد بها . . . و . . . .

– و . . .؟!!!!

- ربّما تخرج من هنا . . .
- دعني أفكر . . .
- طلبٌ آخر صغير . . .
- . . . .
- اكتب قصيدة في عيد ميلاد . . . وسيقام من أجلها احتفال كبير ، وستُذاع على التّلفاز وفي كافّة المحطّات الإذاعيّة والصّحف . . . وستصبح مشهورًا . . .
قفزتُ من محلّي ، كمن لدغته عقرب . . . أحسست بعد اللّدغة بأنّ كفًا من حديد صفعت أذني اليسرى . . . بدأ الطّنين يغطّي السّمع ، ويُسدل ستارًا من الغشاوة أمام عينيّ . . . هتفتُ في سرّي :
- يبدو أنّني كنتُ متساهلاً إلى الحدّ الّذي تجرأ فيه أن يطلب منّي طلبًا وَقِحًا مثل هذا . . . صرخت :
- لا . . .!! أنا لا أتقن هذا النّوع من الشّعر . . .
وكأنّما شعر بالمفارقة بين هدوئي السّابق وهياجي الحاليّ ، مِمّا استدعى الذّهول لكي يَعبُر كلّ جوارحه ، فقابلَ رفضي بصراخ عالٍ :
- إحنا بنقدر نجيبك . . . إنتَ مش وطني . . . إنت ضدّ الوطن . . .
- وهل الوطن يتقزّم في شخص ؟!
زاد ذلك من حنقه ، فقال :
- والله . . . بنعمل . . . وبنقيم . . . ولا تفكّر حالك بطل . . .
وأرغى وأزبد . . .
رنّ على الجرس وهُرعَ الحارسان . . . زاد في وتيرة الأحداث الحالُ العصبيّة للضّابط . . . شدّاني . وبسرعة أكبر من السّابقة ، راحت رجلاي تلتهمان الدّرب إلى زنزازنتي . . .
ممنوع النّوم . . . أوّل الغيث قَطرٌ ثمّ ينهمر . . .
أردتُ أن أغفو . . . الإنهاك النّفسيّ السّابق ، ضاعف من جوعي إلى

النّوم ، فاستلقيت . . . ما كدت أفعل ذلك حتّى صاح الحجّي :

- وقّف يا . . . ممنوع النّوم . .

قعدت على الفرشة ، ولكنّه صاح . . .

- على الحيط .

امتثلتُ . . . وقفتُ وأسندتُ جسمي إلى الحائط . . . ظللتُ زمنًا لا أدري كم هو ، والحجّي لا يغادر أبدًا كوّة الزّنزانة . . . فأنا على مدار الدّقيقة تحت بصره . . . بدأ التّعب والنّعاس يُحكمان سيطرتهما عليّ . . . ارتخى جسدي فجأة ، وسقطت على الأرض . . . سارع الحارس إلى قرع الباب بشدّة أعلى ، وصياح يفوق سابقه :

- وقّف يا . . . قلتلك وقفّ . . . هسّه . .

جررتُ نفسي إلى الحائط . . . قاومت انهيار الخلايا في جسدي ، بدأ دبيب كدبيب النّمل يغزو راحة قدميّ ، حرّكتهما في وقفتي ، فتوقّف سرب النّمل قليلاً ثمّ عاد . . . قفزتُ إلى الأعلى ، شعرت به يقفز معي ويتدلّى خيطُه من تحت رِجليّ . . . هبطتُ إلى الأرض ، توقّعت أن أحْطِمَه بقدميّ هاتين وأتخلّص منه إلى الأبد . . . غير أنّني أدركتُ أن سرب النمل كان داخل قدميّ ، ولم يكن خارجهما . . .

تجاوزت مرحلة التّعب ، ودخلتُ مرحلة الهَذَيان : مِنْ . . . إلى . . . عَن . . . على . . . أحرف الجرّ . . . علّي صوتك بِالغُنا . . . لِسّا الأغاني مُمْكِنَة . .

نظرت بعينين نصف مغلقتين إلى كوّة الزّنزانة . . . رأيت شبح الحجّي ما زال يلازمها ، وجهه وحده كان يغطّي المساحة المنظورة كاملة . . . رأيتُ وجهه ينبعج مثل دورق الزّئبق إلى الدّاخل والخارج . . . أحسستُ بعينيه تَحْدَوْدِبان وتتقعّران بشكل دوريّ . . .

واتتني الشّجاعة في غير محلّها أردتُ أن أصرخ فتراجعت . . . بقيت مؤرجحًا مثل بندول السّاعة بين أن أحتجّ بصوتٍ عالٍ ، ولا أدري ما

المصيبة الّتي ستحلّ من بعد ، وبين أن أحتجّ في سرّي ، فاخترتُ الثّانية . هتفت في موجة الهذيان هذه : ترى من الّذي أعطاهم الحقّ بمصادرة حرّيّتي على هذا النّحو . . .؟! ماذا فعلت حتّى أقيّد هنا وأعتقل في هذه الغرفة المنسيّة . . . لقد كنتُ أتوقّع أن أجد احترامًا من الدّولة بدل أن تصفعني . . . ماذا فعلتُ في شعري غير أنّني رفعت صوتي عاليًا بـ : (لا) للصّلح والتّطبيع مع اليهود؟؟ هل من المعقول أنّهم كانوا ينتظرون منّي أن أمدح المفاوضات ، وأصطفّ إلى جانب المستسلمين ؟!!!

بدت لي هذه الوساوس مثل صراخ فيل في قعر محيط . . . تحوّلت إلى نفسي ، نظرت إلى قلبي ، شاهدتُ خفقانه يخفت شيئًا فشيئًا . . . أحسستُ بأنّه محرّك يتباطأ في دورانه ، عند آخر دورةٍ لهذا المحرّك سقطتُ على الأرض . . . سارع الحجّي بفتح الزّنزانة هزّني بعنفٍ . . . ورشق الماء في وجهي . . . صحوتُ مجدّدًا كمن نام قرونًا أثناء هذه السّقطة اللّذيذة . . .

دفعني باتّجاه الحائط . . . وأعاد الموعظة : ممنوعٌ النّوم . . .

حاولتُ أن أقول : إنّ النّوم ليس ضروريًا . . . ما أسهل القول ، وما أصعب الفعل . .!! الخطوة القادمة : الإقناع الدّاخليّ بالتّخلّي عن النّوم كحاجة إنسانيّة . . . ماذا لو ساعدني الله على ذلك؟! قلتُ في سرّي : أليس هو الّذي كتب علينا النّوم غريزةً وفعلاً إنسانيًا محضًا؟! فليساعدني بالتّخلّص منه الآن . . . لأنّه إن لم يحدث فستكون العواقب شرسة . . .

عاودني الهذيان مرّة أخرى . . . بدأ الضّعف الإنسانيّ يتسرّب إليّ . ماذا في الأمر لو وقّعت على الورقة الّتي يريدون؟! ماذا لو أنكرتُ صلتي بشعري كلّه؟ ماذا لو استغفرتهم ماضِيًّ كلّه؟!

ماذا . . . وماذا . . . وماذا . . .

بصقتُ على الأسئلة كلّها ، وصفعتُ جبهتي بكلتا يديّ ، وشتمتُ وساوسي ، وهتفت : أبهذه السّهولة تستسلم؟ أفي غضون ساعات تصبح

مقيّدًا بأصفاد أحلامك؟ ما هذا الانهزام المبكّر؟! على الأقل : اصمد بضعة أيّام ، حتى لا تجلد ذاتك في حالات الرّجوع إليها!!

النّظرات الأخيرة باتّجاه الكوّة جسّدت الهذيان في أبهى تجلّياته . . . رأيت الحجّي يصبح رقيقًا كقطعة قماش ، وينسلّ من الفتحة ، مثل تيّار هواء . . . ويجلس كضفدع أمامي . . . رأسه حلزونيّ ، وقوائم يديه تنتصبان كعمود أمام رجليه وقد أقعى على قفاه . . . فجأة ذاب من أمامي وسال على أرضيّة الغرفة . . . وشعرت أنّني سلتُ معه . . .

استيقظتُ في منتصف اللّيل . . . وقفتُ على قدميّ فَزِعًا . . . تلفتّ نحو الكوّة ، لم أشاهد شيئًا ، فركتُ عينيّ ودقّقت النّظر . . . بدت خالية إلاّ من الفراغ العميق . . . أدركتُ أنّ الحجّي تركني أغفو ، ربّما إشفاقًا عليّ . . . أو هكذا جاءته الأوامر . . . ولكن كم السّاعة . . . هل هبط الفجر وأذّن للصّلاة أم لا ؟! كان بندولي قد تعطّل بعد رحلة الهذيان اللّيليّة . . . افترضت أنّه أذّن . . . توضأت وصلّيت . . . ونمت . . . نمت كما لم أنم في حياتي . . . كم هو ممتعٌ أن تنام وشعورك يدعوك إلى ذلك ، دون أن ينقر غفوتك طائر الحذر فيوقظك في كلّ حين . . .

ما أجمل أشعّة الشّمس وهي تدخل عبر النّافذة العالية ذات القضبان الحديديّة إلى زنزانتك فتعلن لك عن دورة الحياة ، وهي تسير في دربها الأزليّ . . . لم تكن الشّمس تُصافح وجوهنا مباشرة . . . كان ضوؤها يصلنا عبر النّوافذ والشّقوق . . تعبرها في زاوية صُمّمت لتكون بخيلة في تعاملها معها . . . (وَتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ اليَمِيْنِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ) . . .

ألم أقل لكم إنّ الطّعام هنا مميّز . . . أُعلِنَ الفطور بصوت الحجّي ينادي لنأخذ الصّينيّة من الكوّة . . . مددتُ يدي بزهو مُبالَغ فيها ، وكأنّ طفلاً مشاكسًا في داخلي يقول له : لقد انتصرتُ عليكَ أمسِ . . .

بيضتان مسلوقتان ، وصحن من الحمّص ، وحبّة بندورة ، ورغيفان ،

وكأس شاي . . . لو كنتُ في بيتي فلن أطلب فطورًا أفضل من هذا . . . هل المعاملة الجيّدة تقتصر هنا على الطّعام فحسب . . . تساءلت!! ربّما . . .

قرع الحجّي الباب مرّة أخرى ، وبحركة أوتوماتيكيّة ناولته الصّنييّة ، لقد تعوّدت على النّظام المعمول به هنا إذًا . . .

بعد نصف ساعة يفتح الحجّي باب الزّنزانة ، يميل مع الباب ، ويخاطبني :

- تِتْشَمّسْ !!

خفضتُ رأسي ورفعتُ عينيّ كمن لم يفهم ، ثمّ زممتُ شفتيّ قَلِقًا . وكأنّه فهم أنّي لم أفهم . فأعاد :

- تِتْشَمّسْ!!

ظننت لوهلة أنّها حفلة تعذيب ، وأنّ التّشميس يعني التّعريض للشّمس في وسط الظّهيرة مع الضّرب . . . قفز الخوف كفأر في عُبّي . . . وبدأ قلبي يخفق كفم سمكةٍ أُلقيت خارج الماء ، وهتفت بصوت مبحوح ، وبتردّد :

- لا . . .لا . . .

فاجأه جوابي . . إذِ اعتقد أنّ التّشميس بالنّسبة للمعتقل هنا مُنية المنى ، وغاية الأحلام ، وأنّ المساجين ينتظرون هذه الكلمة بفارغ الصّبر . فقال موضّحًا :

- يعني تطلع تشوف الشّمس!!

هتفتُ كمن يردّد جوابًا حُبِسَ في فمه وانطلق فجأة من عِقاله :

- نعم . . . نعم . . .

- يلاّ وراي .

تبعتُه . . . فأخذني إلى ساحة فسيحة . . . على شكل مثلّث ، ضلعاه أطول من الثالث فيهما . . . تعلو كلّ أضلاعه بنايات ترتفع لخمسة طوابق أو ستّة ، وكلّ طابق فيه يبدو أنّه صفٌّ متتالٍ من الزّنازين . . . لم

أعد أذكر أنّ الشّبابيك الّتي رأيتها تصطف كعلب الكبريت على استقامة واحدة هي شبابيك الزّنازين أم شبابيك غرف التّحقيق أم مكاتب الضّبّاط؟! لا أدري . . . كلّ ما يهمّني في هذه اللّحظة أنّني شعرتُ بمساحة مذهلة من الحرّيّة . . . إنّ أيّ قطعةٍ زرقاء من السّماء تساوي نصف حريّة وثلاثة أرباعٍ كرامة . . . رحت أمشي وأعدو في المثلّث الفسيح كحصانٍ جامح ، أُطلِق من لجامه في السّهول الخضراء المُمْرِعة . . .

مؤكّد أنّ كثيرين قبلي هاجمتهم فكرة الهروب أوّل ما أطلقوا في هذا المهيع . . . غير أنّها ستبدو سريعًا فكرة ساذجة ؛ ذلك أنّ مثلّث التشميس لا يفتح على أيّ باب ، سوى الباب الّذي يُدخلك الحارس منه ويقف أمامه ، أمّا بقيّة الزّوايا فهي جدران تعلو أكثر من عشرين مترًا متلاصقة معًا . . . والباب الّذي تدخل منه يفضي إلى بناء المخابرات من الدّاخل ؛ فأين المفرّ؟!

رحت أركض كحصان بريّ ، وأقفز كغزال وسط أشعّة الشّمس الدّافئة . . . يكتشف من فَقَدَ الشّمس لليلتين أنّ متعة التّعرّض لدفئها لا تعادلها متعة أخرى . . . دفءٌ يحيط بجدار القلب فيشيع فيه جوًا من الطّمأنينة والسّكينة . . .

تستمرّ فترة التّشميس لثلث ساعة تقريبًا ، هكذا قدّرتُها . . . بعدها تعود إلى الزّنزانة ، وحين تستقر داخل جدرانها المصمتة ، تعيش على حلم أن يطرق سمعَك ذلك السّؤال الماتع : (تِتْشَمَّسْ؟!) غير أنّ سؤالاً كهذا يحتاج إلى أن تنزف كثيرًا من دم الوقت حتّى يفتديك ببعض النّور . . .

هبط الليل ثالثةً . . . بدأ الضّجر ورتابة الوقت ينهشان جلدي . . . وقفت ووجهي إلى الحائط أمسكت إصبعي كقلم . . . ورحتُ أخطّ بعض الأبيات . . . لا قلم . . . ولا ورقة . . . لو كان القلم لكتبتُ على يديّ . . . الممنوعات من هذا النّوع تستفزّني . . . هاجت بي عاطفة الشّعر . . . تذكّرت أيّام الجامعة والمساءات الشّتّوية الرّائعة . . . كنتُ في

حالة شعوريّة فريدة . . . وأخيرًا زراني ملاك الشّعر . . . . خاطبْتُني : ولكنْ قصيدتك هنا في الزّنزانة (٦٧) أين تكتبها؟! على صفحة ذهني ، أجبتُني . وكيف تحفظها؟! دعنا نفكّر في طريقة ناجعة . . . ماذا لو كتبتُ في ذهني بيتين ، وأعدتهما مرّتين لأحفظهما . . . ثمّ أنتقل إلى كتابة بيتين آخرين على صفحة ذهني ، ثمّ أعيدهما لأحفظهما مع البيتين الأوّلين ، الآن صاروا أربعة أبيات . . . بهذه الطّريقة كتبتُ القصيدة الأولى وحفظتُها ، بيتين أو ثلاثة في كلّ فاصل ذهنيّ ، وقفتُ في النّهاية بعد أن تأكّدتُ من حفظي لها ، ورحت أكتبها بخطوط وهميّة على جدار الزّنزانة ، كانت أمّي حاضرةً بقوّة حينها ، لم ينقطع تفكيري بها لحظة ، تخيّلتُها وقد أصابها الأسى على اعتقالي بهذه الطّريقة ، وتواصلتُ معها عبر أثير الخاطرة ، فأردت بهذه الأبيات الّتي كانت أوّل كتابتي للشّعر في الزنزانة أن أقوّي عزيمتها :

يا أمّ أيمن لا شكوى تردّينا
إلا إلى الله إنّ الله يحمينا
نموت من أجل أن تحيا عقيدتنا
ولا نذلّ لجبّار وطَاغينا
لقد وَرَدْنا على حوض الهدى شرفًا
فلا السّجون ولا التّعذيبُ يثنينا

واستمرّت القصيدة على هذا النّحو (١٨) ثمانية عشر بيتًا . . . .

غمرني شعور عميق بالرّاحة بعد أن أنهيتُ كتابتها في ذهني ، ومراجعتها حتّى ترسخ وتتثبّت ، وقلتُ : لا خوفَ عليها ما دامت في خزانة ذاكرتي ، وقد أُعطيتُ ذاكرةً جيّدة ، وإذا توفّر القلم والورق فيما بعد سأسارع إلى كتابتها مخطوطةً . . . شعور الرّاحة بعد الكتابة شعورٌ أصنّفه في الدّرجات الأولى من المُتَع الحسّيّة ، وكأنّ الحالة الشّعوريّة داءٌ خفيّ يمزّق جوارح المُبدع ، فإذا الكتابة شفاء هذه الحالة . أليست الكتابة شفاء؟!!

وكأنّ الكاتب يحمل آلام الأفكار الثّقيلة في حسّه ووِجدانه ، وتظلّ تهيج به وتُقلقه ، فإذا ولَدَها أصابته الرّاحة الكبرى . . . أليست الكتابة ولادة؟!!

تذكّرت جريرًا ، كان إذا أراد أن يهجو الفرزدق ، أطفأ على نفسه الضوء ، وتمدّد على الأرض ، وصار يحكّ جسده بتراب الأرض بحركة دائريّة مُؤلمة ، كأنّما يعذّب نفسه ليتخلّص من آلام ولادة الأبيات . . . ثمّ يهدأ فجأة من هذا الطّقس السّاديّ ، ويقوم فيضيء السّراج ، ويصيح : الآن تمكّنتُ منك يا . . . وما ذلك إلاّ لأنّ القصيدة في ذهنه بأفكارها وصورها وأساليبها قد اختمرت ، وحان حينُ إشهارها فيهدأ من دورانه الأليم . . . أليست الفكرة ألمًا ، والتّعبير عنها بلسمًا؟! بلى .

في اللّيلة الثّالثة هذه تنوّعت الكتب قليلاً . . . لم تعد وحدها التّفاسير تفدُ إليّ من كوّة الزّنزانة ، صار هناك بعض كتب الأحاديث كرياض الصّالحين ، وتطوّر الأمر إلى حدّ أن وصلتْني سيرة ابن إسحق ، بتهذيب ابن هشام . . . يا لجَوعي للقراءة!! إنّها الفعل الأكثر نجاعةً في هذا البحر اللّجيّ من الوقت البطيء . . . غير أنّي اشتقتُ إلى قراءة بعض الدّواوين الشّعريّة ، والرّوايات الأدبيّة . . . قلتُ : هذه أمنية يبدو أنّها مستحيلة التّحقّق ، وهتفتُ : يبدو أنّني بالغتُ في التّمنّي . . . قفز إلى ذهني فجأة سؤال غَفلتُ طَوال اللّيالي الثّلاث السّابقة عنه : ولكن لماذا وحدها كتب التّفاسير والدّين والسِّيَر النّبويّة هي الّتي تتسرّب إلينا؟! أمعقول أنّ أجهزة الدّولة تعُدّنا خارجين عن الإسلام ، أو ضالّين ، وتريد أن تُعيدنا إلى حظيرة الإسلام وتهدينا؟!! نعم . . . نعم ؛ لماذا هذا النّوع الوحيد من الكتب هو المسيطر هنا . . .؟!!

في التّاسعة أو هكذا قال لي بندول الوقت الخاصّ بي ، فُتِحَ باب الزّنزانة ، وجاء حارِسان ، فعلمتُ أنّها ساعة التّحقيق . . . تخيّلتُ لوهلة أنّها ساعة التّعذيب ، فقفز قلبي إلى ظاهر صدري رعبًا . . . ولكنّه ما لبث أن عاد إلى مكانه ، حين اطمأننت إلى كوني مجرّد شاعر يحمل أوراقًا

وأقلامًا ، وليس قنابل ومتفجّرات . . . كان قد تناهي إلى سمعي أنّ بعض رفقائي في الزّنازين المجاورة قد اعتقلوا على قضايا تفجير . . . ولكنّ الرّعب عاد ليسيطر عليّ : ماذا لو ألصقوا بي التّهمة معهم ، إنّ أجهزة الدّولة الأمنيّة قد تفعلها إذا كان ذلك يحقّق لها مصلحةً ما!! ولكنّ هذا الهاجس ما لبث أن تبدّد ، ولم يبدّده هذه المرّة إلاّ شعوري بالاعتداد بأنّهم لن يفعلوا ذاك معي مُطلَقًا ، فأنا . . . (توقّفتُ قبل أن أُتمّ ، ثمّ قلتُها) : فأنا ابن عشيرة معروفة ، أعني معروفة بولائها للنّظام .

المكاتب تختلف . . . والأشخاص يختلفون ، والأسئلة تتشابه ، بعضها ساذج ، لدرجة أنّ الشّاعر السّاكن في أعماقي يضحك ، بل يقهقه حين يسمعها . وبعضها روتينيّ عن الاسم والدّراسة والسّكن . وبعضها الآخر يحتاج إلى ذكاء في الإجابة ، وإلى انتقاء للكلمات . . . عند هذا النّوع الثّالث تفنّنتُ في استخدام ما أوتيت من بلاغة لغويّة ، وفصاحة وبيان ، من أجل أن أُموّه الأجابة ، وأشتّت ذهن المُستقبل لها . أكثر هذا النّوع الثّالث تركّز حول شعري . استقرّ المحقّق قبالتي ، والكاتب على يمينه .

- لماذا تكتب هذا النّوع من الشّعر؟

- لأنّي لا أستطيع أن أبقى صامتًا .

- أليس الصّمتُ وسيلةً للإفلات من العقوبة؟!

- ليس دائمًا . قد يكون سببًا في كارثةٍ كبرى .

- ماذا قصدت بقولك : . . . . . .

- كما فهمتَ تمامًا!

- لم أفهم . أريد أن أسمع منك ، فكلّ ما تقوله سيكون مُسجّلاً هنا في ورقة الإفادة!!

- . . . . . .

- هل تعترف بأنّ هذا الشّعر الّذي أمامي لك .

- ما تبتُ عن شعري ولا استغفرتُه ما أسخف الشّعراء لو هم تابوا

(مع الاعتذار لنزار قبّاني) .

- ما علاقة نزار قبّاني بالأمر؟!

- ليس له علاقة ، أنّا حوّرتُ كلمة (عشقي) في بيته إلى شعري ، وكلمة (العشّاق) إلى الشّعراء . . . ولكن لا فرق ، فالشّعراء هم أكبر العُشّاق .

- ماذا أطلب لك؟! قهوة أم شاي؟!

- . . . . .

- ألم تسمعني؟!

(يبدو أنّ الألفة رفعت رايتها بيننا ، وأنّ موعد فراقي لهذا المكان قد أَزِف . كرّر وهو يُشعل سيجارة ويأخذ منها نَفَسًا نفَسًا عميقًا) :

- قهوة أم شاي؟

- قهوة بدون سكّر . (منذ زمن لم أتذوّقها . . . فرصة ذهبيّة لا تسنح كثيرًا) .

- يا أيمن . . . يا بش مهندس . . . (قالها بكثير من الودّ) شو بدّك بوجع الرّاس . هسّه مش أحسن لو كنت في بيتك ، وبتكّمل دراستك؟!

- ﴿قُلْ لَنْ يُصِيْبَنَا إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ .

- ما اخْتَلَفْناشْ يا رجل . هوّ إنت بتفكّر احنا يعني كَفَرة . . . بس كمان في الدّين لازم توخذ بالأسباب .

- ومن قال لك إنّني لا آخذ بها .

- مشْ من الأخذ بالأسباب إنّك ما تحطّ حالك بها الحالة؟!

- أنا لم أضع نفسي بهذا المكان ، أنتم الّذين وضعتموني هنا .

- إنتَ واحد سوفاني راسك مسكّر .

- أحسن ما يكون مُرتَهَن!!

- تعال . وقّع على المحضر .

- أريد أن أقرأه أولاً .

- ماذا تقصد؟! (ابتسم) . هل تعني أنّك لا تثق بما دوّناه .

- . . . . .

- معك حقّ ، اقرأه كما تريد .

لم يكن فيه غير ما قلتُه بالفعل . وقعتُ عليه . وخرجت .

عدت من التّحقيق إلى الزّنزانة . . . عاصفة من الأفكار تجتاحني . . . هذه المرّة تُجاه عائلتي . . . بدأت محاولات المُحقّقين تتصارع في ذهني . أصابني دُوار التّفكير بالحرارة ، لذتُ بأفراح الرّوح ، لسيّد قطب ، لكي أبرّد بعض هذا الوهج . وردّدتُ مع صاحبها : «إنّ الشّرّ ليس عميقًا في النّفس الإنسانيّة إلى الحدّ الّذي نتصوّره أحيانًا . إنّه في تلك القشرة الصّلبة ، الّتي يواجهون بها كفاح الحياة للبقاء . . . فإذا أمنوا تكشّفتْ تلك القشرة الصّلبة عن ثمرة حلوة شهيّة» .

أشرقَتْ شمس اليوم الرّابع . . . كاد يمرّ بطيئًا وثقيلاً ، لولا أنّه حدث تغيّرٌ مُفاجئ . . . نُقلتُ ظُهرًا إلى زنزانة رقم (٩٥) . . . هتفتُ في سريّ وأنا أدخلها : إذا نُقلتَ من أجل وفود معتقلين جدد ، فلا بدّ أنّ نصف الشّعب الأردنيّ مُستضافٌ هنا!!

لم يكن في الزّنزانة شيء جديد ، يختلف عن سابقتها ذات الرّقم (٦٧) ، إلاّ أمران : الأوّل أنّني تخلّصت من الرّقم (٦٧) ذي الإشارة المَقيتة إلى النّكسة الّتي أطاحت بالجيوش العربيّة المهترئة ، ومكّنت لليهود في بلادنا . وقد تكشّف اليوم ولاحقًا أنّ الحكّام العرب المُبدعين في الحِفاظ على كراسيهم هم السّببُ الرّئيس في فقدان الأرض المُقدّسة . أمّا الأمر الثّاني ، فهو تغيّر طفيف في نوعيّة الكتب هنا ، مِمّا وفّر عليّ التّفكير بكيفيّة قضاء سحابة هذا اليوم ، وليلته الثّقيلة .

جاءني الحجّي على غير ميعاد ، وقتُ مجيئه قبيل الظّهر لم يكنْ مُسجّلاً في أجندة بندول الوقت الخاصّ بي . . . هتف :

- تِنْحَمَّمْ !!

- في حمّام هون؟!!

- نعم . . . يلاّ إذا بدّك .

- نعم . . . نعم . . .

(توقفتُ وأنا أهمّ بالخروج من الزّنزانة ، ولكن أين؟ وكيف؟ وليس معي أيّة ملابس أخرى . . . ولا ملابس داخليّة ، غير التّي ألبسها منذ خمسة أيّام . . . . وعلى افتراض أنّ هذا أمر يمكن السّيطرة عليه بغسل ملابسي القديمة ، فأين الجديدة . . . وأين المِنشفة الّتي سأستخدمها . . . كلّ هذه العقبات ذابت سريعًا وأنا أتخيّل نفسي (أَتَبَرْطَع) تحت الماء الّذي لم يمسّ جسمي طيلة هذه الفترة السّابقة . . . لتكن مشيئة الله هي الغالبة . . . دعنا نجرّب الأمر . . . وهل الحياة إلا تجارب وأخطاء ، ثمّ محاولات لتفادي الأخطاء؟!)

خرجتُ مهرولاً مع الحجّي . . .

مال بي عند آخر الممرّ إلى زاوية على اليمين . . . حيثُ كانت الحمّامات ، وهي عبارة عن مجموعة تزيد عن خمسة ، تصطفّ بجانب بعضها بعضًا ، يفصل بين حمّام وآخر جدار مبلّط يرتفع مترين ، وعلى كلّ جدار من الدّاخل (دوش) أما مدخل الحمّام ، فمفتوح للنّاظرين . . . لم يكن هناك من شيء يستر المتحمّم في الدّاخل . . . ورغم أنّ الحرج قد يأخذ بعض الواردين هنا إلاّ أنّه سرعان ما يزول لأنّ الخيارات معدومةٌ تمامًا . . . خلعتُ كلّ ملابسي ، وأبقيت على (الكلسون) فقط لأغطّي عورتي عن الفضوليّين والمتلصّصين من الحرّاس هنا . . . وفتحت (الدّشّ) على مداه الكامل . . . تسرّب الماء إلى جسمي فملأني بالنّشوة . . . لِمَ كلّ هذه المتعة بمجرّد أن يسيل الماء على الجسد . . . ألئنّ الجسدَ يحنّ إلى أصله . . . ألم يكن الإنسان ماءً . . . ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماء مَهِيْن﴾ . . . ظلّ رذاذ الماء ينهمر فوق جسدي الجائع إليه ، وكأنّني كنتُ أشربه لا أستحمّ به . . . درتُ حول نفسي . . . خبطتُ الأرض بقدميّ كطفل . . .

أنزلتُ رشّاش الماء إلى داخل . . . . تحرّكت فِيّ الشّهوة ، فكّرتُ أن . . . ولكنّي نهيت نفسي عن التّمادي . . . ربع ساعة تحت الماء في زنازين المُخابرات تساوي متعة يوم كامل في بركة سباحة ، المعهودات تصبح ثمينة إذا انحازت إلى صفّ المفقودات . . .

ليس من منشفةٍ هنا . . . أسرعتُ إلى ارتداء ملابسي الّتي ابتلّت لابتلال جسدي . . . وفي داخل الزّنزانة نشرتُ القميص أوّلاً على المغسلة ، خلعتُ ملابسي الدّاخليّة ، وعلى عجل ارتديت البنطال بدونها ، رحتُ - بكلّ ما أوتيت من قوّة - أعصرها لكي تتخفّف من ثقل الماء إلى أبعد حدّ ، ثمّ نشرتُها بالتّناوب على المغسلة والمِقعدة . . . بهذه الطّريقة استطعت أن أنشّف ملابسي وأعود للبسها من جديد . . .

هبط طائر الذّكرى على قلبي في تلك اللّيلة . . . رأيته حمامةً تغنّي على قضبان الزّنزانة من الخارج . . . حتّى الطّيور لها عاداتها في ممارسة الحرّيّة . . . وحين يؤسر الشّعراء تأتيهم لتخفّف عنهم وحدتهم ، وتشاركهم معاناتهم . أليس الشّاعر طائرًا غرّيدًا؟! كانت دُربتي على كتابة القصائد في صفحة ذهني ، قد أثمرت بعد المحاولة الأولى . . . هذه المرّة صارت أسرع وأوثق . . . . ألصقتُ وجهي بجدار الزّنزانة على عادتي في كتابة القصائد هنا ، ورحتُ أخطّ أولى أبيات القصيدة الثّانية :

كتبتُ فوق جدارِ السّجنِ أهواكِ
وفي لياليه شاقَ القلبَ نجواكِ
شقيّة أنتِ ما زالت تعذّبني
وتذبح الرّوح إن حنّت لذكراك

نزفتُ القصيدة على ليلتين متتابعتين . . . وليت أنّ هذا النّزيف أبقى شيئًا من الدّماء تسري في عروقي . . . لقد شعرتُ في النّهاية أنّني أصبحتُ إنسانًا آخر . تفعل الذّكرى بالنّفس من الأسى ما لا تفعله السّكين في الجسد من الألم . يبدو أنّ الذّكريات إذا كانت تستقرّ في

سويداء القلب ، فإنّ الإبقاء عليها دون استعادتها أفضل من استنهاضها ، لأنّها لا تنهض إلاّ وهي تجرّ خلفها أشلاءً ودِماءً . . .!!

مرّ على مكوثي في هذه الزّنازين ما يقرب من أسبوع . . . تحوّلتُ خلالها إلى إنسان آخر . . . لا أحدَ يبقى على حاله ما بين لحظتين ، فكيف بهذه اللّيالي الاستثنائيّة الّتي قضيتُها هنا؟! تذكّرت بيت كثيّر عزّة :

لقد زعمتْ أنّي تغيّرتُ بعدها

ومن ذا الّذي يا عزّ لا يتغيّرُ ؟!

نعم تغيّرت . . . وهل هناك إنسان لا يمرّ بما مَرَرْنا به ولا يتغيّر . . . مساحة الحنين اتّسعت لتملأ كلّ عرق نابض فيّ . . . صارت تُبكيني لحظات الذّكرى . . . صارت تُجهشني آيةٌ كنتُ أمرّ عليها آلاف المرّات قبل هذا ولا تحرّك فيّ ساكِنًا . . . الآن بمجرّد النّطق بها ، تسيل دموعي على خدّيّ أنهارًا . . . صرت أبكي لأدنى الأسباب ، أشعر أنّ البكاء متعة . . . لم أكن أبذل أدنى مجهود يُذكر لأستهلّ دمعة عابرة على وجنتيّ . . . ما أسهل أن تبكي . . . ما أجمل أن تبكي . . . ما أروع أن تبكي لترتاح . .!! أرتاح . .!! أرتاح من ماذا؟ من ذكرياتي . . . من قصائدي . . . من مسيرة حياتي . . . من ألوية أشواقي . . . من منابع حنيني . . .!!

بعثوا بي إلى الطّبيب في إحدى اللّيالي . . . لم أدرِ لماذا يفعلون ذلك؟ لا أشكو من شيء . . . إذا سَلِمْتُ من رماح الذّكرى ، ومن سكاكين الشّوق فأنا بألف خير . . . ولا طبيب يدّعي أنّه يستطيع معالجتي منهما!! دخلتُ إلى غرفته البيضاء في كلّ شيء . . . السّرير أبيض . . . الملاءات بيضاء . . . الأردية بيضاء . . . حتّى السّتائر كانت تتوهّج بياضًا . . . قفزتْ أبيات أمل دنقل إلى رأسي المُتخَم بالحبّ :

كان نِقاب الأطبّاء أبيض

لون المَعاطف أبيض

تاج الحكيمات أبيض
الملاءات . . . لون الأسرّة . . .
أربطة الشّاش والقطن
قرص المنوّم ، أنبوبة المصل
كوب اللّبن
كلّ هذا يشيع بقلبي الوَهَنْ
كلّ هذا يذكّرني بالكَفَنْ

آه . . . لو كان بياض القلب يحكم علاقات البشر ، ما اختصم اثنان إلى قاضٍ . أجرى الطّبيب فحوصه الخاصّة به . . . يبدو أنّهم يهيّئونني للانتقال من هنا ، ويريدون تسليمي (ساغ سليم) إلى الطّرف الآخر .

صباح يوم الخميس ١٩٩٦/٩/١٢م . . . كنتُ صائمًا . . . أيقظوني في العاشرة تقريبًا . . . المسافة الّتي قطعتُها مع الحرّاس ، أكّدتْ لي مبكّرًا أنّنا لسنا ذاهبين إلى مكتب التّحقيق . ثمّ إنّ بندول الوقت دائمًا كان يشير إلى التّاسعة مساءً ، وليس العاشرة صباحًا حينَ كان يُؤخَذ بي إلى التّحقيق . . .

مسافات ، وأدوار ، وطوابق . . . قبل الخروج إلى ضوء الشّمس ، جاء شرطيّ وقيّد يديّ بغلظة ، وهذه المرّة قيّدهما إلى الخلف ، شعرت بإهانة عميقة ، إضافةً إلى ألم شديد في يديّ ، وأحسستُ بأنّ الدّم يسيل منهما . . . التواء يديّ ضاعف من هذا الشّعور المؤلم ، دفَعني بلا مبالاة إلى الباب ، حيث كانت سيّارتان تنتظران في الخارج . . . رُميت في الكرسيّ الخلفيّ للسّيّارة المدنيّة ، وأسرع للرّكوب إلى جانبي مُسلّحان . . . وقفز اثنان إلى السّيّارة العسكريّة . . . وخَرَجَتا من المكان . . .

(٤)
«اعْمَلُوا عَلَى مَكانَتِكُمْ إنِّي عامِلٌ»

كانت السّيّارة العسكريّة في المقدّمة تُطلِق صافرتها التّحذيريّة . . . وي وا . . . وي وي وا . . .

مَرَرْنا بطرق كثيرة لم أعرف منها شيئًا . . . شعورُ الاعتداد بالنّفس عاوَدني مع شدّة الألم الّذي كان يحزّ رُسغي . . .

قَطَعَتِ السّيارة مسافةً طويلة . . . إشارات مرور . . . طلوع . . . نزول . . . إسراع . . . إبطاء . . . توقُّف . . . مَسير . . . ولا أحد يشعر بالألم الكامن في أعماقي . . . قبل أن تستقر السّيّارتان تمامًا في إحدى السّاحات علمتُ بأنّنا وصلنا إلى محكمة أمن الدّولة في ماركا شرقيّ عمّان . . .

إذًا ستُعقَد لي محاكمة عسكريّة . . . لم أكن أعرف قبل هذا أنّ محاكمة عسكريّة قد تُعقد لرجل مَدَنيّ . . . ضَحِكَت المحكمةُ وهي تستقبلني حتّى أنّها فَغَرت فاها ، وكادت تسقط على الأرض من شدّة الضّحك . . . ولمّا لم تسقط مدّت ذراعيها إليّ وخِلتُها تريد أن تحتضنني ، غير أنّها سارعت بلطمي على وجهي مِمّا كان له أثر الصّاعقة عليّ ، وعقدت الدّهشةُ السّاحرةُ لساني ؛ فبقيت صامتًا صمتَ القبور الدّارسة .

دخلتُ مُكبّلاً ومُحاطًا بحراسة شديدة . . . لوهلة - وأنا أرى القُضاة والمدّعين العامّين باللّباس العسكريّ وبالرّتب الصّفراء على الكتفين ، والحمراء على الرّقاب - ظننتُ أنّني قدتُ انقلابًا عسكريًا دون أن أدري . . . الخطوات الّتي رحتُ أخطوها متعثّرًا ، ويد الحارس تدفعني من الخلف في الممرّات والدّهاليز في محكمة أمن الدولة تُشعِرك وأنت مُحاط

بالجنرالات الرّائحين والجائين ، أنّك جزء من منظومة عسكريّة بالغة الأهمّيّة ، شعرتُ بذلك حتى وأنا مقيّد ، ويداي تلتويان خلفي . . . مشيتُ في تلكم الممرّات كأستاذ يتفقّدُ تلاميذَه في الصّفّ . . . ربّما سأنزع بعض الرّتب العسكريّة عن بعض هؤلاء التلاميذ إذا لم يُتقِنوا الاستماع إليّ ، ولم يُجيدوا فهمي على النّحو الّذي أريد!!

أخرجتْني من هذه الخيالات الواسعة يدُ أحد الحرّاس حين شدّني بغلظة وأدخلني إلى غرفة أحد المدّعين العامّين . . . ارتميت على أقرب كرسيّ من المدّعي العامّ ، غير أنّه صرخ في وجهي صراخ الحانق :

- قفْ . . . أين تظنّ نفسك؟!

- . . . .

- أنتَ في محكمة عسكريّة .

- . . . .

- أنتَ متّهم وعليك أن تقف عند الباب ، ولا يحقّ لك الجلوس!!

- . . . . .

- هل هذه أوّل مرّة تَقِف فيها أمام القاضي!!

- . . . . .

استدعى هذا الصّراخ ، وهذه الأسئلة الصّاخبةُ الحُرّاسَ على الباب ، غير أنّني عاجلْتُهم بالوقوف ، قبل أن يُمارسوا هوايتهم في انتزاعي من الكرسيّ .

لم يكن التّحقيق هناك مُوسّعًا بالمعنى الكافي . . . يبدو أنّهم أخذوا ما يبتغون من معلومات في تحقيقات المخابرات . غير أنّ بعض الأسئلة توجّهت إلى بعض أبياتي وسألوني عن معناها . . . شرحتُ معاني أبياتي كما كنت أفعل حين أشرح قصائد (المتنبّي) لِعُشّاقه . . .أو قصائد (المجنون) لُمتيّميه . استرسلتُ في الشّرح ، حتّى نهرني المدّعي العامّ . أغلق المِلفّ بين يديه ، بعد أن وقّع بعض الأوراق .

خرجنا هذه المرّة ليس إلى السّيّارتين السّابقتين ، يبدو أنّه ولّى عهد السّيّارات بعد اليوم إلى غير رجعة !!

في شاحنة عسكريّة صغيرة ، أحسستُ أنّها مُخصّصة لنقل السّجناء الخطيرين ، أُدخِلتُ بقسوة . . . كان الظّلام في الدّاخل سيّد الموقف ، جلستُ على صفّ خشبيّ وحدي ، وأُغلق دوني باب الشّاحنة ، وعلى طرف هذا الباب كان هناك فسحة بعمق متر جلس فيها شُرطيّان مُسلّحان على الجانبين ، وفصل بيننا ذلك الباب ذو الطّاقة الشّبكيّة ، يُطلّ فيها السّجّان على سجينه ، ليطمئنّ أنّه لم يهرب ، ولم يَمُتْ ، ولم يتبخّر ، ولم يُغمَ عليه . . . كي يوصِل الأمانة إلى الطّرف الآخر . . . ثمّ أُغلق الباب الثّاني من الخارج على الشرطيَّيْن . . .

لم تكن الطّريق من محكمة أمن الدّولة إلى (سجن الجويدة) بعيدة بالمعنى الجغرافيّ الحرفيّ . . . لكنّها بالمعنى النّفسي طالت كما لو كنّا نسير في التّيه ، قبل أن نصلّ أربعين عامًا . . .

سجن الجويدة - الّذي وصلناه والشّمس تطبع قبلة وداعيّة على الأرض قبل أن تغيب - بدا أكبرَ من سجن (الباستيل) ، وأعلى شموخًا من سجن (ليمان طُرة) ، بل أوسع من سجن (تزمامارت) ، غير أنّ الفرق بينه وبين سجن (تزمامارت) أنّه لم يُبْنَ في الصّحراء . . . فُتِحَ الباب الكبير وتأكّدت أنّني دخلتُ الجنّة للتّوّ . . .!! كانت الزّنازين الانفراديّة في سجن المخابرات قد جعلت هذا السّجن يبدو وكأنّه الفردوس الأعلى . . . أيقنت من اللحظة الأولى أنّني سأدخل إلى عالَم آخر . . . تحكمه قوانين خاصّة ، ويقطنه سكّان مُختلفون يصنعون طرائق عَيْشهم بأنفسهم . . . مَنْ قال قبلي : إنّ السّجن حياةٌ داخل حياة . . . مدينةٌ داخل مدينة . . . عالَمٌ لا يشبه أيّ عالَم آخر . لم أكن بعد قد قرّرت أيُّ الحياتين أفضل أو أكثر غِنىً ، وأيّ المدينتين أكثر إدهاشًا ، وأيّ العالَمين أرحبُ مدًى !!!

لفظت الشّمس أنفاسَها الأخيرة ، وتركت وراءها ساحة السّجن

الأولى الّتي تقع بمحاذاة الإدارة دافئةً كأنّها الأمّ الرّؤوم . أشار عليّ الشّرطيّان أن أجلس على صفٍّ من المقاعد الحديديّة لأنتظر تصنيفي في السّجن .

جلستُ كما لو كنتُ أجلس على شاطئ بحرٍ ناعم الأمواج ، في مساءٍ ربيعيّ ساحر ، وصرتُ أقلّب بصري في المكان كما لو أنّه امتلأ بطيور النّورس . . . أعجبني هذا التخيّل ، فصرت أرى نفسي أرمي للطّيور ببعض الحَبّ ، فتلتقطه جَذْلى ، ثمّ يحطّ بعضها على كتفيّ فأمدّ يدي لها بالحَبّ محاذرًا ألا يأتي جسمي بأيّة حركة تزعجها فتغادر مهبِطها الّذي أَلِفَتْه السّاعةَ . . . منذ قديم كنتُ أحبّذ أن أقول عن نفسي : (إنّني أُطعم العصافير القادمة من الجبال الشّماليّة)!!

أيقظني من الخيالات اللّذيذة شرطيّ قَدِمَ من جهة الإدارة يحمل في يده مِلفًا ، ويدنو منّي قائلاً : أيمن علي . فأجبته : نعم . . . أشار إليّ أن أتبعه ، فمضيتُ معه إلى غرفةٍ في قاطع الإدارة ، هناك أخذ المعلومات الكاملة عنّي ، وأعطاني لباس السّجن ، وهو عبارة عن قطعتين زرقاوين ، واحدة للجزء الأعلى وأخرى للجزء الأسفل . وحين فردْتُهما أمام عينيّ ، سارعتُ إلى القول : إنّهما لا يمكن أن يُلبساني ، فهما ضيّقان ، وأنا سمينٌ لَحيم!! فأشار إلى مجموعةٍ من (الأفرهولات الزّرقاء) مُكوّمة خلفه ، وقال مُستطرفًا : قَرْمِزْ وَنقّي!! قرمزتُ بالفعل ، وكلّما رفعتُ قطعةً أستخبرها ، أجد أنّها إمّا أن تكون قصيرة الأرجل ، أو ضيّقة الوسط ، أو مَشقوقة ، أو مثقوبة ، أو ذات رجلٍ واحدة ، أو بمطّاط تالف ، أو بغير مطّاط ، أو كَحَت لونها حتّى لم تعد زرقاء ، بل صارت بيضاء . . . وبعد جهدٍ بالغٍ استطعت أن أُقارِبَ بيني وبين قطعتين وجدتُهما الأدنى إلى تمثيلي خطّيًا وبيانيًا .

كان أذان المغرب قد ارتفع ، وأنا صائمٌ . . . لم يطل المقام كثيرًا حتى سرتُ خلف الشّرطيّ الّذي أوصلني إلى غرفةٍ عرفتُ فيما بعد أنّها تقع في

التّرتيب الثّاني من اليمين في المهجع (ب) وتُسمّى (المستودَع)، ويبدو أنّها بالفعل كانت مُستودعًا لحاجيّات أفراد الأمن العاملين في السّجن، وأنّها غير صالحة للسّجناء، ولّما امتلأ السّجن عن بكرة أبيه، وفاض بالسّجناء حتّى رَكِبَتِ الأَسِرّةُ بعضها، لم يجدوا مناصًا من البحث عن مساحات جديدة لإيواء السّجناء، فكان هذا المستودَع من نصيبنا . . .

فتح الشّرطيّ الباب الخارجيّ المُغلَق بقفل ومزلاج حديديّ، ودَفَعَني إلى الدّاخل، فدخلتُ وكان دخولي إلى غرفة المستَودَع، بداية عهدي الجديد في هذا السّجن.

بل إنّها بداية المعرفة الحقيقية لعالَم السّجناء . . . من هنا ستبدأ الحياة دورتَها الخاصّة، وسنقف مُتابِعين، ومُشاهِدين، ومُتفاعِلين، غير أنّ تجاربنا هنا ليست بالدّرجة الأولى نابعة عمّا عشناه أو صنعناه نحن، بل هي نِتاج ما عاشه الآخرون وصنعوه، فأثّر فينا، وكتبَ على صفحة قلوبنا أنّ هناك دائمًا حياةً غير الّتي نحياها!!

خطوتُ أولى خطواتي في غرفتي الجديدة، كتلميذ يتهجّأ أولى أبجديّات اللّغة، ويلثغ بأبسط العبارات . . . تعثّرت، أو لم أتعثّر. كنتُ أبدأ المشي على حافّة الحبل، ولم أكن بهلوانًا في حياتي، وكنتُ أجرّب السّباحة في اليمّ العميق، ولم أكن قد تدرّبتُ على ذلك يومًا . . .

خطوة ثانية إلى عمق الحياة الجديدة، ونظرة أولى إلى القابعين في الجوف، لأشاهد أصدقاء السّجن للمرّة الأولى . . . وعلى خلاف ما كنتُ أتوقّعه، لم أشعر بالرّهبة بعد النّظرة الأولى، يبدو أنّ خيالات ما قبل النّظرة، رسمَ غاباتٍ من التّرقّب للمجهول، والتّوجّس من الآتي . . . غير أنّ نظرة واحدة كانت كفيلة بأن تهدم صروحًا أرسخَ من ناطحات السّحاب، وتنسف بنيانًا أعلى من برج هامان . . .

خطوة ثالثة، وكأنّ الرّفاق أحسّوا بتملّك الدّهشة والغربة من شراييني، فهتف أحدهم الأبعد في المسافة والأقرب في الفهم: تعالَ.

اجلس . شارَكْنا الأكل . وكطفلٍ جائعٍ في عائلة غريبة ، لم يجرؤ على أن يمدّ يده إلى مائدة العشاء الأوّل ، خوفًا ورهبةً ، سَقَطَتْ هذه الكلمات على جوفي بردًا وسلامًا . . . رميتُ القطعتين الزّرقاوين اللّتين كانتا ما تزالان تُشغلان يديّ . . . وهبطتُ على حلقة المجموعة هبوطَ الطّير على دائرة الحَبّ . . . سأسمّيها من اليوم : دائرة الحُبّ . . .!!

جلستُ - بعد أن وسّع لي أحدهم ، لأكمل الدّائرة . . . لم أمتلك المكان بعد ، وما زال هو الّذي يمتلكني ، ويستحوذ على مجموع مشاعري . . . كيف لي أن أتخلّص من سطوته ما لم أُجِلْ بصري في أنحائه كي أجمعها في زاوية قلبي ، فيصبح ملكًا لي بدل أن أبقى ملكًا له . . . وهذا ما فعلتُ . . .

كانوا خمسة وكنتُ سادسهم الّذي علمّهم الدّهشة . أمّا سابعنا فبنظرةٍ واحدة اكتشفتُ أنّه يجلس في الرّكن القصيّ الأقرب إلى الباب ، حيثُ كنّا نحن السّتّة نجلس في العمق الأبعد عن الباب . بدا السّابع كأنّه منبوذ ، أو كأنّه إبليس مطرودًا من الجنّة . ولأنّه لا يحقّ لي في هذه الفترة حتّى أن أستغرب مِمّا أرى ، فقد ازدردتُ لقمتي ، وأنا أجيل بصري في مجموعتي الجديدة . . . يا للرّحمة الّتي سقطت من السّماء . . . يا الله . . . يا الله . . . كم أنتَ رحيمٌ بعبادك . . . لن أحادث نفسي كالمجنون بعد اليوم ، ولن أهذي مثل أبله في الطّرقات . سيكونُ هناك بشرٌ . . . نعم بشرٌ يسمعونني وأسمعهم ، يُخاطبونني وأخاطبهم . . .

لم تغادرني الدّهشة الطّفولية الّتي اعترتْني أوّل دخولي هنا بعدُ . ما زلتُ أتطلّع في الوجوه كأنّها هي الّتي أنقذتني من السّقوط في الهاوية ، بعد أن وقفتُ على حافّة الجرف ، مع أنّها لم ترني من قبل ولم أرها .

بدأت أقرأ الوجوه ، يا لَها من نعمة!! في الزّنازين الانفراديّة لم يكن أمامي غير أن أقرأ الجُدران ، ووسيلتي الوحيدة للتّواصل معها ، كانت بأن ألصق وجهي بها ، وأستخدم إصبعي كقلم ، وفمي كورقة ، ويبدأ

الحوار . . . هنا الأمر في غاية الرّحابة والسّعة لديّ خمسة وجوه ، بل ذلك الوجه القصيّ هو السّادس . . . كم يلزمني من الوقت لأدقّق النّظر في الوجوه وأقرأها كي أتواصل معها . إنّ للوجوه حكاياتٍ لا يَسْتَكْنِهُهُا إلاّ المتأمّلون . . . إنّ لتفاصيل الوجه حكايا تختبئ لأزمنة لا يعرفها إلاّ المهووسون ، قد تمتدّ لشهور أو لسنين ، أو ربّما لقرون . . . تخيّلوا أنّ أحد هذه الوجوه استطعتُ أن أقرأ في غضونه روايات تمتدّ لقرون . . . أنا لا أبالغ ؛ صدّقوني ؛ وسأقنعكم بذلك لاحقًا .

مضت اللّقم تهبط في الحلاقيم ، ومضت الأفواه تنطق بالمفاهيم . . . وبدأنا حفلة التّعارف الأولى . . . كنّا كأصحاب الكهف ، جمع بيننا سوطُ السّلطة ، فأوينا من لسعاته إلى هذا الكهف ، لنبدأ حكايةً بيّنة لا يتنازع أمرَها بيننا أحدٌ .

الأوّل الّذي على يميني ، كان ذا لحية سوداء تضربها الحمرة لتميل بها إلى الشّقرة ، وشعره كثّ ، يُرجعه إلى الخلف ، نحيلاً ، عيناه كلون زيت الأرض المقدّسة قبل أن يحول عليها الحول . صوته دافئٌ ، فيه نغمةٌ رفيفة ، يكاد يملك سمعَك بإيقاعها العذب . يحمل شهادة الماجيستير في الشّريعة ، واختار له أبوه اسم : (عليّ) .

الثّاني ؛ بدا نحيلاً ، ضيئل الجسم ، أسمر الوجه ، مُجعّد الشّعر ، عيناه سوداوان شهلاوان ، ولحيته المنتشرة على مساحة الوجه تغطّي ثلاثة أرباعه ، ذا فم صغير ، إذا تحدّث بانت أسنانه ، وشيءٌ من لثّته الحمراء . لكثرة ما حدّثّني - لاحقًا - عن الذّئاب ، خِلتُ أنّه أحد ذئاب الصّحراء الّتي رواها الشّنفرى في لاميّته . لا تفتأ أصابعه تتحرّكُ أمام ناظريك حينَ يُحدّثك كأنّما هي تهمّ بافتتاح سميفونيّة موسيقيّة لموزارت وهو عرّابها ، يميل رأسه إلى اليسار غالبًا ، يصمت فجأة ، ويضحك فجأة ، وإذا ضحك دوّت ضحكته حتّى عرَفها مَنْ سَمِعها دون أن يُخطِئها ، وقد تخرّج في قسم الهندسة المعماريّة . واختار له ذووه اسم : عكرمة .

الثالث، كزميليه، بدا نحيلاً، مُفرطًا في النّحول، حتّى صدق عليه قول المتنبّي:

كَـفَى بِجِـسْـمِي نُحُـولاً أَنّنِي رَجُلٌ
لَوْلا مُـخَـاطَبَـتِي إيّاكَ لَمْ تَرَنِي

عيناه هادئتان، تميلان إلى خُضرة الرّبيع قبل أن يُهاجمها الصّيف، شعره كثّ نثر مقدّمته كما ينثر الرّامي كِنانته، إذا مشى بدا أنّه ينقل الخطو على ما يرسم، يقفز كأنّ إحدى رجليه أطول قليلاً من أختها، إذا ضحك أغمض عينه، ورنّتْ ضحكته في أذنك، غير أنّه يقطعها فجأة فيصمت كأنْ لم يضحك من قبل. دافئ المودّة إذا حادثكَ شعرتَ بقربه منك كأنّك تعرفه من أمد بعيد. واختار له أهله اسم: يوسف.

هؤلاء الثّلاثة كانت تُهمتهم واحدة، وتجمعهم علاقة قربى واحدة، ومن بلدة واحدة.

أمّا الشّخص الرّابع، فكان قصيرًا، سمينًا، ذهب الصّلع بشعر رأسه، وخالطت السّمرة بشرة وجهه. ولم أعد أذكر ماذا اختار أهله له من اسم.

أمّا الخامس، فكان سمينًا طويلاً، حاجباه كثّان، ينهدل شيء من شعرهما على عينيه، فتبدوان نصفي عين، وهما عينان خضراوان، ويملك دُكّانًا لبيع العسل، وحُجِزَ هنا لوشاية من أحد زبائنه، يقول إنّها كيديّة. هذا كلّ ما أذكره منه، فقد أكلت السّنون وتقادُمُها ذكراه في قلبي، فغاب في حُجُبِ الأيّام، حتّى كأنّه ما كان.

وأمّا السّادس الّذي كان ينتحي منبوذًا في الزّاوية القريبة من الباب، فكان مربوعًا، قد ناهز الخمسين من العمر، لحيته وَخَطها الشّيب، فاجتمع فيها اللّيل والنّهار، ووجهه سميك، وعيناه تبرقان، ورأسه أشهب زحف الصّلع إلى مقدّمته، فاكتفى بذلك ولم يُهاجِم ما تبقّى منه. يمسح بطرف إصبعه أنفه ناشقًا، كما لو كان مُصابًا بزكام دائم. عرفتُ أنّه كان يعمل مهندسًا مدنيًا في السّعوديّة، ومتّهم بالتّجسّس لصالح إسرائيل؛ وهذا ما

فسّر نَبْذَ المجموعة له ، فهو يأكل وحده ، وينام في الطّرف القصيّ ، ولا يُسمَح لأحدٍ من المجموعة بالتّحدّث معه .

وهكذا جمعتْنا جدران غرفة المستودع ، موقوفين إلى أن تأخذ قضايانا مجراها ، وتحكم علينا المحكمة . . .

أمّا لماذا وفدتُ ضيفًا على هذه المجموعة ، ولم أَفِدْ على غيرها ؛ فذلك لأنّ المحكمة الّتي تختص بالنّظر في قضايانا جميعًا هي محكمة أمن الدّولة .

كان المستودع رحبًا قياسًا إلى الزّنازين الانفراديّة الّتي عشتُ فيها أسبوعًا كريتًا في سجن المخابرات . يمتد طولاً لأكثر من ستّة أمتار ، وبعرض أربعة . غير أنّه قديم ، وغير مُعتنَى به البتّة . ولم يكن مُهيّأً في الأساس لاستقبال المساجين ، ولكنّ سعة السّجن وأعداد النّزلاء حَكَمَت بإعادة فتحه لاستقبالنا . أوّل دخولك من الباب ، يواجهك على يمينه الحمّام ، وهو بعرض متر ونصف ، وبهذا الطّول كذلك ، به ماسورة مرتفعة إلى الأعلى ، تُسمّى - مجازًا - (دُشّ) ، وفي زاويته مِقعدة لقضاء الحاجة . يلي جدار الحمّام ، سريرٌ حديديّ ، وفي صدر المستودع ، سريران ، وعلى يسار الدّاخل كذلك سريران ، وكلّ الأسرّة من طابقين ، مِمّا يعني أنّه كان هناك خمسة أسرّة ذات طابقين ، وتتّسع لعشرة مساجين . وكنّا سبعة .

الأسرّة مصنوعة من الحديد الوطنيّ ، ويبدو أنّها صُنعت في السّجن نفسه ، ذات قوائم رقيقة ولكنّها صلبة ، ولم أشهدها يومًا تئنّ تحت وطأة ساكنيها ، مع أنّه تعاقب عليها سجناء كُثْر وذوو أجسام ضخمة . وفي أسفل هذه الأسرّة هناك قضبان مُسطّحة بعرض (٢) سم ، ومتشابكة تُشكّل أرضيّة السّرير الّتي تستقرّ فوقها الفرشة . والفرشة - عادة - من إسفنج رخيص غير مضغوط ، إذا نمتَ عليها أحسست بتقاطع القضبان وهي تَحْتكّ بجلدك . ولا أدري لماذا كانت هذه الفرشات جميعها مُغطّاة بقماشٍ زهريّ اللون!!

يُسمّي السّجناء السّرير هنا (البَرْش) ، ويبدو أنّ هذه اللّفظة شائعة عند أغلب السّجناء ليس في الأردنّ وحده ، بل في سجون الوطن العربيّ الممتدّة من البحر إلى البحر .

في الفسحة المستطيلة المتبقّية من غرفة المستودع بعد احتجاز الأسرّة للجزء الآخر ، كنّا نقيم صلاتنا . . . وكانت تهوي على الأرض - هناك - جِباهُنا ، وتنبسطُ في السّجود عليها أكفُّنا . . . وكانت الصّلاة نورًا يضيء العتمات الصّامتة ، وضياء يُشعّ في أعماقنا الحائرة . . .

قضيتُ ليلتي الأولى في المستودَع وأنا أحاول أن أبتلع ما تبقّى من الدّهشة الّتي اعترتْني أوّل دخولي . . . لم أكن بعد قد عرفتُ أشياء كثيرة عن القوانين الّتي تحكم السّجن هنا . . . كان هناك كثيرٌ من الأمور الّتي يجب أن أتعلّمها . . . أوقات دخول الحمّام ، شراء بعض الحاجيّات ، المساجين وطبائعهم ، وطبيعة قضاياهم ، الاستيقاظ والنّوم ، أوقات الطّعام ، الطّابور الصّباحيّ . . . وغيرها . . .

لم أستطع النّوم في اللّيلة الأولى في المستودَع ، ظلّت أحلام اليقظة تُطاردني ، وظلّ قلق السّؤال يُصدّع رأسي ، رحتُ أفكّر في هذه الرّفقة الجديدة ، وأتأمّل سقف الغرفة المرتفع لأكسر حاجز الزّمن ، وأنظر إلى جهة الباب الّذي يطلّ على ساحة فسيحة ، وأتخيّل الحرّاس يجوبون السّاحات أو يتلصّصون علينا ، ظللتُ أتأرجح بين الخوف والاطمئنان ، إذا داهمني خيال الحرّاس رحتُ أتقلّب على فراشي كمن لدغته أفعى ، وإذا نظرتُ إلى شركائي في الغرفة وهم ينامون ليلهم الطّويل ، ذاب شبح القلق وطيف الخوف في الفراغ المُعتِم . غير أنّه صدق فِيّ في تلك اللّيلة ، قول النّابغة :

فَبِتُّ كَأنّي سَاوَرَتْني ضَئِيلَةٌ

مِنَ الرّقْشِ في أنيابِها السّمُّ ناقِعُ

وفي همهمات الرّوح المتعبة ، وبقايا الجسد المُتهالِك ، استسلمتُ أخيرًا للنّوم .

هزّني عكرمة من يديّ ، فسارعت إلى الوقوف فَزِعًا ، ضَحِكَ . وصاح : صلاة الفجر . ما أجمل أن تضع نفسك بين يدي الله منفردًا ، وما أروع أن تمارس ذلك الطّقس مجتمعًا!!

لم أعد إلى النّوم بعدها . بدأت خيوط فجر يوم الجمعة ١٣/٩/١٩٩٦م تتسلّل من نافذة الباب ، إذ لم يكن في الغرفة نافذة سواها . شعرتُ بالحياة ثوبًا شفيفًا ناصع البياض يغمرني . إذًا الحياة تستمرّ في عطائها . والموت يقف في صفّ المتفرّجين يراقب دورتها ، ويمدّ يده إلى دوّامة البشر - أحيانًا - فليتقط روحًا قضى عليها الأجل المكتوب ، فينزعها من هذه الدّورة ، غير أنّها لا تتوقفّ ولا تحفل بمن مضى ، ولا حتّى بمن دخل إليها جديدًا . الموت والحياة لاعبان مُحترِفان يمارسان دورهما بإتقان دون أن يسبّب أحدهما للآخر الارتباك .

فتح الشّرطيّ باب المستودَع ، وبدأتُ أسمع أصواتًا مختلطة تأتي من كلّ الجهات . خرج المساجين من مهاجعهم . وفُتِحت الأبواب على مصراعيها ، ورحتُ أرى السّجناء كالنّمل يدورون في ساحة المهجع الفسيحة ، يسيرون بسرعة ، كأنّهم يحاولون اللّحاق بموعدٍ ويخشون التّأخّر عنه . كانوا يمشون زُرافاتٍ ووِحدانا في خطوط مستقيمة ، يضعون أيديهم خلف ظهورهم ، ويتكلّمون كأنّهم خرجوا من القبور جائعين إلى الكلام . أصواتهم في الصّباح الباكر حلّت محلّ أصوات العصافير ، ولكنّها كانت أقرب إلى صوت صفير الأوراق في وادٍ يصطخب جَرَيانُ الماء في قعره .

خرجتُ مع الخارجين ورحتُ أُجيل بصري في الفضاء المُتاح ، لأرسمَ صورةً عن العالَم الجديد الّذي صرتُ أحدَ نُزلائه!!

يبدأ السّجن بقاطع الإدارة ، الّذي يحتلّ الجزء الأيمن عند دخولك من الباب الكبير . .

في تيّار اللّهاث وراء المجهول ، وفي حَمْأةِ المشي السّريع الّذي كان فيه السّجناء يبدون ممثّلين يلعبون دورًا مرسومًا ، وجدتُ نفسي أنخرط في

منظومتهم ، بدأت أمشي دون أن أعي لماذا؟ أو كيف؟ يجرفك الغالب الأعمّ ويوقعك في خضمّ سيوله ، ولا تمنح نفسك فرصة التّفكير فيما تفعل . أهي فكرة القطيع؟ ربّما . لا أدري أين قرأت تلك الأسطورة الّتي تقول : إنّ أهلَ قريةٍ نزل عليهم المطر فأصابهم بالجنون ، ولكنّه لم ينزل على قصر ملك هذه القرية ، فلم يصب هذا الملك بالجنون ، فصار كلّما تحدّث ، أو تصرّف تصرّفًا مُعيّنًا ، استغرب منه أهل القرية ، وقالوا : هل جُنّ الملك؟ لماذا يتصرّف على هذا النّحو؟! والملك يستغرب من ردّة أفعالهم ويرى أنّ أهل قريته كلّهم أصبحوا مجانين ، ويهتف بينه وبين نفسه : لماذا أصبح كلّ شعبي مجانين؟! ما الفائدة في أن أحكمَ قطيعًا من المَعاتيه؟! كان النّاس جميعًا وهم كلّ مَنْ في القرية يرون الملك مجنونًا ، والملك وهو فرد يرى أنّ أهل قريته مجموعين هم المجانين . هل تتغلّب الجماعة على الفرد؟! هل يضطرّ الفرد إلى الاعتراف بما ليس فيه حتّى يقبله المجموع العامّ؟! لو كنّا مُراقبين من الخارج فمن نقول عنه إنّه مجنون . بلا شكّ طَرَح الملك هذا السّؤال على نفسه ، فوجد أنّ أحدًا لن يصدّقه في اتّهامه أهل القرية كلّهم بالجنون ، فحينها تمنّى لو يصبح مجنونًا مثلهم ، لأنّه إن حدث ذلك فسيصبح عاقلاً من وُجهة نظرهم ، وسوف يسودهم ويعود ملكًا عليهم من جديد!!

إنّ النّاس تقدّس السّلطة ، وترهبها . ولكنّ الكثرة تغلبها إن أصرّت على منازل الرّأي ، وثبتت على ما تقتنع به . هذا ما حدث . وجَدّي كان يلخّص ذلك بقوله : (إذا انْجَنّ رَبْعَكْ عَقْلَكْ ما بِنْفَعَكْ) . في تلك السّاحة الفسيحة ، سألتُ نفسي عشرات المرّات : مَنْ فينا المجنون يا تُرى؟ وصدّقوني لم أجد إلى اليوم إجابة شافية على هذا السّؤال!!

لم أنظر في المرآة إلى وجهي ، منذ ما يزيد عن أسبوع . ليس هناك من وسيلة لفعل ذلك . المرايا لا تعرف زنازينَ السّجون ولا مهاجعَها . وهناك تواطؤٌ سرّيٌ ما بين هذه المرايا والجدران ، يقضي هذا التّواطؤ بألاّ تُمدِّدَ المرايا

نفسها على الجدران، مقابل أن تهب هذه الجدران السّجناء مساحة من الرؤيا الّتي تتجلّى بالاستبصار. كيف أبدو اليوم؟ لا أدري. وكيف تبدو أعماقي؟ لا أدري على وجه الدّقّة. غير أنّ هناك شيئًا يُمكن أن يُحسّ ولا يُقال يستطيع المحاولة ببعض الإجابة. وعلى أيّة حال لم يكن من الصّعب أن أعرف فيما لو نظرتُ إلى قلبي. وهنا في هذه الإشراقة تجلّت لي أبيات ابن عربي المُعتَّقة، حينَ أنشد:

سَلامٌ عَلَى سَلْمَى وَمَنْ حَلَّ بالحِمَى
وَحُقَّ لِمثْلِي رِقَّةً أَنْ يُسَلِّما
وماذا عَلَيها أن تَرُدَّ تَحيّةً
عَلينا، ولَكنْ لا احْتِكامَ إلى الدُّمَى
سَرَوْا وظَلامُ اللَّيْلِ أَرْخَى سُدُولَهُ
فَقُلْتُ لَهَا: صَبًّا غَريبًا مُتَيَّما
فَأَبْدَتْ ثَناياها، وَأَوْمَضَ بارِقٌ
فَلَمْ أَدْرِ مَنْ شَقَّ الحَنادسَ مِنْهُما
وقالَتْ: أَمَا يَكْفيهِ أَنّي بِقَلْبِهِ
يُشاهِدُني فِي كُلِّ وَقْتٍ، أَمَا؟ أَمَا؟!

انظر إلى القلب، ترَ ما لا تراه إذا نظرت إلى زجاج المرايا. شتّان بين دم يسيل، وبين خيال يجول. وهيهات أن تُحاكِي الأطيافُ وهي خادعة الدّماءَ في تجلّيها وهي صادقة. إنّ مرآة القلب هي الحقيقة، ومرآة الزّجاج هي تزييف لهذه الحقيقة.

نظرة أخرى إلى السّجن، تُريك عالَمه الفسيح. قاطع الإدارة الّذي يحتلّ يمين البوّابة، يبدو الأصغر حجمًا، إذْ ما حاجة إدارة السّجن إلى عدد يساوي عدد النّزلاء لِضَبْطِهم!! على يسار البوّابة الكبيرة يقع المهجع (أ) وهو أكبر المهاجع. يقطنه ما يزيد عن ستّمئة شخص، في غرف كلّها تلامس الأرض، ولم أعدْ أتذكّر عددها؛ ذلك أنّني قطنتُ المهجع (ب)

وهو بعيد شيئًا ما ، ولم أكنْ أستطيع الاختلاط بسجناء ذلك المهجع . أمام غرف الإدارة وأمام المهجع (أ) في زاوية قائمة ، تربض السّاحة الكبرى ، الّتي يُفتَرض أنّها ساحةُ ملعب ، يفرّغ فيها السّجناء طاقاتهم الجسديّة والنّفسيّة ، لتخفيف آثار الكبت الجنسيّ ، قبل أن يُصيبهم هذا الكبت بالسُّعار . بيدَ أنّ هذا الملعب لم أره - خلال إقامتي هنا - يُستخدَم مرّة واحدة لهذه الأغراض الشّريفة!! أكانت الإدارة لا تهتم بالهياج الجنسيّ الّذي يُصيب النّزلاء؟! أينَ كانت تظنّ أنّهم يفرّغون هذه الحمولات الزّائدة؟!!!

على الجانب الثّالث للملعب - بعد جانبَي الإدارة والمهجع (أ) - يقع سجن النّساء . كنّا نعرف أنّهنّ موجودات ، من خلال الصّياح المفاجئ الذي كان يتناهى إلى سمعنا من حينٍ لآخر في اللّيالي الطّويلة ، بعد أن يكون السّكون والهدوء قد فَرَد جناحيه على عالَمنا المسحور .

في نهاية هذا الملعب من جهة الغرب ، وفي الجانب الرّابع والأخير منه ، يرتفع درجٌ بسيط تستطيع أن تصعده لترى بقيّة مهاجع السّجن . عندما تُنهي الدّرجات الّتي لا يزيد عددها - في تقديري - عن خمس عشرة درجة ، وتستوي بك الأرض يواجهك المهجع (ب) حيثُ قضيت شطرًا من عمري المقدور فيه . إذا وقفتَ ووجهك للغرب ، ثمّ ملتَ إلى اليمين ، تجد أوّل غرف هذا المهجع ، وإذا تقدّمت على هذا الحَرْفِ خطوات أخرى فستصل إلى المُستودَع ، حيثُ نقطن ، وهو في آخر هذا الجانب ، يليه غرفة سجناء أحداث الخبز الّتي عُرفت بانتفاضة الخبز عام ١٩٩٦م . أمّا الجوانب الثلاثة المتبقّية فتستقرّ على كلّ جانبٍ غرفتان إلى ثلاث ، تضمّ عددًا أقلّ من سجناء المهجع (أ) . في مهجعنا هذا ساحةٌ جيّدةٌ للمشي ، غير أنّه أصغر من ساحة الملعب .

في الزّاوية الغربية من المهجع (ب) يتربّع المهجع (ج) كَقَصْر ، وهو آخر هذه المهاجع ، ويتكوّن من غرفة واحدةٍ فحسب ، وهو مُجَهّز بوسائل رفاهية

ليست موجودة البتّة في بقيّة المهاجع . من ذلك على سبيل المثال ، أنّ كلّ غرفةٍ في كلّ مهجع تحتوي جهاز تلفاز واحد ، تتزاحم عيون أكثر من ثمانين سجينًا على البحلقة فيما يعرضه . أمّا في هذه الغرفة الوثيرة ، فإنّ لكلّ سرير جهاز تلفاز خاصًا به ، يتدلّى من السّقف ، مُثبّتًا أمام السّجين ، وإذا دخلتَ إلى هنا ، ونظرتَ نظرةً عامّة هالَكَ مشهد الأجهزة الّتي تقارب العشرة تتدلّى من السّقوف بانتظام ، وبفنٍّ مُحكَم ، فيخيّل إليك أنّك في فندق أو في أحد المُنتَجعات الرّاقيَة . كان هذا المهجع مُخصّصًا لرجال الأعمال . وللمحكومين من الأثرياء جدًا ، وكانت إحدى قضاياه قضيّة بيع أو تسويق الخادمات السّيرلانكيّات في الأردنّ في تلك الفترة ، والّتي جنى منها صاحبه عشرات الآلاف ، بل مئات الآلاف من الدّنانير!!

وكثيرًا ما شاهدتُ أحد هؤلاء الأثرياء الموقوفين في مهجع (ج) يقدّم خدمات ترفيهيّة لسجناءَ مقطوعين من مهاجع أخرى . كان هؤلاء السّجناء يتهافتون على التّوافد إليه في مهجعه بعيدًا عن أعين الرّقباء من الشّرطة ، ويتسلّلون إلى مخدعه ، ويتساقطون بين يديه تساقط الذّباب على الطّعام ، وكان كلّ سجين من هؤلاء المتجمهرين تحت رجليه أو بين يديه ، مستعدٌّ لتقبيل قدميه ، أو تقديم أيّ خدمة أخرى كجلب ما يطلب من أغراض من دكّان السّجن ، أو أيّ شيءٍ آخر مقابل باكيت من الدّخان ، الّذي كان يُعدّ كنزًا لسجين طال غياب أهله عن زيارته ، وانقطع عنه - بسبب هذا الغياب - أفيونه المُفضّل . وكم شاهدت هذا الثّريّ ، يمدّ يده النّاعمة ، وهو يُمسك بيد الأخرى سيجارته الغالية الثّمن فيسحب منها نَفَسًا استعلائيًا ، ويتابع السّجين يده الحرّة ، وعيناه تركضان وراء مسيرتها نحو طرف السّرير السّفليّ ، فيتناول (كروزًا) من الدّخّان ، ويفتحه بطريقة دراماتيكيّة ، والعيون والأنفاس تتابع حركة اليد بفارغ الصّبر ، وتلهث خلف المشهد ترقّبًا ، ويسيل منها اللّعاب شوقًا إلى إكسير الحياة ، ثمّ يأخذ الثّريّ من هذا الكروز باكيتًا ، ويمدّ به إلى السّجين العبد تحت قدميه ، فيتلقّفه الأخير

تلقّف الغريق لحبل النّجاة ، وحالما يحصل على هديّته النّفيسة ، ينطلق لسانه بالدّعاء المحموم ، ويغادر المكان وهو يكاد يتمزّق فرحًا . وتتداعى من بعده أسراب الذّباب ، فيعطي بعضَها بعضَ الطّعام ، ويكشّ بعضها الآخر بيده ، وأحيانا يدوسها بقدمه ، فتخرج من عنده كسيرة الفؤاد ، كاسفة البال . غير أنّها لا تفقد الأمل في العودة مرّة أخرى ، لعلّها تحظى بالعطف والحنان من السّيّد المنّان!!!

هذا هو المشهد العامّ للسّجن . ويبدو أنّ المهندس المدنيّ الّذي صمّمه ، اعتمد فكرة الامتداد الأفقي ، مِمّا أعطى بعض الحرّيّة في إرسال الطَّرف في الفراغ ، وهو أمرٌ غاية في الأهميّة بالنّسبة لمن فقد حريّته ، ويحاول أن يستعيدها ، أو يستعيد بعضها ، حتى ولو على طريقته الخاصّة!!

فوق أسطح هذه الغرف الأفقيّة الّتي ترتفع حوالي أربعة أمتار تتوزّع الأسلاك الشّائكة لتحاول أن تُوقعَ في شَرَكِها كلّ مَنْ تُسوّل له نفسه التّفكير - مجرّد التّفكير - بالهرب . ويتمركز على الأسطح - في أغلب الأحيان - قنّاصة مُستعدّون لأيّ ظرفٍ طارئ . وتتوزّع كاميرات المراقبة على جوانب المهاجع ، ويدخل بعضها إلى غرف المساجين للسّيطرة على كلّ حركةٍ أو سَكَنة ؛ وللتّلصّص على الحركات المَريبة .

أغلبُ السّجناء هنا موقوفون ، يُغادرون هذا السّجن كُلٌّ إلى محكمته الخاصّة بقضيّته ، ويعودون إليه . وإنْ لم يخلُ من بعض المحكومين . تتنوّع ألوان القضايا الموجودة هنا ؛ فهناك القتل ، والسّرقة ، والاحتيال ، وجرائم الشّرف ، والشّيكّات ، والاغتصاب ، وقضايا أمن الدّولة المختلفة كالتّجسّس ، والتّفجيرات ، والتّخطيط للاغتيالات ، والمُخدِّرات ، . . . وغيرها . أمّا قضيّتي - فهي وإن كانت من اختصاص أمن الدّولة - فلم أعرف مُسمّاها إلى اليوم ، ذلك أنه لم توجّه لي التّهمة حتّى السّاعة من خلال المدّعي العامّ أو القاضي!!

إنّه صباح يوم الجمعة . . . انسللتُ إلى التيّار ، وصرتُ أمشي مع

الماشين ، وبلا مبالغة صنعَ هذا المشيُ مجالاً من الحرّيّة ، وهامشًا من الطّيران لم أعهده من قبل . هتفتُ في سرّي : إذًا يستطيع الإنسان حتّى لو كان في السّجن أن يُمارسَ طقوس الحرّيّة الّتي وُلِدَت معه!! ويمكنه من خلال الأسلاك الشّائكة أن ينظر إلى الأفق!! إنّ الحواجز المادّيّة تبدو بسيطة ضئيلة ليست ذات قيمة أو أهمّيّة أمام فضاءات الرّوح . دَعْ روحك تحلّق ، ترَ العالَم يبسط أمامك لوحة الجمال ذاتها!!

لم أكد استمرّ في المشي حتّى رأيت من بعيد ، عكرمة يصيح بي : أنْ تعال إلى الفطور . يأتي رجال الشّرطة ، ويفرّغون أمام كلّ غرفة - بحضور الشّاويش - الفطورَ . وعادة ما يكون البيض المسلوق ، والخبز ، والزّيتون .

الشّاويش هنا تعني مسؤول كلّ غرفة ، إذ إنّ لكلّ غرفة شاويشًا - وهو أحد المساجين فيها - يقوم برعاية مصالح أفراد غرفته ؛ وذلك من خلال شراء بعض السّجائر لمن أراد ، وشراء بعض الحاجيّات من دُكّان السّجن كالقضامة ، والبسكوت ، والدّخّان . يمكنك أن تعرف الشّاويش من خلال قلم الحبر الّذي يعتلي أعلى أذنه ويستقرّ فوقها ، تراه يدور على المساجين ، حاملاً ورقةً غالبًا ما تكون إحدى جوانب (كروز الدُّخّان) ليسجّل فوقها اسم النّزيل وما يحتاجه . الشّاويش هنا رجل محترف ، وهو يمارس دوره بإتقان طاغ ؛ لطالما استمتعتُ بمنظره ، وهو يمدّ يده إلى أذنه ليتناول القلم من هناك بطريقة مرسومة ، وكوميديّة لا تخلو من طرافة ، يضع القلم في فمه ، ويزيل غطاءه بأسنانه ، يركز الورقة على أحد الجدران ، أو على رُكبته ليتمكّن من تسطير المطلوب ، ثمّ يغمعم - بسبب غِطاء القلم العالق في فمه - :

- شو بدّك؟!

- باكيت دُخّان (فيسروي) . (لم يكن «الكنت» و«المالبورو» موجودين إلاّ عند نزلاء المهجع «ج») .

- وإنت!؟!

- وقيّة قضامة . . . فيه بزر؟!

- شو بتفكّر حالك بفندق الرّيجنسي . بس قضامة ، ومعفّنة . وزيّ الحجر . بدّك بدّك . ما بدّك للّي قالته ليلى .

- يا زلمه مالك عصّبت . أنا قاعد بس بسأل .

- اطلع من راسي . مش فاضيلك . في عندي خمسين واحد بستنّوا الطّلبات .

- طيّب . . . طيّب .

- وإنتَ؟

- حفّاية بلاستيك . بس قدّيش سعرها؟!

- خمس وسبعين قرش؟!

- ليش . . . كانت بنصّ!!

- شو ليش!! إنت حمار ، ولا ما بتسمع .

- . . . .!!

- صار في ضرايب جديدة ، ولا إنتَ مش عايش بها العالَم!!

(صحيح!!!! في أيّ عالَم يعيش السّجناء؟!)

ويستمرّ الحِوار على هذا النّحو . أتعمّد الإصغاء إلى مثل هذا النّقاش أحيانًا . وجدتُ فيه نوعًا غريبًا من المتعة . لا أدري كيف أصفها اليوم . ولا أعرف السّبب في ذلك . ربّما جوعي إلى حوارٍ حقيقيّ خارج صفحات الرّوايات الّتي أصابني الإدمان عليها منذ زمنٍ بعيدٍ ، هو أحد هذه الأسباب!!

لم يكن سهلاً أن يتبوّأ أيّ نزيل هذا المنصب ؛ أعني (شاويش الغرفة) . إذ كانت له شروط عديدة ، وحاسِمة . ومن الصّعب توافرها في السّجناء ، كانت هذه الشّروط قد لا تنطبق على أكثر من ٢٪ من السّجناء . وإذا فاز السّجين بمنصب شاويش الغرفة ، فإنّ فرحته بذلك أشدّ من فرحة الوزير بالوزارة!!

يُختار الشّاويش حسب مواصفات مُحدّدة ، أعترف اليوم بأنّها أكثر

دقّةً وأمانةً ومسؤوليّةً ، من انتخاب النّائب في البرلمان ، أو اختيار المسؤول في الحكومة!!

على الشّاويش المُنتَخب أن يكون أقدم سجناء غرفته ، وقد يكون لأحد السّجناء عشر سنين ، ولا يحصل على هذه المرتبة ، فيُقدَّم من هو أقدم منه . وعلى الشّاويش أن يعرف القراءة والكتابة ، إذ إنّ هذا يؤهّله لكتابة الطّلبات . وعليه أن يُجيد الحديث وتلخيص مضامين المُقتَرَحات المُقدّمة من السّجناء ليواجه بها الإدارة إذا اقتضى الأمر ذلك . وعليه أن يكون راغبًا في المنصب ، وتبعاته ، إذْ إنّ عليه مسؤوليّات يجب أن يؤدّيها على أكمل وجه ، وإذا أخفق فيها ، فإنّ الثّقة من قبل زملائه في الغرفة تبدأ بالتّأرجح والاهتزاز ، وقد يتعرّض للإقصاء إذا استمرّت إخفاقاته ؛ (يعني أنّ مبدأ المساءلة والمُحاسبّة قائم هنا وشفّاف)!! . (وأسأل : هل هذه الشّفافية هي الّتي تحكم علائق المسؤولين خارج هذا السّجن مِمّن يتربّعون على الفُرُش الوثيرة ، والمكاتب الفخمة!!) ، وعلى الشّاويش أيضًا أن يكون فُتوّة ، وسريع الحركة ، ومُبادِر (وأقارن هنا بين هذا المسؤول وبين المسؤولين الآخرين الّذي تتدلّى كروشهم أمامهم) . وعلى الشّاويش في النّهاية أن يكون مقبولاً عند جميع سجناء غرفته ، ويمتلك من الكاريزما الشّخصيّة ما يؤهّله أن يملأ مكانه دون مُنازِع .

ولكن أمام هذه المسؤوليّات الجِسام ، ما المميّزات الّتي كان يحصل عليها الشّاويش ، حتّى يتقاتل على هذا المنصب ، ويتنافس عليه أكثر من مُرشَّح؟!

آه . . . هناك أشياء كثيرة ؛ فالشّاويش يتمتّع بحرّيّة الحركة أكثر من كلّ المساجين الآخرين ، وبما أنّ الإنسان هنا يتوق إلى ما يفقده ، فقد كانت الحرّيّة أعزّ مفقود . كان الشّاويش يستطيع أن يخرج من غرفته في معظم الأوقات ، ويذهب إلى دُكّان السّجن ، ويعود ، والآخرون يكونون في تلك اللحظة محرومين حتّى من الخروج خارج باب غرفتهم . وكان يمتلك

حرّيّة التنقّل بين مُفردات الدُّكّان وانتقاء الأغراض بيده ، ودفع الثّمن من النّقود الّتي تتجمّع من المساجين بين يديه . وكلّ هذه الأمور يفتقدها المساجين أجمعون ، ولها من المتعة ما لا يعرفه إلاّ مَنْ جرَّب فقدها .

وكان الشّاويش يملك قلمًا ، ويملك حرّيّة أن يشتري قلمًا ، ولم يكن أحدٌ منّا يحوز هذه الميزة الكبيرة والسّاحرة في آن معًا . على سبيل المثال ؛ لقد كنتُ من الّذين ينظرون إلى القلم المتربّع على أذن الشّاويش كما لو كان ملكًا مُتربِّعًا على عرشه ، أو كما لو كان أسدًا رابِضًا في عرينه ، لقد كانت أسمى أمنياتي في الشّهر الأول من وجودي في السّجن أن يكون لي قلمٌ أخبّئه كنزًا ثمينًا في ثنايا بَرْشي!!

وكان الشّاويش يُستمال من بعض المساجين ، ببضعة قروش يدفعونها له ، مقابل أن يخدمهم في مشترياتهم ، فينتقي لهم ما يظنّون أنّه الأفضل . أو لا يُسمْسِرُ أغراضهم فيحتجز بعضها مقابل خدماته الجليلة . لم تكن القروش القليلة مبلغًا قليلاً بالنّسبة للشّاويش ، إذ كان عدد السّجناء في بعض الغرف يزيد عن ثمانين سجينًا . ولم تكن أحلام الشّاويش تتجاوز سقف سجائر الدّخان ، إذ إنّ هذه القروش تجلب له هذه النّعمة الكبيرة . كان تدخينه على حساب ما يجمعه من القروش!!

وكان الشّاويش هو الّذي يسجّل أسماء المساجين الّذين لهم زيارات ، وفي يوم الزّيارة كان يستطيع التّمتّع بالوقوف مع بعض رجال الشّرطة .

وأخيرًا للشّاويش الشّعور التّامّ بهيبة السّلطة ، ومتعة القيادة حتّى ولو كانت - في نظر الآخرين - محدودة ، إلاّ أنّها عالَمٌ من التّفرّد بالسّلطة ، الّتي سعى لها الإنسان منذ بدء الخليقة!!

الغريب أنّه لم يكن لغرفتنا شاويش ، والسّبب أنّنا كنّا قليلي العدد ، فضَمَمْنا أنفسنا إلى شاويش إحدى الغرف الأخرى ، ليتولّى أمر تلبية مُشترياتنا!!

الزّيارات في سجن الجويدة تتوزّع على يومين ، هما : الجمعة والأحد .

تبدأ السّاعة التّاسعة وتنتهي في الواحدة ظهرًا .

تتمّ الزّيارة حين يُنادَى على اسم السّجين عبر سمّاعات السّجن . إذا جاء أقرباؤه أو ذووه ، فهم يُعطون اسمه للمُنادِي ، والمُنادِي أحد أفراد رجال الأمن ، يجتمع لديه الفوج الكامل ، وعادة ما يكون مُشكّلاً من أسماء خمسين إلى ستّين سجينًا ، يبدأ بالمناداة عليها . ويُهرَع السّجناء إلى شبك الزّيارة حالما يسمعون أسماءهم . وهناك طريقة أخرى ، يصطفّ الزّوّار في طابور طويل ، ويقف الشّرطيّ عند الميكروفون ، ويطلب منهم أن يتقدّموا إلى هذا الميكروفون ، ويُنادِي كلّ زائر على اسم السّجين الّذي ينوي زيارته ، يسمح له بتكرار الاسم مرّتين ، حتّى يعرف السّجين أنّه نودِي عليه . ذلك أنّ السّماعات في بعض الأحيان تكون مُشوّشة ، وأحيانًا تُصبح بَكْماء . يحدث أحيانًا أن ينادي الزّائر عبر السّماعات على اسم السّجين المَزُور ، وينتظر على شبك الزّيارة فترةً من الزّمن دون طائل ، مِمّا يستدعي العودة مرّة أخرى إلى الميكروفون ليُسمَح له بالمناداة عليه من جديد .

عندما يبدأ وقت الزّيارة ، يتشوّف كلّ مَنْ في السّجن إلى سماع اسمه . بل إنّه يُصيخ السّمع لمكبّرات الصّوت كما لو كان يستمع إلى آياتٍ من القرآن الكريم ، ويقف عندها خاشعًا متبتّلاً . . . وقد يُنادَى أحيانًا على بعض النّزلاء ، فتراهم يُهرَعون إلى مكان الزّيارة كما لو أنّهم يَسعَون بين الصّفا والمروة ، أو كما لو أنّهم يُسارعون إلى الحجر الأسود كي يستلموه . . . ويحدث في بعض الأحيان أن يتشابه الاسم الأوّل دون سواه مع المُنادَى عليه ، فإذا قيل عبر السّماعات : محمّد . . . رأيت كلاً من يحمل هذا الاسم في السّجن يتحفّز ، ويقفز لدى سماعه الاسم ، يودّ لو أنّه هو . . . وحين يُتلى الاسم الثّاني . . . لا يركض إلاّ الشّخص المعنيّ ، وينكص الآخرون على أعقابهم خائبين ، كما لو أنّهم عودُ ثقابٍ سارع بالاشتعال ثمّ لم يلبث أن انطفأ!!

كانت الزّيارات وسيلة التّواصل الوحيدة مع العالَم الخارجيّ. صحيح أنّه كان لنا عالَمنا الخاصّ في السّجن، بيد أنّه كان مختلفًا تمام الاختلاف عن عالم النّاس الّذين يسمّون أنفسهم أحرارًا... كان التّوق إلى دَوَران الحياة خارج الأسوار، لا يمكن أن تفسّره كلّ نظريّات فرويد، ولا افتراضات كارل يونغ. كانت الزّيارات قطرة الماء الّتي تنزل على الصّحراء المُجدبة فتحيلها رياضًا وبساتين. بل كانت شعلةً من ضياء الرّوح تنتشر في الظّلمات، وهيهات للظّلمات المُوغِلة أن تقضي ولو على شعلةٍ واحدة.

كنّا نحسّ أنفسنا قُصاصات من الورق، توزّعت مِزقًا صغيرةً صغيرةً، وتناثرت في الفضاء، في كلّ اتّجاه. ولن تجتمع من جديد، إلاّ حين تمتدّ يدٌ إليها فتلمّ شعَثها، وتُعيدها سيرتَها الأولى. كانت تلك اليد هي الّتي تُمسكُ بأصابعها ثقوبَ شبكِ الزّيارة على الطّرف الآخر!!

في هذا اليوم... وبعد أسبوع في الزّنازين الانفراديّة، وحيدًا أهذي، كان العطش إلى رؤية أحدٍ من عائلتي قد بلغ مُنتهاه، وأحالَ الجفافَ في روحي إلى حالةِ انهزام عاطفيّ مُتنام... كنتُ قد شعرتُ أنّني سرتُ بعيدًا في غابةٍ من الأشواك المُتشابكةً، تفيض بالثّعابين من جانبيها، وتكتظّ بالثعالبِ عن بكرة أبيها. ورحت أبحث فيها عن كأسٍ ماء واحدة أروي بها عَطَشِي، فما وجدت إليها سبيلاً. واستمر فحيح الثّعابين يَخزُ خاصرتي، وضُباح الثعالب ينهش صدري، والتفاف الأشواك يُحكم سيطرته على عنقي... رفعتُ بصري إلى السّماء، ثمّ خفضتُه إلى الأرض، وهمستُ بدفء: أين أنتَ؟!

كانت طيوفُ الخضرة ملجأَنا من خِداع السّراب. كم لهثنا ونحن نحاول الماء، فينفلت من بين الأصابع!! وكم مشينا بدافع غريزة البقاء خلف السّراب والموت يتراءى في لُمعه الأخّاذ!! الغريب أنّنا بقينا نلهث ونحن نعلم أنّه السّراب، فلا الماء تحقّق ولا السّراب تلاشى. أكانت لعبة الماء والسّراب تستهوينا؟! أم تستهوي فُضولنا؟! تُراها كانت حقيقةً أم صورةً

لها؟ ونحن، هل كنّا نمشي وراء السّراب باختيارنا أم دون وعي منّا؟! آه . . . يا ألفَ آه . . . ليتني أدري، وليت أنّ أحدًا غيري يدري . . . وَليتَ الرّاحة الكبرى تأتي . . . أو تبتلعنا في جوفها، أو تبقينا على ضفافها الّتي لا نهاية لها . .!!

حنيني إلى وجه ٍ يُعيد لي شجرتي الحزينة، ويحميني من قلقي الجارح، كان أكبر من أن يُحتمَل، غير أنّنا نُداريه ونحن نمشي إلى غير غاية، ونلهث خلف لا شيء . . . .

مرّت الأسماء – وهي تُتلى – في سمعي مرور قطيع الظِّباء في صباح ربيعيّ، وكغيري من السّجناء لَسعتْني دفقةٌ من دم القلب شوقًا إلى وجه مَنْ أحبّ . . . وطوّحتْني في الهواء أرجوحة الشّك واليقين، تصعد فيكونُ يقينًا، ثمّ تهبط فيكونُ شكًا . وظلّتْ تُؤرْجِحني هذه الهواجس حتّى خُيّل إليّ أنّني سمعتُ اسمي يُنادَى عليه . غير أنّني قابلْتُ خبرًا غير عاديّ مثل هذا بالإنكار في أوّل الأمر، وصرتُ أخاطب نفسي : مَنْ يُمكن أن يزروني؟ بل مَنْ يعرف أنّني موجودٌ في هذا المُعتقل أصلاً؟ بل إنّ الاسم الّذي سمعتُه ليس اسمي!! وإن كان اسمي فليس لي . . . بقيتُ هكذا حتّى هزّني (يوسف) من كتفيّ بشدّة فأيقظني من دُوار التّساؤلات، وصاح بي : ألم تسمع اسمك؟ أسرع يا رجل . هناك من ينتظرك!!

وبخفّة فراشة – وأنا السّمين الثقيل – بل برشاقة أيِّل فَتِيّ، رحت أقفز في المسافات الموصلة إلى شبك الزّيارة، وما زال خيطٌ من الشّك ينسحب خلفي . . .

وصلتُ إلى شبك الزّيارة، ورحتُ أتفحّص الوجوه . . . يتكوّن شبك الزّيارة من فاصلين شبكيّين، واحدٌ من جهة السّجين، والثاني من جهة الزّائر، وهما فاصلان يرتفعان ثلاثة أمتار، يمتلئان بالثقوب الّتي بالكاد تستطيع أن تضع فيها إصبعك، وبينهما فراغ بعمق (٤٠) سم . يبدأ السّجناء – وكذلك الزوّار – بالمشي على الجانبين، وعيونهم مغلقةٌ عن كلّ

شيءٍ ما عدا وجه مَنْ يتوقون إليه . . . تتّسع حدقتا العين وهما تُحاولان التقاطَ غائبٍ عائد من سفرٍ قسريّ . . . وتُبَحْلِقان في الوجوه الّتي تُبادلها البَحْلَقة نفسها على الطّرفِ الآخر . . . هل نرى ما نريد؟ أم تغيم الصّور والهيئات في مجال رؤانا . . . طفتُ بعينيّ في كلّ الوجوه كي لا أخطئ وجهًا أتوقّعه هابطًا من السّماء . . . نعم . . . نعم رأيتُهُ . . . ها هو . . . شهقتُ شهقةً طويلةً . . . وصَعَدَتْ إلى أعماقي موجة عارمَةٌ من البكاء . . . حبستُها قبل أن تطفر من المآقي . . . غير أنّني لم أنجح في حبسها كلّها . . . فسال بعضها على الخدّين سخينًا حارًّا . . . لقد كان وجهَ أبي . . . يااااااه . . . ها أنتَ يا أبي . . . غيمةٌ ماطرة مُنعِشة في فصل صيفيّ لاهب . . .!! ها وجهك بكامل أفلاكه السّبعة ، شموسًا لا تغيب . . . ألقًا لا ينطفئ . . . أكنتَ غيرَ ما أعرفك في ذلك الصّباح . . . بلى . . . كنتَ أبًا رائعًا . . . شامخًا . . . بهيًا . . . أبيًا . . . يقطر شَهدُ الثّبات من لحيتك الوضيئة . . .!! شوقي الأعمى إليك جعلك تبدو نبيًا يومَها . . . وكنتُ أحد حواريّيك أنكمش خشوعًا بين يديك . . . وأفيض هُيامًا كلّما عانق طَرْفي طَرَفَ ثوبك . . . بدت سماء الرّوح بمجيئك قبّةً زرقاء تضرب شموخها في امتدادٍ لا ينتهي . . . ها أنتَ يا أبي . . . لهفةٌ جامحةٌ تكاد تتفلّت من خلايا روحك . . . ودمعةُ حنان كثيفة تكاد تترقرق في غَوْر عينيك . . . وها أنا أَكْبُرُ بمجيئك عامًا من الفرح ، وأزهو بلقائك مثل زنبقة في جوار صفصافة سامقة . . .

لقد عَلَّمَتْني المحن ، أنّني يُمكن أن أكون تلميذًا ناجحًا في مدرستها . نحن ما نحمل في قلوبنا من فُتات الحنين ، وما نخزنه في ذاكرتنا من جداول التّجربة . التّجربة تُعطي والحنين يأخذ . التّجربة تبني والحنين يُزخرف . وما بينهما نترعرع ، وتوقظنا الشّمس بعد ليل العذاب ، لتكون شاهدًا على أنّنا لم نمت . من قديم كانت الشّمس عدوًا لليائسين!!

ها أنتَ يا أبي تُوقِدَ الشّمس في سمائي من جديد . . . ها أنتَ تُعيد

للحياة تفاصيلها الّتي كدتُ أنساها ، وللرّبيع لونه الّذي كاد يبهت فيصبح بلا لون . . . أكنتُ محتاجًا إلى محنة مثل هذه حتّى أكتشف كم أحبّك . . . وكم أشتاقك . . . لم تكن أبًا فحسب . . . من قال إنّني قلتُ ذلك يومًا . لقد كنتَ أبًا ، وأخًا ، وصديقًا ، ورفيقَ درب ، ومعلّمًا ، ومُلهِمًا ، وشمسَ نهار ، وقمرَ ليل ، وسحابةَ مطر ناعم ، ورفّةَ ورقة خضراء ، وعريشةَ ياسمين ، ووردة نيسان ، ودالية تمّوز ، وكنتَ أنتَ . . . كان يكفيني أن تكون أنتَ أبي لأكون أنا أنا!!

ها أنتَ يا أبي تبدأ معي حِوار العاشق . لقد كنّا عاشِقين ، منذ أن هبط ملاك الشّعر ساحة أرواحنا ، فبذرناها له حَبًا . تقول :

- ولدي الحبيب .
- أبي . . . (وتخنقني العَبْرَة) .
- هل عذّبوك؟!
- بِبُعدك!!
- وكيفَ هي أمورك؟
- ما دامت ثقتي بالله ضاربة جذورها في شجرة يقيني ، فكلّ أموري بخير .
- وهل آذوك؟!
- وكيف يفعلون ، وروحك ترفرف حولي ، ودعاؤك يلفّني بالطّمأنينة .
- حدّثني!!
- تعثّرت الكلمات بين يديك ، وغامت الحروف في مقامك ، وذابت لغتي في حضرتك .
- منذ متى جيء بك إلى هنا؟!
- أمسِ . خرجتُ من زنازين المخابرات .
- وكيفَ قضيت أسبوعك هناك؟!
- كما تقضي الطّير في وُكُناتها . غير أنّهم جعلوا لنا الجحور أعشاشًا!

- ما التّهمة الّتي لفّقوها لك؟
- تهمتنا معًا .
- . . . . .
- حُبّنا لأوطاننا يحبسنا يا أبي!!
- كن قويًا!!
- ثقافتنا أصلُ مصيبتنا يا أبي!!
- كن أبيًا!!
- موسيقى الشّعر تزعجهم يا أبي!!
- ابقَ بها صادِحًا . ولا تخشَ إلاّ الله . ولا تخفْ إلاّ جنوح القلب .
- قصائدنا أعواد مشانقنا!!
- بل هي أعواد مشانقهم .
- أحرامٌ على بلابله الدّوحُ؟!
- حلالٌ للطّير من كلّ جنس!!
- كلماتُنا تملأ دروبنا بالحُفَر يا أبي!!
- بل تملؤها بالورود والرّياحين!!
- أما لهذا اللّيل من آخر!!
- وأينَ الشّمس!!
- أخاف من قلبي على قلبي .
- وأين الله!!
- بِمَ تملأ حقيبتي قبل أن يأخذوها منّا؟!
- بالعزيمة . . . بالحبّ . . . بالإرادة . . . بالكلمة الحرّة . . . بالثّبات . . .
- إلى اللّقاء يا أبي .
- إلى اللقاء . . . إلى اللّقاء . . .
كان يومُ الجمعة عاطرًا ، شذيًا ، وظلّ عبقه يملأ جوانحي حتّى أفقدني

الوعي . . . عُدتُ من الزّيارة أمشي ، كما لو أنّ أبي أزال عن عينيّ غِشاوة ظلّت تحجب الرّؤية عنّي طوال الفترة السّابقة . . . وها أنا يا أبي كما عهدتني . . . سُلّمًا من ضياء ، ورمحًا من حقّ ، وحديقةً من أمل . . .!!

لم نكن نجتمع أنا و(عكرمة) و(يوسف) و(عليّ) في سجن الجويدة على طعام الفطور إلاّ نادرًا ، ذلك أنّ هذه الفترة تكون فيها أبواب غرف السّجن مُشرَعة ، وحينَها كنتُ ما أزالُ أتطلّع في الوجوه لأعرف بعض الّذين يشاركونني وطني الجديد ، كان الثلاثة بخبرتهم لأقدميّتهم في هذا الوطن ، يجوبون مناطقه ، يُحادِثون ، ويجتمعون ، ويُناقِشون ، . . . . وكنتُ أكتفي بأن أمشي في الباحة مع الماشين .

في السّجن - كما في خارجه - تنشأ العلاقات ، وتتقاطع المصالح أو تتباين ، وتُبنَى الحَيَوات . غير أنّ العلائق هنا صعبةٌ على التّشكّل ، بسبب هامش الثّقة المشكوك فيه ابتداء . ولكنّها إن تشكّلت فصعبٌ أن تنفصم ، لأنّها حينئذ تكون قد بنيت على الثّقة العمياء أوّلاً ، وبعيدًا عن المصلحة العارِضة ثانيًا . وكم من مساجين خرجوا من السّجن ، وظلّوا يتردّدون عليه زائرين لمن جَمَعَتْهم فيه بهم علاقةٌ من نوع ما!!

أذكر أنّ أحد أقاربي ، وهو من المُخضَرمين هنا في هذا السّجن ، قد بنى لنفسه مجدًا على طريقته الخاصّة ، حتّى لم يبق في السّجن مَنْ لا يعرفه ، بل تعدّت علاقاته إلى رجال الأمن ، فهو - مع أنّه لصٌّ محترف - يحظى باحترامهم كافّة . لا أدري كيف تنشأ العلاقات ولا أسرار استمرارها ، ولا طبيعتها . غير أنّني يُمكن أن أقدّم - حسب خبرتي البسيطة - بعض التّفسيرات .

كانت العلاقات تقوم على تبادل المنفعة المستديمة . بيع المُخدِّرات أو الحبوب ، سيجارة في أوقات (القَطْعَة) ، الاستئثار بموقع متميّز داخل السّجن ، الشّعور المتّحد بالظّلم ، كلا الطّرفين يشعر بأنّه مظلوم ، إمّا لأنّه دُبِّر له الأمر وليس له فيه ، وإمّا لقسوة الحياة الّتي ألجأته إلى هنا . من

الأسباب كذلك ما كان خفيًا : الجنس ، وتفريغ الكبْت الدّاخليّ بطرقٍ غير معلومة .

لم أكن بعد قد اتّخذت مكانًا لي تحت سماء هذا السّجن ، حتّى جاءني قريبي هذا الّذي حدّثتُكم عنه ، شاهدتُه من أوّل السّاحة يمشي ، يرافقه خمسةٌ أو ستّة من المساجين ، يمشون عن جانبيه وخلفه ، وهو يتقدّمهم مرفوع الرّأس والصّدر ، حتى تقحّمته العيون من كلّ جهةٍ تتساءل عن هذا السّجين الّذي يحظى بهذا النّفوذ ، نفوذٌ قد يفوق نفوذ مديرِ الأمن العامّ . ظلّ يخترق الصّفوف في موكبه الخاصّ ، حتّى دخل عليّ الغرفة - ولم أكن قد تعرّفتُ إليه بعد - مِمّا هالَني دُخوله الطّقوسيّ إليّ ، وأفسح مجالاً للشّكوك والهواجس أن تلعب في مرمى الشّعور . غير أنّه سارع بمدّ يده إليّ ، وأرفقها بابتسامةٍ عريضة ، وعرّفني إلى نفسه ، ولم ينتظر حتّى أدعوه إلى الجلوس ، بل بادرٍ إلى صدر الغرفة ، وتربّع على أحد الأسرّة وحفّ به مريدوه وحرسه من كلّ جانب . أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته ، ونفث دُخانها ليملأ به الغرفة ، وقال :

- أهلين ابن عمّي .
- أهلين فيك .
- أوّلْ ما سمعتْ إنّك هون ، قلت أقوم بالواجب .
- الله يكبِّر واجبك .
- ترى أنا بخدمتك في أيّ لحظة .
- شكرًا ابن عمّي .
- لا تحكيلي شكرًا . أنا ما بفهم هاي الكلمة . بس شلون وضعك ، إن شاء الله إنّك مرتاح .
- الحمد لله .
- في حدا من إخوات الشّـ . . . . مضايقك؟
- أستغفر الله! لا . لا . الأمور تمام .

- والله إذا بسمع حدا تعرّضلك ، لشِلّ أمله .

- . . . . .

- حاكِمْ أنا عارفهم كلّهم إخوات شـ . . . .

- أستغفر الله!!

- لويش ها العوّايات جايبينك لهون؟

- . . . . .

- يعني شو تهمتك!!

- . . . .

- آه . . بدون مـا تحكي . . . أنا عـارف إنّك سـيـاسـيّ . وعـارف إنّك بتقول قصايد . ما يهمّك يا ابن عمّي . افضح خواتهم ولا تِسأل .

- ماشي ابن عمّي . . . ماشي . . .

- ترى إنت مش رح اتطوِّلْ هون .

- . . . .!!

مدّ يده وأخرج سيجارة أخرى ، وعرضَها عليّ .

- دَخِّنْ ابن عمّي .

- ما بدخّن . شكرًا .

- لَهْ يا رجل!! الدّخّان كيف . أحسن إشي بها الدّنيا الدّخان وأحلى إشي فيها النسّوان . (يضحك ملء شدقيه ، ويتابع متباهِيًا) : كيف . . . أجتْ معي عالقافية . . . ترى إحنا العتوم كلّنا شعراء .

- الله يعطيك العافية!!

- بدّك اشي قبل ما روح . . . ناقصك فلوس . . . ناقصك أكل . . . ناقصك حرامات . . . ناقصك وِعية . . .

- لا . . . لا ابن عمّي . أنا بخير .

- على كلّ حال . إنت بتعرف غرفتي . أيّ وقت بس أشّر .

ويخرج ليتركني مذهولاً ؛ جرأته الّتي لم أعتدها من قبل . سلطته

الّتي لم أعرف أنّ أحدًا يمكن أن يكون داخل السّجن على هذه الشّاكلة. ولا أشكّ في أنّه كان صادقًا في كلّ ما قال. ألفاظه الّتي صدمتْني. لكنّ السّجن يفرض مفرداته، ومصطلحاته. ومع كلّ ذلك، فلقد أحسستُ أنّني نفشتُ ريشي قليلاً، ورفعت رأسي عاليًا. لقد أصبح معي في مجتمع الذّئاب ذئبٌ رماديّ لا يُنازَع، ولن يتردّد في أن يقف إلى جانبي إذا دعت الضّرورة!!

بدأ شوك الشّعر يجرح صدري. هناك آلاف المفردات تغلي في أعماقي، كيفَ أهدّئ هذا الغليان، وأوقف طوفان المشاعر...؟! لا حلّ إلا بالكتابة. الكتابة شِفاء من داء الشّعور. ولكن ما العمل، والحصول على خنجر أسهل من الحصول على قلم هنا في السّجن؟!! والتمتّع ببياض الورقة النّاصع محالٌ كما لو كانت محاولةً للنّظر إلى الشمس من قعر جبٍّ مظلم في باطن الأرض.

بدأت أنظر إلى شاويش المهجع، وهو يتمتّع بهذا الهامش من الحرّيّة، وأحسده على القلم الرّابض خلف أذنه. هل أستطيع أن أستعيره منه ولو لساعة؟! هل يقبل؟ أنا مستعدّ أن أدفع له ما يشاء مقابل ساعة حميميّة مع القلم. ولكنّ القلم ذكر، والورقة أنثى، وحتّى يثمر الإبداعً يجب أنّ يتمّ التلاقي بينهما!! غير أنّ الورقة صعبة المنال كذلك. تذكّرت كم كنّا نُهدِر نعمة الأوراق قبل السّجن، كنّا نكتب على الورقة سطرًا أو سطرين، ثمّ نمزّقها. نكتب على وجهها، ونترك ظهرها. كانت هناك مساحات شاسعة بين أيدينا وما التفتْنا إليها. كان هناك مئات الأوراق مبعثرةً على أسطح مكاتبنا وما شعرنا بقيمتها العالية. والآن نتمنّى أن نحصل على ورقة واحدة فقط بحجم الكفّ ولا نستطيع. متى يخرج الإنسان من عنجهيّته، ويتخلّص من غروره، ويعترف بنعمة الله الّتي تتجلّى عظمتها في ورقة واحدة مُهمَلة؟!!

حادثتُ (عكرمة) بشوقي إلى امتلاك قلم، وبعض الأوراق!! جلستُ

أسرُّ إليه الموضوع كما لو كنتُ أعتزم امتلاك سيّارة فارهة لا قلمَ رصاص ضئيلاً!! طلب منّي بدوره أن أتحلّى بالصّبر . فالأقلام الآن مفقودة . والحصول عليها صعب ، ولا تُباع في دُكّان السّجن . غير أنّه من الممكن أن نعمّم هذا الطّلب على كلّ شاويش في كلّ المهاجع ، وحينَ يتّفقون عليه يرفعونه إلى إدارة السّجن ، ولعلّها تستجيب له . ولكن الآن اجعل الصّبر سيّد الموقف . ولا بدّ لمن صبر أن يغنم .

كنّا نتحدّث عن إمكانيّة التقدّم بطلب للحصول على قلم وورقة ، كما لو كان تقدّمًا بطلب شحنة من الصّواريخ والطّائرات الحديثة . بل كان الطّلب يعدّ خطيرًا كما لو كان طلبًا بالانضمام إلى نادي الدّول النّوويّة!! أليس القلمُ رصاصَ الفكرة!!

(٥)
﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاّ بِمَا عَلِمْنَا﴾

بدأتُ أعتاد حياة السّجن . . . وبدأت أفتح عينيّ على كلّ ما يدور حولي . (يوسف) الّذي دخل معه السّجن فَتَيان هما (عكرمة) و(عليّ) ، اعتاد فيما بعد على أن يخدمنا أكثر من سواه في أمور الطّعام ، حتّى إنّه كان يذهب قبل الموعد المقرّر إلى مطبخ السّجن ، ويعود إلينا بطعامنا ، يلقيه بين يدينا ، وينثر العبارة الأثيرة الّتي اقتبسها من الكتاب المُعجزة : ﴿لا يَأْتِيْكُما طَعَامٌ تُرْزَقانه إلاّ نَبَّأْتُكما بتَأْويْلِه قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ . فكنّا نردّ عليه : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا﴾ .

كثيرًا ما كان يأتينا الأرزّ المطبوخ محروقًا أو غير ناضج تمامًا . كان السّجناء العاملون في المطبخ يتعلّمون الطّبخ بتجريبه علينا . مرّةً يأتي الأرزّ عجينًا ، ومرّة مهلّبية ، ومرّة شوربة . وأمّا الدّجاج فقد كان يُطبخ كما لو كان يُسلَق بالماء . فيأتي لَزِجًا مليئًا بالدّهون .

غير أنّ (اللّقمة الهنيّة بِتْكفّي ميّة) ، كما يقولون . عِشنا على موائد الطّعام أحلى اللّحظات . وأكلنا بتلذّذ ، كما لو كنّا نجلس في أفخر المطاعم . واستمتعنا باللّقم ونحن نتجاذب أطراف الحديث . لم يبقَ من شيءٍ في السّياسة والأدب والفنّ إلاّ أكلناه وشربناه مع ما نأكل ونشرب . لم تكن أمورنا في نقاشات كهذه منظّمة . كنّا جوعى إلى الكلام فحسب .

بدأتُ أفكّر في هذه الأيّام ، بالتّخلّص من كرشي . إنّ وزني عند دخولي السّجن يقارب (١٢٠) كغم . وطولي يقارب (١٨٠سم) ، وأنا أعاني سمنةً وانتفاخًا في كلّ شيء . وجدتُ في المشي استراتيجيّة

ناجعة . ثمّ أتْبَعتُها بعد أيّام باستراتيجيّة الصّيام . فيما بعد سيكون المشي والصّيام سلاحي الأقوى في مواجهة ما تراكم على جسدي من الدّهون .

وفد علينا بعد حوالي أسبوع في سجن الجويدة ضيفان جديدان انضمّا إلى غرفتنا . الأوّل كاتب وسياسيّ ، ناهز الخمسين ، يرتدي نظّارات ذات إطار أسود ، حليق اللّحية ، وشارباه كثّان . ليس بالطّويل ولا القصير . ولِحَقَ بنا على مقالة كَتَبَها . وهو نصرانيّ ، وعرفت أنّه : ناهض .

والآخر شابّ جامعي نحيل ، نصرانيّ أيضًا ، ما زال طالبًا في السّنة الثّالثة في قسم الهندسة المدنيّة ، من الكرك حيثُ الأحداث الأسخن عادةً ، وناشط سياسيّ . وعرفت أنّه : شادي . أوّل شيءٍ فَعَلَه بعد دخوله المستودَع ، أن غَطّ في نومٍ عميق ليومٍ كاملٍ . يبدو أنّه عانى كثيرًا في ظروف اعتقاله!!

ها نحن نجتمع تسعةً في هذه الغرفة ، اختلاف الدّين ، وتباعد القضايا ، لم يحولا دون انصهارنا هنا كمجموعةٍ واحدة ، جَمَعَها هَمُّ الفقدان المؤقّت لطائرٍ عذب يُدعَى : الحرّيّة .

للصّباحات في السّجون نكهةٌ خاصّة ، لم أفوّت الاستمتاع بها يومًا . لسعة البرد في البكور لها وَقْعٌ في الرّوح لا يعرفه إلاّ من أدمنَ عليها . منظر السّجناء وهم يخرجون من غرفهم ومهاجعهم كأنّه يوم الحشر لا يُمكن أن يتكرّر في مكانٍ آخر . حتّى في سجن سواقة - السّجن الثّالث الّذي استضافنا فيما بعد - كنّا نفتقد هذه المشاهد!!

بدأنا نتعرّف إلى جيراننا في الغرفة الّتي نشكّل معها زاوية قائمة . إنّهم سجناء أحداث الخبز عام ١٩٩٦م . وهم المجموعة الّتي اعتُقلت إثر قيام الجنوب بهبّته وانتفاضته ضِدّ قرار رفع أسعار الخبز الّتي أقرّتْها حكومة (عبد الكريم الكباريتي) رئيس الوزراء آنذاك . وقد عصفت هذه الأحداث بالبلاد ، واكتسبتْ أهمّيّة خاصّة ؛ ذلك لأنّ مَنْ قام بها ينتمون - في معظمهم - إلى عشائر الجنوب ، وهي العشائر المعروفة بولائها المُطلَق

للنّظام . ممّا دعا الملك (حسين) آنذاك أن يحذّر الطّغمة الموتورة الّتي تتلاعب بأمن البلاد من بقايا الأحزاب والجهات المدعومة من الخارج من أنّه سيُوعِزُ للقوّات الأمنيّة بأن تضرب بيدٍ من حديد على كلّ مَنْ تسوّل له نفسه العبث بمقدّرات البلاد . واتُّهِمَ حزبُ البعث العربيّ الاشتراكيّ بتحريض النّاس للخروج في مظاهرات ضدّ قرار رفع أسعار الخبز . وطالبتْ جماعة الإخوان المسلمين آنذاك في بيان لها الحكومةَ بالتّراجع عن هذا القرار . غير أنّ رئيس الوزراء (عبد الكريم الكباريتيّ) تحصّن خلفَ مقولته الّتي شاعت في تلك الفترة : (الدّفع قبل الرّفع) .

ظلّت أحداث ما يُسمّى بانتفاضة الخبز تتفاعل لأكثر من شهرين ، هما شهرا أيلول وتشرين الأولّ ، وطرفًا من شهر تشرين الثّاني من عام ١٩٩٦م . وهي الفترة الّتي جَمَعَتْنا في المُعتقَل ، وفيها تعرّفت إلى كثيرٍ مِمّن ألقي القبض عليهم آنذاك!!

كان معتقلو انتفاضة الخبز قد انقسموا إلى قسمين ، أحدهما رُحِّل إلى سجن سواقة جنوبيّ عَمّان . وقسم استقرّ في الجويدة . وأودِعوا في الغرفة الّتي تُجاوِرنا ، وكان عدد جيراننا حوالي (٢٥) مُعتقلًا . لم أعد أذكر أسماء كثيرين منهم غير أنّني رأيتُ نفرًا مِمّن ينتمون إلى الحزب الشّيوعيّ منهم كثيرًا ما يُجالِسون (عكرمة) ويناقشونه . كان (عكرمة) أوسعنا ثقافةً ، وأحبّنا للجِدال والنّقاش . ولم أر واحدًا منّا ينتظر طلوع الصّباح ليُمارِسَ هوايته في مُماحكة الشّيوعيّين مثله . كنتُ أستمتع بالجلوس إلى حلبة هذا الصّراعِ الدّائر ، وأسمع . وفعلاً كنتُ أقصد الاستفادة ، والتّعلّم من هذا الجدل الّذي لا ينتهي . في السّجن تستطيع أن تتأكّد أنّ النّاس كتبٌ مُقفَلة ، يمكنك أن تقرأها إذا قُرِعَت الحجّة بالحجّة . لم يكن متاحًا لأحدنا خارج السّجن فرصةً ذهبيّةً للنّقاش ، وفتح الرّؤوس ، مثل هذه الفرصة!!

كاد صبري ينفد ، وأنا أنتظر مَنْ يُعْلمني بتهمتي الّتي من أجلها

أعيش هنا . كان من عادة شرطيّ القضايا أن يمرّ على غرف السّجن وفي يده سِجِلٌّ مكتوبٌ عليه أسماء الّذين سيُعرَضون على المحكمة في اليوم التّالي . كم كنّا نتشوّق أن نسمع أسماءنا . إنّها فرصةٌ للخروج من هذا السّجن وكسر الرّوتين القاتل هنا . غير أنّ هذا الشّرطيّ كان بارعًا في تخييب آمالنا . يأتي من بعيد فيحفّني الأمل بأن أكون مطلوبًا للمحكمة غدًا . وعندما يقصد غرفتنا يزداد منسوب الأمل . وعندما يصل إلينا أمدّ عنقي كزرافة ، أتطلّع لعلّ اسمي يبرز من بين الأسماء . فينادي على عكرمة ويوسف وعليّ . وفي كلّ مرّة يفعل الأمر نفسه ، حتّى أصابني رذاذٌ من اليأس . كأنّ دعوة أحدنا إلى المحكمة تُعادِل فرحة إخباره بالإفراج عنه!! ألهذا الحدّ تُقنا إلى تغيير أماكننا؟! نعم . إنّ الماء إذا لم يَجْرِ أسِنَ ، يبقى الماء عذبًا إذا ظلّ منسابًا ، وحين يتوقّف عن الجَرَيان ، يواجه أحد أمرين : إمّا أن يتبخّر في أعالي السّماء ، وإمّا أن يغور إلى بواطن الأرض . وفي الحالين يفقد حياته ، ويتنازل رغمًا عن وجوده . ولم أكن أرغب في أيّ من الأمرينَ!!

ولم يطل صبري كثيرًا . إذ أعلمني شرطيّ السّجلاّت ، أنا و(ناهض) ، أنّ لدينا جلسةً في محكمة أمن الدّولة ، يوم الثّلاثاء ١٩٩٦/٩/٢٤م .

كانت تلك هي تجربتي الأولى في الخروج من سجن الجويدة إلى محكمة أمن الدّولة . وهي من التّجارب السّيّئة العديدة الّتي مُنينا بها في عالَمنا الجديد .

وقفنا في طابورٍ نحنُ وبقيّة متّهمي أمن الدّولة ، نافوا على ستّة عشر متّهمًا ، لم يكن بينهم إلاّ أنا و(ناهض) من السّياسيّين ، أمّا البقيّة فكانوا من مدمني المُخدِّرات أو مُتعاطيها . لا غرو أنّ هذه المادّة الخبيثة قد فعلت فعلها فيهم ، فلو طالعتَ وجوههم ، فإنّ نظرةً عابرة تكشف لك حجم الضّرر الّذي لحق بتلك الوجوه ؛ العينان الغائرتان ، والصّوت الّذي يبدو كأنّه صادرٌ من بئر عميقة ، والإرهاق الّذي يجعل الجسم متهالِكًا ، وكانوا

ينظرون في الفراغ ببلاهة مَنِ استيقظ من نومه للتّو . ويبدو أنّهم يقضون وقتهم نائمين أو مُرتخين على الأبراش . عدا عن أنّني رأيتُ أيديهم كأنّما كانوا يتلهّون بحزّها بالسّكاكين . وقفنا في الطابور اثنين اثنين . يُقَيّد يمينُ المتّهم الأوّل بإحدى حلَقَتَي القيد ، والحلقة الثّانية يُقيّد بها يسار المتّهم الآخر . وقفتُ إلى جانب ناهض ؛ ووُضِعَ طرف القيد في يميني ، واحتلّ الطّرف الآخر يساره . هتفتُ في سِرّي : هل أنا يمينيّ وهو يساريّ!! حاولنا أن ننشغل ببعض الحديث العابر ، ريثما نصعد إلى سيّارة السّجن المتحرّك . ينزلق من خلفيّة هذه السّيّارة سلّم من ثلاث درجاتٍ أو أربع ، لا يمكن أن يتّسع سلّمها إلاّ لسجينٍ واحدٍ يقف عليها ، لذا كان عليّ أن أصعد درجة وأنتظر ريثما يلحق بيٍ (ناهضٌ) ، وقد يشتدّ القيد على يد كلّ واحد منّا لِقصره ، فأمدّ يدي وأنحني إلى الخلف لأخفّف الألم ، ويفعل هو أيضًا مثلي ، غير أنّه ينحني إلى الأمام ، ويبدو منظرنا معًا مُضحِكًا للرّائي ، لكنّه مؤلمٌ لنا معًا .

استقررْنا داخل السّيّارة الّتي بدأت تتحرّك باتّجاه محكمة أمن الدّولة . كان الجّو في الدّاخل مُعتمًا وخانقًا ، وزاد الطّينَ بلّة الرّائحةُ الكريهة الّتي راحت تنبعث من أفواه مدمني المُخدّرات وأجسادهم .

ظلّ القيد يُدمي يديّ ، جلسْتُ على يسار (ناهض) ، لأقلّل المسافة الفاصلة بيننا ، ولأخفّف آثار الألم . استغلّ (ناهض) مسافة الطّريق كي يملأ أذنيّ بنظريّاته السّياسيّة ، وآرائه ومواقفه حول العولمة ، والتّغوّل الصهيو أمريكيّ في المنطقة . والمشروع الامبراطوريّ الأمريكيّ . لن أمدح نفسي حين أقول إنّني كنتُ في السّجن أجيد الاستماع بطريقة مُذهلة . قد يبدأ مُحدّثي الحوار ، ويستمر فيه قرابة نصف ساعة دون أن أقاطعه ، وأكتفي بهزّ رأسي كلّما نظر إليّ ، لأشعره باهتمامي الكامل بما يقوله ، ولأدفعه إلى مزيد من الكلام . كنتُ أفعل ذلك ؛ لأنّني - وعن سابق إصرار - أردتُ أن أتعلّم في السّجن ما لم أتعلّمه طيلة حياتي قبل الدّخول إلى هذا

العـالَـم . لقــد كنتُ أحــاول أن أتعلّم الحـيــاة هناك . كنتُ تائقًـا إلى أن أفهمهما . كم أضعنا من الشّهور والسّنين نحاول أن نعرف مَنْ نحن أو ما نحن فما اهتدينا!! لقد كان السّجن أفضل قدرٍ للإلتقاء بإنسان يمكنه أن يجيب عن هذا التّساؤل .

تمشي سيّارة السّجن كبطّة ؛ متهاديةً وبطيئة . تميل يمينًا فنميل معها ، ويسـارًا فنفعل الشّيء ذاته ، وفي الحالين يشـتـدّ القـيـد ، ويحزّ اليـد دون رحمة .

استرقتُ النّظر إلى وجوه متّهمي المُخدّرات ، كانوا موتى على قيد الحياة . يعطي الله الإنسان جسدًا كاملاً وعقلاً وافيًا . ويُقسِم الإنسان على أن يبدّد هديّة الله ، فيؤذي نفسه ، ويغتال عقله ، ولا خاسرَ غيره .

وصلنا إلى محكمة أمن الدّولة بعد أكثر من ساعة . وقف شرطيّا باب الزّنزانة المتحرّكة . وفتحا الباب الخارجيّ ، ووقفا ينتظران أوامر الضّابط . بعد قليل سمعنا بابنا يُفتَح ، وصاح بنا أحد الشّرطة بالنّزول . نزلنا اثنين اثنين ، ومشينا كقطيع . ودخلنا من الجهة الخلفيّة للمحكمة . إذ إنّنا بشرٌ من نوع متخلّف ، ومتّهمون جُرباء لا يحقّ لنا الدّخول من الباب الرّئيسيّ كي لا نُلوّثه بأقدامنا العَفِنة .

زُجّ بنا في النّظارة المَوجودة في قاعة المحكمة ، بعد أن فُكّت قيودنا المُزدوجة . هذه النظارة تحتلّ الجانب الأيمن لمن يدخل القاعة من الخلف ، وطولها حوالي خمسة أمتار ، وعرضها حوالي متر ونصف . كانت القاعة فسيحة ، وعالية السّقف . وفي الصّدر على يمين النّظارة تربض طاولة القُضاة العسكريّين ، وتطول لستّة أمتار على الأقلّ ، وتتّسع لأربعة قُضاة أو خمسة حسب بروتوكولات المحكمة . أمام طاولة القُضاة هناك طاولة صغيرة ، أشبه بنصف مكتب ، علمت أنّها المكان الّذي يقف فيه المدّعي العام ، وأمام طاولة القُضاة وفي مواجهتها تنتشر صفوف متراتبة من الكراسيّ ، خُصّص الصّفّ الأوّل منها للمُحامين ، وبقيّة الصّفوف لذوي

المعتقلين ، أو أقربائهم ، أو من يرغب الحضور من الجمهور .

عندما دخلنا إلى هنا ، وأغلق علينا هذا القفص ذو الأسوار الحديدة والقضبان الفولاذيّة ، لم نرَ أحدًا أبدًا ، كنّا وحدنا. ولربّما مكثنا كذلك ما يقارب نصف السّاعة . خلف هذا القفص - النّظارة ، كان هناك شبّاك مفتوح على الفضاء الخارجيّ ، ولكنّه - بالطّبع - مملوء بالقضبان . أتيحت لي قبل دخول هيئة المحكمة فرصة النّظر من خلاله إلى الفضاء الخارجيّ ، الّذي كانت تحجبه شجرات اللّزّاب ، المزروعة في الحديقة الخلفيّة للمحكمة .

نظرت إلى شجر اللزّاب ، يلقي بظلاله على الأرض الصّامتة ، فهاج بي الحنين إلى الحرّيّة . قفز أرنب الشّوق من صدري إلى عينيّ ، فتح عينيّ وسمح للدّموع أن تسيل ساخنةً على وجهي . أعدتُه إلى صدري ، ومسحتُ آخر القَطَرات . وتمتمتُ : من أجلك يا وطني . ومن أجل كلمة الحقّ!!

شريط الذّكريات لا يمرّ دائمًا أمام ناظري ، إلاّ في لحظات التّأمّل العميقة . لا أدري لماذا مرّ في تلك اللّحظات العصيبة . رأيتُني أجهّز نفسي في الصّباح الباكر ، أرتدي بنطالي الكحليّ الجديد ، وأزرّر قميصي الأبيض ، المكويّ للتّوّ ، وأعيد ترتيب ياقته لتبدو جذّابة . وأدور نصف دورة إلى اليمين ، ومثلها إلى اليسار ، لأتأكّد أنّ هندامي على خير ما يرام ، ثمّ أمدّ يدي لأرشّ من قارورة (الإنجل) عطري المُفضّل ، مباعدًا بيني وبينها ، كي يسقط رذاذ العطر على قميصي ، سقوط رهام المطر على وجه العاشق . أنتقل إلى مكتبي ؛ أجهّز دفتر المحاضرات ، والأوراق والأقلام ، ثمّ ألقي نظرة من بعيد على حذائي الأسود . أغلق خلفي باب غرفتي ذات التّرتيب الشّاعريّ ، وأخرج لأبدأ الفصل الأخير الّذي يسبق تخرّجي في قسم الهندسة المدنيّة من جامعة العلوم والتّكنولوجيا . شعورٌ بالأمل لا يُقارَن ، وطوفان من الأماني تجتاحني ؛ لم يتبقّ إلاّ أربعة أشهر لأصبح (باش

مهندس) كما كانت تحلم أمّي ، وكما كان يتمنّى أبي . تسقط ورقة من شجرة اللّزاب أتابُع سقوطها على الأرض ، وحينَ ترتطم بها ، أستيقظ من أحلام يقظتي على أصوات مدمني المُخدّرات وهم يَهْرفون .

أتركهم ثمّ أعود ثانية إلى أحلامي . كم أنتِ غاليةٌ أيّتها الحريّة . كم أنت جميلة . كم أنت رائعة!! ألستِ أنثى ، وقد ركّب الله في طبيعة العباد عشقك منذ أن خُلقتِ . يا لكِ من أنثى ذات سطوة جبّارة . من أجل عينيك ، وجد الآلاف أنفسهم في غيابات الجبِّ ، ومن أجل الحصول عليك سالت دماء الملايين على التّراب الطّهور . أيّ أنثى مثلك يبذل في سبيلها البشر هذا الحجم المرعب من التّضحيات!!

يوقظني تدافع بعض المساجين ، فأصحو . أبتعد قليلاً في عقلي عن هؤلاء المُدمنين . ثمّ يدهمني تفكير خاطف!! هل من المعقول أن تكون لدى هؤلاء أحلامٌ كأحلامك؟! ولم لا؟! أليسوا بشرًا مثلنا تشكّلوا من المواجع والمشاعر؟! ربّما فقدوا - لضحالة ثقافتهم - القدرة على الإبحار بجناح الخيال في سماء الأحلام ، فاستعاضوا عنها بالحبوب الّتي تُوصلهم إلى ذلك ، دون أن يبذلوا أدنى عناءٍ ذهنيّ!! هل أكتشف تدريجيًا أنّ البشر جميعًا مجموعةٌ من الحالمِين!!!

- لِمَ نحلم؟!
- لنهرب من الواقع!!
- ولماذا نهرب من الواقع؟!
- لأنّنا نرفضه .
- ولماذا يكون الرّفض؟!
- لأنّه ما من واقع كان كما يريد الإنسان .
- لو رضي به كما هو لكان كما يريد .
- ولكن مَنْ يرضى!!
- لا أحد .

- تلك هي المشكلة .

أيّ مجنون هذا الّذي يُحاور نفسه ، وهو مُقيّد في قفص الاتّهام . لم أستطع الخروج من أحلامي . ولم أستطع أن أواجهها . كم كنتُ جبانًا أمامها وهي تزرع كلّ شعرةٍ في صدري بساتينَ رجاء ، وحقول ياسمين!!

أعدتُ النّظر عبر النّافذة لأهرب إلى أحلامي من جديد ، هتفتُ في سرّي مُتحسّرًا : ها أنذا أدفع ثمن مواقفي ، وثمن كلماتي . أكان لزامًا عليّ أن أفعل ما فعلت؟!! يلطمني شِعري على وجهي : بلى . أنتَ بلا شعرك لستَ أنت . لقد صار لكلماتك قيمة حينما سُجنت من أجلها!! كم من النّاس يصيحون ليل نهار ، ويملؤون الفضاءات زعيقًا ، ولا أحد يلتفت إليهم ؛ ذلك لأنّ الكلمات الجوفاء تمرّ في الآذان مرور الهواء ، دون أن تترك أثرًا . أمّا الكلمات المليئة ، الّتي تحمل في داخلها القمح ، والورد ، والحرّيّة ، فتقرع رؤوس الخائفين قرعًا!! أفكنتَ تنتظر نعمةً مثل هذه النّعم الجُلّى دون أن تدفع مقابلها ثمنًا مُناسِبًا؟!!

صوت الكاتب الّذي صاح بصوتٍ عالٍ : محكمة ، أيقظني من دوّامة الأحلام هذه . تهيّأ الجميع . الكراسي الّتي امتلأ بعضها . ونحن المساجين ، تهيّأنا للجوقة الّتي ستدخل بعد قليلٍ من الباب الرّئيسيّ .

كانوا أربعة ، بلباس عسكريّ أنيق ، غايةً في الأناقة ، اللّون الكاكيّ زادَ الأناقة مستوى جديدًا ، ولم أستطع أن أخفي إعجابي ، فندّت عنّي صيحة مكتومة : يا سلام!!

تقدّمهم القاضي ذو الياقة الحمراء ، أزاح أحد الكراسيّ الوُسطَى ، وانتظر الضبّاط القُضاة الآخرون ريثما يجلس ، ثمّ جلسوا بعده . في الرّكن الأقرب إلى قفصنا والأبعد عن الباب تبوّأ المدّعي العام موقعه ، وبقرب الباب وقف دون أيّ مكتبٍ أو مسند أو شيءٍ المُنادِي ، لم يكن له من وظيفة غير أن يُنادي على المتّهمين ، أو الشّهود .

بدأت مُحاكمة متّهمي المُخدّرات ، كانوا أربعة عشر متّهمًا ، انكمشوا

على أنفسهم ليزيدوا المسافة الّتي تفصل بين قفصنا ومكتب المدّعي العامّ . أشار رئيس المحكمة للمُنادي ، فنادى الأخير على المتّهم الأوّل ، سَحَبَ نفسه إلى المُقدّمة . وبدأ القاضي بتلاوة التّهم المُسنَدَة إليه . في غمرة إسناد التّهم ، انتحينا أنا و(ناهض) الزّاوية القصيّة ، لنُفسِحَ لأنفسنا الحديث ، كي نقطع الوقت أثناء وجودنا في هذا القفص الكئيب ؛ إذ لم يكن يهمّنا الهُراء الدّائر في شيء! تركّزَ مُعظم حديثنا حول (عِرار) وشعره . كان (ناهض) يحفظ كثيرًا من أشعاره ، وبدأنا رحلة الغوص في ديوانه ، يبدأ بالبيت ، أو البيتين ، فأكمل من بعده القصيدة . يقول :

قُولُوا لِعَبُّودَ عَلَّ القَوْلَ يَشْفِينِي
إِنَّ المُرابِينَ إِخْوانُ الشَّياطِينِ

فأكمِل :

وإنّهم لا أعزَّ اللهُ طُغْمَتَهُمْ
قَدْ أَطْلَعُوا رَغْمَ تَنْدِيدِي بِهِمْ دِينِي

يبدأ (ناهض) :

لَيْتَ الوُقُوفَ بِوَادِي السَّيْرِ إِجْبارِي
وَلَيْتَ جَارَكَ يا وَادِي الشِّتا جارِي

فأُكمِل مُترنِّمًا :

لَعَلَّنِي مِنْ رُؤَى وَجْدِي القَدِيْمِ بِهِ
أَرْتادُ مَسًّا لِجِنِّيَّاتِ أَشْعارِي

وجدتُ في ذلك متعة ، بدا فيها الوقت ينقضي بسرعة ، غير أنّه في غمرة ارتجالنا أبيات عِرار أخذتْني الحماسة ، فرحتُ ألقي الأبيات ، كما لو كنتُ في أمسية شعريّة ، أو في حضرة العُشّاق . ممّا أحدث جلبةً في القاعة ، ولأنّ القضاة العسكريّين يتوقّعون من الجميع أن يصمتوا صمتَ القبور أثناء انعقاد المحكمة ، ولا يُسمَح لغيرهم بالكلام ، فقد أثار ذلك حفيظة رئيس المحكمة ، فصاح بي وبناهض : اسكتوا . . . اسكتوا . . .

ولأنّي لم أعرف أنّني المقصود ، أو ربّما لم أسمع ، فقد استمررتُ في الحديث ، فَعَلا صياح القاضي مرّة أخرى ، وسارع أحد المتّهمين من مُدمني المخدّرات ، بهزّي من كتفي ، لافتًا انتباهي إلى أنّني المقصود ، وقائلاً :

- اسكُتْ يا رجل لَنُوكِلْ هَوا!!

صمتنا أنا و(ناهض) ، وتابع رئيس المحكمة ، مجريات المُحاكمة ، حتّى إذا ما مرّ وقتٌ قصير ، نسينا في غمرة عشقنا للشّعر أنّنا ممنوعون من الكلام ، فانطلقْنا مرّة أخرى على سجيّتنا . غير أنّه هذه المرّة تداولنا أخبار عِرار أكثر من أشعاره ، ولأنّ بعضها طريف ، فقد ندّت منّي ضحكةٌ عالية ، لم يكن إلى كتمان وَهَجها من سبيل . وكانت هذه الضّحكة الضّربة القاصمة ، الّتي قصمت صبر القاضي ، فصاح بالشّرطيّ الّذي يحرس قفصنا :

- جِيب هذا المتّهم لقدّام .

سارع الشّرطيّ المسكين تحت صياح القاضي ، بالإمساك بيدي ، وسحبني أنا وناهض إلى مقدّمة القفص ، سمعتُ القاضي حينها يصيح بعبارات غير مفهومة ، كان واضحًا غضبه الشّديد ، فلقد اعتبر أنّي أهنتُ هيبة المحكمة ، بهذه الضّحكة العالية ، وبالتّالي أهنتُه هو والقضاة شخصياً .

- إنتا ما بتعرف تسكت؟!!

- . . . .

- إنتا بمحكمة يا محترم!! (ويتزايد صياحه مع سكوتي المُطبق) .

- . . . . . .

- مش نبّهتك أكثر من مرّة؟!

- . . . .

- وبعدين معك؟!!

- . . . . . .

- قسمًا إذا بسمعك مرّة ثانية ، لطردك برّا المحكمة ، يا قليل الحيا؟!!

- . . . . .

- ابعده عن وجهي (يصيح بالشّرطيّ المسكين)

هتفتُ في سريّ ، وأنا أعود إلى الزّاوية البعيدة من القفص : إلى أين كان سيطردني حضرته؟! هل إلى جنّة أخرى؟! ماذا كان يقصد بهذه العبارة الأخيرة؟! لم أجد لها أيّ موقع من المنطق!!

هذه المرّة صمتُّ بالفعل . ولم أنبس بعد هذا التّهديد ببنتِ شفة . غير أنّ كلّ ما حدث سابقًا ، يُعدّ روتينيًا ، وبسيطًا إلى جانب ما سيحدث بعد قليل . شيءٌ لم أكن أتوقّع حصوله أبدًا ، أذهلني جدًا ، وجعل مساحة الدّهشة تبتلعني .

كان المتّهمون ينكمشون على أنفسهم - في تلك اللحظة الفارقة - في شبه دائرة ، جلس أحدهم في وسط هذه الدّائرة ، وأمسك بيده سيجارة حشيش مشتعلة ، كان جمر وَقْدها يتوهّج كعيني قطّ في الظّلام ، يسحب منها نفسًا عميقًا ، ثمّ ينفث دُخانها كثيفًا من فيه ، أمّا بقيّة زملائه فيُغطّونه بحيثُ لا يُرى من قبل الشّرطيّ القريب جِدًا من القفص ، أو من قبَل القُضاة والمّدعي العامّ . وحين ينتشر بعض هذا الدّخان مرتفعًا من المُحشِّش القابع في الأسفل إلى أعلى ، يبدأ الزّملاء المحترفون ، بتحريك أيديهم بطريقة مُحكَمة ، بحيث يتوزّع الدّخان ويتناثر ، قبل أن يُحسّ أحد أو يرى ذلك . فإذا أنْهى هذا الجالس سحبَتَه اليتيمة ، قام من مكانه ، واعتدل واقِفًا ، وفي أثناء وقوفه ، يكون أحدهم - الّذي وصلَ دورُه الّذي يحفظ متى يأتي - قد هبط مكانه ، ليستلم منه الحشيشة في منتصف الطّريق ، لم يُخطِئ أحد من الأربعة عشر مدمنًا الحركات المدروسة ، ولم يتمكّن من كشفهم أحد . كان منظرًا لا يُنسَى!! من كان يتوقّع أن تكون الحشيشة موجودة مع السّجناء داخل السّجن ، عوضًا عن أن تكون معهم داخل قفص الاتّهام ، وأين؟!! في محكمة أمن الدّولة . ومن كان يتوقّع أن

يُقدم هؤلاء على تناول الحشيشية في مواجهة البدلات العسكريّة بهذا الشّكل الكامل من الثّقة والاطمئنان؟! بل من أين جاؤوا بالقدّاحة أو الكبريت ليُشعِلوا سيجارة الحشيش هذه، والكبريت من أشدّ الممنوعات داخل السّجن؟! هل كانوا مدمنين إلى الحدّ الّذي لا يستطيعون معه الانتظار لحين عودتهم إلى سجن الجويدة؟! أم أنّ هناك من الشّرطة من تواطأ معهم لسببٍ أو آخر؟!! أم أنّ هذه الحشيشة لم تأتِ معهم من السّجن، بل حصلوا عليها أثناء تبديل الشّرطة حِراساتهم، من أحد الزّوّار المُحترفين، بل ربّما حصلوا عليها من أحد أفراد الشّرطة المُرتشين!! إنّ حركاتهم الّتي يبدو لمن يراها أوّل مرّة مستحيلة الحدوث قبل ذلك، كانت تتمّ كما لو كانوا ممثّلين محترفين يحفظون أدوارهم عن ظهر قلب.

إذًا التّحشيش مسموح، والمخدّرات مباحة، أمّا الكلام فممنوع!!

لم أستيقظ من الصّدمة، إلاّ على صوت الكاتب، يصيح بي. فَتحَ باب القفص، واقتادني إلى الباب الرّئيسيّ، منه دلفنا إلى أحد المكاتب الّتي تقع ضمن مجموعة من المكاتب تمتدّ عبر هذا الممرّ.

دخلتُ، وتعلّمتُ أن أظلّ واقفًا، كان القاضي يجلس في مواجهتي، وكان برتبة (رائد)، وكان إلى يمينه المدّعي العامّ برتبة (نقيب)، وإلى يساره أحد الكَتَبة. قلّب القاضي الأوراق الّتي أمامه، ثمّ نظر إليّ بابتسامة لم يستطع أن يُخفيَ المودّة في ثناياها، ولم أستطع بدوري الهروب من صِدْقها. وبدأ الحوار:

- قصائدك قويّة. أنا أقرأ بعضها منذ زمن.

- شكرًا.

- أنتَ تملك موهبة فذّة.

- ....

- أمس استمعت إلى شريط الفيديو الّذي تظهر فيه بقلعة عجلون وأنت تلقي قصائدك!!

- . . . .

- قصائد صارخة .

- . . . .

- لديّ التّهم المسندة إليك ، وهي : إطالة اللّسان على الملك ، والذّمّ والتّحقير ، وتمزيق الوحدة الوطنيّة ، والتّحريض على الفتنة .

- عجيب . . .!! لم أكن أعلم أنّي مجرم إلى هذا الحدّ !!

- هل أنتَ مذنب؟!

- لا .

- هل تعترف بهذه القصائد؟

- أيّة قصائد؟!

- قصيدة : حتّى يعود الطّهر . وقصيدة : يوميّات مواطن . وقصيدة : الحفل المحموم .

- نعم ، وبكلّ فخر .

- أنتَ القائل :

أَيُّها السّادَةُ مَهْلاً لا تَخافُوا
إِنّني أَحْفرُ قَبْري قَبْلَ مَوْتِي
داعيًا لله أَنْ يَأْخُذَني نَحْوَ السَّماءْ
إِنَّ عَيْشَ المَرْءِ في ظِلِّ حُكوماتِ أَبِي جَهْلٍ بَلاءٌ في بَلاءْ ؟

- نعم . بكلّ حرف فيها .

- إنّ هذه الكلمات إساءة للمقامات العليا .

- ليس فيها من هذا شيء ، إنّها تتحدّث بلسان المواطن عن حاله في أيّ بلد عربيّ ، لا على وجه الخصوص .

- ولكنّ المعنى مفهوم ، ومعلومٌ مَنْ هو المقصود .

- أنتَ تستطيع أن تفهم كما تشاء ، وآخرون يفهمون غير ما تفهم . هكذا هو الشّعر ؛ يتيح لك معاني متعدّدة للنّصّ الواحد .

- ولكنّ السّياق يحدّد المعنى . وما أردتَ إيصاله لا يقبل التّأويل .

- ليس صحيحًا . أنتَ حرٌّ في فهمك . ولكنّك لستَ حرًا في أن تلزم الآخرين أو تُلزمني بهذا الفهم .

- لا أظنّ أنّ الكلمات تُفهَم على غير إطالة اللّسان .

- عجيب . ألم يقولوا : المعنى في بطن الشّاعر . فكيف استطعتَ أنتَ دون غيرك أن تستخرج المعنى من بطني بهذا الوضوح والتّأكّد ؟!!

(يضحك ضحكة خفيفة ، يوقفها قبل أن تتفاقم فتذهب بهيبته وهيبة المحكمة معه) :

- طيّب . طيّب .

(يميل على الكاتب عن يساره ، يُمليه بعض العبارات ، ويُغلق الملِفّ . ويأمر الشّرطيّ الواقف بالباب بإعادتي إلى قفص القاعة الفسيحة) .

عندما عدتُ إلى القاعة ، استقبلني (ناهض) ، استقبال المُستفسر عن الحال ، فقلتُ له : إنّ القاضي سألني بعض الأسئلة فحسب ، ولم ينطق بقرار أو ما شابه . فسألتُه بدوري : وأنتَ؟ فقال : يبدو أنّ محكمتي ستؤجّل للمرّة القادمة .

في الواحدة ظهرًا تقريبًا ، وضعوا في أيدينا القيود مرّة أخرى ، وخرجنا من القفص اثنين اثنين ، وعبرْنا الباب الخلفيّ للمحكمة ، إلى السّاحة الخارجيّة ، حيثُ كانت سيّارة الزّنزانة المتحركّة في انتظارنا . عبر الطّريق عادت الآلام تحطّ بوجعها الثّقيل على الرّسغين ، ولم يطل طريق العودة ، مثل طريق القدوم إلى المحكمة ، يبدو أنّ بعض الحمل الثّقيل قد انزاح عن الصّدر . أو أنّ العودة إلى السّجن تشبه نوعًا ما العودةَ إلى الوطن . ألم يكن السّجن آنذاك وطننا . وبيتنا الّذي نأوي إليه بعد تعب المسير؟!

وصلنا سجن الجويدة حوالي الثّانية ظهرًا . عندما دخلتُ إلى غرفة المستودع تلقّاني الثلاثة ؛ عكرمة وعليّ ويوسف بوابلٍ من الأسئلة السّاخنة . ولشدّة تعبي أجبتُ عليها باقتضاب ، ثمّ رميتُ نفسي على

البرش ، وغططتُ في نوم عميق .

تسير الحياة في دورتّها كما هي دون إبطاء . تلفّنا ، تذهب بنا بعيدًا أو قريبًا ، تأكلنا ، تطحننا ، تُبقينا في جوفها ، أو تلفظنا خارجًا . . . وعلى أيّة حالٍ فهي لا تحبّنا بقدر ما نحبّها . بل لا تعرف للحبّ قيمةً ولا معنى . وهي لا تقدّس شيئًا ، نحن الّذين نقدّس فيها أشياء يكون مصيرنا معها الفناء غالبًا . نقدّس الحبّ ، فنكتشف أنّ للحبّ أنيابًا تنهش أجسادنا . ونقدّس المال ، فنكتشف أنّ للمال ألسنةً من اللهب تحرقنا . ونقدّس السّلطة ، فنكتشف أنّ للسّلطة سياطًا نجلدُ بها ظهور بعضنا . ونخاف من أن نكبر بمرور الأيّام ، فنكتشف أنّ الأيّام تسرق أعمارنا . مَنْ قدّس الحياة ، عادت إليه عاريةً من كلّ شيء ، وعاد منها كقابض شعاع الشّمس في ضاحية النّهار .

أصبحتْ حياتي في السّجن ، تميل إلى النّمطيّة . صباحٌ باكر ، ومشيٌ خلف المجهول ، واجتماعٌ أمام الباب المُغلَق الّذي يفتح على الحرّيّة المؤقّتة ، من أجل لقمة الخبز ، المغمّسة بملعقة من (اللّبنة) ، وثلاث حبّات من الزّيتون . وكأس شاي يقطر سكّرًا من سُكّر .

كثيرًا ما كان ضُبّاط السّجن يوقظوننا للطّابور الصّباحي ، نصطفّ في طوابير طويلة ، تمتدّ عبر ساحة مهجعنا ؛ مهجع (ب) . ويقف شرطيّ بمحاذاة كلّ طابور ، وتبدأ الأوامر :

- استرح .
- . . . .
- استعد .
- إلى اليمين دُر .
- . . . .
- إلى اليسار دُر .
- نُطّ في مكانك (١٠٠) مرّة .

- ....

- قفْ .

- اركض حول المهجع (١٠) مرّات .

- قف .

- اقفز من أوّل المهجع إلى آخره قفزة البطّة .

وعليك أن تتخيّل عدد البطّ الّذي يقفز في السّاحة . بعضُنا ينفعل مع الدّور ، ومن باب التّسلية يبدأ بإصدار صوت البطبطة ، وتبدأ الضّحكات والهمهمات تتعالى من هنا ومن هناك .

وبعد حوالي عشرين دقيقة ، نجتمع في طوابيرنا المعتادة ، ثمّ يُصدِر لنا الضّابط أمرًا بالانصراف . مشهد انصرافنا من الطّابور طريف للغاية . يشبه ثوبًا منسوجًا من خيطان الصّوف ، يبدو قطعةً واحدةً متماسكة في البداية ثمّ تبدأ تنسلّ خيوطها من الأطراف ، وفجأة تنسل من الوسط ، وفي بضع ثوانٍ تصبح السّاحة أشبه بقطعة مربّعة من الورق تسير فيها أسراب من النّمل في كلّ الاتّجاهات!!

كانت أبواب المهاجع تفتح منذ السّابعة صباحًا إلى السّادسة مساءً في تلكم الأيّام . نبقى طيلة النّهار نتبرطع في السّاحة ، كأنّنا نأخذ من أشعّة الشّمس نصيبنا الّذي سنُحرم منه في قادم الأيّام . نُخزّن في مسامات جلدنا ما يفيض عن حاجتنا اليوم ، لنلجأ إلى استخدامه أيّام الحرمان .

كان العدّ المسائي يبدأ لحظة الدّخول إلى غرفنا في المهاجع . كنّا نعرف ذلك من منظر الضّبّاط القادمين مع المآمير لعدّنا ، كانوا يتبخترون في مشيتهم ، وهم يتوجّهون إلى مهاجعنا ، حاملين بأيديهم الهروات تحسّبًا لأيّ طارئ قد يحدث ، يدخل ضابط ومأمور لكلّ غرفة ، ويقف كلّ سجين أمام بَرْشه . ويبدأ العدّ . كنتُ أحيانًا أحمل الرّقم (٣) ، وأحيانا الرّقم (٥) وأحيانًا (٩) . لم يكن لي رقمٌ ثابتٌ في السّجن ، كان السّجّانون

يعدّوننا دون أن يميّزوا بيننا ، ولا يهمّهم شيء من ذلك ، سواء أكان الّذي عدّوه إنسانًا أم حيوانًا ، أم مجرّد رقم ، يحمله في تلك اللّحظة فحسب . كلّ ما يهمّهم أن يكون العدد النّهائيّ لكلّ غرفة مطابقًا للعدد المُفتَرض . وهكذا تحوّلنا في السّجن إلى أرقام . أحيانًا كانوا يُخرجوننا خارج الغرفة ، ونصطفّ في طابورٍ يطول أو يقصر بحسب عدد المساجين في كلّ غرفة . يقف المأمور (الشّرطيّ) في المقدّمة ، والضّابط في مؤخّرة هذا الطّابور ، ثمّ يبدأ التّدافع والدّخول ، يضع الشّرطيّ يده على ظهر أوّل واقفٍ في الطّابور ، ويدفعه إلى داخل الغرفة صائحًا : واحد ، ثمّ يكرّر الفعل نفسه دافعًا الثّاني إلى الدّاخل ، صائحًا : اثنين . . . وهكذا ، حتّى ندخل جميعًا . وعند آخر داخلٍ من المساجين ، يصيح المأمور : تسعة . تسعة يا سيدي . فينظر الضّابط إلىّ ورقة بين يديه ليتأكّد أنّ الرّقم مطابقٌ للمُسجّل فيها . وحين يكون كذلك : يهزّ رأسه ، صائحًا : تمام يا شرطيّ . سَكِّرْ عليهم الباب .

وفي نهاية عدّ الغرف والمهاجع جميعًا . يجتمع الضّبّاط في غرفة الإدارة ، وهناك يجمعون أرقام كلّ غرفة إلى الغرف الأخرى بشكل كامل ، وإذا ما حدث خطأ ما في العدد ، يعود الضّبّاط والمآمير بعد ساعة تقريبًا ، وتكون الشّمس قد غربت ، فيُخرِجون المساجين ، ويبدؤون العدّ من جديد . وفي كلتا الحالتين لم نكن أكثر من أرقام تدخل إلى أقفاصها ، ثمّ يُغلَق عليها ، ويُحكَم الإغلاق لحين شروق جديد للشّمس .

وهكذا تَقَزَّمْنا في مجموعة أرقامٍ اعتباطيّة ، تتغيّر بتغيّر طرائق العدّ . أكنّا بالفعل أرقامًا لا أسماء ، ورموزًا لا ذوات؟! كان هذا الأمر كثيرًا ما يُشعرنا بالاحتقار . كنّا نشعر أنّهم يُدخلون مجموعة من القطعان أو الماشية إلى زرائبها!!

لم يغب عن بال المسؤولين في هذا السّجن ، أنّ السّجون لا تُسمّى بهذا الاسم ، بل هي عندهم : (مراكز للإصلاح والتّأهيل) ، ولذلك عمدوا

إلى استقدام بعض المرشدين الدّينيّين من دائرة الإفتاء التّابعة للأمن العامّ، كي يُحاضروا فينا. كنّا نجلس في السّاحة جلوسنا لخطبة الجمعة، نتربّع أو نُقرفِص، ونتوجّه بأبصارنا وأسماعنا إلى الشّيخ المُعمَّم الجالس على كرسيّه، وهو يحدّثنا في أمور كثيرة، لم يعلق في ذهني منها اليوم شيء. غير أنّه - للأمانة - كنتَ ترى كثيرًا من المساجين يجلسون أمامه وكأنّ على رؤوسهم الطّير، ومع أنّ المُحاضِر أو الشّيخ، لم يكن يُفهَم منه لتخليطه كثيرًا من الأشياء، فإنّني تساءلتُ عن سرّ انتباه المساجين الشّديد إلى ما يقوله. فقلت: لعلّ توق النّاس إلى الخير ما زال قائمًا في قرارة النّفس هو سبب وجيه لهذا الإغراق في الانتباه. ولعلّ اعترافهم غير المُعلَن بمضيّهم في طريقٍ خاطئ سببٌ آخر، فجاؤوا ليعرفوا من أين الطّريق. ولعلّ خروجهم وجلوسهم بهذه الطّريقة يكسر الرّتابة الّتي قتلتْهم طوال سنيّ مكوثهم هنا سببٌ ثالث؛ فهرعوا ليجدوا جديدًا غيرَ ما اعتادوه من قديم.

غير أنّ بذرة الخير في النّفوس تبقى هي التّعليل الأقرب فيما أظنّ، والنّاس لو وجدت مَنْ يُرشِدها قبل أن تدخل إلى هنا، ما كان في السّجون يومَها أحدٌ.

مجتمع السّجن مجتمعٌ تتدنّى فيه الكرامة إلى أقلّ مستوياتها. ليس من هدف للشّرطيّ هنا إلاّ أن يحترف الطّرق الّتي يُهين بها السّجناء. ولذلك كانَ السّجناء يشكّلون جماعات؛ ليحموا أنفسهم من تغوّل بعض الشّرطة الفاسدين. لم تكن الشّرطة تتجرّأ على هذا النّوع من التّجمّعات. كان بعضهم - لطول معاشرته للسّجناء هنا - يعرف الجماعات من الأفراد المنكفئين على أنفسهم. ولعلّ قوله صلّى الله عليه وسلّم: (لا يأكل الذّئب من الغنم إلاّ القاصية) قد صدق هنا. كان الشّرطيّ المتبجّح يستخدم طريقته الفظّة مع السّجناء الجدد، أو الّذين لا يسيرون في تكتّلات. وقد يحدث أن ينفرد بسجين، فيضربه دون سبب، وينهال عليه

بالأكفّ دون داعٍ ، ويتبعها بشتائم مُقذِعة ، يندى لها الجبين ، وتشمئزّ منها الأسماع .

لو قُدّرَ لمراقبٍ حياديّ أن ينظر إلى السّجن من أعلى ، لرأى تيّار الحياة عجيبًا ، سيلاً من المساجين ذوي اللّباس الأزرق ، حليقي الرّؤوس مكشوفيها ، يذرعون السّاحات كأنّهم يهربون من أنفسهم . وبينهم أفرادٌ من الأمن العامّ ذوو اللّباس الرسميّ ، وأحياناً المُبرقَع ، يعتمرون قبّعاتهم ، ويشكّلون جزءاً غير متناسق من هذه اللّوحة الحائرة .

يحدث أحيانًا أن تقع عينك على احتكاكات مقصودة بين المساجين ، يدٌ تمتدّ هنا أو هناك . أخرى تشدّ على موضع ما . اثنان في زاوية قصيّة يجلسان بشكل لصيق ، ويتحادثان كعاشقين هائمين . كثرة الالتصاق تُوقِدُ مكامن الغريزة ؛ والاحتكاك يولّد الشّرارة . والشّرارة سرعان ما تنطفئ . مبدأ الاحتكاك والشّرارة الّتي تتولّد عنه ما زال قائمًا هنا ، ولكنّه غير ظاهرٍ للعيون البريئة!!

في هذا الخضمّ تضيع الآهات الصّغيرة ، مع هدير السّيل الجارف . وتخفى عن الأبصار مواضع الأيدي ، متدثّرة بساتر من المدّ البشريّ النّازف .

حدث مرّة أنّ شرطيًا يبدو أنّه طالت عليه إجازته ، ولم ير أهله منذ فترة . فأراد أن يتسلّى ، ليروّح عن نفسه قليلاً كما يظنّ . توجّه نحو أحد السّجناء وجهّز نفسه لاتّهامه إذا اقتضى الأمر . كان هذا السّجين أحد أعرق السّجناء ، وأقدمهم ، غير أنّه لم يَفِدْ على هذا السّجن إلاّ من عدّة أيّام ، لذلك لم يتعرّف إليه هذا الشّرطيّ بعدُ . قضى سنواته السّابقة متنقّلاً في سجون أخرى . وما إن واجهه الشّرطيّ حتّى هوى بيده على وجهه ولطمه ، صائحًا فيه :

- يا خنيث!!

ثمّ أراد أن يُتبعه بلطمة أخرى ، فلم يكن من السّجين إلاّ أن أمسك

يده ، وشدّ عليها بقوّة ، وصاح بالشّرطيّ :

- ليش بتضربني؟!

في هذه اللّحظة توقّف سيل الحياة عن الدّوران ، وجمد كلّ مَنْ في السّاحة من المساجين ، وتوجهّوا بكلّ جوارحهم إلى المشهد الّذي نادرًا ما يتكرّر ، يتابعونه بشغف . أمّا الشّرطيّ فلم يتوقّع أن يردّ عليه سجينٌ مهما علا شأنه ، فأصيب بالصّدمة ، وصار ينظر إلى يده الّتي يمسكها هذا السّجين ، وإلى العيون الّتي تتشفّى به ، وتحاصره من كلّ جانب . فما كان منه إلاّ أن نزع يده بقوّة . ونوى أن يثأر لموقفه المهين ، فهوى بيده الحرّة ليلطمه . وفي هذه المرّة أمسكها السّجين ، ولواها بشدّة ، فانحنى الشّرطيّ وهو يتلوّى من الألم . وصاح به السّجين بنبرة تحدٍّ جارحة :

- قلتلك . . . ليش بدّك تضربني . . . شو عاملك أنا؟!

- لأنّك ابن . . . .

تجمّع أفراد الشّرطة على الصّياح من زوايا المهاجع ، وخلّصوا الشّرطيّ من بين يدي السّجين ، وهجموا عليه ، وقاموا بتقييده بالكلبشات . ثمّ هُرِعَ بعد ذلك عدد من الضّبّاط كالثّيران الهائجة . وصاح أحدهم فينا :

- كلّ واحد يدخل لمهجعه . . . كلّ واحد يدخل لمهجعه .

هُرِعنا ندخل إلى غرفنا ، ونحن نترقّب ماذا يمكن أن يحدث . . . . كان يتنازعنا في تلك اللّحظة شعوران ، الأوّل : شعورٌ بالنّشوة ، والاعتزاز بهذا السّجين الّذي خالفَ قاعدة الرّضى بالمهانة هنا ، فثار عليها وحطّمها ، وكأنّه بعمله البطوليّ ذلك قد ثأر لكلّ مظلوم أو مكبوت فينا . والثّاني : شعورٌ بالخوف ممّا قد يقرّره مدير السّجن تُجاه هذه الحالة ، وما ستجرّه علينا من ويلات .

أمر مدير السّجن بإغلاق كلّ المهاجع إغلاقًا تامًا ، واقتيد السّجين وهو مُوثَق اليدين ، إلى الإدارة على ما يبدو . بعد حوالي نصف ساعة ، سمعنا أقدام الشّرطة ، توجّهوا إلى أبواب غرف المهاجع ، وفتحوا نوافذ الأبواب ،

والشّبابيك ، ليتسنّى لنا مشاهدة الموقف .

في وسط السّاحة الفسيحة الخالية من كلّ شيء . لم نرَ غير السّجين وقد عُرّيَ تمامًا إلاّ من اللّباس الّذي يستر عورته ، وقد رُبِطَ إلى كرسيٍّ أراه لأوّل مرّة . كان كرسيًا غريبًا ، مربّع القاعدة ، وقوائمه كأنّها من حديد . وظهره قنطرة متحرّكة . رُبِطَت أيدي السّجين بالكلبْشات إلى ظهره مع قنطرة ظهر الكرسيّ ، وقُيِّد رجلاه إلى قائمتي الكرسيّ ، وبدا أنّه سيواجه مصيرًا فظيعًا . من حوله تجمّع حوالي عشرة من أفراد الشّرطة ، ومعهم عدد من الضّبّاط ، من بينهم مدير السّجن . وقف المدير واضِعًا يديه على وسطه وأخذ يدور حول الكرسيّ ، وهو يوجّه كلامه إلى الغرف المنتشرة عبر الأطراف :

- والله لأدّبكوا كلكوا يا كلاب!!

حبسنا أنفاسنا ، ونحن نترقّب ماذا سيحدث . لم تستطع الكلمات أن تخرج من الجوف إلى الشّفاه في تلك اللّحظات ، ظلّت تتزحلق على مجرى التّنفّس ، كلّما همّت بالصّعود هَوَتْ إلى الأعماق ، فلا نملك بعده إلاّ أن نبلع ريقنا ، وكان حتّى هذا الشّيء صعب المنال . كم من الكلمات والدّعوات كانت تنوي أن تخرج من جوفنا لتدعو لهذا المسكين البائس ، ليخفّف الله عنه المصيبة الّتي ستحلّ به الآن ، ولكنّها ظلّت محبوسة هناك ، حيثُ يستطيع الخوف أن يفعل الأعاجيب .

أشار المدير لأفراد الشّرطة ، فهجموا عليه كأنّهم قطيعٌ من الذّئاب أُطلِقوا من عِقالهم ، ووجدوا الفرصة سانحةً لممارسة حفلهم الدّمويّ .

كلّ شرطيّ من هؤلاء كان يحمل في يده كرباجًا من الأسلاك المعدنيّة ، كان يهوي به على جسد السّجين ، بكلّ ما أوتي من قوّة ، وهو يصرخ :

- خذ يا ابن الشّـ . . . .

- آآآآآآه . . . (كان صياح السّجين يبلغ عنان السّماء ، أحسستُ أنّه يخترق كلّ الحجب والأستار ، وظننت أنّ كلّ من في المشرق والمغرب قد سمعه)

- مشان اتفكّر تمدّ ايدك يا ابن الكلب (يصرخ شرطيّ آخر وهو يهوي

بالكرباج على ظهره العاري) .

- آآآآآآآآآآآآآآآآآآآه . . . . آآآآآآآآآآآآآآآآآآه . . .

- ولك إنتَ شَـ . . . (يصرخ الثّالث ، وهو يتفنّن بسلخ السّجين المُعذَّب على فخذيه)

- آآآآآآآآآآآآآآآآآآه . . . . مشان الله . . . مشان الله . . . .

- ولك إنتَ بتعرف الله . . . يا حقير . . . (يصرخ الرّابع ، وهو يهوي بالكرباج على قدميه) .

- آآآآآآآآآه . . . خلص . . . خلص . . . بتحبّوا الله . . . . مشان الله . . .

وكأنّ أحدًا من الشّرطة لم يسمع صياحه ، ولا استغاثاته المكلومة . ومن بعيد سمعنا نحن القابعين خلف النّوافذ نتابع المشهد ، سمعنا صوت الكرباج وهو يحفّ الهواء ، ويطلق صفيره وزفيره قبل أن يأكل من جسد ذلك السّجين . . . ومع كلّ ضربة كرباج ، كنتُ أشعر أنّ قِطَعًا من اللّحم تتطاير ، وأنّه كان يأخذ معه جزءاً من ذلك اللّحم في كلّ مرّة . . . استمرّ أفراد الشّرطة في حفلتهم التّعذيبيّة حتى شعروا هم بالإعياء ، عندها أشار عليهم المدير بالتّوقّف . ابتعدوا عنه قليلاً . ووقف المدير وقفته الأولى ، وصاح وهو يدور حول السّجين ، موجّهًا كلامه لنا في مهاجعنا وغرفنا :

- رح أعمل هيك ، بكلّ واحد بفكّر يمدّ ايده على شرطيّ . . . اتفوه . . .

من بعيد ، بدا السّجين ، بعد هذا التّعذيب ، كشهيد أو كبطل . كان رأسه قد تدلّى على جسده ، وتقوّس ظهره حتى كاد رأسه يلامس ركبتيه ، والدّماء تغطّي جسده كاملاً ، ورجلاه ترتجفان كفراشة ، وجسده ينتفض كعاشق . . .

مرّت أيّام كثيرة قبل أن نرى هذا السّجين مرّة أخرى . . . كان قد بدأ يتعافى ، إلاّ أنّ بعض آثار التّعذيب سوف تعاند الزّوال مهما تقادمت

الأيّام أو السّنون .

إذا كان في ذلك درسٌ لنا ، بأن نزداد خضوعًا وذلاً ، فأظنّ أن أكثرنا قد تعلّمه . نعم تعلّمنا ألاّ نرفع حتّى أبصارنا في وجوه السّادة . ذلك هو الإصلاح والتّأهيل الّذي يقصده القائمون على مصلحة السّجون هنا .

الحزن له أنياب ، حادّة كالسّكين ، لا تنهش ، ولكنّها تجسّد معنى الألم وهي تغوص عميقًا في جسد الذّاكرة!!

بدأ الحزن يشكّل غمامة حامضة تلفّ روحي بعد هذا المشهد الرّهيب . ظلّ طيف السّجين ، والسّياط تلتفّ على جسده ، ولا تُفارقه إلاّ ومعها منه شيء ، ظلّ ذلك حاضرًا في ذهني لأسابيع طويلة . وفي اللّيالي السّاهدة كثيرًا ما كنت أراه متقوّسًا في كرسيّة ينزف كطائرٍ جريح ، أو يهبط من السّماء كعنقاء بعد الرّماد ، أو يلقي برأسه على صدره كجوادٍ يموت واقِفًا . لم تكن جوارحي حتّى تلك اللّحظة معتادةً على الأحزان الثّقيلة . فيما بعد استطاعت الأحزان بكلّ أنواعها أن تصبح صديقًا ألوفًا . تحترف الأحزان صداقتك إذا أدمنتَ تذكّرها!!

لوحة سُجناء ثورة الخبز لم تحمل لونًا واحدًا ، كان فيها الأحمر والأخضر والأبيض ، . . . الشّيوعيّون ، والبعثيّون ، والمثقّفون ، والعشائريّون . . . غير أنّ الإسلاميّين كانوا بلا لون في تلك اللّوحة النّادرة .

شيءٌ غامضٌ كان يقف حائلاً بيني وبين الانفتاح الرّوحي معهم ، أو التّواصل الفكريّ . يبدو أنّ اختلاف الثّقافات ، يزيد الهوّة عُمقًا!!

شكّلتْ في تلك الفترة أغاني سميح شقير ، أحد جسور الالتقاء النّادرة فيما بيننا . ومع أنّ هذا المغنّي كان يساريّ القلب والهوى ، فقد استغرب كثيرٌ منهم أنّني أحفظ أغنياته عن ظهر قلب . ولكنّهم ما دروا أنّ الحرّيّة هي بحدّ ذاتها اتّجاه لا يعترف بغيره من الاتّجاهات الأخرى .

كم رفعنا أصواتنا ،وأطلقنا لحناجرنا العِنان ، ونحن نغنّي :

هِيهْ . . . يا سَجّاني

هيه . . . يا عَتْم الزِّنزانة
عَتْمَكْ رايِحْ . . . ظُلْمَكْ رايِحْ
نَسْمَةْ بُكرَةْ مَبْتِنْسانِي
هيهْ . . . هيهْ . . . يا سَجَّانِي
لَوْلا إمِّي تْرَكْتَا بْعيدْ
لَولا اشْتَقْت لْضَيْعِتْنا
ما كُنْت اوْقَفْت بْشُبّاك الزِّنزانِة وَغَنِّيْتِلْهَا
يَمَّا العَسْكَرْ بيني وْبيْنَكْ
لَوْ طَوَّلْت بْيغْلا جْبينكْ
رَضَّعْتيني العزّ وْيَمَّا
المُوت يْطيبْ وْما تِنْهانِي

وعلى إيقاع (هيه) الحزينة ، كانت أرواحنا تغادر حناجرنا لوهلة ، ثمّ تعود إليها من جديد لنُكمِلَ الإيقاع .

كانت الأمّ حاضرةً كشتلة ياسمين في معظم أغانينا الّتي غنّيناها هناك . لا أحد يجهل كم تتلازم صورة الأمّ وحضورها الشّفيف مع لحظات الصّفاء الرّوحي . ولا أدري لماذا تُداهمنا ذكراها كعصفور يحطّ على ساحة القلب ، ثمّ ينقر منها دُموعنا مرّة ، وضحكاتنا مرّة ، وأحزاننا ثالثة .

الحنان ، الحنين ، اللّمسة الحانية ، الدّفء الوثير ، البسمة الدّائمة ، خضرة الرّوح ، سماء الأمل ، . . . كلّها كانت انعكاسًا لصورة الأمّ على مرآة الذّكرى .

ظلّت أمّي تمدّ لي يدها طَوال فترة السّجن . وعبر السّجون الّتي تنقّلتُ خلالها ظلّت واقفةً إلى جانبي ، ولم تسحب يدها من يدي ولو للحظة . لم أرها ولم تَزُرْني . مع أنّها كانت هناك ولم تُغادِرني أبدًا . روح أمّي ظلّت تصنع حولي هالةً من السّكينة ، كانت هذه الهالة زادي من الجوع ، ودفئي من البرد ، ورِيّي من العطش ، وظلّي من الهجير ، ولقائي بي من الضّياع!!

(٦)
﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾

كنّا غرقى في يمّ التّهميش والإهمال ، ومَنسيّين في جوف الرّمال ، ومتروكين في قيعة الوَحدة . . . ولأنّ الغريق يتعلّق بقشّة ، فقد كانت إشاعات العفو العامّ أو الخاصّ تجد رواجًا كبيرًا بين السّجناء .

عندما اتّسعت دائرة معارفي هنا في سجن الجويدة ، سمحتْ لي الظّروف بأن ألتقي العَشَرات وأستمع إلى قصصهم . كانت هذه القصص قنطرة العبور فوق نهر الزّمن . كم من تلك الأنهار قطعْناها ونحن نُرهف السّمع إلى أحدهم ليقصّ علينا إحدى بطولاته الّتي ساقتْه إلى هنا . كانت القصص مختلفةً متباينة ، لا يجمع بينها إلاّ شعور المسجون هنا بالظّلم!! لم أجد بين كلّ من رَوَوْا لي قصصهم واحدًا اعترف بأنّه يستحقّ السّجن ، وأنّه لم يُسجَن ظلمًا!!

صاحب الشّيكّات الّذي (نصب) على التّاجر بثلاثين ألفًا ، كان ينوي سداد قيمة شيكاته ، ولكنّه لم يكن يملك المال الكافي ، والمُشتكِي عليه لم يُمهله الوقت الكافي ليسدّد ما عليه ، وبالتّالي ، يقول صاحب القصّة : أليس هذا ظلمًا؟!

أمّا السّارق ، الّذي انتظر حتّى هدوء اللّيل ، وقبيل الفجر عندما كان الجميع يغطّ في نوم عميق ، واستخدم أحدث الآلات والأدوات ، لِفَكّ أعسر الأقفال ، فلم يكن ينوي ذلك!! ولكنّ الشّيطان سوّل له فعلته ، وما كان يدري بأنّ الكاميرات تصوّر كلّ حركةٍ وسكنةٍ . . . ويتظلّم شاكيًا : ليش يحبسوني؟! أصلاً ما أخذت فلس واحداً!!

أمّا القاتل، فلم يعمد إلى المِفكّ الطّويل، ويُغمده في قلب صاحبه إلاّ دفاعًا عن النّفس، وكان صاحبه هو الّذي هوى (بالكريك) على رأسه أوّلاً، ولولا أنّه عاجَلَه لكان هو المرحوم بدلاً من صاحبه. ثمّ يشكو حاله: والله هو اللّي فكّر يقتلْني بالأوّل!!

أمّا الّذي قام باغتصاب طفل في الثّانية عشرة من عمره، فلم يخطر بباله أن يفعل ذلك أبدًا، ولكنّه - أي الطّفل - هو الّذي دعاه إلى ذلك، بعد أن غادر أبواه المنزل، ثمّ دعا هذا المُغتصِب إلى بيته، وفي بيت الدّرج بعيدًا عن العيون فعل فعلته الشّنعاء. ثمّ يُردِف بأسى: والله هوّ إلّي أغراني!!

ليتني عثرتُ على واحدٍ من هؤلاء اعترف بسوء صنيعه. أكثرهم - إن لم يكونوا كلّهم - قالوا: إنّهم هم المظلومون. ثمّ إنّهم لا يكفّون عن تعزية أنفسهم بالعبارة المطّاطة: (يا ما في السّجن مظاليم)!!

غير أنّ بعض المواقف الطّريفة الّتي بدرت من بعض المساجين خفيفي الدّم، لطّفت من القرف الّذي كان ينضح به كثيرٌ منهم. قال لي أحدهم ذات مرّة، إنّ القصّة الّتي سيقصّها عليّ هي من صُنع خياله، وأنّه كان يحلم بها في نومه. قلت له: هاتِ حدّثني. فقال: مرّة كان هناك مَلِك، جاء إلى غرفة فيها سجينٌ واحد، وقد حُكِمَ هذا السّجين بالإعدام، كان هذا السّجين المحكوم بالإعدام يعمل نجّارًا، وكانت النّجارة لا تدرّ عليه من المال إلاّ ما يقيه هو وزوجته وأطفاله ذلّ السّؤال، وقد حدث أن تشاجر مع زوجته على مصروف البيت ذات مرّة، وتطوّر الشّجار بينهما إلى أن قام الزّوج بخنق الزّوجة، شاداً بيديه الغليظتين على عنقها، وقد كان يملك وُسْعًا من الغضب والشّدة إلى حدّ أنّه لم يرفع قبضته عن عنق زوجته إلاّ بعد أن لفظت أنفاساها الأخيرة، ثمّ قام بحرقها بعد ذلك. ولمّا ألقي القبض عليه. ووضع في السّجن، وحُكِمَ عليه بالإعدام، جاءه الملك في اللّيلة الّتي تسبق تنفيذ الحكم، وقال له: أنا الّذي صادقتُ على حكم

الإعدام ، ولكن من أجل أطفالك السّبعة الّذين فقدوا أمّهم ، وسيفقدون أباهم ، سأعطيك فرصةً أخيرة للنّجاة . عليك أن تبحث في غرفتك عن مكانٍ للخروج منها . ولكن عليك أن تفعل ذلك قبل الصّباح ، لأنّني إن جئتكَ في الصّباح وما زلت في الغرفة ، فسأسارع إلى إعدامك ، وتركه الملك وخرج . أجال السّجين نظره في الغرفة ، فوجد في إحدى زواياها قطعة مربّعة من الخشب ، فسارع إليها ، ورفعها فوجد تحتها غطاء من الحديد ، فرفعه ، وإذا به يُفضي إلى سرداب . قفز قلبه فرحًا في تلك اللحظة ، وظنّ أنّه أخيرًا سينجو ، وسيُفلِت من الموت . هبط السّرداب ، فوجده يفضي إلى غرفةٍ واسعة ، في طرفها باب ، فتح الباب ودخله ، فإذا هو يفضي إلى غرفٍ وأبوابٍ كثيرة ، ظلّ ينتقّل من باب إلى باب لاهثًا وراء النّجاة حتّى يحصل عليها ، ثمّ أدركه التّعب ، ولم يَرَ إلاّ أبوابًا تفتح على غرف مُغلَقة . حاول مئات المرّات أن يجد بابًا واحدًا يفضي إلى خارج السّجن ، لكنّ محاولاته كلّها ذهبتْ سُدًى ، وحينَ مرّ الليّل ، وأنهكه التّعب ولم يظفر بتحقيق حلمه ، عاد إلى غرفته ، واستلقى على ظهره يائسًا ، ينتظر حكم الإعدام . وفي الصّباح جاءه الملك ، فوجده في غرفته ، فقال له : يبدو أنّك فشلتَ في العثور على مخرج منها . فأجابه السّجين : ولكنّك خدعْتني ؛ إنّ كلّ المنافذ تُفضي في النّهاية إلى جدارٍ مُغلَق . فقال له الملك : إنّ باب النّجاة كان أمامك . فأجاب السّجين مندهشًا : كيف كان أمامي؟! فقال الملك : لقد تركتُ باب غرفتك مفتوحًا ، كان يُمكنك أن تخرج من الباب!!!

طبعًا ابتسمتُ في أعماقي ، لقد شدّ مُحدّثي انتباهي ، وجعلني أتابعه حتّى النّهاية ، يبدو أنّنا كنّا مثل ذلك السّجين ، نفكّر بالخروج من هذا السّجن ، ولكنّ الفشل دائمًا كان نصيبنا . وأنّ مغادرة هذا المكان تبدو قريبةً في أحلامنا ، ولكنّها في الواقع صعبة التّحقّق . أو ربّما أنّنا نُحمّل الأشياء فوقَ ما تحتمل . لقد كنّا نشبه ذلك السّجين في أنّ عقولنا – في

تلك الفترة - كانت منشغلةً فيما لا نرى، وليس فيما نرى!! لقد قادتْنا أحلامنا وجنوننا إلى أن نُبصِرَ بعيني المحروم لا بعيني الإنسان الطّبيعيّ. فهل كان الحرمان من الحرّيّة في السّجن سببًا في عزْلِنا عن حقيقة الواقع الّذي يتشكّل خارج أسوار السّجن؟!!

نعم. كانت إشاعات العفو تَشغَل بال كلّ مَنْ في السّجن. طافت هذه الأحلام بالعقول كافّة، حتّى أنّ الّذين حُكموا للتّوّ بعشرين عامًا راودتْهم تلك الأحلام. فظنّوا أنّ إخلاء سبيلهم أقرب إليهم من شِراك نِعالهم!!

كم حزنتُ وأنا أستمع إلى الكثيرين من المساجين هنا وهم يُخطِّطون لمرحلة ما بعد السّجن، ماذا سوف يفعلون، وكيف سيعيشون حياتهم بعد الإفراج. كأنّهم كانوا متيقّنين من إطلاق سراحهم. لم يكونوا أكثر من فَراش أغرته النّار فسارع بإلقاء نفسه فيها ظانًا أنّ النّجاة في لهيبها، ولم يدر أنَّ الهلاك كامن في ذلك اللّهيب!!

صار الحصول على قلم وبضع أوراق مُمكِنًا، كان ذلك بسبب طول العهد والصّحبة مع شُوّاش الغُرف. قمتُ برشوة أحدهم للاستئثار بقلمه، مقابل شيء من النّقود. أيّ ثمنٍ تدفعه مقابل القلم في تلك الأيّام، كان - من وجهة نظري - رخيصًا، مهما كان هذا الرّقم عاليًا. لقد كان القلم يستحقّ كلّ قرش يُدفَع من أجله. لم يكن أحد يُنكِر قيمته السّاحرة لو كان شاعرًا أو كاتبًا. مَنْ يُنكِر قيمته التّي أعلاها الله حين أقسمَ بها في كتابه العزيز: ﴿ن وَالقَلَم وَمَا يَسْطُرُونَ﴾!!

في مساء يوم منَ أواخر أيلول عام ١٩٩٦م. علمتُ أنّ وفدًا من سُجناء انتفاضة الخبزً قد استدعاهم مديرُ السّجن. ولم ندر ما السبب؟ بل لقد كفينا أنفسنا مؤونة التّكهّن به. وبعد حوالي نصف السّاعة عادوا من الإدارة ودخلوا إلى غرفتهم. وبعد أقل من دقيقة سمعنا صياحًا وهياجًا وغناء يتعالى من هناك، فتبادر إلى ذهن الكثيرين منّا أنّ عفوًا قد صدر

بحقّهم، أو أنّهم سيخرجون بكفالة، وأنّ إخلاء سبيلهم قد بات قاب قوسين أو أدنى. هُرِعتُ إلى غرفتهم الّتي تُجاور غرفتنا، وهالني منظرهم الّذي لا يُنسَى.

كان البعثيّون والشّيوعيّون والمثقّفون وأبناء العشائر قد صعدوا فوق أبراشهم العلويّة (الطّابق الثّاني من الأسرّة) وراحوا يقفزون بشكلٍ جنونيّ وهستيريّ. بعضهم كان طويلاً، حين يعلو بقفزته فوق البرش يكاد رأسه يرتطم بسقف الغرفة، وفي تناغم مَهول راحوا يغنّون بصوتٍ موحّد:

يا ظَلامَ السِّـجْنِ خَـيِّمْ
إنّنـا نَـهْـوَى الـظَّـلامَـا
لَـيْـسَ بَـعْـدَ الـلَّـيْـلِ إلاّ
نُورُ فَـجْـرٍ يَتَـسَـامَـى

لم يكلّوا ولم يملّوا. ظلّوا على قفزاتهم وصياحهم. تُرى: ماذا كانوا يفعلون؟

يخبّئون الخوف من القادم المجهول بأغانيهم؟!

أم يكسرون رتابة الزّمن الّتي تكسر كلّ شيء في طريقها؟!

يعبّرون عن ذاتهم الّتي كادت تُسحَق هنا بسبب الاحتجاز القسريّ؟

أم يضخّمون هذه الذّات حتّى لا تّمحي؟!

هل يفعلون ذلك واعين، أم أنّ شعور اللاوعي دفعهم إلى ذلك؟!

هل يستمتعون بهذا الغناء فيعيشون مفرداته؟ وهل هم يعنونها أم لا؟

أم أنّهم يفعلون ذلك من باب: (إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة؟)

وبعد نصف ساعة من هذا الهياج، نزلوا عن أبراشهم يلهثون، وذهبوا كمسافرين أتعبتْهم الرّحلة باتّجاه الإدارة مرّة ثانية. وصمتتْ غرفتهم بعد ذلك صمتَ القبور. ظلّت صامتةً أيّامًا وأسابيع، لم تحتفظ من بعدهم إلاّ بصدى أغنياتهم الحارّة. ولم تَعِ إلاّ آخر مفرداتهم العالقة فوق الجدران. ولم تُبقِ إلاّ طيوفهم الصّوتيّة الّتي تركوها وراءهم تُكمل من بعدهم دورة

العلوّ والهبوط . لم أسمع الغرفة بعد رحيلهم تتكلّم حتّى غادرتُ بنفسي هذا السّجن إلى سجن سواقة الصّحراويّ!!

بدأت الحوارات السّياسيّة والفكريّة مبكّرًا هنا . (عكرمة) عرّاب الحِوار أدخلَنا سهوًا في هذه الحَوْمة . ظللنا نحوم حول أسئلة لم نجد لها جوابًا شافيًا يومًا :

أيّهما يولّد الإبداع : الكبتُ أم الحرّيّة؟

هل يُبدع المقموعون؟

الدّولة البوليسيّة هل تنتج فنًّا وفكرًا وثقافةً؟!

هل تشكّل العقليّة الأمنيّة حاجزًا يحول دون الإبداع أم تحفزه؟!

الخائفون هل يكتبون أم يبقون يرتجفون كعصفورٍ بلّله القطر في ليلة شتاء قارسة؟!

شكّلت قضيّة (عكرمة) و(عليّ) و(يوسف) أبرز قضايا محكمة أمن الدّولة في تلك الفترة . كان الثّلاثة من عشائر أردنيّة تستقرّ على قمم جبال عجلون المطلّة على فلسطين ، والفاصل بينهما وادٍ غير ذي زرعٍ يمكن القفز فوقه دون الوقوع فيه للوصول إلى الأرضِ المقدّسة ؛ الأرضِ الحُلُمً .

كانوا يدخلون حقول الألغام ، دخول العاشق حدائق عشقه ، وفي منتصف الليلة الحالكة يسيرون بين هذه الألغام وهم يترنّمون بأهازيج تتحدّى الموت ، ويرقصون ككَهنة على أبواب الكهوف ، ويُشعِلون النّار أمام الأسلاك الشّائكة ليعلنوا أنّهم لا يعترفون بها .

كانوا يحبّون عجلون وفارة والأردنّ كمجانين ، ويقرؤون تراب الوطن ، كما يقرأ شيخٌ جليلُ التُّقى مُصحفه . كانوا هواةَ جمع ألغام . يحبّون أن يحتفظوا بها في خِزانات بيوتهم ، كما تحتفظ الحسناء بجَواهرها ولآلئها في الصّناديقِ المُغلَقة . كان للألغام عندهم بريق الذّهب ، كلّما جمعوا منه شيئًا ازدادوا إلى بريقه عطَشًا ، وطَمِعوا بالمزيد . وفي كلّ مرّة حينَ يُقسِمون على الاكتفاء بما جمعوه يحنِثون بقسمهم هذا وينقُضون عهدَهم ، ويعودون

إلى عشقهم من جديد .

لقد أدمنوا جَمْعَ هذا النّوع من اللآلِىء ، وحفظوا مواقعه في مناجمه ، فصاروا يعرفون أماكنه . كانوا يقيسون المسافة بين لغم وآخر بالمِسطرة ، وبالشِّبر ، وبالفِتر ، وبالخطوة العابرة . وهو قياس غيرُ دقيق البَتّة ، وقد يقعون في الخطأ بسببه فيطؤون على لغم فيتفجّر بهم ، ليصعدواً في السّماء نجومًا متناثرة تتساقط أشلاءً مُفتّتة . كأن بينهم وبين الموت بهذه الطّريقة ، خطأ مُحتَملٌ في سنتيمترٍ واحدٍ فحسب . وكان بينهم وبين الموت ثانيةٌ أو أقلّ ، غير أنّهم لم يعبؤواً بذلك أبدًا ، وكانت الثّقة وهم يسيرون وسط هذه الألغام أكبر من أن تزعزعها فكرة الموت ، أو الانتقال في لحظةٍ خاطفةٍ إلى الحياة الآخرة . لقد كانوا يقولون : إنّ أوطاننا لا تقتلنا!!

ولكنّ أجهزة الدّولة استطاعت أن تغتال الحلم ، قبل أن يتشكّل ، وهم يقفون في قاعة محكمة أمن الدّولة ، فكأنّها تُحاسبهم على أحلامهم ، قائلةً :

- أيّ حلم ، والأحلام أضغاث؟!
- أن نرى وَطننا حرًا لا تدوسه أقدام الصّهاينة!!
- وفيم تجمعون ألغامكم؟!
- لنفجّرها في وجه اليهود إن وَطِئت أقدامُهم تراب أرضِنا!!
- ولكنّ معاهدةَ سلام تحكمنا!!
- اليهود لا يحكمهمّ شيء . هم يرون أنّ الأردنّ الضّفّة الشرقيّة لأرض إسرائيل!!
- إنّ جَمْعَكُم لهذه الألغام هو عملٌ إرهابيٌّ . وهو ترويعٌ للآمنين .
- بل هو حمايةٌ لهم ، وصمّام أمانٍ في وجه مَنْ يفكّرون بمهاجمة بلادنا!!

حين عادوا ذات يوم من الجلسة الأخيرة لُمحاكمتهم كانوا يحملون مشروع شهداء مع وقف التّنفيذ . تلقّيتهم في الثّانية ظهرًا خارج باب

المستودَع ، وسارعتُ إلى احتضانهم قبل أن أعرف الأحكام الّتي صدرتْ بحقّهم . وسألتهم :

- بِمَ حُكِمْتم؟ طمئنوني؟!
- اطمئنّ . بالإعدام ، ثمّ خُفِّفت إلى مؤبّد .
- غير معقول .
- لماذا غير معقول؟
- لا أكاد أصدّق . أهذا جزاء من يُدافع عن وطنه؟!
- لا بأس . زوايا النّظر إلى المفاهيم متباينة!!
- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله!!
- الحمد لله على كلّ حال .

قال لي (يوسف) يومها ، عندما نطق القاضي بالحكم في البداية : إعدام ، ثمّ سكتَ للحظة ، ثمّ أتبعها بالمؤبد ، ما بين الحُكمَيْن سارت الحياة في دورتها إلى النّهاية ، ووجدنا أنفسنا لحظتها مرفوعين على أعواد المشانق من أجل أوطاننا . إنّها اللّحظة الفارقة بين الموت والحياة . أخيرًا يمكن أن يموت الإنسان من أجلِ قيمة ، أن يضحّي من أجل فكرة . ما أصعب أن يموت الإنسان موتًا اعتياديًا!!

يومها فحسب ، فهمتُ - عمليًا - قولة خالد بن الوليد الشّهيرة : (وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء) .

عاد عكرمة إلى هوايته المُفضّلة ، ونسي حُكم المؤبّد الّذي حمله على كتفه كنيشان ، لم أره جائعًا إلى الحوار هكذا من قبل ، ذلك لأنّ مجموعة انتفاضة الخبز ، كانوا قد نُقِلوا إلى سجن سواقة ، ولم يبق من الـ (٢٥) فردًا غير (ناهض) و(شادي) . وبذلك فقد رفقاء كُثرًا طالما استمتع بمحاورتهم ، ومناقشتهم في أفكارهم .

كان (عكرمة) يجعل من الحوار خبزه اليوميّ ، ورياضته المُفضّلة! ثقافتُه المتنوّعة ، وقراءته في أدبيات الفكر الماركسيّ ، بالإضافة إلى قراءة

كتب سيّد قطب جميعها ، وكتب مالك بن نبيّ ، والكتب الّتي تتأرجح بأفكارها بين ذلك اليسار وهذا اليمين جعلتْ منه إنسانًا لا يكاد يُجالس أحدًا إلا فتّق معه ينبوع النّقاش . وكان يبدو متحمّسًا في كلّ حوار يُنشئه بينه وبين الطّرف الآخر . حماسته كانت لافتةً للانتباه ، ويبدو أنّ مبعثها الاستمتاع بطرح الفكرة والردّ عليها . خُيّل إليّ في إحدى المرّات أنّه إذا فقد نِدًّا له في حواراته الّتي لا تنتهي ، فسيبدأ بمحاورة نفسه .

جلسنا ذات مرّة على طرفي الحديث ، وبادرْتُه قائلاً :

- ستكون معجزةَ العصر لو أنّ الشّعوب العربيّة استعادت إنسانيّتها .

- وهل يمكن أن تفعل ذلك؟!

- ليس مستبعدًا !!

- كيف؟

- أن تثور !!

- هكذا بهذه البساطة !!

- بالطّبع لا . . . إنّ القمع الّذي مورس عليها سنين طويلة ، هو بمثابة الشّرارة الّتي لا تعرف متى تنفجر لتأكل كلّ شيء!!

- هذا خيال الشّاعر أم السّياسيّ؟!!

- كلاهما!

- دعكَ من الأحلام . . . الأحلام رغبات مكبوتة كما يقول فرويد .

- في هذه الحالة نعم . . . وهل مصير المكبوت إلاّ الانفجار .

- الشّعوب العربيّة تربّت على غير هذه المفاهيم الثّوريّة الّتي تُنادي بها .

- ماذا تقصد؟!

- تربّت على كتلة باردة من الأمثال الّتي تورث الخنوع . انظر ماذا حفظنا في صغرنا : (وأنا مالي ؟! فخّارٍ يْكَسِّرْ بَعضُه . . .) هذا يعني أن تقف متفرّجًا ومستمتعًا في الآن نفسه بمن يموت أمامك . واسمع سلسلة

من الأمثال الّتي تقرع دماغك بعصا نحاسيّة ثقيلة . إنّ موروثنا الشّعبيّ غرس في لاوعينا : (اِمْشِ الحَيْطِ الحَيْطِ وقُولْ يا رَبِّ السّتِيرةْ) و(حُطْ راسَكْ بِينِ الرُّوسْ وقُولْ يا قَطّاع الرُّوسْ) أكثر ما يستفزّني اليوم هذا المثل الأخير ، إنّه استسلام الضّحيّة للَجلاّد . . . ليس لديّ ذاكرة لأسرد لك كلّ المواعظ الرّديئة في تذليل الرّؤس المغلقة . . . آه . . . تذكّرت : (جاجَةْ حَفْرَتْ عَلَى راسْها عَفْرَتْ) . . . هيّئ نفسك لمزيد من احتراف الخنوع ، واسمع هذا المثل القاتل : (إلّي من إيدُهْ اللهْ يْزِيدُهْ) . . .!! يعني كلّ ما تعلّمناه أوصلنا إلى ما نحن فيه . . .

- غياب التّربية النّموذجيّة سببٌ مقنع . . .

- لم تغب التّربية يا صديقي . . . كانت تربيةً مضادّة . . . كنّا كائنات من ورق ، وأشباح مرعوبة يصيبها الفزع حتّى من ظلّها . . .

- وما المخرج؟!!

- الحريق . أَحْرِق كلّ شيء ؛ موروثاتك البالية ، وأفكارك الّتي هي أفكار غيرك ، وصلت إليك باستمراء الوضع القائم .

- الحريق!! نعم الحريق .

لم أرتحْ من دُوار الحوارات الطّويل ، إلاّ بعد أن نُقِلَ (عكرمة) و(عليّ) و(يوسف) إلى سجن سواقة ليقضوا فيه فترة حكمهم المؤبّد . غادروا غرفة المستودَع وتركوني فيها قمرًا نازفًا في ليل الوحدة ، ونجمةً حائرة في فَلَك الوحشة .

ذات يوم وأنا أهمّ بالخروج من الغرفة ، بادرني أحد أفراد الأمن بالتّوجّه نحوي ، خلتُ أنّ أمرًا ما سيحدث ، فاستنفرتْ جوارحي صحوها . ظلّ هذا الشّرطيّ يواصل سيره نحوي كأنّه يقصدني دون سواي ، وعندما صار على مسافة قريبة جدًا ، صحتُ ملهوفًا ، وسارع هو إلى احتضاني ، لقد كان ابن عمّتي . واستطاع لمعرفته بأحد ضبّاط السّجن أن يدخل إلى المهاجع ليقوم بزيارتي زيارةً خاصّة . حدّثني طويلاً ، وأنِسْتُ بوجوده أُنسًا

رابِيًا . أخيرًا أحد أقربائي بجانبي ويده بيدي ، نسير معًا في ساحة مهجعنا . وبعد حوالي ربع ساعة ، بدا أنّ مدير السّجن رآه عبر كاميرات المراقبة ، إذ سارع إلى سؤال معاونيه ، من هذا الشّرطيّ الّذي يُصادق سجينًا؟! إنّه ليس من مرتّب أفراد أمن السّجن . وحينَ علم بذلك سارع إلى بعث أحد رجاله ليُعلمَه بالخروج من السّجن فورًا وإلاّ تعرّض لمحاكمة عسكريّة في محكمة الشّرطة . رضخ ابن عمّتي للأوامر ، ولكنّه قال لي قبل أن يغادرني إذا كنتُ محتاجًا لشيء . كنتُ قبل أيّام قد كتبتُ بعضَ القصائد ، وأردتُ أن تصل بأمان إلى أهلي خارج السّجن ، وألاّ تظلّ هنا عرضةً للتّفتيش والمصادرة . فأخبرتُهُ ما إذا كان يستطيع أن يأخذ منّي هذه القصائد . فقال لي : إنّ كاميرات المراقبة مُسلّطة عليه الآن في هذه اللّحظة ، وإنّه سيُحاكَم لتعاونه مع مُجرِم!! وربّما يفقد وظيفته الأمنيّة . أطرق قليلاً ثمّ أردف : عندي فكرة . تظاهر أمام الكاميرات أنّك تُعطيني نقودًا لأصرفها لك بفئاتٍ أقلّ ، وأنا بدوري سأخرج مِحفظتي من جيبي وأتظاهر بأنّني أردّ لك قيمةً نقودك مصروفةً . اتّفقنا على ذلك ، وبالفعل كنتُ قد طويتُ الأوراق بِحجم النّقود ، ومددتُ يدي إلى الجيب الخلفيّ ، وفعل هو الشّيء ذاته ، أخرج محفظته وقلّبها بأسلوبٍ ذكيّ ، ودسستُ فيها الأوراق . وهكذا تمّت العمليّة تحت عدسات كاميرات المراقبة على أنّها تبادلٌ لأوراقٍ ماليّة . سلّم عليّ ، وحمّلتُه سلامًا حارًا إلى والديّ وإخوتي وإلى عمّتي . ثمّ غادرني وأنا أطفح بالسّعادة والانتشاء ؛ ها هي أولى قصائدي تخرج من هذا المعتقل لتصل إلى أيدٍ أمينة ، ثمّ لتشكّل فيما بعد جزءًا من أدب السّجون الّذي أبدعتُه!

مرّ ما يُقرب من شهر على وجودي هنا . ظلّت ذكرى صاحب الكرسيّ تُعاوِدني بين فترةٍ وأخرى . حين تمرّ بخيالي أنتفض كريشة ، وأرتعش كورقة ، ثمّ أمسك رأسي بين يدي كأنّي أحميه من السّقوط . لم تكفّ دوائر صورته تضرب جدار مخيّلتي ، تدور وتدور وتدور حتّى تصيبني

بالدّوار . ألم يحن لي الوقت حتّى أكون قويًا بما يكفي!!

من أيّ طينة عُجِنَ الشّعراء؟! ومن أيّ ماءٍ سُقوا؟! كم وددتُ لو أنّني أملك جوابًا- حينها - يحميني من الهذيان!! حدّقتُ بعدها في الفراغ طويلاً ، ومشيتُ دونما غاية ، ووَفْق لا اتّجاه ؛ مثل سمكةٍ في البحر . وحدّثتُني بصوتٍ غير مسموع ، مثل عودٍ تمزّقت أوتاره فلم تَفُهْ بالنّغم!!

طالت لحيتي خلال تلك الفترة ، تركْتُها حرّة دون قيود تعويضًا عن القيود الّتي تتبدّى لنا في كلّ ما يُحيط بنا ؛ هي مساحةٌ من الحرّيّة ، وإن كانت ضئيلة فهي حكمٌ مُقنعٌ بالأمل . لم يكن أمامنا غير الأمل نافذةً على الشّمس تشقّ جيوب الظّلام . تملّكتْني رغبة جامحة في النّظر إلى المرآة لثانية واحدةً ؛ لأراني . . . . لأرى هذا السّاكن فيّ . . . ماذا تبقّى منه ، وماذا تبقّى له !! لكنّها كانت أحلامًا لا سبيل إلى الإمساك بها ؛ كانت مثل عصفورٍ يتعلّم الطّيران ، كلّما شعرنا به بين أكفّنا طار مرّة أخرى ، ولكن إلى مسافةٍ قريبة ، فنلحق به ، ثمّ يطير . . . ثمّ نلحق به ، ثمّ يطير . . . وفي النّهاية نتعب وتتعبُ معنا أحلامنا ، لا هي استراحت إلى قدرها المحتوم ، ولا نحن كففنا عن الجري وراءها . . . . ما أغرب الإنسان!! يعرف أنّ الصّحراء قاتلة ، فيدخلها دون أن يخزن قطرة ماءٍ واحدة ، لأنّ السّراب يُلقي في رُوعِه أملَ الماء!!

مَنْ يُريني وجهي اليوم؟! من يستطيع أن يدلّني عليّ؟! من في وسعه أن يقرأ تعابير روحي . . . أحتاج بجنون إلى مَنْ يفتح كتاب قلبي فيقرؤني ، أكان لِزامًا على الشّعراء أن يقضوا لياليهم في تأمّل وجوه قصائدهم ليُبدِعوا رسم كلماتهم دون سواهم؟!! لماذا لا يملك الآخرون غير الاستمتاع بعذابات الشّعراء وهم يتلون جراحهم النّازفة على شكل قصيدة؟!

ظلّ قلبي يقول لي : إنّ وجهك لم يعد هو؟! ظلّ يمارس هوايته في نقر طمأنينتي القارّة في أعماقي ، فيثيرها زوبعةً من الهواجس والتّرقّب ،

وظللتُ أتبعه مثل ظلّ غمامة :

هَلْ يُولَدُ الشُّعَراءُ مِنْ رَحِم الشَّقاءْ
وَهَلِ القَصِيْدَةُ طَعْنَةٌ فِي القَلْبِ لَيْسَ لَها شفاءْ
أَمْ أَنَّنِي وَحْدِي الّذي عَيْناهُ تَخْتَصِرانِ تارِيْخَ البُكاءْ

بدأ تاريخ البكاء يُغريني ، ويدفعني إلى مزيدٍ من النّزيف ، احترفته حتّى صارَ عذابًا عَذْبًا ، أستدعيه في حالاتٍ التّقوقع على النّفس ، ليخلّصني من آلام الذّكرى .

رأيتُ اليوم صاحب الكرسيّ ، مرّ بي وابتسم ، استرقتُ نظرةً خاطفة إلى معصميه ، فرأيتهما ممتلئتين بأخاديد جافّة ، طغى على لونها السّواد ، لأنّها رُمّت على فساد الجرح . كانت عيناه قد ازدادتا ضيقًا ، لكنّني رأيتها تُشعّان إصرارًا وتحدّيًا . حدجني بنظرةٍ قاسية حينَ أحسّ أنّ شعورًا بالإشفاق عليه يتملّكني ، وكأنّه يقولُ لي : يبدو أنّك غِرٌّ ، لم ترَ بعدُ شيئًا . أو كأنّ مفردة الشّفقة مفقودةٌ من قاموسه الحياتيّ ، فهو يرى الحياة صراعًا قاسيًا بين مجموعة من الذّئاب . دار حِوارٌ صامتٌ بيني وبينه . قلت له ؛ لأواسيه :

– كن مثل ذلك الذّئب الّذي وقع في الفخّ ، فلم يجد وسيلةً للنّجاة غير أن يلتهم رِجْلَه ، وأن يُضحّي بالجزء في سبيل إنقاذ الكلّ ، أليس ذلك خيرًا من أن تفقد نفسك وتقع ضحيّة التّفكير العقيم بالتّضحية؟! أليسَ أن تعيشَ أعرجَ خيرًا من ألاّ تعيش؟!!

– لا! أبدًا ، ليس الأمر كذلك . إنّ رِجْلي الّتي أكلْتُها سوف تبقى شاهِدًا على أنانيّتي ، وحبّي للعيش . إنّ عَرَجي سيظلّ علامة على جُبْني في مواجهة الموت!!

– ولكنْ أيّ نوع من الذّئاب تحبّ أن تكون؟!

– سأكون مثل ذُلك الذّئب الّذي وقعَ في الشَّرَكِ ، لكنّه استطاع بقوّته أن ينقُلَ الفَخَّ من مكانه ، ويجرّه مع وتده إلى مسافةٍ طويلة ، غيرَ أنّ الدماء

النّازفة وأثر جَرِّ الشَّرَكِ على التّراب دلّتا عليه ، وحينَ حُوصِرَ من قِبَل صيّادي الذّئاب قريبًا من منحدر جبلٍ ، اتّجه نحو الحافّة الشّاهقة للجرف ، وعندما أيقنَ أنّه لن يُفلِتَ منهم ، وأنّهم سيتمكّنون من الإمساك به حيًا ، نظر إليهم بعينين مُشعّتين ، تفيضان تحدّيًا ، ثمّ قفز نحو الهاوية إلى مسافة (٤٠٠) مترٍ ، مُفضّلاً أن يموتَ منتحرًا عند سفح الجبل على أن يقع في الأسر .

- أيّ ذئبٍ أنتَ يا صديقي!!!!

أمسِ جاءني شرطيّ التّبليغات ، يحمل ورقة الأسماء كعادته ، وقف بالباب ومن شُبّاكه ، نادى عليّ ، وأعلمني بموعدِ جلسة النُّطق بالقرار .

صباح يوم الأحد ٦/١٠/١٩٩٦م ودّعني مَنْ تبقّى معي في الغرفة ، ودَعَوا لي بالتّوفيق . هذه المرّة خرج معنا (ناهض) ، والمهندس المدنيّ الّذي ظلّ منبوذًا طوال الفترة الماضية وما زال . وعند بوّابة الزّنزانة المتحرّكة ، صعد معنا مجموعة من مساجين قضيّة المُخدّرات .

استقررتُ بعد رحلة العناء بين السّجن والمحكمة أمام القاضي في الغرفة ذاتها الّتي وقفتُ فيها قبل أكثر من عشرة أيّام . تلا القاضي أمامي الحُكم ، ولم أشعر بشيء ، كان نصّ الحكم على النّحو الآتي :

« . . . لذا ولكلّ ما تقدّم ، ولقناعة المحكمة التّامّة لما توصّلتْ إليه ، فإنّها تقرّر بالإجماع ما يلي :

إدانة الظّنين أيمن علي حسين العتوم بالتّهمة المُسندة إليه ، والحكم عليه بالحبس مدّة سنة سندًا لأحكام المادّة ١٩٥ من قانون العقوبات رقم ١٦ لسنة ١٩٦٠,

ولأسباب مُخفّفة تقديريّة ، وكونه طالبًا ، ولإعطائه فرصةً لإصلاح نفسه ممّا تعتبره المحكمة من الأسباب المُخفّفة التّقديريّة ، فإنّها تقرّر وعملاً بالمادّة ١٠٠/١ عقوبات تخفيض العقوبة لتُصبح الحبس مدّة ثمانية أشهر مع الرّسوم ومصادرة وقائع الأمسية الشّعريّة على أن تُحسب له

العقوبة من تاريخ التّوقيف . . .»

لم أدر ماذا أفعل بعد أن تلقّيت هذا الحكم ، وحرت بين أن أضحك أو أبكي أو أرقص أو أدور حول نفسي دورتين أو أصفّق للقاضي . ظللتُ مكاني واقفًا فاقدًا لأيّ مستوىً من الشّعور وكأنّ الأمر لا يعنيني!!

غير أنّني هممتُ أن أقف شاكرًا للمحكمة الّتي أعطتْني فرصةً لإصلاح نفسي ، وتقويم اعوجاجها . إنّه اعوجاجٌ بات مُقلِقًا للدّولة . ولكنّه ليس ذنبي بل ذنب القصائد الّتي تغريني بهذا الاعوجاج ، وتفتح شهيّتي على أن أُفسِدَ نفسي ؛ فشكرًا للدّولة الّتي تحرص على مواطنيها ، ولا تتركهم دون أن تُصلح من شأنهم ، وترشدهم إلى الطّريق الموصلة إلى حظائرهم !!!!!

تلقّاني (ناهض) بعد أن عدتُ إلى القفص في القاعة الرّئيسة لمحكمة أمن الدّولة . سألني :

- انحكمت؟!
- نعم .
- قدّيش؟!
- سنة وخُفِّفت إلى ثمانية أشهر .
- بسيطة . . . بسيطة . . . مشان الوطن .
- الحمد لله .

عادت بنا السّيّارة إلى سجن الجويدة . ودخلتُ إلى غرفة المستودَع متعبًا .

مرّت أيّام ثقيلة بعد أن تلقّيتُ الحكم . عانيتُ فيها من صراع المشاعر في الأعماق ، ومن هَيَجان الخواطر في الأذهان . وهاجني الشّوق إلى (عكرمة) و(يوسف) و(عليّ) ، وطال تأخّري بعدهم مع أنّه صدر الحكم بحقّي . ومن المفترض أن يغادر المحكومون في كلّ القضايا سجنَ الجويدة إلى سجن سواقة ، بقيت أقطع الوقت مع (ناهض) و(شادي) ، وذلك

المنبوذ الّذي وجد فرصةً بعد مغادرة الثّلاثة للسّجن كي يتقرّب منّي قليلاً ، ويقضي على عزلته ، ويجد من يحدّثه ، لقد كادت الوحدة تصيبه بالجنون .

هذا يومٌ آخر من أيّام الصّدمات العنيفة ، ولكنّه هذه المرّة سيتركني أقوى مِمّا كنتُ أظنّ . تناهى إلى سمعي وأنا في المستودَع أصوات صياح بعيدة نوعًا ما ، ولكنّها تشبه استغاثات مُفجِعَة . خرجتُ كالمجنون من الغرفة ، واتّجهتُ صوب مصدر الصّوت . كان المكان الّذي تنبعث منه تلك الصّيحات في الطّرف الفاصل بين حدّ المهجع (ب) من جهة الجنوب ، وبين حدّ ملعب السّجن الملاصق للمهجع (أ) . وفي ساحةٍ صغير مستطيلة ، رأيتُ ثلاثة من الأحداث في الخامسة عشرة تقريبًا من العمر . وقد وقفوا شبه عرايا ، يُمسِكون في أيديهم شفرات حادّة ، ويقومون بحزّ رؤوسهم المحلوقة حزًا عنيفًا ، يسير أحدهم بشفرته على رأسه من مؤخرته إلى المقدّمة ، فيسيل خلف ذلك خيطٌ من الدّم سرعان ما يفور ويفيض على بقيّة الرّأس ، ثمّ يعاود الكرّة بتجريف رأسه بالشّفرة من يسار رأسه إلى يمينه ، وفي نقطة التّقاطع بين الخطّين يتبجّس الدّم كنبعة ماء ، ويبدأ لكثرته يسيل على الوجه فيغطّي جزءًا كبيرًا منه ، كانوا يصرخون بأعلى أصواتهم وهم يفعلون ذلك . أمّا المساجين الآخرون فقد وقفوا ينظرون وبعضهم يصيح مشجّعًا لهم . وأمّا الشّرطة وأفراد الأمن فقد وقفوا بعيدًا يراقبون الوضع عن كثب!! لم يكتفِ هؤلاء الأحداث بتشطيب رؤوسهم فانتقلوا إلى أجسادهم العارية ، بدؤوا بممارسة الطّقس على اللحم الغضّ هذه المرّة ، تغوص الشّفرة في اللحم ، وتصطكّ الأسنان من شدّة الألم ، فيقاومونه بمزيد من التوغّل في حزّ اللحم بتلك الشّفرات ، ويسيل الدّم كأنّما هو شلالات لا تعرف أين تصبّ ، فمن اليمين إلى اليسار جروح غائرة ، ومن الأعلى إلى الأسفل ندوب فائرة . . . وظلّوا يمارسون هذه الطّقوس القاتلة طوال عشر دقائق . . . لم يكفّوا خلالها عن الصّراخ ، ولا

عن التّلويح بالشّفرات وتمريرها على أجسادهم كتمرير العازف على آلته . . . نزفوا يومَها دمًا كثيرًا . . . وصرخوا يومها صراخًا فجائعيًا . . . وبكيتُ أنا حينها في داخلي بكاءً جنائزيًا ، واستغثتُ بالله لهم كما لو كانوا إخوتي أمامي يقتلون أنفسهم بأيديهم . ولم تترك الحادثة المُفجِعة فرصةً لي لأسأل ما الّذي يدفعهم إلى هذا الشّيء الفظيع الّذي لا يحتمله قلب إنسان ، ولا يقوى على النّظر إليه أحدٌ .

غير أنّ هذا الجزء الّذي شاهدتُه كان هو الجزء الأسهل من هذه الملحمة الطّقوسيّة . إذ إنّهم بعد أن نزفوا ثلاثة أرباع ما لديهم من دماء ، وبعد أن استنفد الصّراخ طاقتهم على الوقوف ، أصابهم الإعياء . . . فخرّوا راكعين على رُكبهم ، وأسدلوا أيديهم على جنوبهم ، وسقطت منها الشّفرات على الأرض . . . وتدلّت رؤوسهم على صدورهم . . . في هذه اللحظة ، وخلال أقلّ من عشر ثوانٍ هجم عليهم رجال الشّرطة من كلّ صوب ، وكلّبَشوا أيديهم خلف ظهورهم ، ثمّ جاؤوا بدلاء ماءٍ مُذابةٍ بالملح ، وصاروا يرشّونهم بها . صحيح أنّ صراخهم وهم يشطّبون أنفسهم كان يهزّ جدران السّجن ، غير أنّ صراخهم والماء المالح يستقرّ داخل جِراحهم كان لا يهزّ جدران السّجن فحسب ، بل كان يقتلعها من أساساتها . يومها وضعتُ يدي على فمي وبكيتُ بكاءً مريرًا . ظللتُ أبكي حتّى خُيّل إليّ أنّ دموعي سالت على خدّيَّ دمًا .

اقتادهم رجال الأمن وهم يشتمونهم ، ويركلونهم بأرجلهم إلى شبك الزّيارة القريب من مهجع الإدارة ، وهناك شُبِحوا على ذلك الشّبك ، وعُلّقت أيديهم مرفوعة إلى أعلى ومقيّدة إلى الحديد لساعات طويلة ، فزادوا إلى آلامهم السّابقة ، مستوىً جديدًا من الألم ، يتمثّل في شدّ الأيدي ، وإنهاك عضلاتها . . . وبعدها نُقلوا إلى المستشفى .

بعد ثلاثة أيّام رأيتُ أحدهم قريبًا من مكاتب الإدارة ، وقد غطّى الشّاش الأبيض رأسه ، وكافّة أنحاء جسده تقريبًا ، حتّى وجهه لم تظهر

منه إلا عيناه الّلتان كانتا متورّمتين كأنّهما عينا ضفدع . تُحيط بهما هالةٌ من الزّرقة الدّاكنة!!

بقيتُ لأيّام أحاول أن أطرد خيال الأحداث الثّلاثة في منظرهم الفجائعيّ من أن يظهر أمامي أينما التفتّ . وعبثًا حاولت . غير أنّني أحسستُ أنّني بدأت أعتاد تلقّي الصّدمات العنيفة ، وبدأت أأتلفُ معها . الإنسان عالَم عجيبٌ وغريبٌ ؛ ففي اللّحظة الّتي يقول فيها إنّه لا يستطيع أن يتحمّل هذا الشّيء ، أو أن يُطيقه ، تتوسّع دائرة التّلقّي لديه فيستوعب الأحداث الاستثنائيّة ، وتستعدّ هذه الدّائرة لتلقّي المزيد من الصّدمات ، وهكذا انحرفت الذّاكرة بي إلى بيتَي المتنبّي :

رَمـانِـي الـدَّهْـرُ بِـالأرْزاءِ حَـتّـى
فُـؤادي فِـي غِـشـاءٍ مِـنْ نِـبـالِ
فَـصِـرْتُ إذا أَصـابَـتْـنِـي سِـهـامٌ
تَـكَـسَّـرَتِ الـنِّـصـالُ عَـلَى الـنِّـصـالِ

ها أنذا غيري أيّها الرّفاق الثّلاثة . ينبوعًا من الذّكرى يُداهمه الجفاف ، وشتلةً من الشّوق يُباغتها الخريف ، وثمرةً هَرِمة سقطت من شجرة التّجربة .

بدأتْ كتل الشّحم المستقرّة على بطني تتضاءل ، وبدأت روحي تصفو مع نزول وزني ، اجتاحتْني فرحة غامرة ، وأنا أمسك بزرّ بنطالي وأدفعه عن وسطي قليلاً لأتأكّد من كتلة الشّحوم الّتي فقدتُها في الأربعين يومًا الماضية!! لم يزرني شعورٌ بالسّعادة منذ عقدٍ من الزّمن مثلما زارني اليوم . نزول الوزن يعني ارتقاء الرّوح . كان وجهي يبدو لمن يراني شاحبًا بعض الشّيء ، غير أنّ الفرح الكامن خلف هذا الشّحوب أكبر بكثيرٍ من الأحزان الّتي تتراءى في ثياب الرّقص الغجريّة لمن يُطالع وجهي ، ويلفّه بنظرةٍ فاحصة!!

يبدو أنّه حان الوقت لألتحق بركب زملائي في سجن سواقة . هذا ما

أخبرني به شرطيّ السّجلاّت، الّذي طلب منّي الاستعداد للتّرحيل غدًا.

ها هي السّاعة تشير إلى التّاسعة من صباح يوم الثّلاثاء ١٥/١٠/١٩٩٦م، حسمتُ أمري، سلّمتُ (أفرهول) السّجن الأزرق للإدارة، وجعلتُه حرًا كي تتستّر تحته روحٌ أخرى، غير روحي الّتي لبسها زمنًا كان أشبه باللّصّ، إذْ سَرَقَ منّي الكثير. لم آخذ معي من أغراضي شيئًا غيرَ ما ألبس. كلّ ما لديّ من ثياب وزّعتُها على بعض المساجين الّذين رأوا فيها هديّة سقطتْ عليهم من السّماء. مُصحفي تركته في غرفة المستودَع، وفيها أربعة مساجين، نصفهم مسيحيّون. كان مصحفًا أثيرًا لديّ، فلقد رافقني طوال فترة دراستي للهندسة، خمس سنوات كان فيها أعزَّ أصدقائي، وكان هِبةً من أحد زملاء الدّراسة، صغير الحجم، واضح الخطّ، أَلِفني وألفتُه. غير أنّ حبّي لكي يستفيد منه زميلنا ذو البشرة السّمراء، كان أكبر من أن يرافقني بعد هذه السّنوات الطّوال.

في الزّنزانة المتحرّكة، حُشِرنا في مساحة مترين بمترين، وكنّا أكثر من عشرين محكومًا. لم يكن لك أن تعترض. أو تحتجّ. أو تُطالِب بسيّارة أخرى لنقلنا من هنا إلى سجن سواقة!! بدأتْ مساحة الصّبر لدينا تتّسع لتلقّي الوضع الصّعب القادم. جلسَ عُتاة المحكومين بالمخدّرات على المقعد الخشبيّ الطويل الّذي يمتدّ على طرفي السّيّارة، وأمّا أنا فقد كانت يدي مُقيّدة بيد أحد هؤلاء العُتاة فجلس هو على المقعد، ومدّ يده ليخوّلني الجلوس على طرف عجل كاوتشوك كان مستقرًا في بطن السّيّارة، جلستُ على طرف خلفيّتي بسبب القيد الّذي يجمعني برفيقي، وبعد أن انطلقت السّيارة، صارت تتخبّط في مشيتها؛ إذا مرّت على طريق مُحفّرة علت وهبطت، فأعلو وأهبط معها ويرتطم طرف خلفيّتي بالأرض، فأتألّم. غير أنّني أكتم صوتًا يكاد يخرج من أعماقي في كلّ مرّة.

كانت الطّريق طويلة إلى سجن سواقة. إذ إنّه سجن صحراويّ يقع في الجنوب، وتحيط به الرّمال الهائمة من جهاته الأربع، وليس حوله ما

يدلّ على الحياة غير الشّارع المؤدّي إليه الّذي يشبه شريانًا في قلب الصّحراء ، يقول للمارّين من خلاله : لا تخافوا رهبة الصّحراء ، فما زال هناك عرق ينبض فيها بالحياة!!

استغرقت الرّحلة المريرة حوالي ثلاث ساعاتٍ أو أربع . عانينا فيها من رائحة الدّيزل المنبعث من الزّنزانة ، ومن الجوّ الخانق الّذي لا متنفّس فيه لعشرين سجينًا يستهلكون أكسجيًنا خلتُ أنّه نفد بعد ساعةٍ واحدة من انطلاقنا ، فبدأنا نتنفّس زفيرنا ، وصرنا نسعل طوال الجزء الآخر من الرّحلة القاسية .

أمّا انحباس البول فقد كان ألمه لا يُقارن مع ألم القيد الغائص في لحم رُسغنا ، كان يُصيبنا بالغثيان إلى الحدّ الّذي فكّرتُ فيه أن أفعلها داخل الزّنزانة المتحرّكة ، وأمام كلّ المحكومين معي . ولا أستبعد أنّهم هم أيضًا راودتْهم مثل هذه الفكرة الجنونيّة ، فقد كنّا بين خيارين ، إمّا أن ننفجر من ألم الانحباس ، أو نفجّر ساتر الحياء ، ونحطم حاجز الذّوق لنسلم ممّا نحن فيه . ولربّما لو طالت الطّريق طويلاً لفعلنا ما نريد دون أن نفكّر بالعواقب!!

في الثّانية ظهرًا حَطَطْنا رِحالنا فوق صحراء الجنوب ، عند مدخل وطننا الجديد . ما أحلى أن ترى وطنك يفتح ذراعيه مُرحّبًا بك على طريقته الخاصّة!!

ملأتُ رئتيّ من هواء المكان ، وأخذتُ نَفَسًا عميقًا ، وضننتُ بأن أُخرجه ، كنتُ أحاول أن أستبقيه ليكون زادًنا في قابل الأيّام . ها نحن من سجنٍ إلى سجنٍ ، ومن منفى إلى آخر ، وها هو مظفّر النّواب يعزف رائعته الماثلةً على بوّابة سجننا الجديد :

سُبْحانَكَ كُلُّ الأَشياءِ رَضِيتُ
سِوَى الذُّلِّ
وَأَنْ يُوضَعَ قَلْبِي فِي قَفَصٍ فِي قَصْرِ السُّلْطانْ

وَقَنعْتُ يَكُونُ نَصيبِيَ فِي الدُّنيا كَنَصيب الطَّيْرِ
وَلَكِنْ . . . سُبْحانَكَ حَتَّى الطَّيْرُ لَها أَوْطَانْ
وَتَعُودُ إِلَيْها
وَأَنا ما زِلْتُ أَطيرُ . . . أَطيرُ
فَهَذا الوَطَنُ الْمُمْتَدُّ مِنَ البَحْرِ إِلى البَحْرِ
سُجُونٌ مُتلاصِقَةٌ
سَجَّانٌ يُمْسِكُ سَجَّانْ !!

(٧)
«ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ»

تلقّانا وفدٌ عريضٍ من مرتّب أمن السّجن ، أمرونا بالوقوف على شكل دائرة واسعة ، فامتثلْنا . . . كانت الدّفعة الّتي وصلتُ معها إلى هنا هي دفعة مُدمِني المُخدِّرات ، وأصحاب الشّيكّات ، وقضايا أخرى مُختلفة . ولم يكن بينهم من السّياسيّين غيري . وهذا ما سيُقحمني في دائرة المهانة بعد قليل .

وقفْنا في الدّائرة ، والضّبّاط وأفراد الشّرطة يصيحون : افردْ . . . افردْ وَلَهْ إنتا ويّاه . . . فَرَدْنا كما طُلِبَ منّا . ثمّ صاحَ أحد أفراد الأمن . اخلع كلّ شيء . بالنّسبة لي لم أفهم ما يقصده هذا الشّرطيّ ، فبقيت واقِفًا كالأبله ، أمّا الّذين حولي فيبدو أنّ خبرتهم في ذلك طويلة وممتدّة . . . بدؤوا يخلعون قمصانهم وبلوزاتهم الّتي تُغطّي نصف جسدهم الأعلى . . . أمّا أنا فبدأتْ حدقتا عينيّ تتّسعان دهشةً لما يفعله هؤلاء ، وبدأتُ أستغفر في سرّي . . . كان أكثرهم قد أتمّ خلع كلّ ما يستر النّصف الأعلى من أجسادهم ، وبقيت أنا أترنّح تحت وطأة الصّدمة الّتي ازدادت عندما بدؤوا يخلعون بناطيلهم . . . في هذه اللحظة من حفلة التّعرّي ، لاحظ الشّرطيّ المكلّف بإصدار الأوامر لنا وجومي ودهشتي ، فصاح بي من بعيد : وَلَهْ . . . ما اسمعت . . . قُلْتُلّكْ اخلعْ . . . من جهتي تململتُ قليلاً وتردّدتُ كثيرًا ، قفز إلى ذهني منظري وأنا عار فأحجمتُ أملاً في ألاّ أبدو صغيرًا أمام نفسي . فلم يكن من الشّرطِيّ إلا أن اتّجه نحوي وهو يصيح ويلوّح بالعصا في يده من بعيد : ولك إنتا أَهْبَلْ وِلاً بْتِتْهَبَّلْ؟!! اِشْلَحْ يعني اِشْلَحْ . . . وإذا

مش فاهِمْ اطّلعْ حواليك . . .

تملّكَتْني في تلك اللحظة حالةٌ من الذّعر مع منظر الشّرطيّ الهاجم عليّ ، ونظرتُ إلى جاري عن يميني وجاري عن يساري ، فرأيتهم شبه عُراة ، إلاّ من القطعة الصّغيرة الّتي تغطّي العورة الكبرى . . . فسارعتُ بحركات نَزِقة أنزع عنّي لباسي ، قبل أن تهوي عصا الشّرطيّ على جسدي . . . كان شعورًا مزيجًا من الخوف والمرارة والمهانة ، مع كثير من الملوحة في الفم ، والحموضة في القلب . . . شعرتُ بأنّني أُصِبْتُ في رجولتي . غير أنّ العصا والصّياح ، وتجمّع الضّباط في مقدّمة هذا المشهد ، لم يترك لي مساحةً من التّفكير فيما أفعل . نظر إليّ جاري الّذي على يميني ، وقال لي بعد أن شاهد مساحة الرّجفة في حركاتي :

- يا خوي لا تخافْ . . . شَغلةْ عاديِّةْ .
- له يا زلمة . . . شو شغلة عاديّة . . . والله إشي بيخجّل .
- شكللك أوّل مرّة بتدخل السّجن .
- آه . . . مزبوط .
- طَبْ . . . هَوِّنها يا زَلَمَةْ . . . ولا تِخْجَلْ من حَدا . . . كُلْنا شبابْ ورْجالْ ، ما فيش إشي مخبّا!!

ومع أنّني لم أقتنع بحجّة هذا الرّجل الّذي يبدو أنّه محترف سجون ، غير أنّه بالفعل استطاع أن يُخمِدَ شيئًا من فورة اضطرابي ، ويهدّئ قليلاً من رجفتي ؛ وكأنّ الله بعثه لي من أجل ذلك .

لم تنته الحفلة عند هذا الحدّ . إذ بدأ هذا الشّرطيّ ، صاحب أوامر التّعرّي ، يطوف علينا واحدًا واحِدًا ، ويصيح بنا :

- قُومْ وُاقْعُدْ ثلاثْ مَرّاتْ .
- حاضِرْ سِيدي . (قالَها الّذي بجانبي) .

لم أفهم لماذا يأمر الشّرطيّ السّجين شبه العاري ، بالجلوس ثمّ الوقوف ثلاث مرّات . فهمتُ فيما بعد ، أنّ تعريتنا من أجل تفتيشنا ، والتّأكّد من

أنّنا لا نحمل معنا من الأدوات الحادّة أو أيّ أمور مُهرّبةً شيئًا . أمّا الجلوس ثمّ الوقوف ؛ فلأنّ بعض المساجين العُتاة يضعون (الشّفرات الحادّة) في فتحة مؤخّراتهم ، وأنّ الشّرطة بهذه الطّريقة تستطيع التّأكّد مِمّن يخبّئها في هذا المكان الّذي لا تصل إليه الأيدي . وإذا صدف أنّ أحدهم بالفعل وضعها في ذلك المكان الخطير ، فإنّها ستقوم بتمزيق تلك الفتحة الحسّاسّة بجلوسه ثمّ وقوفه ، وسينطلق صراخه ليملأ أجواء المكان ، وعندها ستسارع الشّرطة إلى مصادرة هذه الأدوات الحادّة ، ولا يهمّها ما تُحدث في السّجين بعد ذلك من ضرر قد يحتاج معه إلى طبيب أو علاج!!

ظلّ هذا الشّرطيّ يمرّ علينا واحِدًا واحدًا . ويبدو أنّه نسي في حومة انشغاله بهذا الطّواف بنا إن كان فعل ذلك مع السّجين الأخير أم لا .

فصاح به :

- وَلَكْ إِنْتا قَعَدِتْ وْقُمْتْ وَلاً لأْ؟!

- طبعًا سيدي!!

- طيّب اقعد وقّف مرّة ثانية .

فما كان من هذا السّجين حتّى يؤكّد للشّرطيّ سلامة موقفه إلاّ أن خلع حتّى القطعة الصّغيرة الّتي تستر العورة المُغلّظة ، وصار عاريًا تمامًا .

وصاح :

- وهَهْ يا سيدي . . . عشان ترضى .

ودوّت من الشّرطيّ ضحكة مجلجلة وهو ينظر إلى عورة السّجين . ثمّ صاح وهو يتابع ضحكته الآثمة ، مستمتعًا :

- وَلَكْ يا كَلْبْ . . . غَطّي . . . غَطّي . . . خَلَصِ فْهِمْنا . . .

- حاضر يا سيدي . . . حاضر . . .

وسيق الّذين أدخلوا السّجن معي إلى غرفة الملابس ، هناك مارسْنا بعض الحرّيّة في التقاط قطع الأفرهول الأزرق الّتي تُناسِبنا .

كان سجن سواقة منجمًا من التّجارب الثّرة ، وسوقًا من الخبرات

المختلفة ، وعالَمًا من الحكايا الّتي تستحقّ أن تُروَى . فيه رأيت ما لا يمكن أن أراه خارجه ، ولو قصدتُ إلى ذلك سبيلاً . وفيه تعتّقت التّجربة على المستوى الشّخصي ، حتى استطاعت أن تصنع منّي إنسانًا قويًا . أنا الآن أقول ، وبملء رغبتي ، ودون أيّ تزيّد : شكرًا معتقل سواقة ، لقد كنتَ معلّمًا بارعًا ، وكنتُ بين يديك تلميذًا لامعًا!!

عقليّة المهندس الّذي بنى سجن سواقة تختلف كلّيّةً عن عقليّة المهندس الّذي بنى سجن الجويدة . اعتمد مهندس الجويدة على الامتداد الأفقي المنبسط . واعتمد مهندس سواقة على الامتداد العمودي المنكمش!! مهاجع سجن الجويدة متلاصقة ، ومهاجع سجن سواقة متراكبة . ساحات سجن الجويدة حرّة مفتوحة على السّماء ، وساحات سجن سواقة مُقيّدة داخل المهجع نفسه ، ومغلقة على السّماء!!

بدت أيّام الجويدة أكثر حرّيّة ، وأيّام سواقة أكثر تعقيدًا . غير أنّ تجربة الجويدة ضَحْلة وراكدة بعض الشّيء ، ولا تكاد تُقارن أمام تجربة سواقة ، الّتي يمكن القول عنها بأنّها رواية متعدّدة الفصول ، في حين لم يكنِ الجويدة أكثر من قصّة قصيرة ذات فصل واحد . مساحة الانفتاح الأفقيّ الّذي يتميّز به سجن الجويدة - مع أنّه هامّ وخطير لكلّ سجين - لم يتغلّب في أفضليّته على قيود سواقة ، ذلك أنّ هذه القيود لا تُقارَن في سلبيّتها مع ما تهبه من التّجارب المتنامية في إيجابيّتها!!

دخلتُ إذًا إلى زمني الجديد ، وأنا عازمٌ على أن أقرأ هذا الجزء من وطني بكلّ تفاصيله ، وأستمتع بصفحاته سطرًا سطرًا . . . منذ أن أدمنتُ القراءة وأنا أقرأ ببطء ؛ ولم أغيّر هذه العادة قطّ ؛ ذلك لأنّ مساحة الدّهشة الّتي تبسُطها سطوة القارئ وسلطانه على ذاكرتي لا تسمح لي بالعجلة ، وبالقفز قبل هضم الكلمات ، وإحالتها إلى ملفّاتي المعرفيّة ، وتكرير مفاهيمها ؛ لإنتاج مفاهيمي الخاصّة بي!!

كان العصر قد ارتفع أذانه من مسجد السّجن ؛ حينما اقتادنا الشّرطيّ

إلى مهاجعنا الجديدة . في المَرْدَوان الطّويل الفاصل بين مهاجع السّجن ، وقعتْ عيني على شخص مَهيب ، يلبس ثوبًا أبيضَ ناصعًا ، ويعتمر طاقيّة بيضاء كذلك ، ويلبس نظّاراتٍ طبّيّة تنزل عن عينه قليلاً إلى أنفه ، ويحمل في يده مسبحة ، كان يبدو سجينًا - بالطّبع - غير أنّه سجينٌ غير عاديّ ، إذ كان يمتلك حرّيّة تامّة في التنقّل عبر الممرات ، ويُخاطِب أفراد الشّرطة بأسمائهم كأنّه يعرفهم من زمنٍ بعيد . وعلمتُ فيما بعد أنّه (ليث) .

انتظرتُ أنا ووفد السّجناء الّذي رافقني من الجويدة إلى هنا ، زمنًا ربّما طال لساعة أو أكثر ، ريثما قرّر مدير السّجن في أيّ المهاجع سننزل . وهكذا ساقتْني الأقدار إلى مهجع (١٠) غرفة (٢٢١) . وكانت التّجربة الّتي قضيتُها هنا مريرةً لكنّها غنيّة حقًّا!!

في هذا المهجع كلّ القضايا الخطيرة الّتي يُمكن أن تفكّر بها ؛ هنا كان القَتَلة والمجرمون ، واللّصوص ، واللّوطيّون ، والزّناة ، وضرّابو الشّفرات ، والمُحتالون ، والسّارقون ، وغيرهم . . .

ولأنّ أيّامي الأربعين الماضية أعطتْني بعض الخبرة ، فقد هيّأتُ نفسي للأسوأ ، ورضيتُ به ريثما تتغيّر الحال . وقلتُ : يبدو أنّ الذّئاب حولي كثيرة ، وإذا لم تكن ذئبًا أكلتْكَ الذّئاب . وكانت مهمّتي في تلك الفترة تنحصر في المُحافظة على نفسي من أن يأكلها أحد الذّئاب المتوحّشة هنا .

هذه الغرفة المشهودة الّتي تحمل الرّقم (٢٢١) كانت تمتدّ طولاً لأكثر من عشرين مترًا ، وعرضًا لأكثر من خمسة أمتار . تتوزّع فيها الأسرّة بشكل عَرْضيّ عن اليمين وعن الشّمال عِزين ، وتُبقي ما يقرب من مترٍ أو يزيد قليلاً في الفراغ الفاصل بين صفّي الأسرّة هذه ، أمّا كلّ سرير فهو يبعد عن السّرير الّذي يليه أقلّ من (٤٠سم) ليتيح للسّجين النّزول عنه عند الحاجة لذلك . وأمّا الحّمامات فكانت عند باب المدخل تتموضع على يسار الدّاخل من ذلك الباب ، وكان عدد الحمّامات ثلاثة ، لحوالي (٦٠)

سجينًا ، هو العدد التّقريبيّ لسجناء تلك الغرفة .

كان اللّيل قد هبط ، عندما هبطتُ على سريري في الطّابق الثّاني ، ووضعتُ أغراضي مِخدّةً تحت رأسي ، وكان هناك بطّانيّة واحدة مطويّة على ذلك السّرير .

لم أكدْ أستقرّ في الغرفة ، حتّى داهمها شرطيّان ، وصاحا بكلّ من فيها :

- كلّ واحد عند سريره .

سارع السّجناء بالنّزول والتّرجّل من فُرشهم ووقف كلّ سجينَيْن عند رأس سريرهما ، وفعلتُ أنا مع رفيقي الّذي يستوطن الطابق الأوّل من سريرنا . بدأ العدّ ، وتكرّرت مأساة الأرقام ، ولم أعد أتذكّر اليوم ما الأرقام الّتي حملْتُها في تلك الغرفة المشؤومة .

خرج الشّرطيّان ، وأطبقا علينا باب الغرفة ، وبقيتُ وحيدًا مع أفكاري هناك ، ومُحاطًا بكلّ المجرمين . لم تمضِ دقائق بعده حتّى علا صياح بعض السّجناء ، وشاهدتُ في الزّاوية البعيدة ، سجينين ينهالان على بعضهما ضربًا ، لا تكاد لكمة ترتفع عن الوجه ، حتّى يُسارع السّجين الملكوم إلى ردّها لزميله . استمرّ المشهد أقلّ من دقيقتين ، عندما سارع أحد السّجناء الّذين ينامون على سرير قريب من الباب إلى فضّ الاشتباك بالشّتائم المُقذِعة ، عرفتُ فيما بعد أنّ هذا السّجين هو شاويش المهجع . صرخ في وجههما قائلاً :

- ولكو يا إخوات الـ . . . كم مرّة قلتلكو ما تعيدوها .

- هوّا الّي بدا (يقول الأوّل) .

- كذّاب . . . ولك إنتا أخو . . . . (يردّ عليه الثّاني) .

فيبادر شاويش المهجع إلى صفْع وجه كلٍّ من السّجنين ، قائلاً :

- وَلْكُو بَدْكُو تْساوُوها بْعِضْكُمْ . . . ساووها بدون ما اطّلْعُوا صُوتْ . . . بَدْكُو تْخَرْبو بيِتْنا . . .

- يا سيدي . . . أنا ما وعيت عليه إلاّ هاجِمْ عَلَيّ . . .
- وله حكيتلك إخرس . . . صوتكو رح يجيب الشّرطة لهون . . . انتو عارفين لو سمعوا صوتكو يا بَقَرْ شو رَحْ يصيرْ ؟!
- يا سيدي . . . مش . . .!!
- وَلْكُو رَحْ يِشْبَحُونا . . . إِنْتا قَدِّ الشَّبحْ يا حمارْ إِنْتَ وِيّاه . . . .؟!!
- خَلَصْ . . . ماشِي . . . ماشِي . . .!!
- قسمًا بشرفي لو سمعت صوتكو مرّة ثانية لَفَيِّشْكُو للشّرطيّ . . .!!

ويعود الهدوء مرّة أخرى إلى المكان . . . ويفرد جناحيه على جدران الغرفة ، ويظلّ كذلك . . . حتّى يتناهى إلى سمعك بعضُ الهمهمات المحمومة من هنا أو هناك . . . وبعض الحركات المَريبة على بعض الأسرّة . . . ما الّذي جاء بي إلى هنا . . . ما هذه الورطة الّتي غُصتُ في مستنقعها . . .؟! ولكنْ دعنا نفكّرْ في الجانب الإيجابيّ لهذه التّجربة . (أسائل نفسي : يا تُرى ، ما هو؟) أجيبُ هازِئًا : لعلّها الألفاظ الجديدة الّتي ستدخل إلى قاموسك الضّحْل . . . الآن سوف تزداد بئر كلماتك ثراءً ، وتكتسب عذوبةً جديدة . . . أقول ذلك وأنا أضحك ضحكةً خفيفة أسخر فيها مِمّا أنا فيه . .!!

صلاة الفجر معراج الرّوح ، ونزعةٌ نحو الخلاص من براثن الجسد ، ونفحةٌ علويّة تهبط على قلوب المُريدين ، وطائرٌ ينقر أذن النّائم مرّة واحدة ، سيّان عند هذا الطّائر انتباهٌ أو غفلة . إنّما ينتبه القلب ، وتغفل بقيّة الجوارح ، فعلى أيّهما حططتَ يا طائري . . .؟! أتراك تُنقذني حين تُحيط بي شِباك الوهم في دياجير الظّلام ، فتوقظني قبل أن تُبدِّد الشّمس لحظات الفوز . يا لَخسارتي إذا داهمني الضّياء فأضاع نقاء الظّلمة!!

بين يديكَ يا إلهي تصغر الكلمات ، وتكبر الأحوال . وحالي غير خافٍ على العبد ، فكيف على سيّده!! يا سيّدي ومولاي ، أنا في حضرتك ذرّة من الهباء تستجدي عطفك لتكون ، فامنحها الوجود قبل أن يبدّدها

العدم ؛ أيّ خسارة أكبر من خسارة الحضور بين يديك في محفل الجائزة ؛ (يا ليتني كنتُ معهم فأفوزَ فوزًا عظيمًا)!!

واحسرتاه على عمري الّذي ضاع وأنا أبحث عنه!! واحسرتاه على ساعة ضيّعتُها وكانت تحت يديّ ، غير أنّ يديّ خانتاني ، فلم تُغنِيا عنّي من اللّه شيئًا!!

يا جبّار السّماء ، أين رحمتك الّتي تنزّلت إلى السّماء الدّنيا؟! أتمنعها جدران السّجن من التّجلّي؟! هيهات ، وأنتَ ربّ السّجن ، وسيّده ، وحارسه . . .!!

أيقظني في التّاسعة صباحًا شاويش المهجع ، هذه المرّة لأدفعَ الإتاوة الّتي فرضها قانونُه هنا ، من أجل بيئةٍ صحّية ونظيفة . يُحصّل الشّاويش من كلّ سجين هنا (١٠) قروش ، كي يقوم هو ومجموعة من خَدَمَه بشطف أرضيّة المهجع ، وتنظيف الحّمامات ، وإشاعة جوّ من النّظافة في المكان ، فهو ما يفتأ يُدلي بموعظته في آذاننا جميعًا : (وَلْكُو يا بَجَمْ ، الرّسول قال : النّظافة من الإيمان) . كان هذا القانون جديدًا عليّ ، غير أنّ فرصتي في مناقشته ، كفرصة نوّابنا في مناقشة أيّ قانون يطرأ على مجلسهم . دفعتُ القروش العشرة ، وبادرني الشّاويش – وهو يأخذها – بابتسامة عريضة ، وهو يسألني :

– أهلين شيخ!!

– يا هلا فيك!!

– شكلك جديد عالسّاحة؟!

– إمبارح باللّيل وصلت!

– شو تهمتك بالله؟!

– . . . . .

– بسيطة يا رجل . .. احكي ولا تخاف . . . أنا مثلاً تهمتي : قَتْل!!

– الله يعينك!!

- شو يعني!! هاي تهمتك؟!

- إطالة لسان . . . كويّس . . .!!

- على مين يا شيخ؟! شكلها على الملك!!

- هيك بيقولوا!!!

- أحسن . . . ولّع الدّوري يا شباب!!

- . . . . . .

يغادرني ، وهو ينظر إليّ نظرات ، لم أستطع أن أجد لها تفسيرًا إلى اليوم!! كان الشّاويش يفرض الضّريبة مرّتين أو ثلاثًا في الأسبوع ، ويستطيع من خلال القروش الّتي يجمعها أن يُرفّه عن نفسه بشراء الدّخان - غالبًا - والقضامة ، والبيبسي ، له ولمجموعته الّتي تُعاونه في مهمّته الإنسانيّة!!

ذات مرّة ، دخل علينا الغرفةَ شرطيٌّ صغير السّنّ ، وهو جنديّ لا يحمل أيّ رتبة حتّى ولو كانت شريطة . وما إن رآه السّجناء حتّى قفزوا من أماكنهم بخفّة الأرانب وسرعتها ، وبادر هو إلى الصّياح ، هاتفًا :

- الكلّ عند برشه!!

تجمّد السّجناء أمام أبراشهم تماثيلَ من خشب ، ووضعوا أياديهم خلف ظهورهم . لم أكن بعد قد تعوّدتُ على هذا النّمط من الحياة هنا ، ولكنّي كنتُ أقلّد كلّ ما يفعلونه لأجنّب نفسي مغبّة العقوبة .

مرّ الشّرطيّ في الفراغ ذي المتر الّذي لم يتبقّ منه بعد وقوف السّجناء على الجانبين غير مسافة لا تكاد تسمح له بالمرور بين مجموعات الأسرّة هذه ، وصاح في السّجناء بأن يمدّوا أيديهم ، للتّفتيش على الأظافر ونظافتها . راعني الأمر حينَ هوى بيده على وجه أحد السّجناء ولطمه قائلاً :

- ليش أظافرك طويلة يا . . . .

ولم يحرّك السّجين ساكنًا . تلقّى الصفعة بمزيد من الخضوع ، واحمرّ

مكان يدِ الصّافع على وجه المصفوع ، وشعرتُ به يكتم غصّة في حلقه من أثر المهانة الّتي لحقِت به . وبعد أقلّ من ثلاث دقائق ، رأيتُ الشّرطيّ يسوق أمامه ستّة من السّجناء ، وهو يدفعهم إلى الخارج ، مناديًا على زميلٍ آخر له ، طالبًا منه أن يذهب بهم إلى حلاق السّجن ، ليحلق لهم على الصّفر .

لم يكن الحلق على الصّفر عقوبةً في هذا السّجن ، كان إجراءً احترازيا من الأمراض السّارية . أنا تعرّضتُ لهذا أوّل دخولي هنا . ولكنّ العجيب أنّهم يقصّون للسّجين على الصّفر بماكنة الحلاقة نفسها ، فإن كان الهدف النّظافة ، فأين النّظافة فيما يفعلون؟! إنّ بعض السّجناء قد تتورّم فروة رؤوسهم ، أو يصيبها بعض الالتهابات جرّاء الجراثيم الّتي تنقل عبر الشّعور من رأس إلى رأس .

كان البقاء في الغرفة ذات الرقم (٢٢١) أشبه بالبقاء في حلبة صراع بين مجموعة من الكلاب المسعورة ، أو الدِّيَكَة المُتناقرة . لا تفتأ المشاكل تبرز من كلّ مكان ، وإذا لم يوجد سببٌ لحدوث أدنى مشكلة ، فإنّ السّجناء يفتعلونها افتعالاً . يبدو أنّهم كانوا يفعلون ذلك لمجرّد التّسلية والتّرويح عن النّفس أحيانًا . أكثر ما كان يُزعجني هو سيل الشّتائم الّذي لا يتوقّف ما دام السّجناء مستيقظين . كلمات لم أسمع بها في حياتي ، كانت وهي تنطلق بشكل اعتياديّ وكثيف من الأفواه ، تنصبّ في أذنيّ رصاصًا حارًا . وعبثًا حاولتُ إقناع نفسي بأنّ ذلك من طبيعة هذا المكان وعليّ التّأقلم معه!!

وصل الخبر إلى أبي بوجودي بين هذه المجموعة ، فأوصل الخبر بدوره إلى الصّحافة ، وابتدأت الصّحافة تكتب عن وجودي بينهم . انبرى لذلك عدد من الكُتّاب المعروفين مثل زياد أبو غنيمة ، والشّاعر يوسف العظم رحمه الله . وكان من هذه العناوين المكتوبة : (أيمن العتوم بين اللّصوص والقَتَلَة . . . يا للغيب!!) .

شكّلت الصّحافة إحدى قنوات الضّغط على إدارة السّجن لنقلي من مكاني الموبوء إلى مهاجع السّياسيّين حيثُ يجب - في الوضع الطّبيعيّ وحسب تُهمتي - أن أكون . بَيْدَ أنّ الإدارة كان لها - مع تلك الصّيحات - أذنٌ من طين وأذن مِنْ عجين ، أو كأنّ الأمر لا يعنيها ، أو ربّما كان الإبقاء عليّ في هذه الغرفة إهانة مُتعمّدة . في مثل هذا الموقف كان لا بدّ أن أعتمد على نفسي لأُخرجها من هنا وبأيّة وسيلة!!

لم يكن يهمّني الثّمن الّذي سأدفعه ما دام الأمر في النّهاية سيُفضي بي إلى الخروج من هذا المستنقع الّذي يعجّ بكلّ أنواع الجرائم الرّهيبة .

كنتُ قد علمتُ أنّ الإدارة تعمد إلى وضع جاسوس لها في كلّ غرفة ، وهو أحد السّجناء الّذين لم ينضمّوا إلى مجموعة ما ، أو يشكّل صداقةً مع الآخرين ، ومهمّته نقل أخبار السّجناء ، وتلقُّط ما ينوون فعله إلى إدارة السّجن ، وذلك مُقابل ثمنٍ بخس ، قد يكون مثل الحصول على رغيفٍ آخر وقت الطّعام ، أو التّمتّع بساعة أخرى من النّوم في الصّباح . وكانت غرفتنا واحدة من هذه الغرف المزروعة بهؤلاء الجواسيس . وبذلك صارت مادّة خطّتي جاهزة للتّنفيذ .

اقتضت الخطّة أن أسترجع في ذاكرتي القصائد السّياسيّة الملتهبة ، ذات النّقد الواضح ، والتّهكّم البيّن على الحكومة . ثمّ أجمع مجموعة من السّجناء بعد أن يتمّ العدّ اللّيليّ ، وبعد أن نصلّي العشاء . وأبدأ بقراءة القصائد أمامهم حارصًا على أن يكون الجاسوس المُحتَمل أحد السّامعين في هذا اللّقاء الثّقافي النّادر .

نعم . اتّفقتُ مع أحد السّجناء الّذين توسّمتُ فيهم ميلاً إلى تقبّل الفكرة ، وأخبرتُه أنّها تشبه حفلة سَمَر ، نجلسُ فيها على شكل دائرة في طرف الغرفة ، ويبدأ كلّ واحدٍ يُدلي بدلوه ، من قصّة أو حكايةٍ أو نكتةٍ أو حادثة حدثت معه ، وذلك من أجل القضاء على مرارة الوقت ، وبطئه . اقتنع هذا السّجين ، وهو أحد القدماء هنا والمقبولين عند كثير مِمّن

يشاركوننا الغرفة . كان عدد السّجناء هنا يُقارب السّتين ، وكنّا في اجتماع اللّيلة الأولى للمرّة الأولى حوالي الخمسة .

بدأنا الحديث ، وجعلتُ السّجين الّذي اخترتُه يُدير الجلسة ، وهكذا تعلّم هؤلاء الموجودون هنا بعضًا من التّنظيم لم يكن في بالهم يومًا من الأيّام ، وشكّل هذا النّوع من الإدارة بعض الجِدّة والطّرافة بالنّسبة لهم مِمّا جعلهم يستمتعون بفقراته . وعندما حان دوري للحديث ، كنتُ أُلقي أقسى القصائد هجومًا على الحكومة ، وعلى مفاوضات السّلام . وأتطلّع في الوجوه الّتي أحدّثها فأعلم أنّها لا تفهم شيئًا ، اللهمّ إلاّ الفحوى العامّ من أنّه شعر سياسيّ وشعر مسبّات سياسيّة كما كانوا يصفونها .

مرّ صباح اليوم الأوّل بسلام . وتوقّعتُ ذلك ، لأنّ الّذي ظننتُ أنّه أحد الجواسيس المكلّف بنقل كلّ ما يدور هنا لم ينضمّ إلينا في حفلة سمرنا الأولى . وكان لا بدّ عليّ من إعادة الكرّة في كلّ يوم حتّى يقع هو في الفخّ ، وينقل اجتماعنا إلى إدارة السّجن ، وتتمّ على أساس ذلك مُساءلتي .

في اليوم الرّابع لوجودي في هذه الغرفة ، كنّا ننزل إلى مطعم السّجن . وكنّا ننزل إليه عبر طابور ، وبيد كلّ واحد منّا صحنه الفارغ ، وعلى جانبي الأشباك المؤدّية إلى المطعم يقف أفراد الأمن لمتابعة سير الحركة بانتظام وهدوء ، ودون أيّة مشاكل . وما إن صرتُ على مقربةٍ من الوصول إلى المطعم ، أشار إليّ أحد أفراد الشّرطة أن أخرُجَ من الطّابور وأتوجّه إليه ، وعندما وصلتُه ، بادرني بالسّؤال :

- ما هي تهمتك؟!

- إطالة اللّسان .

- على مين؟!

- على الملك . وأستدرك : (هكذا هم يقولون) .

ينتبه كأنّ نحلةً لسعته في رقبته ، ويعتدل ، ثمّ يرجع إلى الوراء

ويضيّق عينيه وهو ينظر إليّ ، مُتابعًا بتشفٍّ :

- على الملك . . . هاه . . . على الملك . . .

- . . . . .

ثمّ ينهرني بصوت عالٍ ، صائحًا :

- يلّه . . . ارجع لطّابورك .

أعود إلى الطّابور ، وشيءٌ من السّعادة يدغدغ مشاعري ، يبدو أنّ الصّنارة قد صادت السّمكة ، وأنّها قد ابتلعت الطُّعم المُعدّ لها سلفًا . وأهتف في سرّي : إذًا بدأت الخطّة تؤتي ثِمارها ، وعليّ أن أكثّف جهودي لليومين القادمين حتّى تتمّ مساءلتي ، ونقلي من هنا على جرائمي الّتي تلوّث عقل السّجناء .

في مساء ذلك اليوم ، أعددنا الحفلة أنا ورفيقي الّذي أصبح صديقَ المرحلة في تلك الأيّام . فرشنا بعض البطّانيّات على الأرض ، واجتمع في تلك اللّيلة أكبر عدد منهم . نيّفوا ليلتها على خمسة عشر سجينًا ، وكان هذا نجاحًا باهرًا . في الوقت الّذي تقول فيه : إنّ عقول هؤلاء المساجين تركز فيها المعلومة كما تركز الألوان من يد الرّاسم على صفحة الماء ، وإنّهم سوف يفهمون وينجذبون إلى ما تقول عندما يفهم (حمار الخطّاب) . . . في هذا الوقت تجد أنّ صفحة الماء حملت بعض الألوان ولو أنّها مختلطة ، وأنّ عقلَ حمارِ الخطّاب فهِمَ بعض ما يريده منه صاحبه ، وعلى الأقلّ فهو فنّان في الطّريق يحفظها غيبًا ؛ أرأيتم مرّة حمارًا أضاع طريقه؟ كلاّ . ولكن كم من البشر يُضيعون طريقهم ، ويتنكّبون دروبهم!!

كان السّجناء هنا لوحة فسيفسائيّة عجيبة ، غلب على لون حجارتها السّواد لشناعة أفعالهم ، غير أنّ الحجارة الملوّنة كانت أيضًا تغطّي مساحة كافية من هذهِ اللّوحة . كثيرٌ من مدمني المخدّرات هؤلاء أو الخمر أولئك ، تصفو أذهانهم في لحظات التّجلّي ، فيحدّثونك حديث الواعي الفَطِن ، وينصحونك نصيحة الأريب اللّسِن ، ويعظونك موعظة الشّيخ الجليل ،

والعالم النّبيل . . .!!

لم أكن قد التقيتُ بعدُ زملائي الثّلاثة (عكرمة) و(عليّ) و(يوسف) ، مع علمي أنّهم موجودون هنا . غير أنّ مكوثي في الغرفة (٢٢١) زاد من مسافة البعد القسريّ بيننا . وعلى أمل أن أتخطّى هذه المرحلة من السّجن ، ظللتُ أُمنّي نفسي .

تبدو الحياة في نظر هؤلاء قاسية وغادرة ، ولهذا كانوا يواجهونها بالإعداد للّحظات الّتي يعتقدون أنّها تُدبِر فيها عنهم . كنّا ننزل إلى مطعم السّجن مرّتين في اليوم ، مرّة للفطور وأخرى للغداء . وليس هناك من نزول للعشاء ، والسّبب أنّ العدّ اللّيلي يبدأ في حوالي السّاعة السّادسة ، يُغلَق بعدها علينا في المهاجع . كنّا كذلك لا نجد فسحة من الحرّيّة إلاّ في مساحة مُحدّدة بين شبك غرفتنا والغرفة الّتي بجوارنا ، وهي جزء من الممرّ (المَرْدَوانً) الّذي يخترق الغرف جميعها على الجانبين ، وبين شبك غرفة وأخرى كانت المسافة لا تزيد عن ستّة أمتار ، وكان على السّتين سجيناً أن ينزلوا عن أسرّتهم وأبراشهم ، ويجدوا في هذه الأمتار السّتة مُتنَفَّسهم الوحيد . أو يظلّوا قابعين كالخيول الهرمة على أسرّتهم .

تبدّت قسوة الحياة في استعداد السّجناء لها بِخَبْءِ بعض ما يُحصّلونه من طعام . فإذا حصل سجينٌ على رغيف واحد في الفطور ، اقتسمه نصفين ، فأكل نصفًا ، وأبقى النّصف الثّاني لوقت المساء الّذي لا يسمح لنا فيه بالنّزول إلى مطعم السّجن من أجل العشاء ، فيكون نصف الرّغيف هذا عشاءه . وقد يحدث أن يُخبّئ أحدهم حبّة زيتون ، أو بيضة مسلوقة ، أو قطعة جبن صغيرة . كانوا يفعلون ذلك تلقائيًا ، وكان الغداء يسمح لهم بفعل الشّيء ذاته ، ولكنّه لا يحوي ما يمكن الاحتفاظ به غير الخبز ؛ إذ كيف يمكن أن تحتفظ بالأرزّ مثلاً ، أو بالشّوربة ، كان ذلك مستحيلاً ، ولذلك كنّا نحرص على حضور وجبة الفطور حرصنا على استمراريّة حياتنا!!

ليس هناك من لغة تستطيع اليوم أن تصف الوجوه البادية للنّاظرين في الغرفة (٢٢١) . ومع أنّهً من خلال الوجوه يمكن أن تقرأ قلب الإنسان ، إلاّ أنّ القراءة الخاطئة غالبًا هي نصيب كلّ من حاول أن يقرأ هذه الوجوه البائسة!!

لم أفكّر لحظةً في إقامة صداقةٍ مع أيّ سجين هنا ، اكتفيتُ بالمراقبة من بعيد . ومع ساعات الغروب ، وبعد العدّ اللّيلّيّ ، جعلتُ من الوقت الممتدّ من السّاعة السّادسة حتى ما بعد منتصف اللّيل فرصةً لإدامة النّظر ، علّني أستطيع الظّفر ببعض القراءات الصّحيحة .

كنتُ أجلسُ على بَرْشي في الطّابق الثّاني من السّرير ، وأنظر في الوجوه ، وأحدّق في تفاصيلها . كم من الآثام تتبوّأ ، وكم من الآلام تحمل . وكم من الأشواق تُخبّئ!! حينما عدت بها عشرين عامًا أو ثلاثين إلى الوراء ، في تفتّح براءتها ، وفي ميعة طفولتها ، هل كانت تحمل شيئا من هذه التّفاصيل الّتي ترتسم اليوم؟! هل الأحداثُ تغيّر شكلَ الوجوه؟! وهل مَرُّ السّنين ، وكَرّ الشّهور والأيّام يُعمِل مِبضَعه في خطوط الوجه ، فيشكّلها على هواه هو؟!

في الّذين ربطتُ بين وجوههم وأفعالهم ، أحد السّجناء الّذي لم يكنْ يفتعل مشكلةً لأدنى سبب كما كان الكثيرون يفعلون هنا ، وكان يفترش الزّاوية البعيدة من الغرفة ، ومَنْ شاهده أوّل ليلة يظنّ أنّه شخصٌ انعزاليّ وإن لم يكن في الحقيقة كذلك .

كانت جبهته ضيّقه ، وشعره يقف في وسط فروة رأسه ، وخدّاه بارزان بروزًا واضحًا ، ولم أتأكّد إلى اليوم إن كانت عيناه طبيعيّتين أم هو عمد إلى إظهارهما بتلك الهيئة ، كانتا ضيّقتين ، وعسليّتين داكنتين ، وتدوران في مَحْجريهما من اليمين إلى الشّمال كثيرًا . وكان يمشي بسرعة ، وكثيرًا ما يلتفت وراءه ، كأنّما يتوقّع في كلّ لحظة أن يُهاجمه شخصٌ ما . ولم يكن يتفوّه بكلمة ، وعلى الأقلّ لم أسمعه طوال فترة إقامتي في هذه الغرفة

يفعل ذلك . ذات يوم اتّهمه جاره في السّرير بسرقة رغيف الخبز أثناء نوم الأوّل . ظلّ صاحبنا ساكتًا كأنّه أصمّ . وحين بدأ صياحُ صاحبِ الرّغيف يعلو ، فزّ من سريره كمن لدغته أفعى في بطنه ، ووضع يده على فم جاره ، وشدّ عليها بقوّة أذهلتْه ، وظلّ شاداً عليها حتّى ضاق نَفَسُ صاحبه ، وكاد يختنق ، ثمّ دفعه إلى الأرض بقوّة ، وحدجه بنظرةِ تحدٍّ مرعبة تنفذ بحديد سهمها إلى سويداء القلب ، واقترب منه ، قائلاً بهدوء وهو يصكّ على أسنانه :

- قُلْتِلَّكْ ما أخذته . . . روح فتّشْ عَلِّي سرقه . . . ولو اتهمتني مرّة ثانية أقسم بالله لأكَسِّرْ رقبتك . . . عارف شو أكسر رقبتك . . . يعني لأفكّها زَرَدةْ زَرَدةْ!!

ذُهِلَ الأوّل من شجاعة صاحبه ، ومن قوّته ، وظلّ مصدومًا من ردّة فعله ، ولم ينبس ببنت شفة ، وقام من مكانه ، وانسلّ انسلال الثّعلب في حضرة الذّئب إلى مخدعه ، وتمدّد عليه ، ثمّ أدار ظهره إلى صاحبه ، وغطّى نفسه مستسلمًا للمهانة ، وكسر الإرادة الّتي مُنِيَ بها قبل قليل .

أمّا شاويش الغرفة الّذي كان يُتابع المشهد باستمتاع طفوليّ ، فلم يتدخّل في الموقف ، ما دامت الأصوات لا تعلو إلى الحدّ الّذي يسترعي انتباه الشّرطة . بل ما كان منه بعد أن فرغ ذو الصّدغين البارزين من مقولته الحادّة حتّى سارع إلى احتضانه ، والتّربيت على كتفه . وتمنّى الشّاويش في هذه اللحظة أن يضمّ هذا الذّئب الصّامت إلى قطيعه ، ولكن هيهات . يبدو أنّه ذئبٌ لا يؤمن بالجماعات ، ويعمل منفردًا!!

كم من الوجوه أخطأنا في قراءتها ، لأنّنا لم نترك لأنفسنا مسافةً بين النّظرة الأولى والرّأي الأوّل . لا يوجد أفضل من السّجن لقراءة الوجوه ، هناك - غالبًا - ما يتعرّى النّاس من ثياب الزّيف الّتي كانوا يرتدونها خارج السّجن ، ويلبسون ثياب الحقيقة هنا ، تلك الثّياب الّتي تكشف طبائعهم بعد إزالة أوّل قشرةٍ من هذا الغطاء الرّقيق .

رأيت في وجوه الّذين رافقتُهم في تلك الغرفة ، الذّئابَ مرّة ، حيث العينان الّلوزيّتان ، ذات اللّون الرّماديّ ، والوجه العريض ، والأسنان البارزة . ورأيت فيهم الضّباع حيث العينان البرّاقتان الّلتان تدوران بسرعة في كلّ اتّجاه ، والأسنان الصّفراء المستعدّة لنهش أيّ شيءٍ في طريقها ، والأذنان ذواتا الزّاوية الحادّة في أعلاهما . ورأيتُ فيهم الفهودَ حيثُ الطّول الفارع ، والعينان العسليّتان الودودتان ، واللّتان تنتهيان بكَحَلٍ في الأطراف ، والوجه المدوّر ، والأذنان القصيرتان ، والهدوء الحذر الّذي يتبعه انقضاض سريع بعد رصد الهدف . ورأيت فيهم الثعالب ، حيث صِغَرُ حجم الجسم ، والدَّوَران حول النّفس كثيرًا ، والعينان اللّتان يستقرّ فيهما البُؤبؤ على طرفيهما ، والصّوت الخفيض الّذي يصدر عنها ، والتّظاهر بالمَسْكنة في أغلب الأحوال . ورأيت فيهم الأسود الهَرِمَة ، الّتي ترقد على أسرّتها طوال اليوم دون أن تحرّك ساكنًا ، كان هذا الصّنف من السّجناء مِمّن قضوا مُددًا زمنيّة طويلة هنا فلانتْ عَرِيكتهم ، واستسلموا لأقدارهم ، وغدوا كاللّيوث الجريحة ، تجلس في عرينها/ سجنها تنتظر الخلاص إمّا بالموت أو بالخروج إلى عالَم الوحوش الكاسرة الّتي لم يعد لها فيها أيّ مكانٍ . ويبدو لها الموت وسيلةَ الخلاص الأكثر سلامةً!!

نعم كنتُ هناك بين الذّئاب والضّباع والفهود والثعالب والأسود العجوزة . فأمّا الذّئاب فقد كانت تقترب من بعضها في مجموعات ، وصلت إلى عشرة في بعض الأحيان ، لكي تتفادى تغوّل الكواسر الأخرى . وأمّا الضّباع فكانت تنشط في اللّيل ، حيث تفتعل المشاكل مع بقيّة السّجناء بداعٍ أو بدونه ، وكثيرًا ما كانت تسطو على بعض المخلّفات من الأطعمة ، فتسرًقها خِفية ، وتأكلها خِلسةً دون أن تشعر بأدنى درجة من الذّنب . وأمّا الفهود فكانت لطولها الفارع تذرع ساحة الفسحة بسرعةٍ دون أن تفكّر بالآخرين ، كانت عزيزةً إلى الحدّ الّذي لم أرها تدخل في اشتباكٍ من تخطيطها ، ولم يُغرِها أيّ اشتباك بالمقابل يحدث أمامها ، حتّى

ولو دُعيتْ إليه ، بدت بهذه الصّورة أحكمَ المفترسات في تلك الغرفة ، وإن لم تكن أقواها . إلاّ أنها – أيضًا –كانت مَهيبة الجانب . وأمّا الثّعالب فقد كانت تستخدم دهاءها وخُبثها لتنقذ نفسها في الحالات الحرجة ، وفي اللّحظات الأخيرة ؛ إذ لم يكن لها بسطة في الجسم تُعينها على العيش مع الكواسر ذات الأجسام الضّخمة . وأمّا الأسود الهَرِمة فقد كانت تحاول مُلكًا ، غير أنّها مع تقادم سنّها آثرت الموت وأَنْ تُعذَرٍ على أن تكون ملكة الموقف .

في هذه اللّحظات التّاريخيّة من حياتي ، رأيتَ وجه الحياة بلا رتوش ، وعشته دون مساحيق ، ومع مرارة التّجربة إلاّ أنّ هناك ما يمكن البحث عنه في النّصف المملوء من الكأس .

طال مكوثي هنا بين هذه السِّباع لما يقرب من أسبوع . حاولتُ خلالها ألاّ أخطِئ التّقدير فأقع في نوائب التّقادير . ودرّبْتُ نفسي على التّأمّل لكي أتقن هذه المهارة العزيزة . ومع أنّها كانت تبدو مثل مَنْ يودّ سماع جاره في حفلِ زفاف يرقص فيه الجميع ويصرخ فيه كلّ المدعوّين ، إلاّ أنّني حاولتُ أن أتغلَّب على هذه الظّروف القاهرة ؛ إذ كانت خياراتي شبه معدومة . كنتُ أحاول أن أُبقي على إنسانيّتي في عالَمٍ يضجّ باللاإنسانيّة ، ويحترف انتزاعها منك!!

هذه هي اللّيلة السّادسة ، انتقى صاحبي عددًا من الذّئاب والفهود والثعالب والأسود العجوزة ، وحدها الضّباع لم تُشارِك في حفلة السّمر الأخيرة . جلستُ يومَها – وقد بلغ الترنّم مُنتهاه – ألقِي قصائدي كما لو كنتُ ألقيها في حضرة النّخبة من المثقّفين والأدباء والكُتّاب والصّحفيّين ، سقط نشيدي بين يدي جمهوري فَراشًا في فم النّار ، وعَصْفًا في قلب الرّياح :

كُلُّ جَمْرٍ فِي فَمِيَ وَرْدَةُ حبٌّ ناضِرَةْ
أَنا عَرّابُ اللّيالِي السّاحِرَةْ

وَأَنا صَوْتُ الأَمانِي حِيْنَ تَختارُ مِنَ العُمْرِ
الدُّروبَ الثّائِرَةْ

وانفتحتْ طاقة الفَرَج ، وسمعتْ أذنُ الأصمّ حديثَ الشّاعر الثّائر ، ونقل أحد الثعالب محضر الجلسة كاملة ، وجاء أحد أفراد أمن السّجن صباح يوم الاثنين ٢١/١٠/١٩٩٦م ، ليُنادِي عليّ :

- وين أيمن العتوم!!
- هَيْنِي هُونْ!!
- نائب المدير بدّيّاك . . .
- ليش؟!
- هات أغراضكْ وِلْحَقْنِي . . . وبعدين بتعرف ليش . . .

هَمَدَتِ الذّئاب ، ودخلتِ الثّعالب جحورها كأنّها تختبئ عن نفسها ، وهرّت الأسود الجريحة ، ورمقتني الفهود بودٍّ مُبالغ فيه ، ونظرت إليّ الضّباع بتشفٍّ كثيف . وخرجتُ مع الشّرطيّ لا ألوي علَى أحد .

عند فاصل الإدارة ، تركتُ أغراضي خارج الفاصل ، وتبعتُ الشّرطيّ . تلقّاني نائب المدير . قائلاً :

- شو الّي عملتُه؟!
- شو؟! عملت شي؟! (تساءلت ببراءةٍ أكثرَ مِمّا ينبغي)
- شو عاملّي محاضرات في السّجن . امفكّرلي حالك أستاذ جامعي!!
- لم أفعل شيئًا يستحقّ شيئًا!!
- يا محترم هذول مجموعة من الحمقى والمجرمين . . . إنتا شو دخّلك فيهم؟!
- ولا اشي . . . كلّ واحد بحاله!!
- أنا فاهم شو قصدك . . . بدّك تخرّبهم . . . بكفّيش قضيت على حالك بها القصائد الّي جابَتْلَكِ الدَّوَرْ !!

- أنا هون عشان أصلّح حالي .

- طيّب . . . طيّب . . . عاملّي فيها شاعر . . . (ينادِي على الشّرطيّ الواقف بالباب ، قائلاً له) :

- على مهجع (٦) . . . خلّينا نشوف آخرتها معه . . .

كان مهجع (٦) هو المهجع الاستثنائيّ في سجن سواقة . المهجع الأكثر زرقةً في ماء البحر . والأوسع مدىً في فضاء الفكرة . والأعمق غورًا في بئر الحياة!!

(٨)
﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾

كانت المسافة الفاصلة بين المهجعَين، هي المسافة الفاصلة بين حياتَين، حملتُ بطّانيّتي، وأغراضي وتوجّهتُ إلى مهجع (٦)، حيثُ تلقّفني هناك عدد من الأصدقاء القُدامى والجُدد، من ذوي التوّجهات الفكريّة والسّياسيّة المُختلفة.

أوّل المستقبلين، كان (عبد الله)، ذا بشرة بيضاء، وعينين مُلوَّنتين، وخرّيج كليّة الآداب في جامعة مؤتة، وأحد عُشّاق عِرار، ويعرفني قبل أن أفد إلى هنا. أخذ منّي الأغراض، وكان قد هيّأ لي سريرًا مميّزًا، قال وهو يرتّب البطّانيّة فوق السّرير:

- أحلى مكان لشاعرنا الكبير!!

شكرتُه على الحفاوة والتّرحيب، وكانت هذه بداية عهدٍ جديد في هذا السّجن، ما إن جلستُ على السّرير، حتّى استرعى انتباهي بيتٌ من الشّعر مكتوبٌ بخطٍّ واضح، ومُلصَقٌ على أحد جوانب البَرْش، وكان البيت لعرار، يقول فيه:

ولمحتُ في مِرآة بُؤسِكَ صُورَتي
وقرأتُ فوقَ إطارِها عُنواني

تُرى أيّ بؤس يتبدّى في المرآة الّتي لم أنظر إليها طوال حياتي في السّجون الثّلاثة التّي عبرَتْني؟! تُرى أيّ عشق يتكثّف في قلبي ليحميني من الهلاك في صحراء البعد والحرمان؟! تُرى أيّ شوق يتخثّر في خلايا دمي، فيجعل من شهقاتي إيذانًا بموتِ شاعرٍ عاشق؟!!

كان اللّقاء في هذا المهجع حميميًا للغاية ، فهنا رأيت الثّلاثة الّذين خُلِّفوا عنّي ؛ (عكرمة) و(عليّ) و(يوسف) ، وهنا أيضًا مجموعة من السّياسيّين الّذين فتح لي التّعرّف إليهم بابًا واسِعًا من التّجربة والخبرة الصّلدة .

أنِسْتُ بالجلوس مع (عبد الله) ، ومع أنّ دراستي في تلك الأيّام كانت الهندسة المدنيّة ، وقبل تخرّجي فيها بفصل ، إلاّ أنّ الهمّ الثقافيّ ، والشّعر تحديدًا هو ما وسّع مساحة الالتقاء والتوادّ بيني وبينه .

كان (عبد الله) يُجيد سَرْدَ القَصَص ، ويستمتع بها ، وكنتُ أجيد الاستماع . وبدون ادّعاء لقد كنتُ أسمع القصّة أو القصيدة الّتي أعرفها وأحفظها عن ظهر قلب كما لو كان الحديث حولها يطرق حجرات أذني لأوّل مرّة ، كنتُ مصابًا بالدّهشة الدّائمة ، ومُدمنًا عليها . أضفْ إلى استمتاعي باستماعي إلى صوت (عبد الله) نفسه ، لقد كان صوتًا إذاعيًا مُحبَّبًا إلى النّفس ، وكنتُ أحبّ هذا الصّوت حين يبدأ بإلقاء الأشعار ، وكأنّه صوت الشّاعر نفسه . إنّ الشّعر كُتِبَ ليُسمَعَ لا ليُقرَأ . فاقرأ يا (عبد الله) تجدْني خيرَ من يسمَع .

كثيرًا ما كنتُ أردّد أمامه بعد أن ينهي تلاوة قصائده ، أبيات مظفّر النّواب :

اللّيلُ وعبدُ الله أقاربْ
العَرَقُ الباردُ والنّارُ وحُزْنُ الأيّامِ
وعبدُ الله أقاربْ
يَفْهَمُ في اللُّجِّ
وأفضلُ مَنْ يَصنعُ مجدافينِ ولا يَمْلكُ قاربْ
أحبّك يا عبد الله لنفسكَ غاضِبْ
وعلى نفسكَ غاضِبْ
رشّاشُكَ يَعْقِدُ قِمّتَهُ مُنْفَرِدًا ونِعالُكَ في قمّتِهمْ

اِصْفَعْهُمْ عَبْدَ اللهِ بأرضِ نِعالِكَ
يَخْرُجْ تاريخُ عقارِبْ

(عبد الله) لا يكفّ عن الحديث ، وأنا لا أكفّ عن الاستماع . سألتُه ذات مرّة عمّا سمعتُهُ وأنا في سجن الجويدة قبل أن أجيء إلى هنا من تمرّد بعض مجموعات (بيعة الإمام) ، وما حدث بينهم وبين الشّرطة .

(بيعة الإمام) هو الاسم الّذي اختارتْهُ المخابرات لعدد من السّجناء هنا ، وهم يرفضون هذه التّسمية ، ويسمّون أنفسهم جماعة (التّوحيد) . وهم على شاكلة مَنْ سمَّوا أنفسهم (التّكفير والهجرة) في مصر إبّان اغتيال الرّئيس أنور السّادات في مطلع الثّمانينات من القرن المنصرم .

اشتُهِرَ من هؤلاء (أحمد فضيل نزال الخلايلة) ، وهو نفسه (أبو مصعب الزّرقاويّ) الّذي دوّخ أمريكا في حربها على العراق . ومنهم (عصام البرقاوي) المعروف بـ (أبو محمّد المقدسيّ) ويعدّ منظّر السّلفيّة الجهاديّة في الأردنّ وغيرها ، وهو الوجه الأبرز فيها إلى اليوم . وهناك آخرون ، وانضمّ إليهم عدد مِمّن حملوا أفكارهم من السّجناء السّياسيّين بوجهٍ عامّ . وقد يُتاح لي عبر هذه المذكّرات أن أسلّط بعض الضّوء على قضيّتهم ، حينَ يحين الحديث عنها ، فهي تستحقّ ذلك .

أمّا قصّتهم مع (لواء الأمن) وهو مجموعة أمنيّة مكلّفة بإخماد الاحتجاجات والتّمرّدات الّتي تحدث في السّجون عادةً ، فقد سمعتُها من (عبد الله) ، زميلي هنا في هذه الغرفة ، قبل أن يُغادرنا مع مَنْ غادَرنا من سجناء انتفاضة الخبز .

قال عبد الله : إنّ مجموعة (بيعة الإمام) الّذين يقطنون مهجع (١) ، كانوا قد أعدّوا خطّة لأسر أحد أفراد الأمن ، وأخذه رهينة لحين تحقّق مطالبهم . واقتضت هذه الفكرة أن يخلعوا بعض حديد الأَسِرّة ، وقد نجحوا في ذلك ، مع أنّ حديد هذه الأسرّة ملحومٌ ومثبّت بشكل يستحيل أن يُقصّ أو يُخلَع ، وخاصّة أنّه – في المعروف – لا يوجد أيّ أداة حادّة بيد

أي سجين سواء أكان سياسيًا أم غير ذلك . المهمّ أنّهم استطاعوا - بطريقتهم - خلع رِجْلِ أحد الأسرّة ، واستطاعوا كذلك أن يُحِدّوا طرفها لتصبح سكّينًا حادّة أو خنجرًا ماضيًا أو سيفًا قاطعًا .

كانت خطّتهم تقضي بالهجوم على أفراد الأمن المكلّفين بحراسة شبك مهجعهم ، ومعلومٌ أنّ لكلّ مهجع على الأقلّ شرطيَّيْن يقومان بحراسته ، والإقامة عند بابه ، ويتمّ إغلاقُ أشباك المهجع وفتحها في أوقاتٍ محدّدة ، وقد لا تُفتح في حالات طارئة ، إذا قرّرت الإدارة ذلك .

استطاعت مجموعة (بيعة الإمام) أو (جماعة التّوحيد) أن تأسِرَ أحد أفراد الأمن ، ويبدو أنّ الآخر أفلت من قبضتهم في اللحظة الأخيرة . وحينَ علمت الإدارة بالأمر سارعتْ إلى إغلاق الأشباك المؤدّية إلى مهجعهم . وطالبتْ بإطلاق سراح الشّرطيّ المُحتَجَز . غير أنّ الجماعة رفضت ذلك بشكلٍ قاطع . وبدأت المفاوضات بين الطّرفين ، على إطلاق سراح الجنديّ الأسير ، وقدّمت إدارة السّجن كثيرًا من التّنازلات ، غير أنّ (بيعة الإمام) كانت في وادٍ آخر . ولم يجد مدير السّجن آنذاك من وسيلةٍ سوى أن يرفع الأمر إلى مديرِ الأمن العامّ ، وهو أمرٌ قد يكلّفه الكثير ، إذْ يُعدّ فشلاً إداريًا من جهته ، وقد يُودِي بحياته المِهنيّة ، وقد يُقال على إثرها ، وقد يُحاكَم ويكون مسؤولاً عن الأسباب الّتي دعت هذه المجموعة إلى اتّخاذ هذه الخطوة الجريئة والخطيرة ، ويُساءل لِمَ لمْ تستطعْ أن تملأ كرسيّ الإدارة بالشّكل الصّحيح ، وتمنع بشتّى الوسائل حدوث مثل هذه الخروقات؟! كلّ هذه الخواطر كانت - بلا شكّ - تدور في ذهن مدير السّجن ، ولكنّ الموقف كان أخطر ، وأكبر من أن يستطيع حلّه بنفسه هو وضبّاطه في هذا السّجن ، فرفع الأمر إلى مدير الأمن العامّ ، الّذي سارَع بتوكيل مدير مصلحة السّجون ، وأعطاه كافّة الصّلاحيات لحلّ المسألة بأسرع وقتٍ ممكن .

قام مديرٌ مصلحة السّجون بالتّوجّه إلى سجن سواقة ، ويبدو أنّه وصله

في اللّيل، لبعد المسافة ثانيًا، ولأنّ المفاوضات السّابقة الّتي لم تُسفِر عن نتيجة كانت قد أخذت وقتًا طويلاً أوّلاً. وعقد اجتماعًا مع مدير السّجن، وتوجّه بصحبته وبعض الضبّاط إلى مهجع سجناء (بيعة الإمام). ووقف على مقربة من الشّبك، وخاطبهم بلغة رقيقة علّها تأتي بنتيجة، ولكنّ محاولاته ذهبتْ سُدىً. فعاد خائبًا مرّة أخرى إلى مكتب الإدارة، وهنا لم يجد بُدًا من استدعاء لواء الأمن، فاستدعى فرقةً كبيرةً منهم، واستغرق وصولهم وقتًا إضافيًا. ثمّ توجّه وبرفقته المدير، وفرقة لواء الأمن إلى المهجع مرّة أخرى، وهنا حاول أن يُخيف أفراد (بيعة الإمام) عن طريق شبه استعراض عسكريّ، إذ وقف في المنتصف وِقفةً جادّة وحوله بعض الضبّاط من الرّتب العالية. ووراءهم في شكل رهيب ومُفزِع أفراد لواء الأمن الّذي يقرب عددهم - ربّما - من مئة. كانوا يقفون على شكل صفوف مستقيمة، وفي أيديهم الهراوات الغليظة، ويغطّون وجوههم بالأقنعة السّوداء، ويحملون في اليد الأخرى مِصداً شفّافًا يزيد طوله عن متر، ويهرّون كالذّئاب الجائعة، مستعدّين لإشارةٍ من طرف إصبع مدير مصلحة السّجون. كان المنظر كافيًا لإلقاء صخرةٍ من الرّعب في قلب الحجر، غير أنّ هذا الرّعب - فيما يبدو - لم يصل إلى قلوب مجموعة (بيعة الإمام) الّتي كانت تستخدم مِصداً شفّافًا من الإيمان بقضيّتهم، وقد أصقبوا على عدم التّراجع، كأنّ أميرَهم الّذي يأمرهم بالثّبات هو ظلُّ الله في الأرض!!

في هذه اللحظة الحاسمة، أراد مدير مصلحة السّجون أن يستخدم آخر خياراته، وهو أمرٌ رأى أنّ تنفيذه لا مهرب منه في الثّواني القادمة. صاح بالمجموعة، بكلّ كبرياء وتحدٍّ:

- طَلْعُوا الشّرطيّ أَحْسَنِلْكُمْ!!

- ما رَحْ يِطْلَعْ.

- إنتو عارفين شو بقدر أعمل؟!!!

- بلّط البحر!!

- ولكوا إنتو مش عارفين مين أنا .

- ومين بدّك تكون يعني!!

- أنا اللّواء . . . .

- وطُز . . .!!!!!!!!

ولّما سمع اللّواء هذه الكلمة الأخيرة ، لم يبق في رأسه متّسع لأيّ تعقّل ، فأشار بإصبعه إلى لواء الأمن ، فهجموا على مجموعة (بيعة الإمام) . . . بدأ الضّرب ، والرّفش ، واللّكمات ، والصّياح من كلّ جانب . . . وكان يومًا عسيرًا على هذه المجموعة ، إذ إنّها تلقّت من الضّرب والإصابات ما لم تتلقّه أيّام زنازين المخابرات أثناء فترة التّحقيقات . . . واعتقل معظم أفراد هذه المجموعة ، وأودِعوا في الزّنازين الانفراديّة ، وقُتِّرَ عليهم في الطّعام ، وحُرِموا من زيارة أقاربهم وذويهم . . . وكانت عبرةً لكثير من السّجناء ، وفي مقدّمتهم السّياسيّون . غير أنّ هذه المجموعة الّتي تعرّضت لذلك ، تلقّت الأمر برحابة صدر ، واحتسبتْ ذلك جزءاً من الأذى الّذي يُمكن أن تلقاه في طريق دعوتها . . . وكان هذا هو لسان حالهم جميعًا!!

كان مهجعنا ؛ مهجع (٦) يتّسع لستّين سجينًا ، وكنّا لا نتجاوز العشرة ، وبالتّالي فإنّ المساحة الخالية المتبقّية أشعرتنا بمستوى رفيع من الحرّيّة ، حتّى أحسسنا أنّنا في البراري الممتدّة لا في السّجون المكتظّة . كان منظر الأبراش وهي على امتداد متناسق تبدو كأقفاص جوفاء ، خالية من القضبان في طرفيها ، قائمة على أرجل حديديّة على جوانبها الأربعة ، وكان يحلو لي النّظر عبر هذا الفراغ ، فأشعر أنّني أركب قِطارًا ذا عرباتٍ فارهة وخالية في آنٍ واحد!!

تلقّفني الجميعً هنا بالسّؤال عنّي ، وعن صحّتي ، وعن الأيّام الّتي قضيتُها في حضرة السّباع ذات المخالب . وكنتُ جائعًا إلى الحديث مع أيّ

إنسانٍ ، فأسهبتُ في الإجابات . سألوني عن (ناهض) و(شادي) . فقلتُ لهم : بعدما خرجتُ من سجن الجويدة ، لم أدرِ ماذا حدث معهم بالضّبط ، إلاّ أنّني أظنّ أنّه أُفرِجَ عنهم بكفالة ، ولاَ أدري إلى أين تسير قضيّتهم!!

السّجناء الّذين صاحبْتُهم في هذا المهجع ، هم سياسيّون مُحترِفون ، ومعظمهم بعثيّون وقوميّون ووطنيّون وأبناء عشائر . كنت هنا بصحبة : عكرمة ، وعليّ ، ويوسف ، وعبد الله ، وعايد ، وفؤاد ، ومحمّد أكرم ، وخالد ، إبراهيم ، وتيسير . . . وآخرين .

كان بعض أعضاء القيادة القطريّة لحزب البعث يقبعون في هذا المهجع ، وكان أحدهم كثير المِزاح ، صنع جوًّا من اللّطف والجمال .

(أبو جِهاد) أحد أبناء عشائر الأردنّ المعروفة ، الّتي تمتدّ شرقًا أكثر من أي اتّجاهٍ آخر ، ثلاثة أشياء لم أرها تفارقه طوال وجوده معنا في هذه القضيّة . كوفيّته الحمراء ، وثوبه الأبيض الفضفاض ، وسيجارته القارّة على زاوية فمه . لم تفارقه الكوفيّة لا في صحو ولا في منام ، إذا نام لفّ بها رأسه ، واستسلم لسلطان الأحلام . أمّا وجهه الأسمر فقد حفرتْ فيه السّنون أخاديدَ واضحة ، وتركتْ عليه آثار شقائها وتعبها ، واستطاعت الصّحراء أن تأخذ نصيبها من وجهه ، وتترك عليه بصمتها الواضحة . وأمّا صوته الأجشّ فقد شكّلتْه على هذا النّحو أهازيجه الّتي غنّاها للأغنام فطربتْ لها أكثر مِمّا يطرب البشر ، ونُفاث سجائره الّتي لا تُفارقه .

جلسَ يحدّثنا ذات ليلةٍ بُنّيّة عن سبب سجنه . قال إنّه بعد أن رأى الحكومة مُصرّة على رفع أسعار الخبز ، ورأى كثيرًا من النّاس صامتةً ، لم تتحرّك من أجل الاحتجاج على قرار يمسّ مصائرهم ، ويتلاعب بأقواتهم ، قرّر أن يفعل شيئًا من باب استنكارٍ قرار الحكومة استنكاراً لا يخرج عن دائرة القانون!! قال : فكّرتُ أكثر فوجدتُ أنّ قرار رفع الأسعار لا يمسّ البشر وحدهم ، بل يمسّ الأغنام والأبقار الّتي هي مصدر رزقي ، وقوت عيالي ، إذ

أثّر قرار رفع أسعار الخبز على رفع أسعار العلف . يتابع : نظرتُ حولي أبحث عن أوفياء يُطمئنّ لهم ، ولا يخذلونني فيما عزمتُ عليه ، فلم أجد أوفى من أغنامي الحبيبة . رسمتُ الخطّة على النّحو الآتي : لديّ (١٥٠) راس غنم ، ولدى جاري مثلها ، وهناك في البلدة مَنْ يُساندنا في الموضوع ، فرتّبْنا مع عدد من الأهل والمعارف ، وجمعنا حوالي (١٠٠٠) راس غنم ، وقمتُ باستئجار شاحنة كبيرة لنقل هذا العدد الهائل من الأغنام ، وكمّمتُ أفواها ، وربطتّها بقماش كُتِبَ عليه : لا لرفع أسعار الأعلاف . واتّفقتُ مع سائق الشّاحنة أن نذهبَ معًا بها إلى دوّار الدّاخليّة في عمّان ، وننتظر حتّى تبلغ الأزمة ذروتها في حوالي السّاعة الثّانية ظهرًا ، ونقوم بإطلاق الأغنام في تلك السّاعة في نَفَقِ الدّاخليّة وميدانها ، فتملأ المكان وتُربِك السّير ، وتشلّ الحركة ، فيكون للأغنام في ذلك اليوم شأنٌ أعظم من شأن رئيس الوزراء الّذي أصدر قرار رفع أسعار الخبز والأعلاف . ثمّ تابع : إنّ مظاهرة الحيوانات قد تكون أجدى من مظاهرة البشر ، لأنّ الأغنام إذا شعرت بالضّيق صاحت : ماع . أمّا بعض النّاس فلو نهبتَ خبزهم ، وسلبتَ طحينهم ما حرّكوا ساكنًا . ولكنْ للأسف (يتابع) لم تتمّ هذه المظاهر التّاريخيّة ؛ لأنّه يبدو أنّ بعض الّذين سألْناهم لمساعدتنا في إدخال ما لديهم من الأغنام في هذه الحركة الاحتجاجيّة ، قد وَشُوا بنا ، ونقلوا أمرنا إلى الأمن والمخابرات . ومع أنّ التّخطيط للعمليّة والجَمْع والإعداد لها استغرق أربعة أيّام ، إلاّ أنّه لم يتمّ اعتقالي إلاّ في ليلة التّنفيذ!!

كم كان لهذه القصّة وقعٌ في قلبي ، وفي شعوري ، أحسست أنّ أبا جهاد علّمنا درسًا في النّضال لا يمكن أن تعلّمنا إيّاه الكتب أو المحاضرات . ولشدّة تأثّري بفكرته النّاضجة الّتي تجاوزتْ ببساطتها وبقوّتها في الآنِ نفسه تفكير المثقّفين وقادة الرأي ، وزعماء الأحزاب ، فإنّني ترجمتُ هذه القصّة ، وأشرتُ إليها في إحدى قصائدي الّتي كتبْتُها في السّجن ، وهي قصيدة : (نبوءات الجائعين)!!

كان مهجعنا يقع على الطّرف الجنوبيّ من السّجن ، ويتكوّن من غرفتين متلاصقتين ، وثالثة تُقابِلُهما . وبجانب إحدى الغرفتين المتلاصقتين ساحة تطول حوالي عشرين مترًا ، وبعرض حوالي عشرة أمتار ، تحيط بها جدران ترتفع لأربعة أمتارٍ أو خمسةٍ ، مفتوحةٌ على السّماء . وكان السّجانون يفتحونها لنا للتّشميس . وفيها وجدنا فرصة نادرةً للتّمتّع بزرقة السّماء ، كم كنّا مسلوبين منها طوال الأيّام الماضية في هذا السّجن . كان بعضنا يستغلّ هذه السّاحة من أجل الرّكض فيها ، والتّمارين الرّياضيّة . فيما بعد ستصبح هذه السّاحة من أعزّ الموجوداتِ إلى قلبي .

مرّ خمسون يومًا ولم أرَ فيها حتّى اليوم وجهي ، ولا لحيتي ، ولا ما تبقّى من كرشي الّذي فقد كثيرًا من شحومه عبر رحلته القسريّة . لماذا حُرِّمَتِ المرايا على السّجون؟!

(يوسف) استمرّ في مهنته السّابقة الّتي كتبها هو على نفسه من إحضار الطّعام . كان قد خصّص مع بقيّة الزّملاء (طَشْتًا) واسعًا ، يذهب به إلى مطعم السّجن ، ويعرفه الشّرطيّ هناك ، ويسأله عن عدد أفراد مهجعنا ، وكثيرًا ما كان يعود بطعام يكفي ضعف عددنا . إذًا لقد دخلت الرّفاهية إلى عالَمنا هنا دون أن نقصدً . كان الشَّرطة يحترمون (ليثًا) احترامًا خاصًا ، وكذلك بقيّة السّجناء السّياسيّين ، فكانوا يخطبون وُدّنا بما يزيدونه من فائض الأطعمة ، وكم تراكمت عندنا أعداد من أرغفة الخبز ، ويبست ولم يأكلْها أحد ؛ لأنّها فاضت عن الحاجة . صرنا بعد ذلك نعمد لتسريبها إلى السّجناء المساكين ، ونتألّف بها قلوبهم . وكانوا يرون رغيف الخبز الواحد كأنّما هو قنطار من الذّهب الخالص . أليست قيمة الأشياء في نُدرتها؟!!

كم تعبْنا ونحن نحمل أحلامنا ونسير بها إلى الغاية ، الّتي كانت تبعد كلّما أحسسنا أنّنا اقتربْنا منها!! كم نِمنا على إستبرق الأماني ، وصحونا على حصير العجز!!

ماذا تفعل الأحلام بنا؟! وماذا تصنع الحريّة بعقولنا؟! إلى أين نتّجه ونحن نغالب مدّ الطّوفان القادم من ثغور العبوديّة؟!

علّمني عمر بن الخطّاب أنّ الحريّة غريزة، وأنّ مَنْ يتخلّون عنها بإرادتهم يتخلّون عن حياتهم، وأنّ النّاس إذا وُلِدوا أحرارًا، فكيف يموتون عبيدًا!!

وَإذا لَـمْ يَـكُـنْ مِـنَ المَـوْتِ بُـدٌّ
فَـمِنَ الـعَـارِ أَنْ تَمُـوتَ جَـبَـانا

وعلّمني (لافونتين) الشّاعر الفرنسيّ أنّ الحرّيّة لا تساوي طعامًا شهيًا أو منامًا وثيرًا، فالحيوانات تستطيع أن تحصل على ذلك. ما زلت إلى اليوم أتذكّر قصّته الّتي قرأتُها في عهد الطّفولة، وتقول: «إنّ ذئبًا هزيلاً صادفَ كلبًا ضخمًا وجميلاً فتودّد إليه، وسأله الصّحبة. فأشار عليه الكلب أن يتبعه ويفعل فِعله، ويكون مثله حارسًا لبعض الأغنياء، يقوم بحراستهم مقابل أن يحظى بما لذّ وطاب من فَضَلات طعامهم. ولكنّ الذّئب لاحظ أنّ حول رقبة الكلب حيّزًا خاليًا من الشّعْر، فسأله: أين الشّعر الّذي يُفترض أن يكون حول رقبتك؟! فقال الكلب: هذا محلّ الطّوق الّذي يقيّدني به سيّدي!! فردّ الذّئب عليه: إنّني لا أفرّط بحريّتي بمال الدّنيا».

إنّ الحرّيّةَ مساحةُ الشّعوب الّتي يَحرُم على الجبّارين أن يطؤوها. هناك في هذه المساحة يصنع النّاس تاريخهم، ويرسمون بإرادتهم شكل حياتهم. إنّ الحرّيّة القدرةُ على أن تختار نوع المصير الّذي تنتهي إليه. إنّها الإرادة في أن تفعل، وليس الجبر في ألاّ تفعلَ. إنّها النّجمة الفارقة الّتي تتطلّع إلى التّدثّر بضيائها كلُّ المخلوقات بما فيها الحشرات!!

كانت السّاحة الّتي تجاور مهجعنا تُجسّد في تلك المرحلة كثيرًا من مفهوم الحرّيّة. في فِنائها كم دُرنا حتى فنينا عن أنفسنا. وكم مشينا حتّى نسينا مَنْ نكون، ولأيّ شأن اختارنا العلاّم في هذا المكان أن نكون!! في زواياها تركْنا أحزاننا، وعلى أطرافها رمينا سوادًا من آلامنا، وأمام عَتَبَتِها

خَلَعْنا جُنوننا ، وعلى أطرافها ركَزْنا راياتنا .

كان الصّباح فيها حياة ، وكان المساء فيها حياة ، وما بين الحياتين كنّا نصنع الحياة . كم أسندنا إلى جدارها السّامق ظهورنا لنستريح من تعب الذّكرى ، وكم مَدَدْنا أبصارنا إلى سمائها الزّرقاء لِنُشبعَ نَهَمَنا إلى الخلود ، ونطفئ شوقنا إلى وطننا الأمّ!!

لقد كانت لهوَنا البريء ، ومتعتنا الحلال في حياةٍ ما هي : (إلاّ لَعِبٌ ولَهْوٌ) ، وظلّت تملؤنا من سِلال الألفة حتّى غدت متنفّسًا من الاختناقات القارّة فينا جميعًا .

لا زال دِفْءُ الشّمس قبيل الغروب في إحدى الأماسيّ السّاحرة يملؤني بالسّحر إلى اليوم . كم جلسنا في حلقات تُطوِّحُنا فيها أيّامنا اللاهثة خارج الأيّام . كان مساءً خريفيًا مُدهِشًا . أسندتُ فيه ظهري إلى جدارها ، بعد أن لَبِسَتْه الشّمس طيلة النّهار ، فصار يتوهّج بالدّفء ، سرى دِفْؤُهُ في روحي قبل جسدي . وأحسستُ بأمانٍ شفيف يغمرني ، وأنا أتطلّع إلى عيون أحبّتي ، كمن يسرق منها طاقةً خفيّة لمقاومة البرد القادم . أشتري تلك اللّحظات بكلّ ما أملك اليوم . ولكنّ ما انساب من الماء على رمل الطّريق هيهات أن ترجعه الأماني العتيقة!!

كان (ليث) قد تعوّد أن يُهروِل فيها كلّ يوم لمدّة نصف ساعة . وصرتُ أرافقه في هذه الرّياضة ، كان يملأ جيبه اليسرى بـ (٢٥) حبّةً من بزر الزّيتون الجافّ ، كلّما أتمّ دورة حول محيط السّاحة ، نقل حبّة من هذا الجيب إلى الجيب الآخر ، ويظلّ كذلك - وأنا أركض معه - حتّى يُنهي الحبّات الخمس والعشرين ، ثمّ يعيد نقلها بالعكس من الجيب الثّاني إلى الأول . وعندما ينتهي من ذلك ، نكون قد ركضنا (٥٠) دورة . وتكون المسافة حوالي (٣ كم) . كانت رياضةً ممتعة ، تابعتُها بعد رحيل (ليث) ، وزدتُ عليها قليلاً ، وكانت إحدى العوامل الّتي ساعدتني في التخلّص من وزني الزّائد!!

طالتْ ليالينا في هذا المهجع الواسع ، ونحن نَسمَر فيها على أصداء

ذكرياتنا وثقافتنا . واستطاعت تلك اللّيالي أن تستحثّ ذاكرتي الشّعريّة ، لاستنهاض ما غاب منها في ممرّات الحافظة ، كي أستعيده أمام الزّملاء ، فأقرأ عليهم ما تيسّر من قصائدي . كم كانت بعض القصائد تلهبُ حماسة أعضاء القيادة القطريّة لحزب البعث ، وخاصّة تلك القصائد الّتي تتحدّث عن العروبة والعرب!!

تآلَفْنا معًا هنا في هذا المهجع ، وسُمِحَ لنا بزيارة الغرفة الّتي تُجاوِرنا ، والأخرى الّتي تُقابِلنا في المهجعِ ذاته ، وكانت مساحة التّعارف على المساجين السّياسيّين تزداد سعةً ، وبشكلٍ ملحوظ . ربّما سيحين الوقت لاحقًا لأبسط أمامكم تلكم المساحات .

كانت الطُّرفة واصطناعها وسيلتنا للتّخفيف عمّا نحن فيه ، ولنسيانه ولو لأمدٍ قليل . كان (عكرمة) لا يفتأ يدخل الحمّامات ، ويقوم بالاستحمامٍ في اليوم الواحد مرّة أو مرّتين ، فيستغلّ أحد أعضاء حزب البعث الفرصة للّمز به ، ويقول له :

– شو بشوفك كل ساع بتتحمّم!!

– شو قصدك؟ (يردّ عكرمة)

– خلّينا نسأل الشّباب . . . شو يعني الواحد بتحمّم كلّ ساع يا شباب؟! بقوم من النّوم بتحمّم . . . بتغدّى وبتحمّم . . . ولا عشانّك خاطِب .

فيتقبّل (عكرمة) مِزاحه بصدرٍ رحب . . .

وتستمرّ الهمسات والهمزات على هذا النّحو . . . .

بدأت أخبار الإفراج عن البعثيّين تسّاقط علينا تساقط الرّطب على المستظلّين تحت نخيل الحرّيّة ، كان الإفراج عنهم بكفالة ماليّة أو عَدْليّة . وفي غضون أسبوعين أُفرِجَ عن حوالي عشرين سجينًا من سجناء انتفاضة الخبز . . . وبعد أقلّ من أسبوع من ذلك لم يبقَ منهم أحد!! يبدو أنّ الدّولة والملك قد اتّخذا قرارًا بتخفيف الاحتقان النّاتج عن رفع الأسعار بهذه

الخطوات المتتابعة . صار أمر الإفراج عن جميع معتقلي انتفاضة الخبز واقعًا محتومًا ، ولكنّه تمّ بالتّسلسل وليس دفعةً واحدة . وكم تعبْنا ونحن نودّع زميلاً ، ونتمنّى لزميلٍ آخر قرب الإفراج . أمّا نحن فكان أملنا في الخروج إلى ما وراء هذه الأسوارٍ ، يشبه أحلامًا يحلم بها غيرُنا!!

ودّعناهم مع خبزهم الحافي ، وظلّت رائحته تملأ أنوفنا بعدهم . وظلّت قضيّتهم شاهدةً على أنّ الثّورة كامنةٌ تحت الرّماد . وليس من هبوب عاصفتها في ظروفها الموضوعية مهربٌ أبدًا . ولا يسلم من ذلك كبيرٌ أو صغيرٌ في دائرة القرار ؛ مَنْ كان يتوقّع أن تأتي الهبّة ، وتكون الثّورة من أبناء الجنوب ؛ أبناء العشائر الّتي طالما تغنّت بولائها شبه المطلق للقيادة الهاشميّة؟!!

غادَرَنا أصحاب الرّغيف الحافي ، وخلتْ الغرفة الّتي نحن فيها من كلّ سجينٍ في تلك القضيّة ، وبقينا أنا والثّلاثة ، وازداد المكان رحابةً حتّى أصبح أشبهً بملعب ، نمارسُ فيه أقصى درجات الطّفولة والحرّيّة .

توثّقتْ علاقتي بحكم الزمان والمكان ومساحة الكتب المقروءة (بعكرمة) أكثر من (عليّ) و(يوسف) . وبدأ (عكرمة) على عادتهِ يُصدّع رأسي بالحوارات وبالنّقاشات حول الكتب الّتي اتّفق أن نكون قد قرأناها معًا . وبالكتب الّتي انفرد هو بقراءتها وحده!!

استطاعت قضايانا العادلَة ، وتكاتُفُنا معًا أن تُشيع جوًا من احترام أفراد الأمن لنا ، إذ لم يكن محظورًا - في البداية - علينا التنقّل عبر الأشباك إلى مهاجع القضايا غير السّياسيّة ، في حين أنّ مَنْ كان يزورنا من القضايا الأخرى يُعامل بأقصى درجات القسوة ، وإذا أُمسِكَ به متلبّسًا بزيارتنا فإنّه قد يتعرّض لعقوبة (الشّبح) الّتي تمزّق العضَلات وتقطّع الأوتار ، وقد يُعاقَب بها السّجين لساعاتٍ طويلة!!

أمّا نحن فكنّا نفرض احترامنا علىً مرتّب الأمن ، وكان لذلك غيرُ سبب ؛ فمنها أنّ معظمنا مثقّف وجامعيّ ، وكثير منّا مُهندِسون ، وأنّ

قضايانا ليست كقضايا الآخرين من السّرقة والقتل والمخدّرات . . . وأنّه يجمعنا ويفرّقنا الخِطاب العقليّ ، في حين يجمع الآخرين الطّبلُ ، وتفرّقهم العصا . كنّا نستخدم لغة الحِوار والمنطق مع الشّرطة ، ونجرّهم إلى ساحتهما ، وكانوا لا يجدون من وسيلة لاستخدامها مع غيرنا من السّجناء الآخرين غير القمع والتّعذيب والتّهديد!!

كنّا يدًا واحدةً ، ننطق عن رأي واحد ، وكان بقيّة السّجناء أشبه بقطيع يمشي في كلّ الاتّجاهات ولا يُعرَف له اتّجاه ، وقد تفرّقوا وهم في غرفة واحدة أيادي سبا!!

وبمثل هذه المُعطَيات الّتي وسّعت لنا مساحة القَبول عند الآخرين ، كنّا نستمتع ونحن نمارس هذه المزايا .

كان (ليث) قد استطاع لوجاهته أن يُدخِلَ رقعة شطرنج داخل السّجن ، وشكّلتْ هذه الرّقعة أداةً لصرف الوقت أحيانًا فيما يفيد . جلستُ أنا و(عكرمة) ذات مرّة على حافّة أحد الأسرّة الكثيرة لنلعب هذه اللّعبة . وقد تمدّدْتُ أنا على طرف السّرير مُتيحًا لنفسي أقصى درجات الرّاحة . وفي غمرة اندماجنا في اللّعبة ، لم ننتبه إلاّ وصفٌّ من الضّبّاط يتجاوز عددهم السّتة يتقدّمهم مدير السّجن ذو الياقة الحمراء ، وكان عقيدًا آنذاك ، يتّجهون نحونا . كان منظر هؤلاء العسكريّين كفيلٌ بأن يُلقي كتلةً من الرّعب في قلب كلّ السّجناء هنا . بل إنّ شرطيًا واحدًا حافًا كان يملك من الهيبة في نفوس السّجناء ما يدعوهم إلى الارتجاف أمامه لساعات . حانت منّا التفاتة إلى هؤلاء الطّارقين على الأرض بأحذيتهم العسكريّة ، ولّما رأينا الأمر كذلك ، تابعتُ اللّعب أنا و(عكرمة) دون أن نعيرهم أدنى انتباه ؛ وكأنّهم غير موجودين ، ظلّوا يتقدّمون حتّى صار مدير السّجن فوق رؤوسنا ، وخلفه بقيّة الضّبّاط ، وتوجّه بالسّؤال إلى (عكرمة) عن تهمته ، فأجابه (عكرمة) دون أن ينظر إليه ، وأمّا أنا فعندما سألني عن تهمتي ، فقد أجبْتُهُ دون أن أغيّر من جِلستي . وكان جوابنا له مُقتَضَبًا ، وأشعرناه

بأنّا لا نرغب في متابعة الحديث معه . وكأنّه عرف أنّه سيدخل في رهان خاسر إن تابع الحديث معنا والتزمْنا الصمت ، وخاصّة أمام مساعديه ونوّابه ، فآثر السّلامة ، وخرج دون أن يعلّق شيئًا . وشعرتُ أنّنا فعلنا ذلك انتصارًا لقضايانا ، واحتجاجًا على سجننا الظّالم!!

لم تطلْ فرحتنا كثيرًا بمهجعنا الواسع . كانت الغرفة الّتي تُقابِلنا وهي أصغر من غرفتنا هذه بكثير ، تتسع بالإضافة إلى السّجناء فيها لنا نحن الأربعة . وهكذا - دون سابق إنذار - تمّ ترحيلنا إلى هناك ، وأغلقت من ورائنا غرفتنا الواسعة . ثمّ استثنوني من هذا التّرحيل ، وأُصعِدتُ إلى المهجع (١٢) الّذي يقع فوق مهجعنا تمامًا ، وكان يحوي حوالي (١٠) سجناء من حزب التّحرير ، وأمّا السّبب في ضمّي إليهم ، فلأنّ تهمتي (إطالة اللّسان) هي نفسها تهمة المساجين العشرة مجتمعين!!

كان يُسمَح لمهجعنا بغرفه الثلاث الخروج - على الأقلّ - مرّتين إلى ملعب السّجن للعب كرة القدم . يُفتَح لنا الباب المؤدّي إلى الملعب ، ويصيح بنا الشّرطيّ المُخوّل بذلك : معكم ساعة وحدة بَسْ!!

نهرع إلى الملعب كأنّه أفرجَ عنّا ، مُسرعين ، نتراكض لنصل قبل أن تبدأ ساعتنا بِقَضْم نفسها . ونشكّل فريقَيْن ، كلّ فريق من ستّة أشخاص . بالطّبع لم يكن الملعب كبيرًا ، كان أشبه بملعب كرة يد . وغالبًا ما كنتُ ألعب ضمن فريق (ليث) . ونبدأ قذف الكرة بأرجلنا ، لم يكن يُتقنُ لعب كرة القدم فينا غير ثلاثة من ستّة عشر لاعبًا على الأغلب . غير أنّ واحدًا مثلي ما زال في وزنه الثّقيل بقيّة ، كان هدفه من اللعب أن يحرّك جسده ويحسم الأمر مع كرشه . ولم يكن قذف الكرة برجلي أكثر من مجرّد قذف الهمّ بعيدًا عنّي . كان تمرينًا لنسيان الهموم ، وركلها بعيدًا . وكان تمرينًا على استخدام الصّوت العالي ، فقد يكون في رفع الصّوت متعة لا يحسّ بها إلاّ مَنْ فَقَدَها . كنّا نرفع أصواتنا لنخفض منسوب الاحتقان الّذي تُراكِمه جدرانُ السّجن!!

في أحايين كثيرة كنتُ أريح زملائي من سوء مهارتي في اللعب، وأكتفي بالرّكض حول الملعب الّذي كانت مساحته تفوق مساحة ساحة مهجعنا بثلاثة أضعافٍ أو أربعة، وأجد فيه فضاءً مُطلَقًا كافيًا بزرع شتلةٍ بيضاء في كومة رماد!!

أفرِجَ عن شامان في ١٩/١٠/١٩٩٦م. وعن إبراهيم في ٢٢/١٠، وعن خالد في اليوم نفسه مساءً، وعن عايد في ٢٣/١٠، وعن فؤاد في ٢٦/١٠، وعن عبد الله في ٢٩/١٠، وعن محمّد أكرم في ٣٠/١٠، وعن أحمد في ٢/١١، وعن تيسير في ٤/١١ ....

صاحِبُنا الأخير تيسير، من الجنوب القصيّ في الطّفيلة، كان طويلاً بعض الشّيء، أجعد الشّعر، أسمر الوجه، وقليل الكلام، لم أدخل معه في نقاشٍ واحدٍ، نأى بنفسه في الزّوايا الصّامتة مع سجائره المتلاحقة، غير أنّه أسدى إليّ خِدمةً تُوزَن بالذّهب. كنتُ إلى هذا التّاريخ، يوم ٤/١١ قد كتبتُ بعض القصائد والرّسائل والقصص القصيرة، ولم أجد من وسيلة لإخراجها من المعتقل، إلاّ مع صاحبنا تيسير. ولكنْ ما السّبيل إلى ذلك؟! وكلّ سجين يُفرَج عنه من هنا يُفتَّش قبل أن يخرج تفتيشًا دقيقًا، ولا يُسمَح له بإخراج شيء!! عندما أعطيته تلك الأوراق، رمقني بنظرةٍ غريبة، ودون سابق إنذار خلع بِنطاله، ودسَّ الأوراق في ثيابه الدّاخليّة، وأحكَم الأغلاق عليها، وقال بلهجة الواثق: لا تخاف، ما حدا رح يوخِذها منّي!!

ذلك ما حصل، خرج بها سالمةً من السّجن، وتجشّم أبي عناء الذّهاب إلى الطّفيلة من أقصى الشّمال في إربد، واضطرّ إلى المبيت لليلةٍ واحدة هناك، لأنّ بُعدَ المسافة والشّقة منعاه من العودة، خاصّة أنّه وصل الطّفيلةَ بعد تعبٍ طويل في اللّيل البهيم. غيرَ أنّ الأوراق صارت بين يديه، وأيّ أمانٍ أكثر من ذلك؟!!

كان مجلسُ النّواب الثّاني عشر الّذي انتُخِب عام ١٩٩٣م يُعاني من

اهتزازٍ في بوصلة الثّقة عند الشّعب ، وكان يُعدّ أداؤه ضبابيًا وهزيلاً إذا ما قورنَ بمجلس النّواب الحادي عشر في عام ,١٩٨٩ وأهمّ عوامل الزّعزعة الّتي أصابتْه دخوله من بوّابة الصّوت الواحد الّذي مزّق الشّعب الأردني إلى شِيَع ، وجعل العشيرة الواحدة تتقاتل على بعض الفُتات ، ونمّى في نفوس أبنائها الكراهية والحسد والحِقد ، وجعل الاصطفافات تلتئم تحت مِقصلة العشيرة ، الّتي لم ينجُ منها - تقريبًا - أحد . حتّى الإسلاميّون كانوا يخلعون عن رقابهم فكرة : (القويّ الأمين) إلى فكرة : (ابن العمّ الأمين) .

ولعلّ من آثار هذا القانون ؛ قانون الصّوت الواحد - وإن لم تكن على النّحو المباشر - هبوب النّاس في الجنوب والوسط في انتفاضة الجوع المجيدة .

لم يترك الخبز مجالاً للسّياسيّين ، كان صوته أعلى من كلّ الأصوات ، ولقمته أشدّ تأثيرًا من كلّ الظّروف والحسابات . وتصدّر رغيف الخبز المجالس السّياسيّة ، وصالونات صنع القرار . وكان الملك - حينها - يستخدم بذكاء وسائل التّنفيس المتنوّعة وفي الوقت نفسه يهدّد بأنّه : (سيضرب بيدٍ من حديد) كلّ مَنْ تُسوِّل له نفسه تهديد الأمن القومي للأردنّ . في هذه الأجواء ، وفي عهد زملائنا المنتفضين كان انعقاد الجلسة الخاصّة لمجلس النّوّاب يوم ١٩٩٦/١٠/٢٤م . وكان المجلس - بكافّة طيوفه - يستقبل جاك شيراك الرّئيس الفرنسي آنذاك خطيبًا في البرلمان الأردنيّ .

قال الرّئيس الفرنسيّ : «إنّ فرنسا تحترم إيمان كلّ فرد ومُعتَقَده ، كما أنّها تحترم الدّيانات ، وتضمن التّعبير الحرّ عنها ، وعلى هذا الأساس فهي تحترم الإسلام وتُجِلّ كرامة الّذين يُؤمنون به . غير أنّ فرنسا الجمهوريّة والعلمانيّة ، فرنسا الإعلان عن حقوق الإنسان لا تمنح أيّ صفة رسميّة لأيّ مذهبٍ دينيّ . أعرف أنّ مفهوم العلمانيّة قد يصعب أحيانًا فهمه ؛ العلمانيّة لا تعني الإلحاد ، بل إنّها تكمل في الواقع مفهوم التّعدّدية .

أحيّي جميع المسلمين ذوي الإرادة الطّيّبة الّذين يعيشون الإسلام في إطار الأصالة والاعتدال والتّسامح والانفتاح ، وهم في بلادي الأكثريّة السّاحقة .

الإسلام هو الدّيانة الثّانية في فرنسا ، والمُسلمون كما تعلمون يتمتّعون فيها بكامل حرّيّة الرّأي والمُعتَقَد ، وممارسة الشّعائر ، والجمهوريّة تسهر على سلامتهم وكرامتهم» .

كم يحتاج الزّعماء في العالَم ليقتنعوا أنّهم غير مُقنِعين!! وأنّ انتقاء كلماتهم يُوقِعهم في دائرة السّخرية والتّندّر من قِبَل الشّعب!! أعطوني عبر نصف قرنٍ منصرم من الزّمان زعيمًا عربيًا أو غيرَ عربيّ كان لخِطابه تأثيرٌ خارج إطارٍ تداعي ٍالصّحافة ، وتسابق الفضائيّات ، ووسائل الإعلام . وكم من خِطابٍ لم يتجاوز تفاعله في نفوس النّاس غيرَ خبر بَثِّه أو الإعلان عنه!! وكم من خِطابٍ ضرب به النّاس وجوه زعمائهم!! وكم مِن خطاب بان عوارُه وإن خُدع به بعضهم في البداية ، ثمّ تبيّن لهم أنّه ضربٌ في الرّمل ، أو رسمٌ على الماء!!

أمّا (شيراك) الّذي أسهب في الحديث عن الحرّيّة الدّينيّة ، فإنّه لم يتنبّه إلى دولته الّتي حظرت الحجاب ، ومنعتْه في كلّ مرافقها . فأين الحرّيّة إذًا؟! وكيف يُمكن أن يكون الحديث عنها مُقنِعًا وهي تُخنَق في كلّ حين . أتذكّر أبيات أحمد مطر حينما حظرت فرنسا الحِجاب :

قَمَرٌ تَوَشَّحَ بالسَّحابْ .
غَبَشٌ تَوَغَّلَ حالمًا بِفجاجِ غابْ .
فَجْرٌ تحَمَّمَ بالنَّدَى
وَأَطَلَّ مِنْ خَلْفِ الهِضابْ .
وَهْيَ الحَضارَةُ كُلُّها
تَنْسَلُّ مِنْ رَحِمِ الخَرابْ
وَتَقُومُ سافِرَةً

لِتَخْتَزِلَ الدُّنا في كِلْمتينِ :
(أنا الحجابْ)!!
نَعلاكَ أوسعُ منْ فَرَنْسا .
نعلاكَ أطهرُ من فرنسا كُلِّها
جَسَدًا ونفْسا .
نعلاكَ أجْملُ من مبادئ ثورةٍ
ذُكِرَتْ لتُنسَى .
فإذا ارتضتْ . .أهلاً .
وإنْ لم ترضَ
فلترحَلْ فَرَنْسا عن فَرَنْسا نفسِها
إن كانَ يُزعجُها الحجابْ !

كانت صحبة (ليث) في السّجن من التّجارب الثّريّة الّتي عشناها . كان الرّجل يتمتّع بصفات شخصيّة فارقة ؛ تواضعه الجَمّ ، وبساطته في النّقاش ، واعتداده بالرّأي في كثيرٍ من المواضع .

كانت الغرفة الّتي تضمّ (ليثٍ) قد وزّعتْ المهامّ بينها ، من تنظيف الغرفة وشَطْفها ، ومن إحضار الأكْل وتوزيعه ، ومن جَلْي الأواني بعد الفراغ من تناول الطّعام فيها . . . . واختار هو في بعض الأوقات أن يقوم بتنظيف الحمّامات ، وهو أمرٌ يصعب علينا أن نقبله له ، مع كِبَر سنّه ، ووجاهة موقفه ، إلاّ أنّنا لم نجد وسيلةً لثنيه عن طلبه . وكان بعضُنا يذهب إلى أنّه يفعل ذلك إذلالاً لنفسه ، أو قهرًا لها ، خاصّة أنّ تربيته الصّوفيّة ربّما تكون هي السّبب وراء الأمر . وكان يتناوب على ذلك مع (أبي أيّوب) أيضًا .

كثيرًا ما كان صاحبنا يخلو بنفسه في برشه ، بعد أن يكون قد غطّاه بالبطّانيّات من الجهتين (شدَّرَه) ، وبدأ بتأمّل كَرْتٍ صغيرٍ مطبوعٍ عليه لفظ الجلالة باللّون الأسود ، والبياض يحيط بالسّواد من كلّ الجهاتٍ . . . كان

يبحلق فيه لدقائق طويلة ، وربّما لساعات ، وقد يبدأ بالتّرنّم بتكرار هذا الاسم حتّى يبدأ يتخيّله في الفراغ أيّنما ولّى وجهه ، وأنّى أدارَ بَصَرَه . . . فكان له في نفسه بالغ الأثر ، حتّى خُيّل إليه أو إلى الواحد منّا أنّه يهذي بهذا الاسم في صحوه وفي منامه ، وكنّا نقول : هو أثر الصّوفيّة في التّربية الرّوحيّة!!

هذا الرّجل الّذي تمتّع بشخصيّة جدليّة ، وبكاريزما جاذبة ، وبمواقف شُجاعة ، وبجرأة فاقعة ، كان أوّل نقيبٍ للمهندسين ، يفوز بهذا المنصب وهو خلف القضبان . إذ ترشّح لهذا المنصب وهو معنا في السّجن ، ووجد تعاطفًا غيرَ مسبوق من النّاس خارج السّجن على اختلاف مواقفهم وآرائهم ، وحاز دعمًا من الحركات المُعارِضة كافّة ، وفي مقدّمتها الحركة الإسلاميّة ، الّتي وقفت إلى جانبه في حملته ، وكانت رقمًا صعبًا في معادلة الفوز ، فاكتسح الانتخابات ، وفاز نقيبًا للمهندسين . لقد كنت أقول له : ها قد صرت نقيبًا أيضًا للمهندسين السّجناء ؛ أنا و(عكرمة) و(عطا)!!

كانت جلساتي مع (ليث) تشوّقًا إلى الاستفادة من تجربة الرّجل ، وكثيرًا ما كنتُ أدخلُ معه في حوارٍ لم يُفضِ إلى أيّ نتيجةٍ ملموسة . لم يكن لدى الرّجل رؤية سياسيّة واحدة مُبَلورة . وكان يعمل منفردًا ، مِمّا جعل أطروحاته أقرب إلى الهَبّات العاطفيّة الصّادقة منها إلى الموقف المستند إلى فكرٍ ثاقب .

كان الرّجلُ مسكونًا بكثيرٍ من الأفكار المتعدّدة ، بل والمُشتّتة ، أستطيع أن أقول إنّ أكثر هذه الأفكار حضورًا في ذهنه ، شيئان : الملكيّة الدّستوريّة . ومقاومة التّطبيع .

أمّا الأولى ، فيُعدّ الرّجل مِن أوائل مَنْ نادَى بهذه الفكرة في الأردنّ ، إن لم يكن الأوّل فيها . وتتلخّص هذه الفكرة في أنّه لا يُعارض بقاء الملك في السّلطة ، بل هو يدعم أن يظلّ الملك ملكًا . ولكنْ شريطة أن يفوّض

سلطاته إلى رئيس الوزراء ، ويبقى هو رمزًا للقيادة في البلد . وأن تُجرَى انتخابات نيابيّة نزيهة وشفّافة ، ويُعهَد من قبل الملك إلى اختيار رئيس للوزراء من قِبَل الكتلة الأكثر تمثيلاً في البرلمان . و(ليث) يقول ذلك وعيناه ترنو أكثر ما ترنو إلى التّجربة البريطانيّة ، حيثُ الملكة هناك لا تحكم ، وحزب الأغلبيّة في البرلمان هو الّذي يدير شؤون البلاد منفردًا أو بالتوافق مع بعض الأحزاب الأخرى .

أمّا الثّانية ، وهي مقاومة التّطبيع ، فتتلخّص في مقاومة المشروع الصّهيونيّ من خلال التّخفيف من آثاره . وهو يرى أنّ الحكومة في الأردنّ هي حكومة تطبيع ، وحكومة تعاون مع اليهود ، فكيف يمكن أن نخفّف من آثار المشروع الصّهيونيّ إذا دُعِينا للمشاركة فيها . إذًا الحلّ يكمن في مقاطعة الحكومة ، وتشكيل لجان أو هيئات تعمل على مقاومة التّطبيع . وهذا ما صنعه الرّجل ، إذ أسّس جمعيّة وأطلق عليها اسم : جمعيّة مكافحة الصّهيونيّة والعنصريّة .

كانت بعض الأمور الّتي يؤمن بها (ليث) تثير حفيظة بعض السّجناء الآخرين ، وخاصّة قضيّة (بيعة الإمام) الّذين وصل بهم الأمر إلى تكفيره ، وخاصّةً أنّه كان نائبًا في البرلمان ، الّذي يعدّ في نظر هذه الجماعة برلمانًا كُفريًا . ويكفّرون كلّ مَنْ دَخله .

أمّا هذه الأمور الّتي توسّع دائرة الجدل حول أفكار (ليث) فهي فكرته حول : (الوحدة الوطنيّة ، ومؤسّسة القصر ، والجيش العربيّ) الّتي كان يسمّيها المحرّمات الثّلاث .

لم يكن (ليث) يحمل منهجًا للتّغيير . وماذا يمكن أن يفعل الفرد ، ولو آمن معه القليل؟! إذ المؤمن قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه . وليس في ذلك تبرئة للحركات الإسلاميّة ، فإنّ أكثرها - أيضًا - ليس لديها برنامج لاستلام الحكم ، حتّى ولو طُلِبَ منها ذلك .

لم أُصدَم - بعد ذلك - حينَ سألْتُه ذات مرّة : ماذا ستفعل بعد

خروجك من السّجن؟! فأجابني : لا أدري!!

إنّ هذه الضّبابيّة هي ما ينطبق على كلّ رموز المعارضة ، ومن ضمنهم الإسلاميّون . فأنا - على صعيدي الشّخصيّ - ضدّ المعارضة لأجل المعارضة . وضدّ السّباب والشّتم ورفع الشّعارات ، ما لم تكن هناك منهجيّة واضحةٌ للتّغيير ، تستند إلى برنامج مستمدّ من الله والقرآن والإنسان!!

صار (ليث) بعدها صديقًا حًميمًا لنا جميعًا . ومن الأشياء الّتي استطاع أن يُدخِلها إلى السّجن بالإضافة إلى رقعة الشّطرنج ، سكّينٌ بسيطةٌ ذات مقبض بلاستكيّ بلونٍ حليبيّ ، لم يكنْ - بالطّبع - يُسمَح بدخول ملعقة أو أيّ شيء حديديٍّ ، فكيف بسكّين . كان الإمساك بالأشياء الحديديّة في يد أحد السّجناء يُعدّ جريمةً ، وذنبًا يستوجب أشدّ العقوبات . العجيب أنّ هذه السّكّين خَدَمَتِ المهجع كاملاً ، وكان الجميع يستخدمها في تقسيم حبّات البندورة أو الخيار ، وفي صنع السّلطة . وكان للسّكّين - على بساطتها وتقليديّتها - مكانةٌ مرموقةٌ في نفوسنا مجتمعين . وبقدْر ما كانت ممنوعةً ، بقدْر ما كانت تكتسب قيمتها ، حتّى كما لو كانت سكّينًا ذهبيّة . كم شعرنا بالنّشوة ونحن نُمسكها بأيدينا ، ونقلّبها في الفراغ ، وننظر إليها بعشق!! ولم تكن تقع في يد أحدنا إلاّ بادر واحدٌ آخرُ منّا يرمقها وهي بين يدي زميله بإعجاب وشغف ، كما لو كان يتمنّى أن تصير من يديه إلى يديه!! وكنّا نعلم - جميعًا - مخبأها السّرّيّ ، إذْ يُسارِع مَنْ أنهى استخدامها إلى وضعها تحت برش (ليث) ، عند زاوية الرّأس . كانت السّكّين في تلك الزّاوية تتمتّع بحماية فائقة ، وتكتسب حصانة متزايدةً مع الزّمن . وكانت تستقرّ في ذلك المكان بأمان الله ، ولكنّها - ربّما - تقفز إلى أحلامنا في اللّيل ، فنتخيّل أنفسنا مستمتعين بالإمساك بها ، نمارس هواية التّطويح بها ولو في الفراغ الواجم!!

بدأت الحياة الاعتياديّة تدخل إليّ في مهجع (٦) ، كانت الأيّام تحاول دورتها في القلب سابقًا ، وهي اليوم تحاولها في الأطراف . غير أنّ

هذه الحياة الجديدة ما زالت تمتلك مزايا قابلة للإدهاش . ومستعدّة لصنع ما هو مُختلف .

ارتأى (ليث) أن يذبح خروفًا!! دون أيّ سابق إنذار أبلغ مدير السّجن برغبته في ذبح خروف ، وإيلامه لزملائه في المهجع . وماذا نفعل نحن بخروف كامل؟! كانت الفكرة بحدّ ذاتها ضربة استباقيّة حتّى لخيالاتنا ، فبعد أن استمررتُ على طعام خفيف لما يقرب من ستّين يومًا ، وبعد أن ركضتُ خلف المجهول ، ومشيتُ وراء الغيب ، وأجهدتُ نفسي في كلّ ذلك ، حتّى بدا الشّحوب يرسم لوحته الأثيرة على وجهي . . . بعد كلّ ذلك ، سنأكل خروفًا!! ومن يستطيع أن يقاوم إغراء اللحم في مواجهة الجوع . كنّا جائعين إلى اللحم جوع آدم إلى التّفّاحة!! يبدو أنّ الفضول لتذوّق طعم اللّحم كان مسيطرًا على مِعَدنا الخاوية آنذاك ، بل يبدو أنّ سحر التّجربة ؛ تجربة ما نسينا طعمه من خلال طقوس غير اعتياديّة ، هو ذاته السّحر الّذي جذب إليه آدم في تجربة طعم شجرة الخلد مع أنّه سمع مسبقًا قول العليّ : ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾؟!

لم يقتض الأمر (ليثًا) أكثر من أن يدفع ثمن الخروف ، الّذي ذُبحَ في السّجن ، وأُوقدت تحته النّار هناك ، وأنضجه طبّاخو السّجن . نزل المهجع بكامل أفراده الّذين نَيّفوا على العشرين ، مع غيرنا مِمّن تألّفهم (ليث) من ذوي القضايا الأخرى . كان منظر الصّواني وحده يبعث الشّهيّة في النّفس ، وهي تستلقي على حوافّ الموائد ناضحةً باللّحم ، طافحةً بالدّهن!! لم تكن هذه الصّواني تعرض لنا أجسادها من قبلُ ، كنّا نكتفي بتناول قوتنا في الأوعية البلاستيكيّة . المهمّ أنّنا غطسنا في اللحم ومَرَقِه ، وغُصنا في الهَبْرِ ودَسَمِه . كان الخروف سمينًا ، وكان الطّبّاخون قد أضافوا إليه من السّمْنِ والزّيت ما جعله يرشح دسَمًا .

رجعْنا إلى مهاجعنا بعد هذه الوجبة التّاريخيّة ، وأويتُ إلى الغرفة ومعي في بطني من الخروف أجزاء وأجزاء ، ولشدّة ما أكلت ، ثَقُلَت

مشيتي ، فرميت نفسي على البرش مُتشهِّدًا ؛ لتبدأ بعدها الطّامة . . . بدأ الغَثَيان . . . غبشٌ في الرّؤية ، وامتلاءٌ بالدُّهْن والصِّبْغ حتّى صارا يصعدان من المَعِدة إلى الحلقوم ، وتمايلٌ في المشية ، حتى صعبَ عليّ أن أعتدل في مشيتي ولو لمترين أو ثلاثة . . . وليت الأمر انتهى عند الغثيان ، لقد كان البداية فحسب . صرت أتخيّل الخروف يبرز لي ذئبًا بأنياب تقطر رعبًا تحاول أن تفترسني . داخَلني شعورٌ بالذّنب أنّني شاركتُ في جريمة ابتلاع خروف كامل ، وراودني خاطرٌ مجنونٌ ، أنّ اللحم الّذي أكلتُه مسموم ، أو أنّ لعنة اشتراكي في القضاء على خروف مسكين لاحقتْني بدخول بعض أشلائه إلى معدتي!! وبرز لي طيف أبي العلاء وكأنّني كنتُ محتاجًا إلى مزيدٍ من الشّعور بالذّنب ، حينَ سمعته من قعر جبٍّ في سجنه الاختياريّ ، يصيح بي :

غدوتَ مريضَ العقل والدّين ، فالقَني
لتَسْمَعَ أَنباءَ الأُمورِ الصَّحائحِ
فَلا تَأْكُلَنْ مَا أَخْرَجَ الماءُ ظالمًا
ولا تَبْغِ قُوتًا مِنْ غَرِيضِ الذّبائحِ

لم يكدْ طيف أبي العلاءِ يغيب ، حتّى صدّقتُ مقالته ، وأصابني ذعرٌ كبيرٌ لما جنتهُ يداي . واستمرّتْ مطارق اللّعنة تهوي بفولاذ النّدم على رأسي . . . صار الحمّام بعدها مَسكني ، لا أكاد أخرج منه إلا وأعود إليه أخرى . وراح ما في بطني يخرج طوعًا ، وبعد كلّ مرّة يزداد الوجه اصفرارًا ، وتغيم الدّنيا في عينيّ . . . بقيتُ على هذه الحال ما يقرب من عشر ساعات ، والشّباب ينظرون إليّ مُشفقين ، وأنا لا أكاد أستطيع أن أتبيّنهم ، أو أتبيّن مواقعهم ، بَدَوْا كالأشباح الّتي تتراءى في الظّلام ، وبدوتُ مثل عجوزٍ هَرِم ، أمشي مقوّس الظّهر ، أربط بيديّ على قلبي ، وأتأوّه تأوّه المَفجوع . . . في اللّيل جاءني الخلاص أو العذاب لا أدري ، هبط اللّيل في ذلك اليوم غرابًا ناعبًا عند النّافذة ، سكن جناحاه إلى

جسده القبيح ، وانتقاني بعينيه الثّاقبتين دون الآخرين ، وظلّ يحدّق فيّ كأنّني أخوه ، وكأنّه يستعدّ لقتلي ، أو مواراة سوءتي ، وظلّ شعاع عينيه يخترم جسدي ، حتّى بدأتْ يداي بالارتجاف ، ثمّ تبِعَتْهما رجلاي ، ثمّ استحوذت الرّجفةُ على فؤادي ، وغدوتُ ورقةً صفراء في قعر عاصفةٍ هوجاء ، تدور حول مركزها دون وعي . شعرتُ حينها برغبة سافرة في التّدثّر بكلّ ما تطاله يداي من أغطية ، وتكوّرت على نفسي كقنفذ ، ولففتُ جسدي بأغطيتي ، وانسحبتُ إلى داخلي . في تلك اللّيلة رجوتُ الغراب أن يقبض عنّي عينيه ، واسترحمْتُهُ أن يكفّ عن التّحديق فِيّ ، غير أنّه بدا وكأنّما فهِمَ غير ما أردْتُ ، فازداد لهيب نظراته الحادّة ، وازددتُ ارتجافًا . في تلك الليلة جرّبتُ معنى أن يغلي الرّأس ، وتبرد الأطراف ، وتمشي الأسرّة ، وتلتفّ الأبواب . وجرّبْتُ ارتشاح الجسد كلّه في بكاءٍ ذاهل ، وفي نحيب فاجع ، وحلّتْ كلّ الأوجاع ضيوفًا على جسدي ، وانتقى الصّداع منطقته الخاصّة في رأسي ، ولم ينفعني أن أضغط على طرفيه بكامل قوّتي . . . حينها استسلمتُ للغراب ، وجعلتُ من شرر عينيه وسيلتي إلى الموت ، كان الموت في تلك اللحظة ملاكًا يقف إلى جانب الغراب ، ويحاول أن يزحزحه عن النّافذة ، ويحلّ محلّه لكي يريحني من الأوجاع والهَذيان والآلام الّتي تدبّ في جسدي . . . طار الغراب قليلاً ، وظلّ الملاك يحاول الوقوف ، والغراب يغالبه ، رأيتُهما يهبِطان ويعلُوان كمقاصل هُيِئت لها أجساد كثيرة . ظلاّ يحاولان الاستحواذ على النّافذة ، وبدأت رؤيتهما تزداد غباشًا ، وهوت رموشي فوق عينيّ ، واسترخى جسدي بالكامل ، وانسللتُ كأفعى حولي ، ومال كتفي إلى اليمين قليلاً حتّى سقطتُ في بئر اللاّوعي . . .

عندما صحوتُ رأيتُ (يوسف) يقف عند رأسي ، لم أتبيّن وجهه في البداية ، أردتُ النّهوض بسرعة ، ولكنّي سرعان ما هويتُ ساقطًا على البرش ، يبدو أنّ قواي خائرة ، أسندني (يوسف) بيديه ، وقال وهو يحدّق

في عينيّ بودٌّ صاف :

- لا تخف . لقدْ اجتزتَ المرحلة!!

- . . . . .!! (ظللْتُ صامتًا كأنّني أبكم)

- ألا تدري؟!

- ماذا؟!

- لقد غبتَ عن الوعي ثلاثة أيّام!!

- مستحيل!!

- كنتَ تهذي!!

- كيفَ حدث هذا؟!

- كنتَ تصحو للحظات ، مثل ميّت من القبر ، نسقيك بعض الماء ، ثمّ تعود إلى النّوم كجثّة هامدة!!

- ألا يوجد طبيب في السّجن؟!

- يوجد!!

- ولماذا لم تأخذوني إليه؟!

- ماذا كان سيفعل؟! كان سيعطيك بعض حبوب (الرّيفانين) . أنتَ بدونها أفضل!!

- ماذا حدث بالضّبط؟!

- ألا تذكر خروف (ليث)؟!

- آه . . . تذكّرت . . . هو الّذي قضى عليّ!!

- خفنا عليكَ قليلاً . . . ولكنّنا مطمئنّون إلى قلب الشّاعر السّاكن فيك . . . لا بدّ أنّه قويّ إلى الحدّ الّذي بقي فيه نابضًا ، ولم يتوقّف!!

- كنتم تعتمدون إذًا على قلب الشّاعر؟! ألا ترون أنّه سيّدُ النّكبات . . .؟!!

- لا بأس . . . لقد انتهى الجزء الخطر!!

- يبدو أنّني صحوتُ بعد الموت!!

- ما أصعبَ أن يصحو الإنسان فيجد نفسه ميّتًا!!

- هل عاد الغراب؟!

- أيّ غراب؟! بدأنا نهذي من جديد!!

- ليس هذيانًا . . . لقد رأيته بعينيّ هاتين!!

- قُم واغسل وجهك، واستعدْ بعض نشاطك. لقد جهّزتُ لك حليبًا ساخنًا مع العسل، وقِطَعًا من الخبز الشّهيّ، والحلاوة . . . المائدة بانتظارك . . . قم هيّا . . . مرحبًا بك من جديد بيننا!!

ظلّت قضيّة انتفاضة الخبز تتفاعل في الخارج، ووجد الملك حسين بن طلال فرصةً ذهبيّة لإعادة الدّم المتخثّر في جسد الشّعب إلى التّدفّق من جديد، فبعث برسالة إلى رئيس الوزراء، وطلب منه أن تُصدِر حكومته عفوًا خاصًا عن (ليث). والإفراج عنه فورًا.

جاء الملك بنفسه إلى سجن سواقة، وحلّ ضيفًا على السّجن وإدارته قُبيل غروبِ شمسِ يوم ١٩٩٦/١١/٨م، وفاجأ طاقم السّجن بهذا. لم يكن مدير السّجن موجودًا وقتذاك، ويبدو أنّه كان في إجازة، فطلب الملك من أحد الضّبّاط أن يذهب إلى مهجعنا؛ مهجع (٦) ويُخبِر (ليث) بأنّ مدير السّجن يطلبه في الإدارة. وهذا بالفعل ما حدث، طلب الضّابط من (ليث) التّوجّه إلى مبنى الإدارة، ولم يكنْ (ليث) يعلم أنّ الملك موجود، فردّ (ليث) على الضّابط بأنّه صائم، وليس هذا هو الوقت المناسب. فعاد الضّابط إلى الملك، وأخبره بردّ (ليث)، فطلب الملك من كلّ الضّبّاط الانتظار حتّى يفرغ (ليث) من إفطاره. وبعد أن انتهى (ليث) من إفطاره جاءه الضّابط مرّة أخرى وخرج معه إلى الإدارة، وهناك تفاجأ (ليث) بوجود الملك. وسلّم عليه. وأخبره الملك بأنّه أصدر عفوًا خاصًا عنه. غير أنّ (ليث) - وهذا أمر يُحسَب له ولشهامته - رفض أن يخرج دون بقيّة زملائه من السّجناء السّياسيّين، فطمأنه الملك أنّه سوف يقوم بذلك قريبًا إن شاء الله. وبحُكم علاقة (ليث) الودودة مع أفراد قضيّة (الأفغان

الأردنيّين) ، فقد ذكرهم بالاسم ، وطلب من الملك الإفراج عنهم ، غير أنّ الملك ردّ كأنّما وُخِزَ بدبّوس قائلاً : كلّ شي ولا هذول!! فقال (ليث) له : إنّ معظمهم ليس له علاقة بالتّهم المسندة إليهم . وإنّ أجهزة المخابرات قد لفّقتْ لهم كثيرًا من القضايا ، وتزيّدت عليهم فيها!! وطلب (ليث) من الملك أن يجلس معهم ، لكي يتبيّن له شخصيًا أنّه ليس لهم لا بالعير ولا بالنّفير ، وقال له : إنّ الّذين لهم علاقة تابوا ، ويمكنك أن تُحادِثهم . لقد مضى على سجنهم أكثر من أربع سنوات!! فقال له الملك مستعجِلاً : بصير خير . . . بصير خير . . . أمّا الآن فالوالدة بانتظارك!! فطلب منه (ليث) على الأقل أن يعود إلى المهجع ، ويودّع زملاءه هناك . فقال الملك : أمّا هذه فنعم .

عاد (ليث) دامِعًا خاشِعًا ، وكان مُطرِقًا في الأرض . أخبرنا على عجلٍ ما دار بينه وبين الملك ، وودّعنا ، ووعد بأن يُتابعَ قضايانا ولا ينساها!!

وهكذا خرج (ليث) من بيننا ، بعد أنْ عاشَ دهرًا في قلوبنا ، وذاكرتنا الجميلة . كان ودودًا ، ساعدَنا وجودُه هنا في أشياء كثيرة ، ورفع عنّا بعض السّخط الّذي كان يمكن أن يحلّ بنا لولا تدخّله قبل أن يحدث . شَعَرْنا في الأيّام الأولى بعد الإفراج عنه أنّنا أيتام . تركنا أبونا في قلب الصّحراء ، وغاب في مجمرة الذّكرى الطّيّبة!!

أبت ذكراه أن تفارقنا سريعًا ، وكأنّه سمع هواجسنا ، فعاد إلينا زائرًا هذه المرّة بعد خمسة أيّام . كان ذلك صباح الأربعاء ١٣/١١/١٩٩٦م . سمح مدير السّجن له أن يدخل إلى المهجع ، ويُخاطِبنا وجاهةً . لم يكدْ يدلف إلينا ، ونهيّئ له مجلسًا يليق بعودته المَشوقة حتّى توافد إلينا عدد غفيرٌ من سجناء القضايا الأخرى ، وكلٌّ يريد عرض قضيّته عليه ، ويحمّله أوراقًا استرحاميّة ليوصلها إلى المسؤولين من أجل أن يُفرَج عنهم!!

أخبرنا (ليث) أنّه لم يكفّ طوال الطّريق عن الطّلب من الملك أن يُفرِجَ عن السّجناء السّياسيّين جميعًا . وكان الملك يردّ عليه بأنّه سيرسل

رسالة أخرى إلى رئيس الوزراء من أجل توسيع دائرة العفو!!

كانت الرّسالة الثّانية مطّاطة ، وتحتمل معاني عِدّة ، وأمّا الملك فقد فعلها - ربّما - من باب السّياسة الّتي تجعل الباب مواربًا ، فلا هو مفتوح ولا هو مُغلَق . وترك التّقدير لرئيس الوزراء ، الّذي كان يسمع أكثر لتقدير الجهات الأمنيّة لفحوى الرّسالة ، وأهداف مضمونها!!

قدّر (ليث) أنّ هذه الرّسالة الثّانية ستؤدّي إلى الإفراج عنّا ، ولكن ليس بسرعة ، وقال لنا يومها : ربّما يحتاج الأمر لشهر أو شهرين ، وبعدها ستغادرون هذا المكان إن شاء الله . والحقيقة أنّ كلّ قُطبٍ سيحاول الإفراج عن جماعته ، هناك ثلاثةٌ سينسّبون الأسماء للملك ، وهم (ليث وبسّام والكباريتي) ، والملك سيقوم بدوره بالتّوقيع على الأسماء المُنسَّبَة ، ليتمّ الإفراج عنها .

عاد (ليث) بعد جلسته الخاطفة هذه إلى الغيابِ في ممر الذّكرى . خرج كأنّه ما كان يومًا معنا . وبدأ طيفه يضمحلّ تدريجيًا . حتّى انقطعتْ عنّا أخباره في نهاية المطاف ، فكأنّه ما كان بيننا يومًا!!

سرت أخبار زيارة (ليث) لنا سريَان النّار في الهشيم ، وتسرّبت أنباء العفو إلى أدمغة كلّ السّجناء ، فخفّوا إلينا يسألوننا عن حقيقتها ، وبدأت الشّائعات تبرز تماثيلَ من الشّمع يَركُزها كلّ سجينٍ أمام (برشه) ويُمتّع نفسه بالنّظر إليها طَوال اللّيل .

لم يكتفِ السّجناء بتماثيل الشّمع هذه ، بل راوَدَتْهم الأحلام ، وخالطتْ مشاعَر التّوق إلى الحرّيّة قلوبهم أجمعين . أمّا أنا فكنتَ واحدًا من هؤلاء ، تباغتني الأحلام وأنا عنها منصرف ، غير أنّها تراودني عن فكرة الخروج ، فأصرخ في وجهي حين أضيق بملازمتها لي : وهل أنا محتاجٌ إلى العفو؟!

العفو . . .؟!!!! العفو عَمّ ، عن خطاياي الّتي ما ارتكبْتُها؟!! عن أشعاري الّتي لم تُرِد أن تصبح عبيدًا في قطار السّلطة؟!! عن كلماتي الّتي

لم تنكسر هامتها أمام الرّياح؟! عن مشاعري الّتي لم تتنكّب دروب الصّدق، ولم تنغمس في وحل النّفاق؟!! عمّ أطلب العفو أنا بالذّات؟!!

كم أشفقتُ على السّجناء، وعلى حواراتهم البائسة، وهم يخطّطون لعفوٍ لا يأتي. صاروا يهذون: عفو يوم ميلاد الملك... لا...لا. عفو يوم ميلاد ابنه... لا... لا. عفو بمناسبة عيد الاستقلال... لا...لا. عفو بمناسبة عيد الأضحى... عيد الفطر... عيد الشّجرة... عيد الخبز... ويستمرّ الهَذَيان المَحموم، وطائر العَفْو لم يحطّ على شُبّاك أيّ واحدٍ منّا!!!!!



إلامَ تُحَدِّقُ . . .؟!!
يا آخرَ الشُّعراءِ . . .
ويا أَوَّلَ القابضينَ عَلى الجَمْرِ
في أُمَّة نازِفَةْ
لِعَيْنَيْكَ هَذا البَريقُ الغَريبُ . . .
وَلْمَعَتُها الخاطفَةْ
لِعَيْنَيْكَ شَكُّ اليَقينِ
وَبَرْدُ اللّهيب
وَدَمْعَتُها الذّارِفَةْ
لَها دَهْشَةٌ لا تَموتُ

وَفيها انْبعاثُ الحَياة مِنَ القَبْرِ
فيها عَذاباتُها الجارِفَةْ
كَأَنَّ سُؤالاً شَفيفًا على شاطِئَيْها
يَحُومُ
كَأَنَّ نَبيًا يَتيمًا على ضِفَّتَيْها يَقُومُ
كَأَنَّكَ كُنْتَ سواكَ
ولَسْتَ هُناكَ
ولَسْتَ هُنا
ولَسْتَ مَنازِلَها الخائِفَةْ

(٩)
(وَمَا مِنّا إِلاّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ)

هدأت النّفوس . . . وعادتِ الحياة تجري في نهر الأبد ، بعد الزّوبعة الّتي خلّفهاَ (ليث) بخروجه من السّجن .

عندما أُغلِقت الغرفة الّتي بجانب السّاحة المربّعة في وجهنا ، نُقلنا إلى الغرفة المقابلة . نُقِلَ إلى هناك (عكرمة) و(عليّ) و(يوسف) ، أمّا أنا فصعدتُ إلى الغرفة الّتي فوقها مباشرة في مهجع (١٢) . كانت مهاجع السّجناء في سجن سواقة تصطفّ طوليًا على جانِبَي ممرّ طويل نسمّيه (المَرْدَوان) ؛ في الطّابق الأوّل تتوزّع المهاجع من (١ -٦) ، وفي الطّابق الثّاني من (٧-١٢) ، ويفصل بين مهجع وآخر قاطع من الشّبك الحديديّ ، يُجزِّئ المَرْدوان إلى ستّة أجزاء ، ولم يكن من مُتنفّس للسّجناء إلاّ المساحة الفاصلة بين شبك مهجع ما وشبك المهجع الّذي يُجاوِره ، وهي مساحة لا تزيد عن خمسة أمتار أو ستّة .

في مهجع (١٢) وفي الغرفتين المُتقابِلتين ، يقبع سجناء حزب التّحرير ، كانوا حوالي عشرة سجناء ، ووفدتُ عليهم ضيفًا لتشابهنا في القضيّة الّتي اتُّهِمنا بها ، وهي : (إطالة اللّسان)!! عندما وصلْتُ إليهم رحّب بي أمير المهجع (رائد) ، كان ذا لحية طويلة في نهاية الثّلاثينات من العمر ، صوته قويّ وحادّ ودافئ ، وبسمته لا تكاد تفارق وجهه ، ويميل جذعُه الأعلى عندما يمشي إلى اليمين قليلاً ، فيبدو وكأنّه يتبختر في مشيته ، أو كأنّه يؤدّي رَقْصةً من نوع ما . وكان (عطا) مسؤول حزب التّحرير في الأردنّ أحد هؤلاء العشرة المساجين ، رجلٌ مهيب وَقور ، في

الخمسينات من عمره ، أشيب الرّأس ، قليل الكلام ، وَدود ، وذو عينين زرقاويْن ، ولحيته البيضاء ترتسم على وجهه باعتدال . ويحظى بإجلالٍ طاغ من قِبَل سجناء حزبه ، فيتسابقون إلى خدمته ، والقيام بشؤونه ، والاستماع إلى كلّ همسةٍ صادرةٍ منه!! كيفَ لا وهو زعيم حزب التّحرير ليس على هؤلاء العشرة فحسب ، بل على كلّ مَنْ ينتسب إلى هذا الحزب في شتّى أنحاء الأردنّ وربّما في فلسطين ، وربّما يُصبح - يومًا - الزّعيم الأوّل له على مستوى العالَم أجمع!!

جهّز (رائد) لي بَرْشًا متميّزًا . ولتقدير حزب التّحرير لِمَنْ يُسجَنون على هذه القضيّة ، ولسماعهم بموقفي وقصائدي ، فقد اختار أمير المهجع (رائد) أن يكون هذا البرش المتميّز في تجهيزاته من فرشةٍ نظيفةٍ جديدة ، ومن أغطيةٍ وفيرةٍ كافية ، متميّزًا كذلك في موقعه الجُغرافيّ . . . وهكذا أصبح بَرْشي إلى جانب مسؤول حزب التّحرير : الشّيخ (عطا) .

كان (عطا) رجلاً تتمثّل فيه أفكار حزب التّحرير واقعًا عمليًا . وأهمّ فكرةٍ محوريّة يعمل الحزب عليها ، هي دولة الخلافة ؛ إذ إنّهم ربطوا كلّ ما يقومون به ، وما يسعَون من أجله ، وما يتحمّلونه من عنت في سبيل تحقيق هذا الهدف الأسمى ، وهو : إقامة الخلافة الإسلاميّة على وجه الأرض . أمّا كيف؟ وأين؟ ومتى؟ وما هي الوسائل؟! وما الفترة الزّمنيّة اللاّزمة لذلك؟! فقد كانت أسئلةً لا تُعجِز أيّ فردٍ مُنتمٍ إلى هذا الحزب من الإجابة!!

كم كان يتردّد على ألسنتهم ، في كلّ نقاش يدخلون فيه ، قول الله تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ . كانوا مطمئنّين إلى أنّ وعد الله في هذه الآية سيتحقّق ، ويُردفونها بآية أخرى : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذينَ لا يُوْقِنُونَ﴾ .

كان (عطا) يُعطِي في الأسبوع ثلاثة دروسٍ في التّفسير ، وثلاثة دروسٍ في اللّغـة . وهكذا توزّع أسبوع سجناء حزبِ التّحرير إلى يومين : يوم للتّفسير والّذي يليه للّغة . وكان (عطا) لعلمه بأنّني شاعرٌ يحثّني أكثر من غيري من أتباعه على حضور هذه الدّروس ، والتّفاعل معها ، ومتابعة علومها . وهذا ما كان . ولا زلتُ إلى اليوم أذكر تفسيره قولَ الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكتابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيْلِهِ . وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُوْلُو الأَلْبابِ﴾ وقد توقّف الشّيخ طويلاً عند (الواو) في : (والرّاسخون) هل هي (واو) العطف أم (واو) الاستئناف . ومع أنّ القضيّة قد نوقشت من قِبَل المُفسّرين واللّغويّين القدامى ، غير أنّ شيخنا أسهبَ في عَرْض الآراء ، ثمّ ذهب في رأيه بخلاف رأي الإجماع . أمّا رأي الكثرة الكاثرة من المفسّرين فتقول إنّ (الواو) هي (واو) الاستئناف ، وتصبح الآية على النّحو الآتي : (وما يعلم تأويله إلاّ الله . والرّاسخون في العلم يقولون آمنّا به كُلٌّ مِن عنْدِ رَبِّنا) إذ في هذا الرّأي ، يكون الله وحده هو الّذي يعلم تأويل القرآن إذْ هو قائله وهو أعلم بما يقول ، وهو ربّ العالَمين ، وخالق كلّ شيء ، وتكونُ الواو هنا للاستئناف ؛ أي استئناف كلام جديد لا علاقة له بما قبله ، وبذلك تكون كلمة (الرّاسخون) مبتدأ وخبرها جملة (يقولون) . هذا الرأي الّذي عليه جمهرة العلماء لم يُعجِب الشّيخ (عطا) كثيرًا ، بل رأى أنّ (الواو) هنا للعطف ، وتصبح الآية على النّحو الآتي : (وما يعلم تأويله إلاّ الله والرّاسخون في العلم . يقولون آمنّا به) فيكون هنا (الله والرّاسخون في العلم) هما اللّذين يعلمان مراد الله من الآيات وتأويلها . وحجّة الشّيخ في ذلك أنّ الله يهب العلماء الصّادقين هذا العِلم ، ويُشرِكهم معه فيه كي يكونوا رُسُلَه بعد الرّسل في تبليغ آياته ومقاصدها إلى النّاس . وأمّا جملة (يقولون) فيكون محلّها النّصب على الحال .

كـان التّـلامـذة والمُريدون من حـزب التّـحـرير ، يُمـسكون بين أيديهم المصاحف والدّفـاتر ، ويسجّلون خلف الشّيخ ما يفتح الله به عليه . ورأيتُ بنفسي وبخطّ يد الشّيخ ثلاثة دفاتر مملوءة من تفسير سورة البقرة ، وكـانت الدّفـاتر تتنقّل بين أيدي الشّبـاب من حزب التّحـرير كـأنّهـا كنوزٌ ثمـينة ، يُحافِظون عليها من التّلف والضّياع ، ويكاد أحدهم يضمّـها إلى صدره أو قلبه وهو يقرأ فيها ، وللأمانة فقد كنتُ أرى الشّيخ فيها مُجتهدًا جريئًا في تفسير الآيات وما يصدر عنها من أحكام ، وكانت هذه الكُرّاسات لها من الألق الغامض ما لها حتّى وجدتْ سبيلها إلى الأيدي تتناقلها كما يتناقل الصّائغ الجواهر واللآلِىء . كان الشّيخ قد بدأ في السّجن تأليف كتابٍ في تفسير القرآن ، وأنجز منه هذه الدّفاتر الثّلاثة ، وكـان - حينهـا - لا يزال مستمرًا في مشروعه هذا . ولا أدري اليوم هل أتمّ تفسير القرآن ، أم أنّ انشغاله بقيادة حزب التّحرير حالت بينه وبين ذلك!!

أمّا دروس اللّغة ، فما زلتُ أذكر حين حضرتُ درسًا شرح فيه الشّيخ المجاز وعلاقاته ، وممّا قال . قوله تعالى : (أنزلَ مِنَ السّماء ماءً فسالتْ أوديةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رابِيًا) . نحن لا نقول : سالت الأودية . بل نقول : سال الماء في الأودية . وهذا مجاز . أمّا علاقته فهي علاقة الأودية بالماء ؛ إذ إنّها محلّ الماء . فيصبح اللّون البديعيّ في الآية : مجاز مُرسَل علاقته المحلّيّة .

وكان الشّيخ يُعطِي للمجموعة واجبًا عليهم تحضيره للمرّة القادمة ، كان مثلاً ، يقول لهم : أريد أن تأتوني بخمس علاقات للمجاز في سورة (آل عمران) . أو يقول : أريد أن تستخرجوا النّواسخ بأنواعها من سورة (الفرقان) وتحدّدوا أخبارها وعلى أيّ هيئة جاءت . وكانت دروسه تلقى من أفراد حزبه تجاوبًا إلى حدٍّ بعيد ، وفيهم الكبير والصّغير ، والمتعلّم وسواه ، والطّبيب والأستاذ . . .

كان التّعاون ، وإطاعة الأمير ، والإشارة عليه ، سمات ظاهرةٍ عِشْتُها

بين أفراد هذه المجموعة . وكانوا جُرَآء في الطّرح . ولا زلت أذكر أنّ أحدهم احتدّ في النّقاش مع أحد الضبّاط ، ولم يملك فلَتاتِ لسانه على القيادة في البلد . فسارع الضّابط إلى تقديم شكوى رسميّة فيه . وعُقدَت له مُحاكمة في محكمة أمن الدّولة ، وقضت عليه بالسّجن لنصف سنة ، أُضيفت إلى (السّنتين) اللّتين كان محكومًا بهما سابقًا . وهكذا صدر عليه حُكمٌ بالسّجن وهو مَسجون!! وكم رأيته يتلقّى بعض اللّوم من السّجناء السّياسيّين الآخرين ، ويتشفّون بما حصل معه ، قائلين له : (خلّيك . . . هيك يعني أحسن . . . ما قدرتْ تِمْسك لسانك ثانية واحدة . . . إنتا وجماعتك بسْ شاطْرين بالحكي . . .) فيردّ عليهم لومهم بلوم أشدّ ، حين يرميهم هم بالجُبن ، والخَور . وأنّهم خائفون من ظلّهم . وأنّهم ليسوا بمستوى أن يجهروا بكلمة الحقّ ، والتّحمّل في سبيلها . وكان يردّد على مسامعهم مؤنّبًا : الحقّ بدّو رجال . . . ومش كلّ النّاس رجال!!

كان حزب التّحرير - ولا يزال - يؤمن بأنّ التغيير التّدريجيّ مَضيعة للجهد ، وأنّه يجب أن يبدأ برأس الهرم لا بالقاعدة ؛ عليك أن تفصل رأس الحية أوّلاً عن جسدها لتنتهي من شرّها إلى الأبد . أمّا الوسيلة ، فيمكن الاستعانة بمن يُوثَق بهم من ضُبّاط الجيش للقيام - مثلاً - بانقلاب عسكريّ . ومع أنّهم لا يؤمنون باستخدام القوّة في الإطاحة بالأنظمة إلاّ أنّهم يسوّغون الاستعانة بالآخرين ، لتنفيذ مثل هذه التّغييرات الّتي لا بدّ من القوّة لإحداثها!!

كان (عكرمة) كثيرًا ما يحلو له النّقاش معهم ، وإذا لم يجدْ أحدًا منهم يستمع إليه ، كان يأوي إليّ فيُصدِّعُ رأسي - على عادته - بنقاشي حول أفكارهم ، كان يقول لي : مشكلة حزب التّحرير أنّه نمطيّ ، يريد أن يطبّق سياسةً كانت صالحة لعهدٍ أو عصرٍ ما على عصرنا . هم أصحاب قوالب جاهزة . وكان يُمسكُ بيده كأسًا ويقول : هم يريدون أن يدسّوا هذه الكأس في عنق الزّجاجة!! هم لا يريدون أن يفهموا أنّ (١٣) عامًا في مكّة

زمن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ليست (١٣) عامًا في القدس أو في عمّان أو في بيروت ، ولا حتّى (١٠٠) عام يا أخي!!

لم يحمل حزب التّحرير البندقيّة ، ولم يسوّغ الحركاتِ الّتي تحملها . ومن الطّريف أنّ مؤسّسه الأوّل الشّيخ (تقيّ الدّين النّبهانيّ) كان واحدًا من الّذين حملوا السّلاح في وجه الاحتلال ، أيّام كان مُدرِّسًا لمادّة الدّين ، وكان يوجّه طلاّبه للتدّريب على السّلاح في مدرسة الاستقلال بحيفا!!

كان الشّيخ (عطا) بسيطًا في غير ابتذال ، متواضعًا في غير امّحاء . وكان يحرص - لأسباب صحّيّة ربّما - أن يحتفظ تحت بَرْشه ببعض (الخِيار) ، وكم رأيته يمدّ يده ، ويتناول حبّتين أو ثلاثًا ، فيمسحها بيده ، ويمدّ بإحداها إليّ داعيًا إيّاي مشاركته في وليمته (الخياريّة)!!

قضتْ عجلةُ الأيّام أنْ تُطوّف بي بين القضايا بأطيافها كافّة . كان ذلك التّطواف قَلَمًا ينقش في صخر تجربتي خطوطًا ستعيش معي بعد ذلك زمنًا طويلاً!! كنتُ أحد الّذين استطاعوا أن يقرؤوا الوجوه قبل أن يقرؤوا الكتب ، ويفهموا القلوب قبل أن يفهموا السّطور . حقًّا إنّها لأيّام عَذْبة ، أنّى لمائها بعد أن جفّ أن يعود!!!

بعد حوالي عشرة أيّام أمضيتُها في حضرة حزب التّحرير ، نُقلتُ إلى مهجع (٦) مرّة ثانية ، وهناك تعرّفت عن كثب إلى بعض الأصدقاء الجُدد إضافة إلى المحاربين القُدامى .

ظلّت الغرفة الأثيرة القديمة في المهجع (٦) مُغلَقة ، وبقيت الغرفتان الأخريان مفتوحتَيْن ، وأنا أُلحِقتُ بالغرفة الّتي فيها شباب (ألغام عجلون) (عليّ) و(عكرمة) و(يوسف) ، وكان معهم (بكر) و(سالم) و(أحمد) و . . .

أمّا الغرفة المقابلة فضمّت (جهاد) و(زكريّا) و(محمّد) و(طارق) و(خليل) و . . .

حدّثتُكم عن ألغام عجلون ، أمّا القضيّة الأخرى الّتي كانت معنا في

الغرفة نفسها فقضيّة الموجب . وهي قضيّة ذات تشابكات عديدة ، وليس من المفيد سرد تفاصيلها ، غيرَ أنّها تتلخّص في مجموعة من منتسبي (سلاح الجوّ الأردنيّ) ، كانت تجمعهم علاقةٌ وطيدة ، اتُّفِقَ على أنّ يقوم (محمّد) لخبرته الفنّيّة بتصنيع قنبلة ، لاستخدامها في تفجير باص سيّاح يهود يُتَوقَّع أن يمرّ باستراحة (الموجب) في الجنوب!!

يتمتّع (محمّد) بذكاء من نوعٍ خاصّ ، أهَّلَه إلى أن يبحث بنفسه عن طريقة صنع المتفجّرات ، دون أن يلجأ إلى خبير في هذا الأمر . واستعان في ذلك ببعض الكتب الّتي تشرح العمليّة . وقد لجأ في إحدى المرّات إلى مكتبة جامعة اليرموك في مدينة إربد شمال الأردنّ ، باحثًا عن كتبٍ تُشبعُ نهمه إلى اكتشاف قنبلة ذات مفعولٍ تفجيريٍّ قويّ ، ويبدو أنّه ظفر بما أراد .

صمّم (محمّد) على أن يصنع قنبلةً تحمل بصمته هو ، تُغطّي في تشظّيها أكبر مساحة مُمكِنة ، وتقتل في طريقها أكبر عدد مُستَهدَف!! كان لا يستثني أيّ شيءٍ يُمكن أن يُساعده في تحقيق هدفه ، سواء أكان ذلك من البنزين أو الموادّ شديدة الاشتعال ، أو الأحماض ، أو المواد الكيماويّة ، أو المسامير ، أو غيرها . . .

نجح في تجربته الأولى ، وَضَعَ القنبلة بعيدًا عنه حوالي مئة متر في أرض خلاء ، ووقّتها لتنفجر بعد ثوانٍ ، وعندما انفجرت أحدثتْ دويًا بسيطًا ، لم يُقنعه المستوى ، وإن أعجبتْه التّجربة ، فقد كان نجاحًا مبدئيًا . . . ظلّ يطوّر القنابل الّتي يصنعها ، ويضيف إليها مِيزاتٍ في كلّ مرّة ، حتّى اطمأنّت نفسه إلى القنبلة بشكلها الأخير . . . كاد دويّ انفجارها هذه المرّة أن يفضحه ، ويكشفه بالرّغم من أنّه لم يكنْ في المكان غيره وغير قنبلته . . . طار قلبُه فرحًا ، وشعر بزهوٍ خَشِن ، وداخَلَتْه كِبرياءُ حارّة ؛ بعد أكثر من ستّة أشهر من المحاولات والنّجاح والفشل ، وصل إلى ما يريد في النّهاية ؛ قنبلة قادرة على أن تُنهي حياة كلّ مَنْ على متن

الباص حتّى ولو كانوا خمسين شخصًا!!

كانت صحبة (محمّد) في سلاح الجوّ، مُغلَقة إلى حدٍّ ما، معه (بكر) و(حسين) و(ماجِد)، وربّما جمعتْهُم أفكار دينيّة عاديّة لا تصل إلى حدّ المقاومة باستخدام المتفجّرات، وربّما جمعتْهم رِحلة عمرة إلى الدّيار المقدّسة ذات مرّة!! غير أنّ (محمّدًا) صارح بعض زملائه، بأنّه ينوي أن يقوم بتفجير باص سيّاح يهود، وأنّ أحسن منطقة لذلك هي استراحة (الموجب)!!

في تقديري أنّ الدّول الّتي تلعب بعواطف شعوبها، تدفع هذه الشّعوب إلى البحث عن طرق أخرى من أجل مقاومة مشروعها الاستسلاميّ. ففي حالة الأردنّ صنعتْ عمليّةُ السّلام المشؤومة مع العدوّ الصّهيونيّ عام ١٩٩٤م حالةً من الغضب والحزن معًا لدى قطاع كبير من الشّباب، خاصّةً أنّ قسمًا منهم تربّى على أنّ اليهود سفّاحون، قتَلة أنبياء، اغتصبوا بلادنا، واستباحوا مُقدّساتنا، وأنّ جِهادهم واجبٌ إن لم يكن فرضَ عين، وأنّ مدّ يد الصّلح إليهم يُعدّ خيانةً عُظمى . . . بعد كلّ هذه المعاني الّتي انطبعتْ في أذهان عدد من الشّباب، ورَسَخَتْ في عقولهم، تأتي معاهدة (وادي عربة) لتقول إنّ اليهود أبناء عمّنا، وأنّه يُمكن الدّخول معهم في حالة سلام أبديّة!! أمران لا يلتقيان البتّة، كأنّك تقول : إنّ نابِ الأفعى غير سامّ، وإنّ الذّئب حيوان غير مُفترِس، وإنّ القرد أجمل خلقةً من الإنسان!! شكّلت المعاهدة الّتي وقّعها رئيس الحكومة آنذاك (عبد السّلام المجالي) أحد أبناء عشائر الجنوب المعروفة، ليقول الملك لكلّ المعترضين على سياسته السّلميّة، إنّني لستُ وحدي في هذا المضمار، إنّ أبناء الأردنّ هم مَنْ صنعوا معي هذا (المَجد)، وإذا أراد التّاريخ أن يُحاسِبنا فليحاسِبْهم قبل أن يُحاسِبني . أقول : شكّلت هذه المعاهدة صدمةً قاسية على مستويات عديدة لكثير من الشّباب وولّدت لديهم دافعًا قويًا للتّفكير بالجهاد عبر وسائل متنوّعة، كعبور الحدود، وحمل السّلاح،

وصنع المتفجّرات ، وغيرها . . .

يصدق مثل هذا الكلام على (محمّد) وزملائه . احتاج صاحبنا لتنفيذ عمليّته شخصًا استشهاديًا ؛ بمعنى أنّه حين يقوم بتنفيذ عمليّته سيكون أحد القتلى في تلك العمليّة . طُرِحَ الأمر للتّداول ، وأشير من بعض الصُّحبة إلى أنّ هناك شخصًا يُدعى (سالم) مستعدٌّ للقيام بعملٍ مُشابه . اتّصل (محمّد) به واجتمع معه ، كان (سالم) قبل عام من هذا الاجتماع يعمل شرطيًا ، وأحد أفراد منتسبي الأمن العامّ ، ولأنّه كان كذلك ، فلديه لباس الشّرطيّ كاملاً ، وهذا اللّباس سيكون أحد أدوات تنفيذ العمليّة . أبلغه (محمّد) بالخطّة وتفاصيلها على النّحو الآتي : عليك أن تلبس لباس الأمن العامّ ، وتبدو كشرطيّ يقوم بواجبه . وتُخفي القنلبة حول حِزام الوسط . وتنتظر الباص حتّى يستقر في تمام السّاعة (. . .) عند الاستراحة ، فتصعد إليه ، وتتظاهر بأنّك تقوم بالاطمئنان على السّائحين ، وتبقى فيه حين يصعد إليه الرّكاب ويستعدّون للمغادرة ، وحين يُصبح بعيدًا عن مكان الاستراحة ، وتجمّع النّاس ، وتتأكّد أنّك وحدك معهم تقوم بتفجير القنبلة ، فتُستَشهد أنت ، ويُقضى على هؤلاء الملاعين . الجزء الأهمّ في كلّ هذه الخطّة ألاّ يتعدّى الأمرُ سواك ، وأن يبقى هذا الأمر في غاية السّرّيّة والكتمان ، وإذا شعرتَ بالضّعف للحظة ، وأردتَ البوح بالأمر لشخص آخر فألَغِ العمليّة برمّتها!!

في ليلة التّنفيذ ، بدأ الخوف يتسرّب إلى فؤاد (سالم) ، وصار القلق يحفر في صدره أخاديد لم يقوَ على رَدْمها وحده ، فاحتاج إلى صديقٍ يُساعده في تسكين ثائرته الّتي لا تهدأ ، فأسرّ بأمر العمليّة إلى أحد رفقائه المُقرّبين وهو (أحمد) ، فأخذت الحميّة صاحبنا الأخير ، وقرّر أن يكون شريكه في العمليّة ، وبذلك خالفا تعليمات المُخطِّط الأوّل (محمّد) ، بالإضافة إلى أنّهم قاموا بتعديل بعض الفقرات ، فقرّروا أن يتزوّد كلّ منهم بمسدّس للدّفاع عن نفسه . وأين يدافع عن نفسه؟!! والخطّة تقتضي أن

يقضي على نفسه مَعْ مَنْ في الباص . وهكذا بدأ مسار العمليّة يتّجه دون بوصلة . في استراحة الموجب وفي الوقت المُحدّد ، شكّ أحد الشّرطة الحقيقيّين بسالم ورفيقه ، وخاصّة أنّ (سالم) لم يكن يلبس لباس الأمن العامّ ، وحين حدث بينهما احتكاك بسيط ، بدأ إطلاق النّار من جهة الشّرطيّ ، وركض (سالم) و(أحمد) . . . وأصابت إحدى طلقات الشّرطيّ أحدَ السّيّاح ، ولم يكونوا - فيما يبدو - يهودًا ، بل كانوا أجانب . وكانت الطّلقة الّتي خرجت من مسدّس الشّرطيّ قد أثبتت في محاضر التّحقيق فيما بعد على أنّها من فوهة مسدّس (سالم) الّذي ضُبِطَ في العمليّة . . . وهكذا انهارت العمليّة في أقلّ من نصف ساعة ، وفشلتْ فشلاً ذريعًا ، وألقي القبض على (سالم) و(أحمد) وبدأ التّحقيق معهما في زنازين المخابرات ، وعُذّبا حتّى يعترفا على بقيّة أفراد الخليّة ، وهكذا سِيق إلى التّحقيق (محمّد) الرّأس المُدبِّر ، و(بكر) و(حُسين) و (ماجِد) . . .

كان (سالم) في العشرينات ، قصيرًا ، أسمر الوجه ، عريض الجَبهة ، فاحم اللّحية طويلها ، عيناه ضيّقتان فيهما من بحر العسل مَشابه ، لا يتحدّث إلاّ ويُمسِّدُ على لحيته ، كثيرًا ما كان يخلو بنفسه ، أقصتْه حالاتُ العزلة والخلوة بنفسه عنّا كثيرًا من الوقت!! لم يكنْ وحده الّذي حاول أن يصنع عالَمه الخاصّ به ؛ مَنْ فينا الّذي لم يمرّ بحالات كهذه؟!!

جمعتْني به علاقةٌ طيّبة ، كان يحبّ الشّعر ، كم حَفِظَ من أبياتي الّتي كتبْتُها هناك ما راق لَه . وقد أهديتُه إحدى قصائدي .

أمّا (أحمد) فكان أطول من صاحبه ، نحيلاً ، صوته رنّان ، وضحكته مُجلجلة ، كان هادئًا ، عَدَّ السّجن جزءًا طبيعيًا من حياته ، تعلّمتُ منه البَسْطة في الحديث مع الآخرين وخِدمتَهم ، دون الخوض فيما يخصّهم ، نظّارته ذات الإطار الأسود فعَلَت الأعاجيب في عينيه فَبَدَتا ضيّقتين صغيرتين ، تُشبهان خُرم الإبرة . لم يكن يعرف النّكدُ والهمّ إلى قلبه سبيلاً ، قلبه أبيض مع أنّ بشرته بنّيّة . لهجته الجنوبيّة لازَمَتْه طوال

الوقت، فبدا على سجيّته من غير رتوش.

كم أحببْتُهما، كانا رفيقين رائعين!!

مدّ طائر الرّتابة جناحيه على مهجعنا، وأخذت الأيّام تتواثَبُ في دَوَرانها، وأصبحت رمزيّة الأرقام في أوقات العدّ تنهش خواصرنا، وتنكت نقطة سوداء في القلب، وصرنا في عينِ دوّامة الزّمن!! لا زلتُ أذكر هيئة (سالم) في برشه ذي الطّابق الثّاني، كان يتّخذ مكانًا له في الزّاوية القصيّة عن باب الغرفة، يجلس راكزًا ظهره إلى الحائط، وجامعًا رجليه إلى صدره، ومُمسِكًا بالمصحف يتلو في خشوع طاغ، ويغيب في سُبُحاته عمّن حوله، كان يستمرّ ساعاتٍ على هذه الهيئة حتّى يُخيَّل إليّ أنّه تمثالٌ نُصِبَ في تلك الزّاوية لا يملك قدرة على تغيير أركانه!! كان القرآن يفعل ذلك، ومَنْ غيرُ القرآن له ذلك التّأثير، وتلك القدرة السّحريّة؟!! كان قادرًا على أن يجعل الإنسان يفنى عن ذاته، ويذوب في جمالِه الأخّاذ على المستويات كافّة. كان التّرنّم بالآيات وحده كفيلاً بأن يذهل المرء عن كلّ شيءٍ في الحياة، ويستمتع بالإيقاع الّذي يجذب الجوارح والعواطف إليه كما تجذب النّار الفراشات وهي حائمة. كنّا حُوّمًا حول فناء الذّات، وكنّا نستمتع بهذا العذاب العَذب!!

كان مهجعنا يحتلّ الطّرف الأقصى من السّجن، وأمامه ذلك الجزء من المردوان الّذي لا يزيد عن ستّة أمتار في أربعة أو خمسة ,وكنتُ أصنع من هذه السّاحة الصّغيرة عالَمي الفسيح، كنتُ أذرعها بخطوات سريعة ومتتابعة لساعة أو ساعات، أظلّ أسير وأسير، أصل الطّرف بالطّرف والزّاوية بالزّاوية، في مشي سريع لطَيْف الرّوح المُتعَبة. كنتُ أفعل ذلك من أجل القضاء على سُمنتّي الّتي رافقتْني كلّ حياتي قبل مجيئي إلى هنا. حينَ أُغلقت السّاحة الكبيرة نسبيًا الجاثمة بجانب غرفتنا الأولى، لم يعد كافيًا بالنّسبة لي خروجي إلى ملعب السّجن مرّة أو مرّتين في الأسبوع لمزاولة الرّياضة، إذ كان برنامجي لإنزال وزني والتّخلّص من

الشّحوم المتراكمة يتطلّب جهودًا إضافيّة ، وذلك ما جعلني ألوذ بهذه السّاحة الصّغيرة الّتي هي بحجم غرفة واسعة نوعًا ما ، لكي أمارس رياضتي . . . في هذا المكان مشيت يوميًا لساعات وساعات ، حتّى أصابني وجعٌ في الظّهر لكثرة المشي لازمني فترةً طويلةً من حياتي هنا . كنتُ أشجّع نفسي رغم الآلام ، ورغم قلّة الشّركاء في هذا الهمّ ، عن طريق الأشعار والكلمات الّتي كنتُ أهزج بها ، وأصدح بإيقاعاتها ، وأترنّم بمعانيها بصوت عالٍ ، وكم راجعتُ كثيرًا من سُوَر القرآن وأنا أذرع تلك المساحة . وفي إحدى زوايا هذه السّاحة الصّغيرة كثيرًا ما كنتُ أسمّع لـ (طارق) آياتٍ وسورًا من القرآن الكريم على القراءات العشر . كان (طارق) وهو من سجناء حزب التّحرير قد أتمّ حفظ القرآن وتثبيته هنا في السّجن ، وقد تناوب على التّسميع له بقراءة حفص زملاء آخرون قبل فترة سجني ، أمّا أنا فقد سمّعتُ له عددًا من السّور وأجزاء من القرآن على القراءات العشر . كان لديه مُصحف تُكتَب فيه القراءات من غير قراءة حفص على الهامش ، فيقرأ هو بالقراءة المتواترة ، وحينَ تأتي كلمةٌ تُقرَأ على قراءة أخرى ، يعيدُها بالقراءة الجديدة ، ويذكر اسم القارئ الّذي قرأ بها ، وقد تكون للكلمة الواحدة قراءتان أو ثلاث ، فيعيد الكلمة على وجوهها الثّلاثة . كم كنتُ أغبطه على هذه الحافظة القويّة ، وعلى ذكائه اللّمّاع!!

مِن الّذين قضيتُ معهم زمني الّذي يقع خارج الزّمن هنا ، زميل يُدعَى (ماجدًا) كان نحيلاً طويلاً ، هادئًا ، أغلب دهره صامتًا ، إذا حادثْتَه انتزعتَ منه الكلام انتزاعًا ، وإذا قُدِّر أن يتكلّم ، فلا تكاد تسمعه لصوته الخفيض . كان كلامه يبدو همسًا!! عيناه عسليّتان واسِعتان . ولم يكن يرغب في أن يُشاركنا في أيّ أمرٍ كان ، حتّى في خروجنا إلى ملعب السّجن الّذي كان يُعَدّ بالنّسبة لنا هديّة إلهيّة ، كان يفضّل هو في كثيرٍ من الأحايين أن يبقى في المهجع وحيدًا . ويبدو أنّه كان يحمل في قلبه غضاضةً وكرهًا ، أو قل لومًا لكثيرٍ من أفراد قضيّته ، وكان قارًا في ذهنه -

فيما يبدو - أنّهم هم الّذين ورّطوه في هذا الأمر، ولم يكن له به علاقة، وأنّ حياته ومستقبله قد دُمِّرا بسبب ذلك، فقدْ فقدَ وظيفته كمنتسبٍ إلى سلاح الجوّ، وفقدَ شطرًا من حياته كقابع في هذا السّجن!!

بدأ كرشي يتهاوَى بالفعل أمام ضَربات الرّياضة اليوميّة الّتي أمارِسُها، أضفتُ نوعًا جديدًا غير المشي المجنون الّذي كان يحتلّ ساعتين إلى ثلاث من عمر كلّ يوم. هذا النّوع الجديد هو تمارين المعدة، كثيرًا ما كنتُ أقومُ بها بعد منتصف اللّيل، حين يأوي الجميع إلى النّوم، ويغطّون فيه، كنتُ أستلقي على ظهري، وأركز رجليّ إلى قاعدة أحد الأسرّة (الأبراش) وأضع يديّ خلفَ عنقي ثم أنهض معتدلاً، وحين أستوي جالسًا أرجع فأستلقي، وأكرّر هذه العمليّة في اللّيلة حوالي (خمسمئة) مرّة!! كان بالفعل جنونًا، وكان بالفعل سباقًا نحو التّخلّص من كلّ الشّحوم عندي. ولا أدري لماذا كنتُ أمارس هذه التّمارين بهذه القسوة!! هل كنتُ أنتقم من نفسي، أم من هذا الضّيف الثّقيل الّذي رافقَني طوال أكثر من عشرين عامًا ماضية، وها هو يُعاندني في الرّحيل عنّي، ويُجالدني في التّشبّث بجسدي!! لا أدري . . . غير أنّي لم أكن أرحم نفسي في ذلك.

ذات مرّة وفي حَمْأة تمارين المعدة بعد منتصف اللّيل، أخذتْني الحماسة فيما أنجزتُه حتّى تلك اللّحظة، فأخذت أعلو وأهبط بشدّة، ممّا أدّى إلى تحرّك البرش ذي الطّابقين بِمَنْ فيهما من النّائمَين، وتخيّلْ معي مدى هذه الحركة القويّة الّتي استطاعت أن تحرّك سريرَين معدنيَّين ثقيلَين، وعلى السّريرَين نائمان لا يقلّ وزن الواحد منهما عن (٨٠) كغم!! ليست المشكلة هنا؛ المشكلة أنّ هذا التّحرّك للسرير بثقلهما على أرضيّة الغرفة، أصدر صوتَ صرير مُزعِجًا، وصار هذا الصّرير يتتابع مع حركتي هبوطًا ونزولاً، ويبدو أنّ (مَاجِدًا) صبر عليّ قليلاً حتّى أنتهي من هذا الإزعاج، غير أنّي خيّبتُ أمله في ذلك، إذ إنّ (خمسمئة) تمرين للمعدة بما فيها من

استراحات بين كلّ تمرين وآخر تأخذ زمنًا طويلاً ، ولمّا لم يبقَ في قوس الصّبر منزع ، هبّ (ماجِدٌ) من سريره ، ووقف فوق رأسي ، وصاح بي للتّوقّف ، وكاد يهوي بقبضته عليّ ، لولا أنّه قدّر أن يضبط نفسه في اللّحظة الأخيرة . قمتُ من مكاني خَجِلاً ، وسارعتُ بالاعتذار منه ، فقَبِلَ اعتذراي على مَضض ، وعاد إلى نومه . . . أمّا أنا فلم أتوقّف عن تماريني ، ولكنّي بدّلتُ السّرير الّذي أركز تحت قوائمه رجليّ ، وخفّفتُ انفعالي ، واضطراب حركتي قليلاً ، واستمررتُ في رياضتي حتّى أنهيتُ العدد المطلوب لتلك اللّيلة!!

أغلب رفقائي في هذه الغرفة يصومون يوم الخميس ، وبعضهم يضمّ إليه الاثنين ، وبعضهم اتّخذ من صيام (داود) منهجًا له ؛ فكان يصوم يومًا ويُفطِرُ يومًا . وكانت متعة اللّقاء على الإفطار لا تُعادِلها متعة . وخاصّة أنّ الامتناع عن الطّعام والشّراب طيلة اليوم كان ينظّف الجسم من السّموم ، والرّوح من الأوضار ، فنلتقي عند المغرب كالطّيور الخِماص ، خفّ وزنُها وارتقتْ أرواحُها .

قرّرتُ في غمرة الجنون والهوس الّذي أُصِبْتُ به أن أصومَ ثلاثة أيّام متتابعات ، ولا أفطِر في وقت الإفطار إلاّ على علبة لبن صغيرة (١٠٠غم) مُضِيفًا إليها ربع ملعقة من الملح . واشتريتُ علب اللّبن الثّلاث ، ووضعتُها عند رأسي على برشي . في اليوم الأوّل مرّت ظِباء الوقت بطيئة ، وجاءت عصافير الجوع تنقر على جدار معدتي ، وهمّت نفسي بتناول شيءٍ ولو كان قليلاً ، فلطمْتُها على وجهها ، ووكزتُها في صدرها ، وأزحتُ شبحَ الجوع بآيات من الصّبر . . . هبطت الشّمس في بحر الأفق ، فقمتُ وصلّيتُ مع المصلّين ، وهُرِعتُ إلى إفطاري ، أذبتُ الملح في علبة اللّبن وأكلتُها بالملعقة هنيئًا مريئًا ، وهكذا عبرتُ المرحلة الأولى بعد صيام يوم كاملٍ بطعام لا يتجاوز أربع ملاعق أو خمسًا من اللّبن المُملّح . وجاءَ اليوم الثّاني ، ومَرّ بطئيًا أمام عينيّ ، وراقبتُه حتّى ودّعتْ شمسُه الأصيل ، وهُرِعتُ ثانية إلى

طعامي نفسه الّذي تناولتُه أمس ، وهنا صاح (عكرمة) بي غاضبًا : يا رجل هذا ليس روجيمًا ، هذا انتحار!! أتحاول الانتحار أمامنا؟! تركتُه وكلماته الّتي بدل أن تكون مطارقَ من حديد على رأسي ، أو مسامير مُحمّاة على مشاعري ، صارت ورودًا مُلقاة في ساحة إصراري ، وتابعتُ صيامي لليوم الثّالث بالطّريقة نفسها ، وصبرتُ حتّى اليوم الرّابع لأتناول طعام الإفطار في الصّباح ، وكان أيضًا إفطارًا بسيطًا . كان شعوري بالانتصار على ذاتي لا يوصَف!! وكان فرحي بالتّغلّب على نفسي الأمّارة بشهوة الأكل لا يُقارَن مع أيّة فرحة أخرى . . . حينَ تهزمنا أنفسُنا الضّعيفة ، وتنتصر على إرادتنا نشعر باحتقارٍ كامنٍ في خلايا الرّوح ، وحين تتبدّل الآية ، فنهزم نحنُ أنفسَنا ، وشياطينَ رغباتنا ، نشعر بزهوٍ قارّ في حدائق الذّات المُضخّمة . ونحسّ أنّنا أضفنا شتلة أقحوان فاتنة إلى رياض الرّضى عن النّفس!!

بدأت علامات الشّحوب تبدو على مُحيّاي ، هكذا قال لي غيرُ واحدٍ من الزّملاء هنا . كانوا يُلقون بهذه الكلمات في وجهي آملين أن أعدلَ عن طريقتي في إنقاص وزني ، وكلّما زادت نصائحهم لي ، واشتدّتْ مواعظهم في أُوارها ، كنتُ أزداد إصرارًا على المضيّ قُدُمًا . وكنتُ أشعر بفرحٍ خفيّ يستقرّ في حجرات قلبي!!

ترعرعتْ حدائق بهجتي ، واخضوضرتْ سماوات فرحي ، وامتدّتْ ينابيع الأمل لتملأ الدّروب الواصلة بين الجسد والرّوح أو الفاصلة بينهما . كان (بكر) – أحد مواطنينا هنا – مربوعًا ، لا بالنّحيل ولا بالسّمين ، انضمّ إلى طائفة ذوي البشرة السّمراء ، لحيته اتّجهت عرضًا ضعف ما تتّجه طولاً . ضحكته قادمة من جوف بئر ، لها صدىً مُحبّب ، ومشيته سريعة تبدو (كباحثٍ عن حبيبٍ ضلّ ثمّ هَدَى) . كان لاعبًا مُحترفًا ، قادَ فريقه في ملعب السّجن إلى الفوز في معظم المباريات التي لعبها . وكنّا نتشوّف إلى أن يضمّنا إلى فريقه حينَ يبدأ هو بانتقائه ، في مقابل (محمّد) الّذي

كان ينتقي هو بدوره فريقه معه بالتّناوب ، ولم يكنْ الثّاني بأقلّ مهارةً من الأوّل!!

أمّا (حُسين) فكان حليق الذّقن ، أصلع ، أبيض البشرة مع شُقرة خفيفة ، صوته مبحوح ، فيه خيطٌ رفيع من الحِدّة ، كان يرفع جذعه قليلاً إلى الأعلى حين يتحدّث ، ويعيده إلى مكانه حين يُنهي جملته ، لازَمتْه عبارة : (مزبوط ولاّ لأ!!) طوال فترة إقامتي معه حينَ يغرق في الحديث معي . لم يمرّ بحالةٍ من الانعزال ، والانكفاء على الذّات الّتي مرّ بها معظمُنا .

وهكذا اكتمل عِقدنا في هذه الغرفة من مهجع (٦) لم نكن أحد عشر كوكبًا ، بل كنّا تسعَ آيات : أنا و(عليّ) و(عكرمة) و(يوسف) و(بكر) و(سالم) و(أحمد) و(حُسين) و(ماجِد) . . .

كنتُ ما زلتُ حتى تلك اللحظة أتعلّم في السّجن أبجديّة الحياة . «السّجن علّمنا الحيّاة» . هجستُ بهذه العبارة غير مرّة . كانت هذه الرّفقة مجتمعي الصّغير ، ومنه انطلقت إلى إثراء تجربتي ، كنتُ حريصًا إلى أبعد حدّ أن أتعلّم كيف أبدو تلميذًا نجيبًا في مدرسة الكون . ما أصغر الكون حينَ يصغي إلى وَقْع الرّوح!!

تسير الحياة ، ونسير معها ، تتخلّى عنّا في لحظة ارتقاءٍ روحيّ ، فنغادرها ، وتبقى خلفنا تبكي على لهونا!! كم من الأوقات أضعناها في لجّ الحياة ، كأنّها سمكةٌ رميناها في البحر!! وكم من الأعمار هدرناها في صحراء الزّمن كأنّها ماء في أرضٍ بعيدةِ مهوى الغَور!! كيف يقبض الإنسان على شُعاع الحياة فلا يُفلت منه في ترّهات الأماني؟!!

بدأت أموري تستقرّ في السّجن ، بعد حوالي ستّين يومًا ، بدأت أعتاد على أنّ السّجن هو بيتي ووطني ومجتمعي ومكان عملي . ولذا صرتُ أفكّر كيف أصنع منه عالمًا سارحًا بالنّسبة لي . لم تعد الحياة النمطيّة تُقنعني ، ولم يعد مرور الأيّام الاعتياديّ يُشعرني بغير العجز . من الآن

سأكون سجينًا مُختلفًا!!

كان الاختلافُ قد بدأ سابقًا من توزيع المهامّ بيننا ، بعضُنا أُوكلتْ إليه مَهمّة شطف الغرفة ، وبعضنا جَلْي الأواني والصّحون بعد الأكل ، وبعضنا ترتيب الأسرّة ، وبعضنا إحضار الطّعام ، وبعضنا ترتيب مواعيد زيارة المكتبة أو الخروج إلى ملعب السّجن مع الضّابط المسؤول ، وأَحَدُنا إمارة الغرفة ، أو إدارتها . كان من نصيبي جلي الصّحون والأواني ، وقد وجدتُ في ذلك متعةً كبيرة . لم يكن هناك مكانٌ لِلجَلْي ، كانت هناك مغسلة أجمّع فوقها الصّحون ، ولم يكن هناك سائل للجلي ، كان باكيت (السّيرف) يقوم بالمهمّة خير قِيام . كم وقفتُ أمام المغسلة ، أفرك الصّحون وألّمعها ، ثمّ أرفعها أمام ناظريّ لأتأكّد من نظافتها التّامّة!! كان دوري - بلا شكّ - ممتعًا ؛ برز ذلك من خلال نشيدي المتواصل وارتفاع صوتي بالغناء أثناء جَلْي الصّحون . كم من الأشعار هتفتُ بها هناك!! وكم من الأهازيج صدحتْ بها حنجرتي على مذبح المغسلة!! كان وقت الجلي فرصة سانحة لكي أراجع ما حفظته جديدًا من الشّعر أو من النّثر!!

ها هو عنق التّجربة يمتدّ ليُبصر ما خلف الكوّة الملاصقة لباب العيش القهريّ . كنّا نرفو حياتنا كما يخيط الرفّاء الثّوب . واعترفْنا جميعًا أنّنا - في البداية - لم نملك خبرةً ولا دراية بكيف تُخاط الحيوات ، فلبسنا أثوابَها كيفما اتّفق ، غير أنّ الزّمن إذا كان رفيقًا مُخلصًا فسيتبرّع بتعليمك طرائق العيش دون أن تطلب منه ذلك ، أنصتْ إلى لسان الحياة تتعلّم ما لم يكن في حسبانك!! ما أخسرَ الإنسانَ إذا بقي يثرثر دون أن يُنصت!! كم من الخِبرات تضيع في عالَم الثّرثرة ، وكم من المهارات تفلت من بين أيدينا لأنّنا - فحسب - لم نتقن مهارة الإنصات . أليس الّذين استحقّوا الهاوية هم الّذين صدق فيهم قوله : ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾؟!

أَنْصِتْ إِلى القَلْبِ فِيهِ أَلْفُ مُعْجِزَةٍ . . . وَأَلْفُ أُغْنِيَةٍ زُفَّتْ لِنايات . . .
لَسْنا سِوَى مَا اسْتَفَدْنَا حِيْنَ تَمْلِكُنا أُذْنٌ الْمُصِيخِ إِلى وَقْعِ النِّداءاتِ . . . لَوْ

لَمْ تَجِدْ غَيْرَ مَنْ تُصْغِي لَهُ لَكَفَى!!! إنَّ الحَيَاةَ لَمَنْ مِنْ مَائِها اغْتَرَفَا . . .
وَلَسْتَ تَغْرِفُ إلاّ حينَ تَتْرُكُها تَسِيْلُ بَيْنَ شِعَابِ الرُّوحِ آمنةً . . . تصحو الظِّباءُ إذا قَلبُ الرّقيبِ غَفَا!!

تشكّلتْ ألوان سُكّان الغرفة المقابلة لنا من الّذين سُجِنوا على قضايا تفجير ، أو ما يُعرَف في لائحة الاتّهام في محكمة أمن الدّولة (بالأفغان الأردنيّين)!! وهذه المجموعة الأخيرة ، من أكثر المجموعات الّتي ضُيِّقَ عليها ، وقضتْ في السّجن أطول مدّة من بين القضايا جميعها!!

كان (الأفغان الأردنيّون) مجموعةً من الشّباب الّذين اتّفقوا على أن يُغيّروا المُنكَر بأيديهم ، وارتبط اسمهم بتفجير بعض السّينمات ، ولا سيّما في مدينة الزّرقاء الأردنيّة . أذكر منهم : (جهاد ، وزكريّا ، وياسين ، وعايد ، ومحمّد ، وخليل ، وآخرين) ولم يسكنوا جميعًا في الغرفة الّتي تُقابِلنا ، إذ استقرّ المقام ببعضهم عند مجموعة بيعة الإمام ، في الزاوية الأبعد من زاوية مَهْجَعِنا ، كنّا نحن في أحد الطّرفَين القَصِيَّيْن ، وكانوا هم في الطّرف الآخر .

أمّا (جهاد) فكان يميل إلى القصر ، أسمر البشرة ، عريض الجبهة ، زحف التصحّر إلى ناصيته ، جمّ العاطفة ، سريع الحركة ، قضى على رتابة أيّامه بعشقه المُبالَغ به لكرة القدم ، وتشكيل فِرَقها ، ولَعِبها في ملعب السّجن . أصابتْه - أحيانًا -كما أصابت الكثيرين هنا حالات من اليأس والقنوط ، وخيّمتْ ظلالُها على غلالة وجهه ، وبريق عينيه ، فبدا - آنذاك - كما لو كان يستيقظ من غفوةٍ في قبور النّسيان . أكثر ما كان يؤرّقه قسوة تعامل النّظام الأمنيّ في الخارج مع قضيّتهم ، والإهمال لها ، ووضعها في مصافّ القضايا الخطيرة الّتي يجب عدم التّهاون فيها ، أو التّسامح معها . ولعلّ كلمة الملك (حسين) لـ (ليث) حينَ سأله العفو عن متّهمي هذه القضيّة : (كل شي ولا هاي القضيّة) قد ذهبتْ مثلاً ، فظلّوا من بعدنا يقبعون في السّجون لمددٍ طويلة ، لم تصلها - في حدود علمي - مدد

القضايا المتبقّية كلّها!!

وجد (جهاد) في لعب كرة القدم مساحة من النّسيان ، غير أنّ السّجون الّتي تنقّل فيها لم تكنْ جميعها تملك في ساحاتها أو بين أسوارها ملعبًا ، ممّا اضطرّه في مثل هذه الحالات أن يفزَع إلى الكتابة ، ومع أنّه لم يكن قارئًا جيّدًا ، ولا مثقّفًا نوعيًا ، إلاّ أنّه غرق في بحر الكتابة ، وكان أكثر ما يدفعه إلى ذلك عاطفةٌ متّقدة ، لا تعرف نارها الخمود أبدًا . كتبَ وكتبَ وكتب . ولا أدري أين ما كتبَ اليوم ، فهو أيضًا شهادةٌ نوعيّة على عصرٍ استثنائيّ عِشناه معًا!!

بدأتْ خياراتي في الأكل تتخذ منحىً أكثر حَزْمًا ، وكنتُ إذا اتخذتُ قرارًا أموتُ ولا أتراجع عنه . قرارُ صيام الأيّام الثلاثة على (مئتي غرام) من اللّبن نُفِّذَ بحذافيره ، مع أنّ الآلام الّتي رافقتْه تكاد تبقى في الذّاكرة إلى اليوم . أمّا قراري الجديد فهو تحريم الخبز والأرزّ على نفسي!! نعم قرّرتُ منذ ١٩٩٦/١١/١٢م ألاّ أُدخِلَ إلى جوفي كِسرة خبزٍ واحدة ، ولا حبّة أرزّ واحدة . وكان قرارًا جنونيًا وصعبًا ، غير أنّ الأصعبَ منه فكان الهزيمة أمام نفسي إذا لم ألتزم بذلك . مرّت الأيّام والأسابيع ، ومن بعدها الشّهور ومعدتي صائمةٌ عن هذا النّوعِ النّشويّ من الطّعام ذي السّعرات الحراريّة العالية . ولقد نجحتُ نجاحًا تامًا . كانت حصيلة الأيّام الّتي لم يطرق جدار معدتي فيها هذا المُحرّمان هي (١٢٠) يومًا!! غيرَ أنّ الأقسى في هذه التّجربة ، هو همزات ولمزات الأصدقاء . نصّبَ كلُّ صديق معي في الغرفة نفسه مُفتيًا ، أو داعيةَ حقوق إنسان . (فأحمد) مثلاً قال لي : لا يجوز أن تحرّم ما أحلّ الله!! والخبز والأرزّ حلالان فكيف تحرّمها ولم يردْ في تحريمهما نصّ!! فأردّ عليه بقوله تعالى : ﴿كُلُّ الطَّعام كانَ حلاً لِبَنِي إِسْرائِيْلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ﴾ فتحريم الطّعام على النّفس لغاية ما واردٌ وليس بِدْعًا!! فيمضي إلى حديث أو آية أخرى أو قصّة ، دون أنّ يتراجع عن موقفه ، وتمضي الحوارات والنّقاشات على هذا

النّحو ، ولكنّني أصمد صمود الرّواسي أمام العواصف العاتية!!

كم عانيتُ وأنا أشاهد في الصّباحات الباكرة أرغفة الخبز تنزلق من وعائها إلى طبق واسع وهي تفوح برائحة زكيّة ، وتتصاعد من أطرافها أبخرة النّضج والسّخونةً الحارّة ، كنتُ أحترقً في مكاني وهي تتلوّى أمامي بكامل أنوثتها الطّاغيّة ، وشهوتي تتعاظم بكامل رجولتها الفائرة ، تريد أن تنقضّ على تلك الأرغفة الحسناء فتقضي منها وطرها . غير أنّني كنتُ أمنعها قبل الفَيَضان ، وأمسك بأبوابِ سَدِّها قبل الاندفاق!!

وكم من أطباق الأرزّ الّتي تكتسي بالبياض النّاصع ، كأنّها عَروسٌ تلبس ثوب زِفافها تمدّدت أمامي طيّعةً منقادة ، ولم أملك من أمري سوى أن أُشبعَ عينيّ من جمالها ، وأمتّع ناظريّ من جاذبيّتها ، دون أن تهوي يد الخطيئة إليها فتنهش من خاصرتها ، أو تغرف من مكنون صدرها!! صبرتُ صبرَ الرّاهب في صومعة التبتّل أربعة أشهرٍ كاملة دون أن أقع في مستنقع الرّذيلة يومًا . ما أصعب أن تكون راهبًا في ديرٍ يعجّ بالفاتنات من كلّ جنس!!

وأمّا (زكريّا) فكان فارع الطّول ، مشدود الجسم ، كثّ اللّحية طويلها ، هادئًا هدوء البحر في شمس الأصيل ، (واثِقَ الخُطْوَةِ يَمْشِي مَلَكًا . . . ظالِمَ الحُسْنِ شَهِيَّ الكِبْرِياءْ) ، وكان حافظًا ، حصل على إجازة في حفظ القرآن الكريم ، وكان إمامَنا في صلاة التّراويح في شهر رمضان المُبارَك . حليمًا وقورًا ، يسير بجانبه طيفُ المحبّة . كنتُ أحد الّذين أحبّوه وأحبّوا أسلوبه في الحديث وفي التّعامل مع الأمور الطّارئة . صبورًا لم أسمعه يومًا يشكو أو يضجر أو يتأفّف من وجوده في السّجن ، مع أنّه كان محكومًا بالإعدام ، واستمرّ ينتظر حكم الإعدام عامًا كاملاً ، حتّى خُفّف إلى المؤبّد في نهاية المطاف!!

ذات مرّة رأيته يسير في المَرْدَوان ، وقد توجّه - فيما يبدو - إلى قاطع الإدارة ، فاعترضه أحد رجال الشّرطة ، ووقف في وجهه يريد أن يمنعه من

متابعة السّير ، وبدأ الشّرطيّ يصيح بصوتٍ عالٍ ، فما كان من (زكريّا) إلا أن اقترب من الشّرطيّ مُبتسِمًا ، ووضع يدَه على كتف الشّرطيّ بهدوء وبحنان ، وبدا الشّرطيّ القصير تحت ذراع (زكريّا) ذي الطّول الفارع كرةً صغيرة في قبضة يدٍ تستحوذ عليها ، ثمّ هبط (زكريّا) بجذعه ومال إلى الشّرطيّ وطالَعه بوجهٍ مُشرق ، قائلاً له : صلّ على النّبيّ . فيبدأ الشّرطيّ يهدأ ، ولكنّه يصمتُ ، فيعطّيه زكريّا فرصة أخرى ليصلّي على النّبيّ ، قائلاً له ثانيّة : صلّ على النّبيّ يا خوي . فيصلّي الشّرطيّ ، وتضمحلّ غمامة العصبيّة عنده ، ويذوب جليد الغضب في قلبه ، وتزول سحابة التّوتّر عن وجهه . ثمّ يُقبِل عليه (زكريّا) بالحديث يُلاطفه ، ويحاوره بالمنطق ، ويختار ألفاظه اللّينة الطّيّبة لذلك ، حتى لا يجد الشّرطيّ بُدًا من إجابته إلى طلبه ، بكامل رغبته واختياره ، راضيًا غير غاضب ، وطائعًا غير مُكرَه!!

نعم! كان (زكريّا) يمتلك أسلوبًا ساحرًا في جذب النّاس إليه ، وفي إزالة الحواجز الّتي ترتفع لسببٍ ما بين النّاس ، ورَدْم الهُوّة وتقريب المسافة بين الجميع . ولعلّ كلّ ذلك كانَ مبعثه بركة القرآن الّتي حلّتْ في صدره ، فملكتْ جوارحَه ، ففاض بها في تعامله الرّقيق مع النّاس . لم أره في حياتي غاضبًا ولو مرّة واحدة . وكم كان ينأى بنفسه عن الحوارات السّاخنة ، إذا ما تأكّد أنّها ستجرّ بعض الشّحناء بين المتحاورين ، ويكتفي بالاستماع ، وقد يُدلي بدلوه بعد أن ينتهي الجميع ليبدّد سحبَ الخلاف الّتي تكون قد نشأت بعد تلك المشاحنات!!

قضيّتهم دُعيَت ، بقضيّة (الأفغان الأردنيّين) ، مع أنّ ٩٠٪ منهم لم يذهب إلى أفغانستان ، ولم يزرها في حياته ، والنّزر اليسير منهم ربّما وصلها لأيّام ، وعاد من هناك دون أن يدخل معسكرات التّدريب فيها ، ويحمل السّلاح . أمّا لماذا ألصقهم جهاز المخابرات بـ (الأفغان) فلربّما يكون ذلك لأغراض إعلاميّة أو دِعائيّة . فالمعلوم أنّ كتائب المجاهدين العرب الّتي

قاتَلَتْ إلى جانب الأفغان العدوَّ الرّوسيّ ، كان قد عاد كثيرٌ منها إلى بلاده بعد سقوط روسيا الشّيوعيّة في العام ١٩٨٩م ، وتفكّك الاتّحاد السوفيتّي ، وهزيمته في حربه على أفغانستان . إذ لم تكد الحرب تضع أوزارها هناك حتّى حمل عددٌ من المجاهدين أمتعتهم ، وغادروها إلى بلدانهم . ولكنّهم بدل أن يجدوا التّرحيب بعودتهم في بلادهم ، أو على الأقلّ السّماح لهم ببداية حياة جديدة ، شنّت عليهم حكومات بلادهم وأجهزتها الأمنيّة حملات اعتقالات وتعذيب ومضايقات شديدة ، مِمّا اضطرّ بعضهم إلى حمل السّلاح من جديد ، والعودة إلى أفغانستان ، وعلى رأس أولئك (أسامة بن لادن) أحد أشهر المقاتلين العرب في أفغانستان . ولا ننسى أن استشهاد (عبد الله عزّام) في العام ١٩٨٩م أيضًا ساهمَ في رفع الغطاء عن المجاهدين العرب وملاحقتهم ، إذ كان الشّهيد (عبد الله عزّام) رحمه الله يُعدّ الحاضنة ، والملاذ لجميع هؤلاء المُجاهدين ، وقد فقدوا بموته الكثير من الحكمة في قراراتهم ، وأخذت بوصلتهم تشير إلى كلّ اتّجاه ، وإلى لا اتّجاه .

إذًا كان القبض على مثل هؤلاء وتقديمهم للمحاكمة ، يُعدّ قربانًا تتقدّم به الأنظمة العربيّة البائسة إلى السّيّد الأمريكيّ ، ضمن شراكة استراتيجيّة ، واتّفاق أمنيّ مُتبادَل!! مع أنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة كانت قد تغاضت عن هؤلاء المُجاهدين ، وأعطت الضّوء الأخضر لبلدانهم بأن تُوفِدَهم إلى أفغانستان ، لأنّ مصلحتها تقتضي ذلك! وأيّ مصلحةٍ أكبر من أن يُحقّق لها هؤلاء المُجاهدون الغلبة على العدّو الأوّل والأكبر ؛ ألا وهي (روسيا) . أما وقد انهزمتْ روسيا أمامهم ، فقد غدوا يُشكّلون خطرًا عليها ؛ على أمريكا ، فلا بدّ من محاربتهم من جديد ، والتّخلّص من قلقهم إلى الأبد . وساعدتْها الدّول العربيّة في ذلك ، فأسدتْ خدمة جُلّى إلى أمريكا بالقبض على كثيرٍ من هؤلاء المجاهدين بعد عودتهم إلى بلدانهم ، والقضاء على وجودهم . ويصدق ذلك على كثير من الدّول ،

ومنها - بالطّبع - الأردنّ!!

توطّدت العلاقات بيني وبين سجناء الغرفتين . كنّا ما نقرب من عشرين سجينًا فيهما . وامتدّت العلاقة بي إلى خارجهما ، سمحتُ لنفسي بالتّجوال بين مهاجع السّجن كافّة ، كان عدد سجناء سجن سواقة يومها يقربون من (ألفَي) سجين ، وكنّا نحن السّياسيّين حوالي (٥٠) سجينًا متوزّعين على حوالَي ستّ قضايا .

في مهجع القتل ، رأيتُ الوجوه الكالحة والقاسية ، كان شبح القتل يخيّم على المهجع ، فبدا شاحبًا ، تفرّ منه الحياة ، وتهرب إلى خارجه . كان جافًا لا رُواء فيه ، وحينَ تقترب من أحدهم لتجالِسه وتسمع منه ، تُباغتكَ رائحةُ القتل ، تفوح من بين الأشداق ، وتنبعث من تحت الجفون الكُحليّة خانقةً مُميتة . بدا سُكّان هذا المهجع خارجَ إطار الحياة الطّبيعيّة ، اتّخذوا من البوهيميّة والعبث مساحةً يقضون فيها ما تبقّى لهم من عُمْر . كانت اللاّمبالاة سمةً غالبة مرتسمة على محيّا الوجوه!! أهو الهُزْء بالموت ، أم هو هُزْء الموتِ بهم؟!! لا أدري لِمَ يشعر المرء هنا بالانقباض؟! وتكاد تحتشد في خياله طيوف الهياكل ، وجماجم المسافرين بغير عودة؟!!

صاحبني إلى هنا (عكرمة) ، كنتُ أتوجّس أن ألجَ هذا العالَم وحدي!! وكان (عكرمة) عبثيًا لا أباليًا في كثيرٍ من أحايينه . . . بدا هازِئًا بي في تلك اللّحظة وكأنّه أحس بارتسام رجفةٍ خفيفة تحت ذقني ، وانخفاض ترقوتي وعلوّها في اضطراب واضح ، فوجد فرصته في العبث بي ، والتندّر بمشاعري!! تركْتُه يسنّ كعادته سكاكين ملاماته ، وبادرتُ إلى سؤاله عن ذلك الّذي قتل الدّكتورة (إيمان)!! شدّني من يدي كخبير ، وساقني إلى أحد الأبراش المُهمَلة ، وحين عاينّاها ، كان أحد السّجناء ينحني على حقيبة دُسَّت تحت البرش ، وهو يتفحّص الثّياب الموجودة فيها ، وقال لي (عكرمة) : ها هو؟! عَقَدَتِ الدّهشةُ لساني ، وبرزتْ عيناي في جحوظٍ بيّن . . . كان يبدو كولدٍ لم يتمّ الثامنة عشرة من عمره . . . .

نحيلاً قصيرًا . . . تعجّبْتُ أيّما تعجّب أن يكون هذا الجسم المنكفئ على نفسه هو الّذي شغلتْ قضيّته الرّأيَ العامّ الأردنيّ قبل مجيئي هنا إلى السّجن . . . تتلخّص قصّته في أنّه كان يعمل حارس عمارة تسكن فيها الدّكتورة (إيمان) ، وكان اعتاد أن يُراقب خروجها من العمارة وعودتها إليها ، ويعرف متى تكون فيها وحيدةً . . . وذات يوم قرّر أن يقوم بجريمته ، اقتحم عليها الباب في الطّابق الثّالث من العمارة ، وكان ينوي ارتكاب الفاحشة بها ، فقاومتْه مقاومة شديدة ، وتطوّر الموقف إلى أن تناول عصا حديديّة وانهال بها على رأسها لتسقط في بركة من الدّماء ، وتُفارق الحياة . . . وقعتْ هذه الحادثة قبل أكثر من ستّة شهور على دخولي إلى هذا السّجن . . . لكنّ القضيّة لقيتْ اهتمامًا إعلاميًا كبيرًا فعلمتُ بها ، وأردتُ اليوم أن أرى ذلك الوحش الّذي قام بارتكاب تلك الفعلة الشّنعاء ، وحينَ رأيته أمامي لم أصدّق أن هذا القصير المتواري عن نفسه قد سوّلتْ له نفسه فِعْلَ ما فعل!! حوكِمَ الشّابّ ، وصدر بحقّه حكم الإعدام وأنا في السّجن نفسه . وظلّ الحكم بعد صدوره حوالي شهرين لم يُنفَّذ حتّى صادقَ عليه الملك ، ونُفِّذ فيه بعد ذلك . . . خلال هذين الشّهرين تعمّدتُ أن أراه ، وأراقب تصرّفاته ، وأختلس النّظر إلى عينيه ، أو إلى ملامح وجهه ، فماذا رأيت؟!

يفعل الموت بالنّاس ما لا تفعل الحياة بهم . الحياة تُنسيهم أنّهم هم هم . والموتُ يستطيع أن يقلب المعادلة ، ولكنْ متى؟! إنّه يفعل ذلك عندما يستجلب الإنسان طائره في ذهنه ، ويرمي له الحَبَّ لكي يَفِدَ عليه ، وليس من بغيةٍ له إلاّ أن يتّعظ أو يستجلي الحكمة في أكثف تجلّياتها . أليس الموت صانع الحكمة؟! ألم تكن الحكمة مرآة الغارقين في فهم الموت ومحاولة استكناه سِرّه؟!!

كان وجهًا صفيقًا ، يبدو أنّ الموت والحكمة لم يلتقيا على ساحته ولو للحظةٍ واحدة . وكان جسمًا نحيلاً خلا حتّى من معاني الوجود ، فكأنّ

الموت لم يهبط على وجهه ولا على عقله ، ولكنّه استقرّ في جسده فأكل منه كلّ شيء ، ولم يُبقِ له إلاّ هيكلاً تتوارى الحياة خلف شَبَحه ، مُبقيةً ذُبالةً دالّة على أنّ المصباح لم يعد له من الزّيت إلاّ قطَرات معدوادات عمّا قليل ستنفد!! وكان قلبًا خاويًا ، خلا ممّا يسمّيه البشر العاديّون الرّحمة ، وسكَنتْه غربان السّوأة ، وحطّتْ على شَرفاته بومات الخراب . وكم تمنّيتُ أن أرى الحياة أو بَصيصَها يبرز ولو للحظة كبريقٍ أو شهاب على مُحيّاه ففشلتُ!! ولكنْ أين كان الموت منك أيّها الشّابّ الخاطئ؟! في أيّ ناحيةٍ من هياكلك المُتهاوية يقبع؟! لم يكن الموت فيه ، كان الموت معه!! يمشي بجانبه إذ يمشي ، ويستلقي بجواره إذ يستلقي على بَرشه . كان رفيقًا ملازمًا لم يدعه لحظة واحدة . ويبدو أنّه تلبّسه مرّةً واحدة فقط ؛ إنّها المرّة الّتي رُفِعَ فيها على عود المشنقة!! نعم نُفِّذَ فيه الحكم في غرفة الإعدام في السّجن صبيحة أحد الأيّام المنفلتة من قبضة حياته!!

لم تكن مهاجع القتل هي الوحيدة التي تقحّمتُها من أجل أن أعرف الحياة ، وأشرب من تجربتها ماءها ، ماؤها الّذي لم يكن زُلالاً في كلّ مرّة ، كان أُجاجًا في أكثر الأحيان ، ومِلحًا في أحايين ، وهرب من أن يكون عذبًا إلاّ في النّادر من الإلماعات!!

تجرّأتُ أكثر بعد هذه الشّهور الطّوال في موطني الجميل هذا . ها أنذا أُحِلُّ نفسي ضيفًا على مهاجع التّجسّس .

- التّجسُّس؟؟!!!!!

- نعم .

- لصالح مَنْ؟!!!!

- إسرائيل .

- ولِمَ يُسمّى تجسُّسًا . أليست بيننا اتّفاقيّة سلام؟!!!!!

- هؤلاء مِمّن ألقي القبض عليهم قبل الاتّفاقيّة .

- وماذا بعدها؟!!

- لم يُقبَض على أحدٍ على الأغلب في هذه القضيّة . ولم يُودَع بسببها السّجن .

- وماذا صار يُسمّى من يفعل ذلك؟!!

- على الأغلب : تعاون . أو تبادل في المعلومات!!!!!!!!!!

كان مهجعهم الممتدّ في العمق طويلاً يضمّ حوالي ثلاثين سجينًا . استوقفني أحدهم الّذي بدا وسيمًا وضيءَ الوجه ، طويل اللّحية ، وَخَطَ الشّيب شعرها فزادها البياض وضاءةً ونورًا!! كان يذرع أرضيّة الغرفة ، مُمسكًا بمصحف ، ويتلو منه آيات يبدو أنّه يحفظها أو يُراجعها . عجبتُ أن يكونَ هذا جاسوسًا لإسرائيل ، فسألتُ (عكرمة) ، فقال إنّه كان طالبًا في إحدى جامعات لبنان ، وأثناء عودته إلى الأردنّ ألقي عليه القبض بهذه التّهمة ، مع أنّه - حسب رأيه - بريئ منها ، ولُفِّقتْ له تلفيقًا!! قضى هذا السّجين هنا أكثر من عشرين عامًا ، وهي فترة الحكم المؤبّد ، ويُفتَرض أن يخرج بعدها ، غير أنّ الحكومة لم تفعل ذلك حتّى الآن . خلال العشرين عامًا هذه استطاع أن يحفظ القرآن الكريم كاملاً حفظًا راسخًا ، ولم يكن يحفظ منه من قبلُ آية ، واستطاع أن يثقّف نفسه بنفسه!!

آخر في هذا المهجع ، بدا عجوزًا قد جاوز السّبعين ، وانحنى ظهره حتّى عاد كالعرجون القديم ، رأيتُه ذات يوم يحمل في يده صحنًا فارغًا ، وهو يهمّ باجتياز شبك المهجع عبر الطّريق المؤدّية إلى المطعم ، كي يصيب بعض الطّعام ، فقد بدتْ عليه آثار الهرم والجوع القارص والعجز . غير أنّ أحد أفراد الأمن الّذي كان في عمر أولاد أولاده صاح فيه صيحةً مُرعِبة ، وَشَتَمه شتيمةً باردة ، ولم يرحم فيه ضعفه ولا شيخوخته ، وأمره بالعودة إلى مهجعه ، فعاد ذليلاً وقد ازداد وجهه شحوبًا ، وقامته انحناءً . . . لم أتمالك نفسي حينها ؛ طَفِرَت من عينيّ دمعتان سالتا ساخنتَين على خدّيّ!!

لم تكن قضيّة (بيعة الإمام) قضيّةً عابرة ؛ ظلّت هذه القضيّة محور

الأحداث إلى اليوم ، كانت الدّولة قد ألقت عليهم القبض على فترات متقاربة ، لتزجّ بهم في السّجن هنا ، وتسمّيهم هذا الاسم الإعلاميّ المَحْض ، وهو : (بيعة الإمام) وتعني أنّهم لا يمتثلون لأمر ملك أو حاكم من ملوكِ الدّنيا وحكّامها أبدًا ؛ إذ كلّ هؤلاء يجب الخروج عليهم ، بل يُعدّ هذا الخروج جهادًا في سبيل الله ، ومَنْ يُقتَل في ذلك فهو شهيد . أمّا طاعتهم فيجب أن تكون لإمام المسلمين الّذي يحكم فيهم بشرع الله ، بعد أن يُبايِعوه على السّمع والطّاعة ، وبما أنّ هذا الإمام غير موجودٍ في أيّ نظام في العالَم من وجهة نظرهم ، فقد استعاضوا عنه بأمرائهم ، فهم يطيعونَ أمراءهم طاعةً عمياء ، لأنّ طاعتهم من طاعة الله ورسوله .

لم نكن نختلط بأصحاب هذه القضيّة كثيرًا ؛ لأسباب عديدة ، منها على سبيل المثال أنّهم كانوا يعدّون كثيرًا منّا كفّارًا ، وقد يُبيحون دَمَنا ، على رأس هؤلاء الكفّار كما يعتقدون (ليث) إذ إنّه كان - وهو معنا في السّجن - نائبًا في البرلمان الأردنيّ ، وهو مجلس كُفريّ في حُكمهم ؛ ذلك لأنّه يحكم بغير شرع الله ، ولأنّ الدّولة تسمّيه المجلس التّشريعيّ الّذي يُشرّع القوانين ، وهم يقولون : إنّ المشرّع الوحيد هو الله ، ولا أحد غيره ، وأنّ الإسلام مُكتمل ، فلا يحتاج إلى مَنْ يُشرّع له ما ينقصه ، أليس الله قد قال : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا)؟!

ومن الأسباب الأخرى الّتي زادت العزلة بيننا ، أنّ بعضنا كان يرى فيهم التّشدّد ، والغلظة في التّعامل ، وأنّهم كانوا يَتَمَتْرَسُونَ وراء آرائهم ، ويعتقدون فيها الصّواب المُطلَق ، ويرون كلّ ما عداها باطلاً أو زائفًا . . . وهذا كان يصنع جوًّا من التّوتّر بين الطّرفين .

من معتقدات (بيعة الإمام) الّذين كانوا يُسمّون أنفسهم (جماعة التّوحيد) أنّ الملك ، ومجلس الوزراء ، والنّواب والأعيان ، والشّرطة كلّهم كَفَرة ، ويجب محاربتهم ، وعدم التّعامل معهم ، ويستندون في ذلك إلى

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُمَا كانُوا خاطِئِيْنَ﴾ وبإسقاط معاني هذه الكلمات على زماننا فإنّهم يقولون : إنّ فرعون : أي الملك ، وهامان : أي الوزراء ومن مثلهم كالنّواب والأعيان ، وجنودهما : أي الشّرطة ، كانوا خاطئين أي : كانوا كافرين!!!

ومن معتقداتهم أيضًا أنّ مدارس الدّولة هي مدارس كُفريّة ، لأنّها تعلّم المناهج الّتي لا تحكم بما أنزل الله ، ولا تُراعي شرعه في فُصولها ، ولذلك من الطّبيعيّ جدًا ألاّ يضع أصحابُ هذه القضيّة أبناءهم في هذه المدارس ، ويكتفون بإرسالهم إلى الشّيخ الذي يثقون به ، ليتعلّم أبناؤهم عنده أمور الدّين واللغة العربيّة ، ويحفظون القرآن الكريم . ولقد كنتُ أعلم أنّ أحد هؤلاء الأبناء لم يدخل يومًا واحدًا إلى المدرسة وبقي اثني عشر عامًا يختلف إلى شيخه الّذي درس عليه القرآن والفقه والحديث . وأمّا العمل والرّزق فهما بيد الله ، وليسا بيد الشّهادة الجامعيّة!!

وأمّا تكفير الآخرين ، فقد كان يجد سبيلاً سهلةً إلى أكثرنا من أكثرهم ، وكانوا جميعًا قد ملّكوا أنفسهم هذه السّلطة ، ولكنّ الأمر لا يقف عند فكرة التّكفير فحسب ، إذ لو كُفِّرْنا من قِبَلهم وانتهى الأمر هنا لكانت المصيبة أخفّ وطأة ؛ إذْ لا يعني المُكفَّر أكفّروه أم لم يفعلوا ، غير أنّ الاعتقاد بكفر هؤلاء يتبعه استحلالٌ لدمائهم وأموالهم وحتّى أعراضهم . وهو أمرٌ غاية في الخطورة ، إذ تتّجه الأمور بهذه الاعتقادات إلى الفوضى ، ويسود الاضطراب والخوف والرّعب النّاتج عن انعدام الأمن . ولعلّي أذكر موقفين ما زالا عالِقين في ذهني إلى اليوم حدثًا معنا ونحن هناك في السّجن .

الأوّل : أنّ وفدًا من النّواب الأردنيّين جاء لزيارتهم من باب الاطمئنان على صحّة هؤلاء المساجين السّياسيّين ، وحين دخل هذا الوفد إليهم ، لم يُعِرهم أيّ من أصحاب هذه القضيّة أدنى اهتمام ، وحين ألقى النّواب السّلام عليهم ، لم يردّوا عليهم ، بل قالوا : السّلام على من اتّبع الهدى ؛

ومعنى هذا الكلام : إنّنا نردّ السّلام على المهتدين والمؤمنين أمّا أنتم فضالّون كَفَرة ، ولذلك لا تستحقّون أن نردّ عليكم هذه التّحيّة الإسلاميّة الّتي لا تليق بأمثالكم!! وحين همّ أحد النّواب بمصافحة أحدهم رفض أن يُصافحه ، وأهمله كأنّه غير موجود!!

أمّا الموقف الثّاني فحصل مع (أبي محمّد المقدسيّ) وقد كان يومها أميرهم ، ثمّ مُنظِّرهم ، إذ استطاع الحصول على زيارة خاصّة تجمعه بأبنائه وذويه ، وهو أمرٌ غاية في الصّعوبة ، ولا أدري كيفَ تيسّرتْ له هذه الزّيارة . المهمّ أنّ مدير السّجن بنفسه نزل ليطمئنّ على سير أمور الزّيارة ، وحين مدّ يده إلى ابن المقدسيّ ، ولم يكن يتجاوز ابنه الثالثة عشرة من عمره ، كفّ هذا الابن يده ، ولم يقبل بمصافحة مدير السّجن ، وقد كان موقفًا مُحرِجًا وقع فيه المدير ، غير أنّه كتم غيظه ، وداری إحراجه ، وسأله متظاهرًا بالدّهشة :

- لِمَ لم تُسلِّمْ عليّ؟!!
- لأنّك كافر .
- أنا كافر!!!!
- نعمْ .
- ومن قال لك ذلك؟!!
- أبي .

وابتلع المدير ما تبقّى من ريقه ، وازدرد غصّةً استعصتْ على الذّوبان ، وأدار ظهره ، وعاد وفي حلقه طعنات ، وفي قلبه ضربات ، وفي مكانته أمام موظّفيه الصّغار ما هو أكثر من ذلك بكثير!!

كثيرًا ما كانت صلاة الفجر مع الشّباب في غرفتنا تلطّف من أجواء غربتنا هنا ، كانت تحلّق بنا إلى حيثُ تزداد قلوبنا نقاءً وأرواحنا صفاءً ووجوهنا بِشرًا . كانت البلسم إذا ران على قلوبنا الوَهن ، وكانت الخلاص إذا أنشب العذاب أظافره في آمالنا العِراض ، وكنّا نصحو ونداءٌ خافتٌ

يردّد على مسامعنا : ﴿إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهُودًا﴾ ، وأيُّ مجلس هذا الّذي تشهده الملائكة ثمّ يفرّط فيه المُفرِّطون؟!!

نصحو فننهل من صلاة الفجر ماء الطّمأنينة ، ونُروي من نسائمه ورودَنا العَطشى ، ثمّ نأوي إلى فراشِنا . . . وفي غمرة التّسابيح وأنا مستسلمٌ لخدرٍ لذيذٍ يسري في كياني ، ويملؤني بكؤوس الرّاحة ، كان يتناهَى إلى سمعي من بعيد ، أصواتُ أقدام تطرق الأرض بصوت عالٍ ، وبأسلوبٍ منتظم ، فيتوارد إلى ذهني أنّه مُرتَّب الأمن والضّباط والشّرطة في هذا السّجن يقومون بالاستعداد ليوم جديدٍ في حراسة كلّ هذا العدد من المساجين الّذي يفوق الألفين . . . غير أنّ هذه الضّربات على الأرض والطّرقات الشّديدة لا تلبث أن تهدأ قليلاً ، ثمّ تُعاوِدُ الارتفاع من جديد . . . وفي غمرة بعض هذه الارتفاعات تطرق مسامعي هتافات متعدّدة ، مثل : الله أكبر . . . الله مولانا ولا مولى لهم . . . فأشكّ حينها بأنّهم الأمن . . . ثمّ لا ألبث أن أستسلم للنّوم من جديد ، وفي الثّامنة أو التّاسعة بعد أن أصحو وأسأل عن كنه هذه الأصوات ، يأتي الجواب : بأنّ هؤلاء هم جماعة التّوحيد يقومون بتدريباتهم العسكريّة الصّباحيّة!! وأسأل مستغربًا : تدريبات عسكريّة داخل السّجن؟!! نعم . لم يكن أحد يستطيع أن يمنعهم من فِعل ذلك ؛ لأنّ أيّ عقوبةٍ كانوا يتلقّونها من حُرّاس السّجن لا تؤثّر في منهجيّتهم ، بل تزيدهم إصرارًا على ما يفعلون .

كان عدد أصحاب هذه القضيّة حوالي (١٥) سجينًا ، ولم أكنْ أعرفهم جميعًا ، غير أنّ أبرزهم على الإطلاق شخصان ما زالا إلى اليوم يُشكّلان جدلاً سياسيًا وأمنيًا في الأحداث الجارية ، وفي البلدان الّتي يتنقّلون فيها . أمّا الأوّل فهو : (أبو محمّد المقدسيّ) وأمّا الثّاني فهو : (أبو مصعب الزّرقاويّ) .

كان أبو (محمّد المقدسيّ) رجلاً يميل إلى الطّول ، دخل السّجن بدينًا إلى حدّ ما ، ثم صار إلى النّحول بعد أشهرٍ قليلةٍ فيه ، خفيفَ اللّحية غير

أنّها طويلة بشعراتها الّتي تميل إلى الشّقرة ، أبيض الوجه ، ذا عينين لوزيّتين ، عسليّتين ، واسعتين عند الأنف ضيّقتين عند طرفهما الآخر ، وكان يُطيل شعر رأسه ، وخاصّة في جزئه الخلفيّ ، وكان يعتمر على رأسه طاقيّة ملوّنة سوداء أحيانًا وزرقاء أخرى وكمّونيّة ثالثةً . وربّما اعتمر عِمامةً بيضاء يلفّها على رأسه بطريقته الخاصّة . وكان كثير التّكحّل ، كثيرَ الحديث . لا يجلس إلى إنسان إلاّ ويجد فيضًا من الكلام المُتسلسِل المتتابع كالمطر النّازل يلقيه على مسامع مُحدِّثه .

لم يكن أحدٌ من أعضاء مجموعتنا أو حتّى أعضاء المجموعة في الغرفة الأخرى ، يحبّ الجلوس إليه ، أو الدّخول معه في حديث ، واستُثنيتُ من هذه القاعدة ، فلم يأتِ مرّة إلى غُرَفنا إلاّ وترك الجميع ليجلس معي . ولعلّ اختياره لي كان - على الأقلّ - لسببَيْن : الأوّل عائدٌ إليّ في تقبّلي للجلوس معه ، والاستماع إليه ، وكانت هذه منهجيّتي في السّجن ؛ إذ لم أفرّط في الجلوس مع أيّ شخصيّة كانت هناك والإنصات التّامّ لها بغية الاستفادة ؛ لأنّني أعلم أن مُقامي هنا قليل ، ولذا يجب أن أمتح من بئر تجربتي هنا ما استطعتُ من ماء!! أمّا السّبب الثّاني فكان لعلمه بأنّي شاعرٌ ، وكانت لديه بعض المحاولات الشّعريّة غير النّاضجة في رأيي ، ولم أكن أبدي له هذا الرّأي حينها ، وكان يطلب منّي بعض قصائدي ، بما فيها القصائد الغزليّة ، وربّما حوّر بعض كلماتها ونَسَبها إليه ثمّ بعث بها إلى أهله أو زوجه أو بعض أصدقائه خارج السّجن ، ولعلّ قصيدتي : (من عتمة السّجن) شاهدةٌ على ذلك!!

كان أبو محمّد المقدسيّ ، واسمه : (عصام البرقاويّ) يدلف إليّ من شبك المهجع ، ويتجاوز كلّ مَنْ في الغرفة ، دون أن يلقي السّلام على أحد ، ثمّ يدور ببصره هنا وهناك حتّى تقع عيناه عليّ فيسارع في التّوجّه نحوي ، والجلوس إليّ .

لا أنكر البتّة أنّ (أبا محمّد المقدسيّ) كان على علمٍ ، وإيمانٍ شديدٍ

راسخ بما يقوله ، وكان يتحدّث إليّ بحماسة بالغة ، ولعلّني أضيف هنا سببًا ثالثًا كان يدعوه للجلوس معي دون سواي ، هو أمله بأن يسحبني إلى ساحته ، ويضمّني إلى جماعته ، خاصّة بعد أن قرأ قصائدي الثّوريّة ، وأيضًا يأسه من الآخرين الّذين يُجاهرون بمخالفته الرأي ، وكلّهم أصحاب رأي!! نعم كانت بعض آرائي في قصائدي تستدعي احترام بعض أفراد هذه الجماعة ، فقد أعجبهم على سبيل المثال هذا البيت من شعري الّذي كتبتُه هناك :

زِنْزانَتِي خَيْرُ مَنْ صاحَبْتُ في زَمَنٍ
الحاكِمُونَ بِهِ أَحْفادُ هامانِ

وكم طَرِبوا لقولي :

اللهُ يَحْكُمُ لا تَحْكِيمُ طَاغِيَةٍ
وشِرْعَةُ الحَقِّ لا شَرْعُ القَوانِينِ

وقائمة الأبيات الّتي هلّلوا لها تطول .

لم يترك (أبو محمّد المَقدسيّ) بلدًا في العالَم إلا تنقّل فيه ، كما أنّه لم يترك في الأردنّ سجنًا إلاّ دخَله ، ولعلّه من أطول السّجناء السّياسيّين مكوثًا في السّجون ، وربّما تقلّب بين ما يقرب من عشرة سجون ، عرفتْهُ جميعها صلبًا قويًا ، لا يُهادِنُ في موقفه ، ولا يُمالِئ في رأيه ، يصدح بما يعتقده من الدّين أمام السّيّد والمَسود على السّواء .

ظلّتْ - حسب رأيه - فكرةُ جهاد المرتدّين ، وقِتال الكافرين في كلّ مكان ديدنَه ، وشُغله الشّاغل ، فلم يفتُر حديثه عنها والصّدع بها . عبَر أوروبّا غربًا ، والباكستان وأفغانستان شرقًا ، وما بين الشّرق والغرب طار كما يطير العُقاب ينشر في كلّ بلدٍ يحلّ فيه ريشه على المؤمنين ، وسِهامه على مَنْ سِواهم . ولكي يحقّق بغيته المُثلى ، وغايته العُظمى من نشر فِكر التّوحيد والبراء من الطّغاة حسب اعتقاده ، لم يرَ حرجًا في أن يدخل في كلّ دولةٍ باسمٍ مختلفٍ عن سواه في بلدٍ آخر . نعم لقد حدّثني أنّه كان

يحمل أكثر من خمسة جوازات سفر مُزوّرة ، وقد دخل ببعضها إلى بريطانيا . وكانت محطّته في الباكستان تُتيح له الحصول على جواز سفرٍ لأيّ دولةٍ يريدها ، فببعض الدّولارات القليلة يمكن ابتياع هذه الأنواع من الجوازاتً . ولكنّه هو أيضًا تعلّم هذه المهنة وكان قادرًا على استصدار جوازات السّفر الّتي يريدها ، وقادرًا على تقليد أصعب الأختام والتّواقيع ، بطرقه الخاصّة!!

كتابه الأبرز (ملّة إبراهيم) يُقدّم فكرةً واضحة عن منهجيّة جماعته في التّعامل مع حكّام هذا الزّمان وقياصرته ، ويردّ فيه على الشُّبَه الّتي وقع فيها كثيرٌ من علماء السّلاطين كما يسمّيهم . ويبرأ فيه من مثل هؤلاء ويكفر بهم في الوقت نفسه ، مردّدًا قوله تعالى : ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَداوَةُ وَالبَغْضاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ .

كان المقدسيّ كثيرًا ما يحدّثني عن أساليب دعوتهم ، وطرق إيصاله إلى المساجين ، فقد كانوا يكتبون بأيديهم ، تفسيرًا وأحكامًا مستنبطةً من بعض آيات القرآن الكريم ، وينسخون منها نسخًا عديدةً ويوزّعونها على المساجين كافّة ، وكثيرًا ما كانوا يتوجّهون بخطابهم الفكريّ إلى سجناء قضايا القتل أو السّرقة أو الشّرف أو غيرها . . . ولا يستثنون - على وجه التّقريب - أحدًا . وكانوا أحيانًا يعلّقون على جدران غرفتهم بعض هذه الأحكام والتّفاسير في شكل مجلّة حائط ، يُبادِر خمسة عشر عضوًا إلى قراءتها وتدبّر ما جاء فيه ، وتطبيق ما يُطلَب منهم خلالَها .

أمّا في غُرَفهم فكانوا يحرّمون على أنفسهم مشاهدة التّلفاز . ولم تكن إدارة السّجن تعرض لنا غير قناة الأردنّ ، وكانوا يعدّونها قناةً كُفريّة ، تبثّ الخلاعة والمجون . فمنعوا أنفسهم من متابعة أيّ برنامج عليها ، وكانوا يغطّون شاشة التّلفاز بكيس قماشيّ كبير ، أو بخيشة يُسدلونها على صفحته . أمّا الجرائد الرّسميّة ، فكانوا يوكلونها إلى أحدهم - لا أدري ما

الأسس الّتي كان يتمّ على مبدئها اختياره هو دون سواه للقيام بهذه المهمّة - فيعمد إلى كلّ صور النّساء في الجريدة فيمزّقها أو يقتطعها من الجريدة، أو يُخَربِشُ فوقها بقلم أسود حتّى تتشوّه معالمُها، وأحيانًا يفعل الشّيء ذاته مع صور بعض الرّؤسَاء، فإذا تطهّرت الجريدة من هذين النّوعين من الرِّجس، دفع بها إلى بقيّة أفراد المجموعة ليقرؤوا ما ورد فيها.

أمّا كاميرات المراقبة، وعادةً ما كانت تُوضع في زاويةٍ أو زاويتين من زوايا الغرفة الّتي يرتفع سقفها أكثر من أربعة أمتار، فكانوا يتسلّقون بعضهم فوق بعض، فيكسرونها، أو يُغطّونها بقماشٍ ثقيل، حتّى لا يتمكّن أحدٌ من الشّرطة في غرفة المراقبة من التّجسّس عليهم. وقد ابتدع (المقدسيّ) وسيلة غريبة في تسخين الخبز أو تحميصه، وذلك عن طريق وضع رغيفٍ من الخبز في قاعدة الضّوء المُثبّت في سقف الغرفة، كانوا يتطاولون بتلك الأجسام حتّى يصلوا الأضواء، فيعلّقون عنده الرّغيف لبضع دقائق حتّى يسخن أو يتحمّر حسب الطّلب، ثمّ يسترجعونه، ويتناولون به طعامهم. كان (المقدسيّ) يقول لي: إنّ تحميص الخبز بهذه الطّريقة يقلّل من عدد السّعرات الحراريّة فيه، وبالتّالي يُساعد على إنقاص الوزن!!

تشكّلتْ بيني وبين (المقدسيّ) صداقةٌ من نوع غامض، يصعب عليّ اليوم تفسيرها. وكثيرًا ما كانت أحاديثه إليّ تتعلّق - إلى جانب آرائه الفكريّة - بالأحلام والرّؤى وتفسيرها. وكم رأيته يتوق إلى الحرّيّة من خلال عدد من الأحلام الّتي رآها في منامه، أو رواها له بعض أفراد مجموعته، وكان يفسّرها دائمًا على أنّه الفرج القريب، والوعد الحبيب.

دخل (المقدسيّ) معي في تفاصيل كثيرة عن حياته، امتدّ بعضُها إلى بعض الشّؤون الشّخصيّة والعائليّة. وكم حدّثني عن أناسٍ كثيرين مُعجبين بطرحه الفكريّ ومريدين له، كانوا يزورونه في السّجن ويعرضون عليه بناتِهم هبةً دون مقابل، لأنّه يستحقّ أكثر من ذلك، ولأنّه فارس هذا

الزّمان الوحيد . وقد أخبرني أنّ أحدهم عرض عليه تزويجه ابنته الّتي لم تتجاوز الثّالثة عشرة من عمرها فور خروجه من السّجن . هذا بالطّبع والمقدسيّ متزوّج ولديه أبناء وبنات ، ولربّما من أكثر من زوجة .

ولا أنسى أنّه في إحدى الزّيارات ، وكان يحدث أن يقوم بزيارتي مَنْ لا أعرفه ، إمّا أنّه سمع بقضيّتي فجاء شادًا على يديّ ، وإمّا أن يكون في زيارة أحد المساجين السّياسيّين الآخرين ، فلا يفوّت الفرصة بزيارة غيرهم ما دام قد قطع هذه المسافات الشّاسعة من أجل الوصول إلى هنا . . . أقول في إحدى هذه الزّيارات كان زائري يتحدّث بحماسة مبالَغ فيها قائلاً : يا هناءَكم . . . أنتم هنا على الحقّ ، وكم نتمنّى أن نكون إليّ جانبكم . . . ويكفيكم أنّكم تشاهِدون وتجلسون وتتحدّثون مع إمامٍ عظيم مثل (أبي محمّد المقدسيّ)!!

كانت إمارة (المقدسيّ) للتّنظيم ، قد بدأت تتأرجح ، ويبدو أنّه بعد فترة ليست بالطّويلة فقدَ هذا المنصب ، إذ حدث خلاف لا أدري طبيعته ولا مستواه بينه وبين (أبي مصعب الزّرقاوي) ، فعُزِلَ الأوّل من قِبَل جماعته عن موقع الإمارة وعُيّن (أبو مصعب) بدلاً منه . ولم نكن في السّجن نعرف (أبا مصعب) بهذا الاسم ، كنّا نعرفه باسمه الرّباعي : أحمد فضيل نزال الخلايلة . . . والحديث عنه ذو شجون . . .!!

كان (أبو مصعب) رجلاً طُوالاً ، شديد الأَسْر ، قويّ البنية ، إذا مشى أسرع . وكان صموتًا ، نادر الكلام مع مَنْ لا يعرفه ، وكم رأيته يذرع بعض السّاحات بخطوات سريعة ، ويمرّ بجانب الشّرطة لا يُلقي لهم بالاً ، بل كانت الشّرطة هي الّتي تهابه ، وتحسب له ألف حساب . وكان مفتول العضلات قد تلقّى في أفغانستان قبل أن يُسجَن في الأردنّ تدريبًا عسكريًا منظّمًا وشديدًا . ومَنْ رآه أيقن أنّه (كوماندوز) حقيقيّ ، بجذعه المستقيم ، ومشيته المحثوثة ، ونظريته الفاحصة ، وكلامه القليل .

كان خفيف اللّحية حين عاصرناه في السّجن ، وواسع الجبهة ، يعتمر

في أغلب الأوقات طاقيّة سوداء ، ويلبس اللّباس الأفغانيّ أكثر أيّامه ، ذا بشرة تميل إلى السّمرة ، وعينين صافيتين ، وحواجبه كثّة تمتدّ مستقيمة فوقهما .

ينتمي (أبو مصعب) إلى عشيرة (الخلايلة) الّتي تضمّها العشيرة الكبرَى ، عشيرة (بني حسن) ، وهي عشيرة أردنيّة تمتدّ عبر مساحات واسعة من ثرى الأردنّ ، ولعلّ فكر الجِهاد والتّوحيد غير منتشر بين عشائر الأردنّ الّتي تُعرَف بولائها التّقليديّ للأسرة الملكيّة ، والنّظام الحاكِم في الأردنّ . غير أنّ حالة (أبي مصعب) كانت حالةً استثنائيّة أو قل نادرة في هذه العشيرة ، وكان هو - بالفعل - رجلاً استثنائيًا .

إذًا كان هذا الرّجل قائدًا في ميادين الجِهاد ضدّ الرّوس في أفغانستان ، قبل أن يعود إلى الأردنّ فيقع في قبضة المخابرات الأردنيّة ، شأنه في ذلك شأن عدد من الّذين عادوا من أفغانستان إلى بلادهم ، وهو اليوم في السّجن عندنا - كذلك - قائدٌ ميدانيّ ، فقد كان هو الّذي يتولّى التّدريب العسكريّ لجماعته في الصّباح الباكر ، متحدّيًا بذلك كلّ القوانين والأنظمة المعمول بها في السّجن هنا .

وهكذا اجتمع لهذه الجماعة رجلان ، أحدهما يغذّي العقل ، ويُلهِبه بالفكر وهو (المقدسيّ) ، والآخر يغذّي الجسد ويعدّه للمعركة وهو (أبو مصعب)!!

(١٠)
«يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ»

مَنِ الّذي اختـرع السّـجن؟ هو واحـدٌ من اثنين : عـبـقـريٌّ في فنّ العبوديّة إلى الحدّ الّذي اكتشف فيه شيئًا يمكن أن يقتل الحرّيّة . أو عبقريّ في فنّ السّلطة والاستحواذ عليها إلى الحدّ الّذي يُشبع نهمه في التّفرّد ، فهو لا يُطيق أن يرى مَنْ يُخالفه الرّأي يجلس إلى جانبه ويكون نداً له!!

ومن الّذي ألهم ابن الخطّاب أن يقول رائعته الخالدة : (متى استعبدْتُمُ النّاس وقد ولدتْهم أمّهاتُهم أحرارًا)؟! هو واحدٌ لا سواه!!

كنّا في السّجن كطيور الحَذَر ، نتلفّت في كلّ اتّجاه ، ونصغي إلى كلّ الأصوات ، كنّا جوعى إلى مَنْ يشعر بنا وبوجودنا ، وإلى مَنْ يَروي ظَمأنا في إحساسنا بذواتنا الّتي كانت مهملةً من قِبَل السّجّانين إلى حدّ الإلغاء .

اعتدتُ على كلّ الأشياء هنا ؛ على الأشباك الّتي تُفتَح علينا لبضع ساعات وتُغلَق بقيّة الأوقات ، حين تُفتَح ينداح الطّوفان البشريّ منها في تدافع عفويّ أشبه ما يكون بتدافع قطيع من الأغنام من حظيرته ، ربّما كان هذا الأمر واقِرًا في ذهن مَنْ صمّم طريقة الدّخول إلى المهاجع والخروج منها ، لكي يجعلنا نحسّ باحتقار أنفسنا ، وهي الوسيلة الأنجع في إحكام القبضة على أيّ سجين!! عندما يحتقر الإنسان نفسه من الدّاخل ، تتهاوى أمامه جُدُر الكرامة ، ويبدأ يسوّغ كلّ خطأ ، ويهوّن من أمر كلّ مذلّة . . . أخطر ما في السّجن أن تفقد احترامك لذاتك ؛ لأنّك إن فعلتَ صارت رقبتك بيد جلاّدك ، وصرتَ تتقبّل منه الصّفعة في وجه الكرامة على أنّها قبلةٌ في خدّ الرّضى!!

سلسلة الاعتيادات، لم تُغيِّرْ كثيرًا في طبائعي، بقيتُ أتسلّح بثقافة صلدة اكتسبْتُها من خارج السّجن، زرع أبي أكثر شَتَلاتِها في حديقتي، ووجّهني إلى الباقي منها، كان بارعًا في إقناعي بقراءة كلّ ما تطاله يداي، جعلني ألوّن ياقات قميصي، وأنمّق جدران ساحاتي، وأوزّع في تربتي الياسمين والزّنبق والجوريّ . . . وقائمة طويلة من الورود الضّائعة!!

صار العدّ الليليّ، والنّوم والاستيقاظ، والصّلوات، واللقاءات، والنّقاشات، والحوارات السّاخنة زادَنا اليوميّ، وخبزنا الدّائم . . . وعليك أن تعرف أنْ لا وطنَ لك سواها، وأنّك ممنوعٌ من السّفر، لأنّك لم تنتهِ بعدُ منها جميعًا، حين تصل معها إلى مستوى التّخمة، حينها - فقط - يمكنك أن تسأل فيما إذا كان ممكنًا الرّحيل أم لا!!

أَحَبُّ الأيّام إلى قلب السّجين، يوما الجمعة والأحد، ففيهما تُشرَع أبواب السّجن الخارجيّة أمام الزّائرين، ويستيقظ السّجناء مبكّرًا، يغسلون وجوههم، ويُرجّلون شعورهم، ويُصلِحون هِندامهم، ويُصيخون السّمع إلى الأسماء تُنادَى في سمّاعات السّجن، كما لو كانوا يُنصِتون إلى آياتِ من الذِّكر الحكيم. ويُهرَعون كما لو دُعُوا إلى وليمةٍ فائقة في يوم ذي مسغبةٍ!!

كان أبي بطلَ الزّيارات كلّها . . . وكان أحبَّ النّاسِ إليَّ قلبي، وجهه الرّبّانيّ كان يملؤني بالأمل، لم أعرف اليأس لحظةً وَطَيْفُه يغلّفني بالطّمأنينة النّاعمة. وأينَ للنّاسِ بأبٍ مثلِ أبي؟! كان رجلاً علّمني الرّجولة، وبطلاً فهّمني البطولة، وأبًا أدركتُ معه معنى الأبوّة، وأخًا تمثّلت فيه مقاصد الأخوّة، فما عدتُ أرى أصدقَ منه، ولا أنبلَ منه، ولا أحنَّ منه، ولا أعظمَ منه!!

كان أبي يقطع المسافة الممتدّة من إربد في أقصى الشّمال، يخرج صبيحة الجمعة قبل شروق الشّمس، وقبل أن تطبع بعضُ أشعّتها قبلة على خدّ الأرض، يركب السّرفيس من منزلنا في حيّ القصيلة، إلى المجمّع الجديد، ومن هناك يكون أوّلَ الصّاعدين إلى سيّارات عمّان، في

يوم تنام فيه الجفون، وتستريح الأبدان، وحين يصل مجمّع العبدلي، يستَقلّ من هذا المجمّع (السّرفيس) الذّاهب إلى مجمّع الجنوب، حيثُ الحافلات الّتي تصل العاصمة بكلّ محافظات الجنوب ومدنه، ومن هناك يستقلّ باص (سواقة)، ليصلها بعد أن يكون رَكِبَ في أربع خطوطٍ للمواصلات، لمدّةٍ تزيد عن ثلاث ساعات، ولمسافة تزيد عن (١٦٠كم) في الذّهاب، ومثلها في الإياب، ليقطع في ذلك اليوم أكثر من (٣٢٠) كم متنقّلاً عبر ثماني وسائل مواصلات . . . ومن أجل ماذا، من أجل أن يصل إلى ابنه المُشاغِب، الّذي يقبع في سجن (سواقة)، ليهتف به أوّل ما يراه على شبك الزّيارة: (ولا يهمّك يا ابني . . . سُمعتك مِثل الوَرْد . . أنا بجانبك ومعك . . . وأمّك معك . . . وكلّ إخوتك معك . . . والنّاس معك . . . والله قبل هذا وبعده إن شاء الله معك . . .) أيّ أبٍ هذا؟! أيّ إنسانٍ عظيم هذا الّذي يتحمّل كلّ هذا التّعب من أجل أن يُلقيَ في روعِ ابنٍ منْ أبنائهً هذه الكلمات الّتي تُحيي الأرض الميّتة، وترفع الجبهة إلى السّماء العالية؟!

يقف أبي في طابور، ويقطع (إذن الزّيارة) مثل كلّ النّاس، وينتظر في صمت حتّى يأتي دوره ليزور ابنه، ولربّما فاض من علمه ونصحه على بعض الواقفين معه، فلقد كان يتمثّل مَهمّةَ الدّاعية في أخلص حالاتها، لا يبغي من ذلك إلاّ الأجر والمغفرة من الله . . . وحينَ يواجه الشّرطيّ في آخر المطاف، يسأله:

- أتقطع كلّ هذه المسافات من أجل ابنك؟!
- نعم!!
- أليس في ذلك تعبٌ عليك؟!
- هو على قلبي بردٌ، وفيه حلاوة.
- ولكنّي أراك كلّ أسبوع . . .!!
- وليكنْ . . . أنا أزور ابني وأحتسب تعبي عند الله.

- أنت تأتي من إربد إلى هنا في الجنوب . أُطلُبْ من إدراة السّجن أن ينقلوه إلى أيّ سجنٍ في الشّمال .

- لا . . . لا!!

- لا!! لماذا؟!

- لأنّني أريد لابني أن يتعلّم هنا ما لا يتعلّمه في غيره .

- . . . . .!!!!

وصدق أبي وبَرّ ، لقد غامر بالتّعب والضّنى الّذي يلاقيه وهو يقطع هذه المسافات جميعها ، وهو في العَقد السّادس من عمره من أجلي أنا . لأنّه يعلم أنّ معظم السّجناء السّياسيّين إن لم يكونوا كلّهم ، موجودون هنا في سجن سواقة ، وهو يريد لي أن آخذ من خبرتهم لأنضج ، وأُعمّق تجربتي لأكبُر . أمّا تعبه ووقته وجسده فلم تكنْ أعزّ عليه من ابنه في سبيل ما يراه له نافعًا . . . كم أنتَ عظيمٌ يا أبي . . . وكم أنا تلميذٌ صغيرٌ بين يديك ، يكتشف فيك كلّ يوم جديدًا مُدهِشًا . . .!!

كان أبي يُطِلّ بوجهه عبر شبكِ الزّيارة ، وشبك الزّيارة يتكوّن من عدد من (الكابينات) ، يقف السّجين عندها ، ويقف الزّائر قُبالته ، ويرفعان السّماعة ويتحدّثان على الهاتف . كان زجاج الكابينة الفاصل بيننا يُتيح لي أن أرى وجه أبي من خلاله . . . كان وجهًا مُضيئًا ، وحده يبعث على التّفاؤل بمجرّد رؤيته حتّى لو لم يقل أبي أيّ كلمة . . . من خلال قَسَمات وجه أبي عرفتُ أنّ الحياة لها معنى ، وأنّها تستحقّ أن تُعاش ، وأنّنا يمكن ألاّ نأسف على لحظاتها . . . بمثل الطّاقة الرّوحية الّتي يمتلكها أبي ، كنّا نعرف كيف نعيش حياتنا . لقد كان أبي معلّمًا بارِعًا ، علّمنا كيف ننجح في مدرسة الحياة ، كما علّمنا كيف نبرع في مدرسة الكتب ، لأنّ النّجاح في المدرسة الأولى أصعب من النّجاح في المدرسة الثّانية :

وَكَمْ مُنْجِبٍ فِي تَلَقِّي الدُّرُوسِ
تَلَقَّى الحَيَاةَ فَلَمْ يُنْجِبِ

على شَبَك الزّيارة تابَعَ أبي معي دروسه ، فحفظتُ عنه العزّة والكرامة والإباء ، وعرفتُ كيفَ يعيش الإنسان حراً مهما كان ثِقَلُ القيود الّتي ترسف فيها اليدان ، ومهما كان علوّ الأسوار الّتي تُحتَجز وراءَها الأبدان . وكان يُخبِرني في كلّ مرّة عمّا فَعَله من أجلي .

ما تعلّمتُه من أبي لم أتعلّمه في أيّ مدرسة ، ولا في أيّ جامعة ، ولا على يد أيّ شيخ ، ولم أقرأه في أيّ كِتاب . . . ما تعلّمته من أبي كان مزيجًا من الكبرياءً السّامقة سُمُوق النّخلة في الرّيح العاصفة ، كان يلخّص ذلك ويكرّره أمامي في كلمتَي سيّد قطب : (استعلاء المؤمن) . . . ما تعلّمته من أبي ظلّ منقوشًا على صخرة التّحدّي هازئًا بكلّ الأمواج الّتي تفكّر أن تنال منه . . . على تلك الصّخرة تحطّمتْ كلّ محاولات الإذلال الّتي عَمَد السّجانون إلى إعمالها . كان أبي يصنع في داخلي رجلاً قادرًا بمشيئة الله أن يمشي فوق جمر المحنة دون أن تَندّ منه آهةُ ألم واحدة . . . ما الّذي فعله أبي بي خلال كلّ تلك السّنين الغابرات؟! ما الّذي صنعه حتّى صرتُ إلى ما صرتُ إليه؟! كم أودّ لو استطعت الإجابة اليوم ، ولكنّني أشعر بالعجز أمام هذا العملاق ، وأشعر أنّ كلماتي تهرب من بين يديّ وأنا في حضرته!! كان هو كلَّ الكلام ، وكلّ المعنى ، وكلّ الحياة ، فلم أستطع أن أصف وهو ذلك كلّه معًا!!!

لم يدّخر أبي جهدًا مهما صَغُر أو كَبُر من أجل قضيّتي ، وفكرةِ سَجْن شاعرٍ مثلي . ظلّ أبي يكتب في الصّحف ، ويُقابِل المحامين ، ويأخذ منهم الأوراقَ ، ويعطيهم مثلها ، ويزور منابر الإعلام ، ويُهاتِف المسؤولين يُنكِر عليهم ما يفعلونه بسجناء الرّأي ، ويُقرّعهم في أحايين كثيرة ، ويتواصل مع كلّ مَنْ له شأنٌ بقضيّتي .

كتبَ في الصّحف ما يقرب من أربعين مقالة ، تابعَ فيها زمنيًا ما كان يحدث معي ، وكانت مقالاته تفيضُ أبوّة وحنانًا ، وإشفاقًا من أبٍ رحيم بابنه ، ومدّ أبي جسور العلاقات مع كافّة الجهات الّتي يُمكِنُ أن يصدعً

فيها بأمرٍ يتعلّق بقضيّتي ، وبذل من وقته وجهده وقلمه من أجلي ما لم يبذله منْ أجل نفسه . كان يكبر في تضحياته مليون سنة ، وكنتُ أصغُرُ أمامها مليون قرن!!

علّمني أبي - قبل أن أدخل هذا المُعتَرك - أشياء كثيرة ، كنتُ غافلاً عن قيمتها ، اكتشفتُ في السّجن أنّها تُساوي كنزًا ثمينًا ، هناك حين تتربّع الجدران حولي ، وتُغلَق الأبواب دوني ، وتهبِطُ غلالة اللّيل . . . أدركتُ كم كنتُ محظوظًا!!

دخل شهر كانون الأوّل علينا في السّجن ، ووفدَ معه البرد القارس ، وقَصُر النّهار ، فما عدنا نكاد نخرج من أقفاصنا إلاّ ونعود إليها ، وبدأت سلسلة من المضايقات تُنفَّذ بحقّنا ، ويبدو أنّ بعضها كان مُخَطّطًا له ، وأنّ الهدف من وراء ذلك تأديبنا ، وقصّ أجنحتنا ؛ فقد كنّا نصنع عالَمنا الخاصّ بنا ، غير آبهين بقوانين السّجن ، وقد نتعمّد في بعض الأحيان التّمرّد عليها ، فوجدت إدارة السّجن الفرصة سانحةً لتردّ لنا الصّاع صاعين ، وتختبر معنا عضلاتِها .

بدأت المضايقات من إلغاء الخروج إلى الملعب . في البداية كنّا نخرج إلى ساحة الملعب مرّتين ، وأحيانًا ثلاثة لنحرّك أجسادنا الّتي أكَلَها طولُ البقاء على الأسرّة ، ولنُمتِّعَ أبصارنا بالمربّع السّماويّ الأزرق المُوشّى ببعض الغيوم البيضاء ، فقد كان هذا المشهد يُعادل وجبةً هنيئة لجائع مُهترِئ . فتحوّلت من مرّتين إلى مرّة ، وبعد أقلّ من أسبوع ألغي الخروج إلى الملعب نهائيًا . ولأنّهم كانوا قد أغلقوا السّاحة الّتي بجانب الغرفة الكبرى في مهجعنا ؛ مهجع (٦) ، فقد صِرنا بالفعل محشورين في أقفاص كما تُحشر بعضُ الحيوانات .

ثمّ داهَمَنا عدد من الشّرطة في بعض غرفنا ، يحملون العِصِيّ والهِراوات ، وكنّا قد غيّرْنا أماكن بعض الأسرّة لتغدو الغرفة صالحة للصّلاة ، فأعادوها إلى أماكنها السّابقة ، وجاؤوا بالحدّادين فقاموا بلَحْمها

في الأرض وتثبيتها بحيث يستحيل تغييرها من أماكنها ، وما ذلك إلاّ تضييقًا علينا ، ومَنْعنا من الصّلاة بالأسلوب المريح لنا . ولم يكتفوا بذلك ، بل هَدّدوا وتوعّدوا في حال فكّ اللّحام عنها بأيّ طريقة كانت .

ثُمّ قُيّدت حركتُنا في السّجن بشكلٍ مُفاجِئ ، فأصدر مدير السّجن ، بمنعنا من الخروج من مهجع (٦) الّذي يقع في أقصى المنطقة الشّرقيّة القصيّة من السّجن ، وليس بعده شيء ، فحوصرنا من جه الشّرق بالجدار الأخير ، وحُوصِرنا من جهة الغرب بالحِراسة المُشدّدة ، وأُبلغنا أنّ مَنْ يختلط منّا بأيّ سجينٍ من أيّ قضيّة كانت ، فسيتعرّض للشَّبْح ، أو الضّرب ، أو الزّنزانة الانفراديّة . وذلك لأنّنا - من وجهة نظرهم - نشكّل خطرًا مُحيقًا بكلّ مَنْ نتعامل معه .

ثمّ ابتدع المدير العبقريّ تصنيفًا جديدًا على هواه ، فخلطَ القضايا كلّها ببعضها ، فجاء بسجينٍ من الأفغان الأردنيّين ووضعه مع ألغام عجلون ، وجاء بآخر من بيعة الإمام وزَجّ به عند حزب التّحرير ، واقتاد ثالثًا من قضيّة الموجب ورمى به عند الأفغان ، وكلّ ذلك لأنّه يعلم أنّ بعض الخلافات موجودة عند مختلف القضايا ، وأنّ بعض السّجناء لا يُطيق العيش خارجَ قضيّته ، ولا يُطيقها مع بعض القضايا الأخرى ، وقد نشبت في السّابق نِزاعات وعِراكات لها أوّل وليس لها آخر . وهو هنا يعتقد بأنّه بتصنيفه الجديد هذا سوف يُشعِلُ نار الفتنة ، وسوف يزيد مساحة الخلاف ، وقد كان اعتقاده إلى حدّ كبيرٍ في محلّه .

ثمّ قصد هو وجنوده إلى الغرف بغير الحقّ ، فنزع منها كلّ سرير زائدٍ عن الحاجة في رأيه ، وقد كان بعضُنا يبيت في الطّابق الأوّل من السّريرٍ ، ويبقى الطّابق الثّاني خاليًا ، لأنّ عدد الأسرّة يزيد قليلاً عن عدد السّجناء ، وكنّا نجد صعوبةً في اعتلاء السّرير إلى أعلاه في كلّ مرّة ، وبعض الأسرّة استُخدِمَ لتخزين بعض الأغراض ، ووضعَ فيه بعض الحاجيّات . فجاء المدير فرمى بكلّ ذلك ، وأبقى لنا عددًا من الأسرّة

بحيثُ تُشغَل بطابِقَيها . طبعًا بالنّسبة لي كنتُ أُعدّ حديثَ عهد بالسّجن ، وبعضُ زملائي هنا أقدم منّي بسنة ، وآخرون أقدم بثلاث سنوات ، فلم يكن لي من مجالٍ لأنام على الطّابق الأوّل ، بل من اللاّئق حسب عرف الأقدميّة ألاّ أحصلَ إلاّ على الطّابق الثّاني ، وهذا ما كان ، وظللتُ أنام في الطّابق الثّاني طيلة فترة سجني حتّى خرجتُ بعد قضائي لفترة محكوميّتي!! غير أنّي - مع الزّمن - صرتُ أصعد إلى برشي في الطّابق الثّاني بخِفّةِ غزال ، بعد أن كنتُ أجد صعوبةً بالغةً في اعتلاء هذا الطّابق في البدايات!!

نعم لقد شعرنا بأنّ الإدارة كانت تتّبع أسلوبًا مُنظّمًا في التّضييق علينا ، وكانت لا تتركُ فرصة في إيذائنا نفسيًا وجسديًا إلاّ وتنتهزها . غير أنّه يُمكِن احتمال بعض الأمور لبعض الوقت ، ثمّ إذا لم يبقَ في قوس الصّبر منزع فإنّ الخاسرين كُثُرٌ!!

كان هذا أوّلَ ما وفدتُ على هذه الغرفة ؛ إذ كان بجانب المغسلة الّتي أغسل عليها الطباق والصّحون مرآة صغيرة مشروخة ، لا تزيد عن (١٠) سم طولاً وعرضًا ، وقد ألصِقت على الجدار ، وامّحى بعضُ زُجاجها العاكس على الأطراف ، فلم يعد يتبيّن المرء فيها من وجهه إلاّ نصفه أو رُبعه ، ولكنّي صرختُ صرخةً كبيرةً أوّل مرّة شاهدتُ فيها وجهي في المرآة . لقد كان ذلك إيذانًا بقراءة وجهي بعد أكثر من مئة يوم من الغياب المُطبِق . كانت النّظرة الأولى إلى المرآة كفيلة لطول العهد بينيٍ وبين المرايا بأن تضطرّني إلى أن أصيح : ياااه . . . أهذا أنا؟! أهكذا كنتُ بعيدًا عنّي طوال هذه الفترة؟! حدّقتُ مليًا في الوجه المنطبع على ما تبقّى من مساحة المرآة ، وأزحتُ وجهي يمنةً ويسرةً ، وصعودًا وهبوطًا علّني أحظى بأكبر مساحة من وجهي تُمكّنني من التّعرّف إليه!! نعم ها أنذا أخيرًا . . . كان وجود هذه المرآة الصّغيرة المشروخة في سجن يكره المرايا يُعدّ فتحًا إلهيًا مشهودًا . بل كانت هذه المرآة من وجهة نظري أثمن من كلّ مرايا شاه

إيران الّذي كان يمتلك قصرًا من مرايا!!

ها هو الثّلث الأوّل من كانون الأوّل عام ١٩٩٦ يأذن بمغادرتنا . كان عالمُنا ثرًا ، وكنّا نحاول أن نعيش فيه كما يعيش باقي النّاس في المدن المكتظّة . لم نعد نفرّق بين وطنٍ وسجن ، ولا بين مجتمع وسجناء . نحن كنّا المجتمع غير أنّ مواقعنا تختلف!! هل تشكّل الجدرانُ الّتي تحتجزنا وراءها فرقًا بيننا وبين مَن يلهث مِن النّاس خارجَها؟! لا ندري ربّما!!

الملابس الّتي كانت تتّسخ ، والّتي كانت ترشح عرقًا بعد عودتنا من مباراة في الملعب ، نغسلها بالسّيرف ، كان (السّيرف) أبو عشرة القروش ، هو الّذي ننظّف به الأطباق البلاستيكيّة ، ونغسل به ملابسنا الدّاخليّة والخارجيّة ، وأيدينا بعد الأكل ، وقد نستخدمه في الاستحمام . لقد كان (السّيرف) وسيلة التّنظيف الوحيدة الّتي في أيدينا ، وللأمانة فإنّه لم يَخُنّا أو يتخلّى عنّا مرّة ، لقد قام بالأمور التّنظيفيّة كاملةً غير منقوصة!!

ولكنْ أين كنّا ننشر ملابسنا المغسولة لتجفّ؟! أهمّ الأماكن الّتي كنّا نستخدمها لهذه الغاية هو القضبان الحديديّة الّتي تُغطّي نافذة الغرفة ؛ فقد كانت الأقرب إلى الشّمس إذا سطعت ، والأكثر عرضةً للهواء إذا هبّ . وعلى قضبان النّوافذ كنتَ ترى كثيرًا من الأقمشة البيضاء ترفع أشرعتها للنّاظرين كأنّما تُعاجِلهم بتحيّةٍ من نوعٍ ما . ألم أقل لكم إنّ السّجن عالَم قائمٌ بذاته ، وأيُّ عالَم!!

كنّا نعمل معًا - رغم المُضايقات الكثيرة - بإيقاع رتيب ، كأنّنا حلقات مُتّصلة تعمل بانتظام في دَوَران منسجم ، وتناسق بيّن . تبدأ دورة العمل مِنَ المُكَلّفِ بالذّهاب إلى المطبخ لإحضار وجبة الطّعام لنا جميعًا ، يذهب وفي هذه الأثناء يقوم مَنْ عليه تنظيف الغرفة وترتيبها بشَطْفها بالماء ، ولا يكاد العائد من المطبخ يلج الغرفة وفي يديه طعامنا حتّى تكون الغرفة جاهزةً للجلوس ، مُهيّأةً بصحونها لاستقبال الضّيف العزيز ، ثمّ تهبط أيدينا وتعلو ، نأكل ونضحك ، نعيش حياتنا وننسى كلّ كدرٍ أو عَكَرٍ ،

ونترك الخلقَ للخالق ، ثمّ نقوم حامدينَ الله على نِعَمِه الّتي لا تُحصَى ، ويأتي هنا دوري ، ألمّ الأطباق كفنّان يعزف البيانو ، وأحملها طَرِبًا إلى المغسلة ، أقوم بجلْيها وأعيدها إلى مكانها تحت أحد الأبراش . . .هكذا كنّا نُكمِلُ دورتنا . . . كلّ فردٍ في هذا النّسيج يُجمّل اللّوحة الكاملة . . . ماذا كُنّا نريد أكثر من ذلك؟! ما أمتعَ الحياة مع إخوةٍ متحابّين!!

تتالت الزّيارات وتتابعتْ . أمّ سجني أناسٌ كثيرون ، منهم مَنْ عرفت ، ومنهم مَنْ لم أعرف . كان أبي بعمله الدّؤوب في نشر قضيّتي قد جمع حولي الكثيرين ، وعرّفهم بي ، فجاء خلقٌ كثير ، ورأيتُ وجوهًا عديدة تُسلّم عليّ وأنا لها جاهلٌ ، تدعو الله لي بالثّبات ، وتذكّرني بإخلاص النّيّة وإحسانها .

حثّ أبي كلّ مَنْ حدّثه عنّي بزيارتي ، كانت الزّيارة لأيّ سجين ، تُشبِه في أثرها النّفسيّ الإيجابيّ ، زيارة المريض الموجوع الّذي يرى في وجه زائره بعض الخلاص . . . وهكذا زارني مِمّن عرفت : أخي سهل ، وأختي أروى ، وأختي زينب ، وأخي مُعاذ ، وعدد من أخوالي وأعمامي ، ونفر من أقاربي . . . إلاّ أمّي . . . لم تزرني أمّي خلال فترة سجني ، لأنّ أبي ظلّ يُمنّيها طوال هذه الفترة بخروجي القريب ، وبإمكانيّة صدور عفو عن عدد من السّجناء السّياسيّين ، وقد لاقى هذا الأمر من جهتي قَبولاً تامًا ، ذلك أنّه مع شوقي العظيم إلى رؤية وجه أمّي إلاّ أنّي خشيت عليها ألاّ تحتمل رؤيتي خلف القضبان ، وخفت على قلبها الرّقيق أن يُصيبه الانكسار . وخبّأتُ كلّ أشواقي إليها ليوم اللّقاء الكبير ؛ يوم الخروج من السّجن!!

حدث ذات ليلة ما لم أتوقّعه في حياتي . . . كنّا نرتاح على أسرّتنا بعد العدّ اللّيليّ ، بعضنا يقرأ القرآن ، أو في كتابٍ ، أو صحيفة ، أو يستلقي ، أو . . . ثمّ فجأةً تناهت إلى مسامعنا أصواتُ طرقات بساطير منظّمة على الأرض ، وعلا معها صوتُ عدد كبيرٍ من أفراد الأمن وهو

يتدافعون إلي مهجعنا، فتحوا الباب بشكل جنونيّ، وصرخ الضّابط المسؤول: (اِطْلَعُوا بَرّا... اِطْلَعُوا... اِطْلَعُوا...). كان يصيح بشكلٍ هستيريّ، وحين وجد بعض التّباطؤ من بعض الأفراد، علا صوته أكثر، وبدأ يُهدّد بالزّنازين الانفراديّة، وبالشّبْح، وبتقليص وجبات الطّعام... وتابَعَه عدد من أفراد الشّرطة المتحفّزين حوله في رفع الصّوت وإصدار الأوامر، فقفزْنا من أسرّتنا كالظّباء المذعورة، وتراكضْنا إلى خارج الغرفة، وتدافعنا إلى الفسحة الواقعة أمامها...

بدأ أفراد الشّرطة ببعثرة كلّ ما هو موجودٌ على الأبراش، تناولوا كلّ شيء يحتفظ به السّجين تحت رأسه؛ من أطعمة أو أدوية أو كتب، ونثروها على أرضية الغرفة في الوسط... ثمّ عمدوا إلى الفَرْشات، فتناولوها وكوّموها في الوسط أيضًا، وأخذوا يرمون كلّ شيءٍ يجدونه أمام أيديهم في منتصف الغرفة... وشكّلت الأغراض تلّة علتْ أكثر من طول أحدنا، وهم ما زالوا يُتابِعون ممارسة هوايتهم... كانوا كلّما وجدوا شيئًا يعتقدون أنّه مهمّ، يلتفتون في وجوه بعضهم، ثمّ يدفعون به إلى الضّابط المسؤول، وحين يرى أنّ هذا الشّيء لا قيمة له، سرعان ما يرميه صائحًا في وجههم، وشاتِمًا لهم... بالطّبع لم نكن نعرف لماذا يقومون بهذه الحفلة الصّاخبة؟! قدّرْتُ أنّه جاءتهم إخباريّة عن وجود ممنوعات، وجاؤوا يبحثون عنها!! ولكنْ أيّ ممنوعات يمكنها أن توجد بيننا؟! مُخدّرات؟! لا... لا... لا سمح الله!! في غمرة تفكيري بالسّبب الّذي جعلهم يفتّشون الغرفة بهذه الطّريقة الهستيريّة، ندّت من أحدهم صرخة تعبّر عن انتصار وفرحة، يبدو أنّه وجد شيئًا ذا بال!! حدّقتُ النّظر من الخارج لأعرفَ ماذا وجد حتّى أطلق هذه الصّرخة المدوّية!! كانت تلمع في يده سكّين ذات نصل حديديّ، ومقبض بيج... آآآآه... تذكّرتُها!!! هذه السّكين هي الّتي تركها (ليث) لنا بعد خروجه من السّجن، وكنّا نستخدمها في أغراض شتّى!! تعجّبْتُ كيف برزت بعد هذه الفترة الطّويلة من

الاختفاء . . . كنتُ قد نسيت أنّها ما زالت عندنا ، لقد ضَعُفت قيمتُها في نظري . . . لقلّة الحاجة إليها!! أمّا اليوم وقد صاح الشّرطيّ هذه الصّيحة المُباغتة ، فقد ارتفعت قيمتُها عندي من جديد ، وعادت لتتصدّر الواجهة في قَائمة الأشياء الثّمينة . . .

غير أنّ الصّرخة الأولى تُعدّ همسًا أمام الصّرخة الثّانية الّتي خَرَق شرطيٌّ بها آذاننا . . . وهو يُمسِكُ بيده شيئًا أسود يبدو كصندوق صغير ، ويدفعه باتّجاه الضّابط ، وهو يكاد يطير من الفرح قائلاً له : (شُوفْ يا سِيدي شُو لَقيتْ عِنْدْهُمْ . . . هَذُولْ كايِنْ عِنْدْهُمْ راديو ، وترانزستور ، ومِشْ غريبة إنّهم كانوا بِلْقُطُوا إشاراتْنا من خلال موجاته ، وبِتْجَسّسوا علينا . . . خُذ يا سيدي . . . خُذ) . . . بالفعل كان الرّاديو الصّغير الأسود يستحقّ هذه الصّرخة المُميتة من الشّرطيّ ، أنا بنفسي كدتُ أفعل الشّيء ذاته حينما رأيتُهُ يعطيه للضّابط . . . تخيّلوا أنّ العالَم الّذي تعيش فيه ويعيش فيك ، يمتلئ بكثيرٍ من الأسرار ، وتختبئ فيه بعض التّفاصيل الّتي لم يكنْ لديك أدنى معرفةٍ بها . . . ياااه : أين كان هذا الرّاديو عنّي . . . ومَع مَنْ ؟! وكم له من المدّة وهو موجودٌ بيننا ، هو أمرٌ من اثنين : إمّا أن يكون استقرّ في يد أحد زملائي هنا في هذه الغرفة من عهدٍ قريب جداً لأنّني لم أسمع صوتًا يَصدُر عنه طيلة الفترة الّتي عشتُها هنا ، وإمّا أن يكون صاحبه عبارة عن بئر عميقة جداً من الأسرار إلى الحدّ الّذي لم أعلم بوجوده ، ولم أشكّ بذلك أبدًا . . . وليكنْ . . . إنّ السّؤال المهمّ : كيفَ وصلَ إلى هنا؟! مَنِ الّذي استطاع أن يُدخِلَه إلى مهجعنا . . . هل كان ذلك عن طريق أشباك الزّيارة . مستحيل . أنا أعرفُ النّاس بهذه الأشباك ؛ إنّ الحاجز الزّجاجي الّذي يفصل بين الطّرفين لا يمكن إدخال إبرة من خلاله ، فكيف وصلَ إلينا إذاً؟! أيكون صاحبه قد رشا أحد أفراد الشّرطة حتّى دخل إلينا . . . لا أدري . . . ربّما . . .

انتهى التّفتيش بعد أكثر من نصف ساعة من الصّياح ، ونثر

الأغراض على الأرض . . . غادروا وبدا المكان بعدهم يعجّ بالفوضى!! لا أدري بماذا أصفه؟! هل هو ساحة معركة ، أم حَلَبة صراع يموت فيها الثّور في النّهاية بعد تلقّيه مئاتٍ من الطّعنات الّتي تخترق جسدهُ الدّامي؟!

دخلنا إلى الغرفة وبدأنا نزيل الرّكام الّذي شكّل تلّة عالية ، وأخذ كلّ واحد يبحث عن أغراضه في هذه الكومة ، وبصمت يُعيدها إلى برشه . . . تبادَلْنا نظرات الاستغراب والحيرة . . . لم تكن السّكين هي الباعث لهذه النّظرات ؛ فجميعنا كان يعلم بوجودها ، ولكنّ الباعث هو الرّاديو الصّغير الجميل الّذي صُودِرَ للتّوّ!!

توقّعْنا الأسوأ في قابل الأيّام ، لقد ضبَطَتْنا الشّرطة ، ولدينا ممنوعات خطيرة : أوّلاً السكّين الّتي تُعدّ أداة حادّة قد تؤدي إلى قتل شخصٍ أو إيذائه . وثانيًا الرّاديو الّذي يُعدّ امتلاكه تبييتًا للنّيّة في التّجسس!! نعم حدث ما توقّعنا ، وبدأنا نُعدّ أنفسنا لمفاجآت جديدة!!

زادت المُضايقات ، وصرتَ ترى (الكيبلً) يتراقص في أيدي عدد من الشّرطة ، يلوّحون به تخويفًا وإرعابًا لِمَنْ حاربَ الأنظمة وقوانينها . لم يشكّل ذلك كبير فرق عندي ؛ فقدَ اعتدتُ على الوجوه المكفهرّة ، والهِراوات المتحفّزة ، والأصوات المُهدِّدة العالية من قِبَل أفراد الأمن المتوزّعين في الأشباك وعلى الممرّات ، وفي السّاحات وعلى القواطع . . . لم يكن الأمر يعنيني في كثير ؛ كنتُ أعيش في عالَم آخر مُختلِف عن عالَمهم ؛ عالَم الشّرطة مُحزِن ؛ لأنّهم يعتقدون أنّ كلّ سَجين هو عبارة عن دابّة ، وأنّهم كلّما لوّحوا لها بالسّوط مشتْ أسرعَ ونفّذت الأوامر دون أن تُبدِي أيّ نقاش أو اعتراض ، بل ذهبوا في استخدام سلطة التّخويف إلى أبعد حدّ لأنّهم يريدون بذلك أن يحموا أنفسهم ، فقد ساد اعتقادٌ راسخٌ عندهم أنّ أيّ فرصة يحصل عليها السّجين فسيستغلّها في توجيه ضربة قاصمة إلى سجّانه ، كانوا يخافون من الانتقام المُفاجِئ ، وكانوا متيقّنين بأنّ بئرًا عميقة من الحقد مُستكنّة في صدور المساجين ؛ ومن أين جاء لهم

هذا الاعتقاد يا ترى؟! لا بدّ أنّ البئر كانت خاليةً في البداية ، وهم الّذين ملؤوها بماء الحقد الأسود جرّاء تصرّفاتهم الحمقاء غير المسؤولة تُجاه السّجناء . . . المهمّ أنّ هذا العالَم ليس عالَمي ، كان عالَمي بعيدًا كلّ البعد عن ذلك ، فقد كنتُ أعيش مع تأمّلاتي في أجواء مُختلفة تمامًا ، كنتُ قد وضعتُ لنفسي منهاجًا مُكثّفًا ومدروسًا لقراءة الكتب . . . كلّ ما وقع تحت يديّ التهمتُ سطوره التهامًا ، كانت قراءاتي هروبًا منّي إليّ ، وكانت خروجًا من عالَم السّجن الكريه إلى عالَم الفكر الفسيح ، بل كانت انتصارًا للحرّيّة على القيد ؛ كانت القراءة تُعطيني مساحات من الحرّيّة أوسع ممّا لو صنعها خيالي بنفسه ، بل أوسع من تلك المساحات الّتي تُعطيها القراءات ذاتها خارج السّجن!! فأين إذًا هو مفهوم الحرّيّة الّذي كنّا جميعًا كسجناء نبحث عنه ، ونهرب إليه كلّما أضاء لنا منه برقٌ في سماء القضبان الصّارخة!!

عالَمي لم يتوقّف عند بعض الممارسات السّاذجة لبعض أفراد الشّرطة أو بعض المساجين ، كنتُ أرى أنّ الدّخول معهم في هذه التّرّهات سوف يحجب عنّي الرّؤية ، وإذا حُجِبت تلك الرّؤية عن السّجين حينها فقط سوف يشعر بحجم المأساة ، وشدّة القيود الّتي تحزّ عنقه ورئتيه ، قبل يديه ورجليه!! نعم . . . بهذه التأمّلات والقراءات ، ومتابعة التّفاصيل ، والإنصات إلى إيقاع الحياة . . . وقبل ذلك وبعده الإيقان بأن يد الله الخفيّة الّتي هي تُظلّنا من فوق . . . أقول : بكلّ هذه وتلك تجاوزتُ محنتي . . .

صنعتُ حرّيّتي التّامّة في أشعاري . . . هربتُ إليها ، وناجيتها نجوى العاشق ، وفي ظلال كلماتي شعرتُ بالدّفء ، وتحت خيمة عباراتي تدثّرتُ بثوب الجُملة الرّائقة . . . كان شعري أنا ؛ صورتي في مرآة قلبي ، ومن دماء مشاعري انتفضتْ قصائدي عروسًا حيّة ، وحسناء حَيِيّة! (بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ)!!

(١١)
﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾

عندما دخلنا السّجن ، كانت الحياة تنتظر عند سوره الخارجيّ ، وقفتْ متسمّرةً أمام ذلك الباب الأسود المرتفع . أبتْ أن تدخل معنا . . . حاولْنا أن نقنعها أنّ السّجن سيصبح جزءاً منّا ، وأنّها يجب أن ترافقنا إليه كأيّ موضع آخر ، ولكنّها آثرتْ ألاّ تسمع لنا هذه المرّة ، وذهبتْ كلّ محاولاتنا معها سُدًى . حياتنا الّتي كانت تصطبغ بألوان الحرّيّة التّامّة توقّفتْ عند ذلك الشّارع الأخير المُفضي إلى بوّابة السّجن ، ودخلْنا إلى عالَمنا الجديد من دونها!!

لم يكنْ سهلاً البتّة أن ننتزع أنفسنا منّا . . . من عاداتنا الّتي أَلِفْناها . . . كلّ ذلك كان يتطلّب مِرانًا من نوعٍ مُختلِف ، ودُربةً تتجاوز المألوف ، وتتخطّى روتين الحياة المَعيش!!

ما الحياةُ خارج السّجن؟! وما الحياةُ داخِلَه؟! أهما هُما؟! أم أنّهما مُختلِفان لا يلتقيان أبدًا؟!! يا للحسرة!! أنا أعيد على نفسي هذا السّؤال اليوم ، وقد مرّ عليّ أكثر من مئة يومٍ في سجون بلادي العزيزة!!! واحسرتاه!!

أَضَعْتُ عُمْري عَلَى الأَبْوابِ وَاخَجَلي . . . أَرْجُو الدُّخُولَ وَحُجَّابُ المَكانِ أَبَوْا . . . وَاللَّيْلُ زادَ ظَلامَ القَلْبِ وَالشَّجَنِ . . . وَاحَسْرَةَ الرُّوحِ عَطْشَى لا يَقَرُّ لَها يَوْمًا قَرارٌ . . . وَلا المَاءُ الَّذي شَرِبُوا يَرْوِي الحكايَةَ . . . أَوْ يَرْوِي لَها ظَمَئي . . . فَمَنْ إِذا اللَّيْلُ غَشَّاني يُبَصِّرُني مَتاهَةَ الدَّرْبِ فِي صَحراءِ راحِلَتِي . . . أَهْوَى الضَّياعَ إِذا كانَ الضَّياعُ لَهُ طَعْمُ اللِّقاءِ وَلَوْ فِي آخِرِ

العُمُرِ . . . إنّي رَأَيْتُ دَمِي قَدْ ضاءَ بَيْنَ دُجَى . . . رُوحِي هُناكَ ، فَهَلْ تُهْدَى إِلَى الطُّرُق . . .؟!!! وَاحَسْرَتَاهُ . . . وَهَلْ لِي غَيْرُ فاجعَةٍ . . . تَرُدُّ لِي مَرَّةً عُمْري الّذي سَرَقُوا . . . اللَّيْلُ أَرْجَحَني . . . وَاللّيلُ بَعْثَرَني . . . وَاللَّيْلُ قابَلَني . . . وَاللَّيلُ غَادرَني . . . وَفي اللّقاء كَما في البُعْد . . . أُغْنيَتي شَمْسُ الطَّرِيقِ . . . وَلَكِنْ أَيْنَ قَافِلَتِي . . .؟! ضَعْ حكْمَتي فَوْقَ جُرْحِي وَانْتَشِقْ أَلَمِي . . . إنَّ الجِراحَ لَها كَالْمَرْءِ ذَاكِرَةٌ . . . وَقَدْ تَبُوحُ بِها إِنْ سالَ نازِفُها . . . وَاللَّيْلُ جُرْحٌ رَغِيبٌ سَلْسَلٌ أَرِجٌ . . . وَلَسْتُ أَرْجُو لِجُرْحِي البُرْءَ . . .

خُذْ أَمَلِي . . . خُذْ حِكْمَتِي لا تَصِحْ مِثْلِي عَلَى طَلَلٍ : أَضَعْتُ عُمْرِي عَلَى الأَبْوابِ وَاخَجَلِي . . .!!

كانت أمانيّ أحلامًا مُبعثَرَةً عَلَى القُلُوبِ . . . وصارَتْ نَزْفَ أُغْنِيَتي . ما كُلُّ قلبٍ تُصافيه الودادَ صَفا . . . ولا جَميعُ الّذي تَهْواهُ يَهْواكا . . . عِشْ واحدًا كَغَرِيبِ الدّار نِضْوَ أَسًى . . . ما دَامَ بَدْرُ تَمام الحَرْف يَكْتَمِلُ . . . لو كلُّ مَنْ عَشِقْتَهُمْ أدمُعي عَشِقُوا حُرُوفِيَ البِيْضَ مَا احْمَرَّتْ وَلا نَزَفَتْ . . . ولا كَتَبْتُ بِها تاريخَ أَحْزاني . .

كانَ اللّيلُ صَديقًا حُلْوًا . . . يَهْبِطُ أَهْبِطُ . . . يَدْنُو أَدْنُو . . . وَيُناجيني وَيُغازِلُني . . . كانَ اللَّيْلُ قَديمًا جِدًا . . . يَرْوِي لِي حُزْني مِنْ قَبْلِ مَجِيئي . . . وَيَلُمُّ دُمُوعِي بِحُرُوفِي ، وَيُعيدُ كتابَتَها فَوْقَ جدارِ القَلْبِ . . . وَيَمْحُو عَنْهُ اليَأْسَ . . . فَيُشْرِقُ دَمْعِي يَأْسًا يَحْمِلُ فِي أَضْلُعِهِ الأَمَلَ القادِمَ وَالْمُسْتَقْبَلْ!!

كان اللّيل اللحظة الشّهابيّة في الحياة ، فاصلٌ زمنيّ خارج إطار الزّمن نفسه ، إنْ سكَنَك صنع لك الحدث متماهيًا مع كلّ الأزمنة ، حتّى يكاد أن يكون بلا زمن ، أو أن يكون هو الزّمن كلّه ، فلا يعرّف بأنّه جزءٌ منه . . . فيه تبدّتْ لي الأحلام ، وفيه أضأتُ مشاعلي ، وخطت راياتي ، وعبرتُ عوالمي ، وحفظتُ كِتابي ، ومحوتُ حدودي ، وصنعتُ تاريخي ، وقرأتُ

آياتي ، وفيه ذُبْتُ حتّى صار جزءاً منّي ، لا يفارقني ولا أفارقه .

يرسم السّجين لوحته من ألوان كثيرة ، وفي حالتي كان اللّيل أفضل الألوان في تخليد لوحاتي . لم يكن اللّيل مُتعدّدًا ، ولا فيه مِن سواه ، كان فردًا ، وكان خاصًا ، لا يقبل القسمة على اثنين!!

ذَرَّ قِنْديلُ اللَّيالِي فِي دَمِي سَبْعِينَ شَمْعَةْ . . . ذَرَفَتْ مِنْ أَجْلِها رُوحِي عَلَى أَضْوائِها سَبْعِينَ دَمْعَةْ . . . رَكَضَ الحُزْنُ بِخَطٍّ مُسْتَقِيمٍ فَوْقَ قَلْبِي . . . تِهْتُ فِي آلامِ دَرْبِي . . . فَارَ كَالنَّهْرِ المُصَفَّى حَدُّ جُرْحِي . . . نَامَ حَسُّونُ التَّراتِيلِ عَلَى سَجَّادَةِ الشَّوْقِ المُلِحِّ . . . حِينَما يَهْبِطُ لَيْلٌ حَوْلَ أَزْهارِي وفَوْحِي . . . يَصْدَحُ الحُزْنُ فَيَهْتَزُّ فُؤادُ الكَوْنِ مِنْ أَنَّاتِ بَوْحِي . . .!!

لماذا تغيب الشّمس؟! لتسمح لليّل بالقدوم!! ولماذا تغيب البِذرة في جوف الثّرى المُظلِم؟! لتسمح لأوراقها من بعدُ بالظّهور في مدى الفضاء المُنير!!

خبَأت نفسي في ثرى اللّيل أملاً بأن تخضرّ أوراقي ذات صباح!! كم مرّت ليالٍ وليالٍ عليّ وأنا أعتّق أحزاني ، لأجعل منها حبر دواتي . . . كانت أوراقي عطشى إلى الارتواء . . . حملتُ هناك آلاف الأفكار ، وآلاف الرّؤى ، ونثرتُها من حولي في اللّيالي المعتمة ، وبدت كأنّها النّجوم الّتي تؤنس وحدتي ، وتختصر المسافة الفاصلة بين موتي وغربتي!!

كانت السّجون وطننا وغربتنا ، وهل يشعر الإنسان في وطنه بالغربة؟! نعم . كنّا غرباء لأنّنا لا نفهمهم ، أو لأنّهم لا يفهموننا!! غرباء لأنّنا نحبّ أوطاننا إلى حدّ الفجيعة ، ونضمّ ثراه إلى قلوبنا إلى حدّ الهذيان ، وفي اللّيل نفتح له بوّابة العشق ليدخل إلى ساحاتنا منتصرًا ، وكنّا نغلق عليه تلك البوّابات مخافةَ أن يغادرنا في عتمة اللّيل دون أن يقول كلمة وداع واحدة!! أكنّا أنانيّين بذلك الفعل؟! أمّ أنّه كان يؤثرنا على أنفسنا ولو كانً به خصاصة؟!

بِمَ يفكّر السّجين؟ ما الّذي يُصادِر أحلامه فيصبح رهينًا لليلٍ يأتي

بعده ليل ، ومن بعده ليل . . . ليالي لا تُبدِّلُ فيها الكواكب مداراتها ، ولا تغادر فيها النّجوم مواقعها . . . كيف يستحوذ اللّيل على الصّباح ، فيمنعه أن يُسفِر؟! أللّيل هذه السّلطة الطّاغية :

أبُدّل اللّيلُ لا تَسْـري كَـواكِـبُـهُ
أَمْ طالَ حَـتَّى حَسِبْتُ النَّجْمَ حَيْـرانا؟!

في اللّيل احترفتُ البكاء!! وأدمنتُ النّظر إلى قلبي . . . وفي سهوةٍ من عيونِ زملائي ، كنتُ أملأ من دموعي دواتي ، وأكتب بِحبْرِها . . . ما كتبتُه بحبر الدّموع ظلّ إلى اليوم يملأ فمي بماءٍ مالح!! غير أنّها الذّكرى . والذّكرى خنجر مغروسٌ في خاصرة النّسيان!!

في اللّيل يبرأ الجسد من طينيّته ، فتتجلّى الرّوح في ثوب الحكمة : «ما كانَ لكَ فَهُوَ لَكَ . وَمَا لَمْ يَكُنْ فَلَيْسَ بِهِ» . «وَرُبَّما أَعْطاكَ فَمَنَعَكَ ، وَرُبَّما مَنَعَكَ فَأَعْطاكَ» ، وقد تشكو والخلائق كلُّها تشكر ، وقد تغفو والنّجوم كلّها ساهرة ، وأنتَ بين الشّكوى والغفوة تدفن ما تبقّى من نقائك!!

مَنْ يدلّني عليّ؟! مَنْ يفهم عنّي ما عجزتُ عن فهمه في ساعات التّأمّل ، في الثّلث الأخير من اللّيل . . . ماذا يفعل اللّيل بنا؟! يُرينا كم هي أعمارنا ضائعة ، وكم هي أمانينا ساذجة ، وكم هي حياتنا إلى زوال؟! فأين البقاء إذًا؟! وما البقاء وما الفناء؟! أهما وجهان ينسحبان كلٌّ منهما إلى داخل الآخر؟! ومَنْ يضعني على طريق الخلود ، فإنّي أفنيت ما كان وما سيكون ، من أجل خطوة واحدة نحو تلك الأمنية الهاربة!!

كلّ ليلٍ لا يزيدك حسرةً لا يُعوَّل عليه!! جُعِلَ اللّيل السّاجي بعد النّهار اللاّهبً لكي تبكي على ما اجترحتَ ، وتتحسّر على ما فات حتى ولو كان خيرًا!! فالحسرة هنا سؤال المُنتبِه : أما كان يمكن الاستزادة؟!

على بَرْشِي وفي ظلمات اللّيل القارس ، كنتُ أقبض على الزّمن الهارب من صحوتي في وقت غفلة زملائي لكي أقترب منّي ، لم يكن الخوف من المصير إذا بدأتُ المسير هو غاية مخاوفي!! كنتُ أرتعش لمجرّد تخيّل أنّني

أخطأتُ الدّرب ، وضللتُ الطّريق من البداية . فالبدايات الخاطئة تُفضي إلى الكوارث ، وإن أشعرتْك النّفس الكاذبة في منتصف الطّريق أنّك تُحسنُ صنعًا!! كان السّؤال الّذي يقتلني هو : هل أصبْتُ حين بدأتُ؟! ولو أنّني كنتُ أعرف الإجابة حينها ما طعنتْني خناجر الحيرة لحظة واحدة . ولكنّ الحيرات الّتي وُلِدت من رَحِم حيرات أكبر ظلّت تؤرجحني بين الشّكّ واليقين حتّى تعبتُ وألقيتُ نفسي في وادي الأقدار .

في السّطور المضيئة بنور الحقّ وجدتُ بعضًا من الرّاحة ، لذتُ بتلك السّطور أحتمي بها من عواصف الشّكّ الّتي كانت ترميني في كلّ اتّجاه ، وتجعلني لا أقدر على شيءٍ مِمّا كسبت . هل تفعل الكلمات بالإنسان كلّ هذا؟! من أيّ سحرٍ صيغتْ هذه الحروف حتّى أظلّتْني من رواعد الأسى ، وحمتْني من وحوشِ اليأس؟! لم أكنْ أفعل في كثيرٍ من الأحيان غير التّرنّم بها دون أن أفقه معناها ، كان التّرنّم الوسيلة الوحيدة للإفلات من براثن الذّعر الكامن في النّفس اللّوّامة . وكان الطّريق الوحيدة الواصلة بين القلب والرّئة ؛ فَبِهِ سرى الدّم دافئًا في القلب ، وبه سرى النَّفَسُ صافيًا في الرّئة!!

في اللّيل تبدّى لي تصنيف السّادة والعبيد؟! من أين جاء الإنسان بفكرة العبوديّة؟! مَنِ الشّيطان الّذي دلّه عليها؟! ومن أين جاء هذا الإنسان بمبدأ الفوقيّة : نَزْرٌ يسيرٌ من النّاس هم سادة ، والبقيّة الباقية هم عبيدٌ لا يملكون من أمرهم شيئًا ، لم يُخلَقوا إلاّ من أجل خدمة سادتهم . سادتهم بشرٌ بدماء صافية ، وهم حيوانات بدماءٍ ملوّثة . إنّ أبدعَ شيء يفعلونه هو أن يُبالِغوا في الانحناء ، والسّجود بين يدي السّادة حتّى لا يحرمهم هؤلاء فُتات الطّعام الّذي يُبقي على حياتهم . ليس في قاموس العبيد معنى للذّلّ ولا للضّيم ولا للظّلم!! هذه مصطلحات ملغاةٌ من قاموسهم ، لا يقرؤونها فيه ، وإذا قرؤوها فإنّهم لا يفهمونها ، هم يعيشونها – دون أن يدروا – لأنّهم وجدوا أنفسهم كذلك ، فما عادت تُثير فيهم أدنى مشاعر الغضب أو الرّفض أو الثّورة . ولِمَ يثورون؟! وعلامَ؟!! أليسوا يجدون طعامهم في

المَخالي؟! وها هم ينامون ويستيقظون؟! ويروحون ويغدون؟! ويلهم!!! أما علموا أنّ الحيوانات تأكل . وتنام وتصحو . وتروح وتغدو؟! فماذا تركوا لها من شيءٍ حتّى لا يكونوا مثلَها؟!!!

نعم ، كانت السّجون تصنع هذا الفارق الهائل بين السّادة والعبيد ، وتضخّمه . (كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشّريفُ تركوه وإذا سرقَ فيهم الضّعيفُ أقاموا عليه الحدّ) . تُربّي الأنظمة أجهزتها وذئابها كي تظلّ أمينةً على تأصيل هذا الحدّ الفارق بين الفئتين ؛ لأنّها تعلم أنّه سبيلها الوحيدة كي تبقى جالسةً على الكراسيّ المُزخرفة ، وهي أيضًا تعلم أنّها ستفقد كلّ شيء إذا كان العدل هو الميزان الّذي يوزن به النّاس جميعًا . فكم من السّادة لم يكونوا سادةً إلاّ لأنّ العبيد ظلّوا عبيدًا!! وكم واحدٍ منهم صار سيّدًا لا لصفات قادرةٍ على أن تبوّئه في هذا المكان ، بل لأنّ جدّه من قبل مرّ بهذه الدّيار أو بهذهِ الآبار . . . فتبًا لأمّة تملّكَ سادتُها الجاثمون على صدورها بالتّقادم!!

في اللّيل تميل بي الحروف ، وأقتبس من نارها نورًا يعينني على أن أقطع الظّلام في دروبي الشّائكة ، وأن أؤنس وحشتي في المسارات اللامنتهية . . . الحرف يحرفك إلى الصّواب أو ينحرف بك إلى الضّلال . . . والحَرْف يقف بك على الحَرْف ، فإن لم تتقن فنّ الإمساك به ، وقعت منْ على الحرف إلى الهاوية!! أمسكتُ بحروفي في اللّيالي المدلهمّة ، ورحتُ أرَتّبها حسب القوى الكامنة فيها ، وأصنع منها كِتابي . . . هناك حروف قائمة ، وهناك حروف نائمة . هناك حروف مائلة ، وهناك حروف معتدلة . هناك حروف صحيحة ، وهناك حروف معتلّة . هناك حروف مستقيمة ، وهناك حروف معوجّة . . . كنت أستخدم القائمة لأُوقظ النّائمة ، وأستخدم المعتدلة لأُعدّل المائلة ، وأستخدم الصّحيحة لتصحّ بها المعتلّة ، وأستخدم المُستقيمة لأُقوّمَ المُعْوَجَّة . . . غير أنّها جميعًا بأطيافها ما كانت لتشكّل المعنى لو لم تحمل في داخلها هذا التّناقض الجميل!!

في الليل كنتُ أرى الأشياء بوضوح أكثر ، حرصتُ أن أعاين ذاتي في عتمة اللّيل ؛ لأنّها تتبدّى هناك جليّة بمراحلَ قياسًا إلى ما عداه . وشاهدتُني قَدَرًا أو على موعدٍ . ليس مهمًا . المهمّ أنّني التقيتُني في نهاية المطاف ، لكنّ لقائي بي لم يُشبع نهمي إلى معرفتي ، كان اللّقاء سرعان ما ينتهي عند أوّل نظرة مُحرّمة ، تحرمنا النّظرات الآثمة من الوصول إلينا ، فمن يستطيع اليوم أن يمنعني من الهرب منّي؟! ومَنْ يستطيع اليوم أن يُصلح ما بيني وبيني!!

في اللّيل استعضتُ عن البصر بالبصيرة لأتلمّس الدّرب . وحدها البصيرة لا تكذب ، ولكنّ البصر يخون ويكذب : (يَعْلَمُ خائنَةَ الأَعْيُنِ) . عندما تنظر بعيون القلب ترى الأشياء على حقيقتها ، لا كما تريد أنتَ أن تراها أو تتشهّاها . . . وكما أنّ الفرق بيّنٌ بينَ الخيال والواقع ، كان الفرق كذلك بَيّنًا بين رؤى العين ورؤية القلب ؛ كانت العين تتخيّل ، وكان القلب يُجسّد!! (فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)!!

أهم نحنُ الّذين نجوعُ ونشبع ، ونفرح ونحزن ، ونَصِحُّ ونمرض ، ونموت ونحيا . . . أم هم غيرنا؟! أهم نحن ، أم صُوَرُنا الّتي تُشكّلنا في عالَم الزّيف؟! وهل لِعالَم الزّيف إلاّ أن تكون صُوَرُه مُزيّفة؟!! فأين نحن إذًا؟! هل نحن ما نحن على هذه الفانية أم هناك في الباقية؟! هل هذه صورنا الزّائفة أم هي ذواتنا الكاشفة؟! وإذا كانت ذواتنا لا تفنى فَلِمَ تفنى صورنا؟! وإذا كانت صورنا تفنى فَمَنْ كنّا حين كنّا فيها؟! وإذا كنّا نعيش في دار الفناء فهل نحن فانون مثلها ونحن كائنون فيها؟! وإذا كانت هذه الدّار ستصبح يوم الحقيقة هباءً منثورًا ومحض خيالٍ مرّ في لا وعينا ، فما قيمة وجودنا في فناء يسير إلى فناء ولا يبقى من ذكراه شيءٌ يوم نستيقظ في عالَم الحقيقة؟! مَنْ أوحى إلينا أنّ الحياة تدبّ فينا؟! أكنّا خُدعنا بذلك؟!!! وهل نحن نتخيّل ما نرى حين نظر إلينا ، أم ما نحن إلاّ أشكالنا الزّائفة تتخايل لنا في الدار الفانية!!!

وَفِي دارِ زَيْفٍ تَراءَى خَيالاً وَرَاءَ الزُّجاجْ ، وَفِي هَذَيانِ العُقُولِ الَّتي تَتَرَدَّى ثِيابَ المِزاجْ ، تَغيبُ الحَقِيقَةُ خَلْفَ الرِّتاجْ . . . وَيَبْقَى السُّؤالُ الأَسِيفُ يَضِنُّ بِأَسْرارِهِ عَجَبَا . . . وَأَبْقَى شُعاعَ ضِياءٍ لآخِرِ قَطْرَةِ زَيْتٍ خَبَا . . . وَأَلْهَثُ خَلْفَ الجَوَابِ كَطَيْرٍ جَرِيْحٍ إِلى وَرْدَةٍ فِي المَنافِي صَبَا . . . وَيَأْتِي الجَوَابُ كَحَدِّ الظُّبَا . . . تَمَهَّلْ : (فَلَنْ تَسْتَطِيْعَ لَهُ طَلَبَا) . . .

في اللّيل يحضر الأحباب والأعداء . . . الملائكة والشّياطين . . . الماضي والمستقبل . . . الجنون والعقل . . . البكاء والضّحك . . . في اللّيل تُصبح إنسانًا مثاليًا ؛ حقيقيًا بطبائعك المتناقضة ؛ ترمي وراء ظهرك التّصنّع ، وترتدي ثوب العفويّة ؛ ولأنّك وحدك فإنّك تبدو في أكثر حالاتك صدقًا ، إذ قد يكذب الإنسان على غيره ، وقد يخدع سواه ، أمّا نفسُك فلن تستطيع معها غير الصّدق!!

في ١٩٩٦/١٢/٦م ، وقُبيل أن يُنادَى لأذان الجمعة ، نودِيَ عليّ للزّيارة ، ها هو أبي يطلّ بوجهه الّذي كلّما رأيته ازددتُ منه قربًا ، وله حبًا ، يسألني عن أوضاعنا ، فأقول له : إنّ التّضييق علينا قد ازداد ، وإنّ كثيرًا من شباب المهجع ينوون الإضراب عن الطّعام احتجاجًا على سوء الأوضاع . وإذا دخلْنا في هذا الطّقس الجماعيّ ، فإنّ كلّ شيء يُصبح ممنوعًا ، ابتداءً من الطّعام وليس انتهاء بالزّيارات ؛ فهم يظنّون أنّ رؤية أهل السّجين في فترة الإضراب قد تؤجّج المشاعر ، وقد تُسبّب المشكلات ، ولذلك يتمّ عَزْلُ المُضرِب عن العالَم الخارجيّ والدّاخليّ بوجه تامّ!!

بعد جمعة أبي ، دخلتُ في متاهة اللّيالي المدلهمّة ، كلّ ليل كرّ عليّ من بعده ، جاءني بليل أشدّ سوادًا ، ويبدو أنّ هذه الإشراقة الوحيدة الّتي اقتبسْتُها من أبي ستظلّ عزائي ، وبصيص النّور لأكثر من أربعة عشر يومًا قادمة!! غرس اللّيل سكّينه في قلبي ، فسال ياسمين القصيدة ، وفاح عنبرها في الأجواء ، فملأ عتمة اللّيل بالفراشات البيضاء!!

(١٢)
«لا يَأكُلُونَ الطَّعامَ»

بدأت المُضايقات تأخذ مناحيَ متعدّدة ، وبدأنا نشعر باستهدافنا أكثر من سوانا ومن ذي قبل ، وصارت إدارة السّجن - على ما يبدو - تستمتع كسلطة في تهميشنا وإنزال الأذى والضّيم بنا . . . في البداية انحنت السّنبلة أَمَلاً في أن تنزع القنبلة في جوف الثّرى ، وصَمَتَتْ لكي تمرّ العاصفة ، وحتّى لا تزداد هبوبًا عند مواجهتها دون حكمة . ولكن في النّهاية لا بدّ أن تقلب الطّاولة على رأسِ كلّ مَنْ حولها بمن فيهم أنتَ إذا كنتَ هناك!!

مُنعت الزّيارات الخاصّة إلى الأبد ، جئتُ إلى هذا السّجن وهي ممنوعة ، وغادرتُه وهي ممنوعةٌ كذلك ، كذلك كتبَ الله . ومُنعَ الاتّصال مع الخارج بتاتًا وتحت أيّ ظرف . كانوا في السّابق يسمحون للسّجين السّياسيّ بإجراء مكالمة هاتفيّة مع ذويه مرّة واحدة في الأسبوع ولمدّة لا تزيد عن ثلاث دقائق ؛ أمّا الآن فما من أيّ سبيل إلى ذلك . ثمّ مُنعت الصّحف ، وكانت في البداية تدخل الرّأي والدّستور ، وعدد من الصّحف الأسبوعيّة ، فألغيت الأسبوعيّة كلّها ، وأُبقِيَ من الصّحف اليوميّة على صحيفةٍ واحدة هي الرّأي الّتي كانت تتبع الدّولة ، وكنّا نسمّيها صحيفة المُخابرات ؛ ولذلك أحجمَ كثيرٌ منّا عن شرائها أو متابعة أخبارها ، وبذا حُرِمنا تقريبًا من هذا المُتنفَّس بشكلٍ نهائيّ . ثمّ أُغلِقت الأشباك الفاصلة بين مهجع وآخر لفترات زمنيّة أطول ، وامتدّت اليد الخانقة فكثّفتْ تواجد الحُرّاسً على قواطع الأشباك ، هذا عدا عن أنّ السّاحة الكبيرة نسبيًا والمُطلّة على

مربّع السّماء الأزرق الرّابضة بجانب إحدى الغرف الكبيرة في مهجعنا كانت قد أُغلِقت منذ ما يقربٍ من مئة يومٍ ؛ أي بعد مجيئي إلى هنا في سجن سواقة ببضعة أيّام فقط .

ثمّ أغلِقت العيادة الطّبّيّة في وجوهنا إغلاقًا شِبه تامّ ، ففي حين كنتَ تستطيع أنَ تزورها دون إذنٍ مُسبَق وكلّما دعت الحاجة إلى ذلك ، صارت زيارتها أشبه بزيارة القصر الجمهوريّ ، تحتاج فيه إلى استدعاء أو موعدٍ مُسبق ، وغالبًا ما كان الموعد يحدّد بعد تقديم الاستدعاء بأربعة أيّام ، فمن كان منّا - مثلاً - مُصابًا بالإسهال ، فإنّه ينتهي هو وإسهاله قبل أن يأتي موعد رؤية الطّبيب له . ولم يكن الأمر يحتاج في حالاتٍ كثيرة أكثر من صَرْف حبّتين من الدّواء لتنحلّ المشكلة البسيطة ؛ ولكنّهم قصدوا بذلك الإذلال والإهانة والتّخويف . وقد وقر في ذهنهم أنّ هؤلاء المساجين يجب أن يُضغَطوا إلى أقصى حدّ حتّى يتأدّبوا ؛ لأنّهم دوابّ لا يفهمون إلاّ لغة العصا ، وإنّهم سيتَنَمْرَدُون لو رُفِعَ عنهم الضّغط ولو قليلاً ، فابقَ داعِسًا عليهم ببسطارك ، فَلَئَنْ يئِنّوا تحت وقع السّياط حتّى الموت خيرٌ من أن يتغوّلوا عليك حتّى يصبحوا خارج دائرة السّيطرة ، وحينئذ أنّى للأوراق المُبعثرة في فضاء الحرّيّة أن يُعادَ ترتيبها من جديد!! كانت الإدارة تظنّ أنّ سبيل العنف مع المساجين سوف يكبتهم ، ويجعلهم حيوانات مُطيعة ترمي رأسها ، وتنظر أسفل قدميها ، وتسير مُذعنة منقادة . . . ولكنّهم كانوا أكثر من مُخطِئين ، إنّ أيّ سلطة لا تقوم على احترام الإنسانيّة في السّجين سوف تبوء بالفشل ، وستكون عاقبة استخدام القوّة - على المستوى الجَمْعيّ - وخيمة ، وحين ينداح الطّوفان يبتلع في طريقه القابضين على السّياط أوّل ما يبتلع .

تفنّنت الإدارة في ابتداع وسائل التّضييق علينا ، ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ . صاروا يُصدِرون أوامرهم إلى السّجناء باستعلاء مُطلَق ، وبصياح تتبعه شتائم مُقذِعة ، وأصبحوا يستخدمون الضّرب بداعٍ وبدون

داعٍ في أكثر الأحيان ، وأصيب الجميع باختناق من هذه المعاملة السّيّئة المُمَنْهجة ، وبدا السّجن كاملاً كأنّه زجاجة مضغوطة يتجمّع البخار في عنقها الضّيّق ، المُغلَق بفلّينة السّلطة . . . كلحت الوجوه ، واكفهرت القَسَمات ، وما هشّ ولا بشّ أحدٌ لا من السّجناء ولا من السّجانين ، وغاض البِشر ، وحلّ محلّه الضّيق والاحتقان ، وبَدَونا ونحن نمشي أسودًا جريحة تُحاول أن تتعالى على جراحها ؛ تلعقها بعيدًا عن الأعين ، وتتابع سيرها وفي قلبها مرارة عميقة ، وفي حلقها غصّة لا تزول . . .

ثمّ امتدّ الأمر إلى داخل المهاجع ، فلم تعد المياه السّاخنة تصل إلى الغرف ، وكنّا وقتها في الشّتاء ، وفي الجنوب تكون برودة الشّتاء مُضاعَفة ، وفي اللّيل يصل البرد إلى العظام ، ويحزّها بسكّينه حتّى يفصلها عن مُخّها . . . نعم أنّى للواحد منّا أن يستطيع وضع يده لثوانٍ تحت الماء البارد المتجمّد ، فضلاً عن أن يضع جسمه تحته ويستحمّ . . .!! وصارت الإدارة تلعب بنا وكأنّها تتسلّى أو تستمتع بهذا اللّعب ، فتسمح بالماء السّاخن مرّة واحدة في الأسبوع ، ودون أن تُعلِن عن موعد هذه المرّة ، وعليكَ أنتَ أن تظلّ تراقب أنبوب الماء كلّ عشر دقائق لتعرف أنّ الماء السّاخن قد وفد أم لا؟! وعلى أعصابنا عشنا أيّامًا وليالي طويلة . . . كثيرًا ما كنتَ ترانا نغفو كالموتى على أسرّتنا متدثّرين بالبطّانيّات الرّماديّة ، نحلم بالدّفء ، ونتكوّر على أنفسنا والموت يُراقِبنا عن كثبٍ يتحيّن الفرصة للانقضاض علينا . ونترك خلفنا كلّ شيء لنحظى بقطرة ماءٍ واحدة تُعيد الدّفء إلى أوصالنا المتجمّدة . . . ثمّ في غمرة استسلامنا ونومنا ، نفزع مستيقظين على صوت أحدنا وهو يصرخ كأنّه عثر على صندوقين من الذّهب :

– المَيِّة السُّخْنة أَجَتْ يا شباب . . . الميّة السّخنة أَجَتْ يا شباب . . .!!

ونقفز نحن من أسرّتنا فور سماعنا هذا النّبأ السّارّ ، ونتدافع إلى الحمّام ، ونتراكض إليه غريزيًا ، ثمّ نرجع إلى أنفسنا ، فنشعر أنّ الأنانيّة

مستقرّة في لا وعي كلّ واحدٍ منّا ، فما أحدٌ قدّم الآخرين على نفسه ، ثمّ يصحو العقل والفؤاد ، فنرتّبُ عمليّة الدّخول إليه ، ويسمح الأمير لكلّ واحدٍ منّا بخمس دقائق ليستحمّ ؛ لأنّ الإدارة أيضًا قد تقطع الماء السّاخن بعد أقلّ من ساعة ، وكنّا تسعة سجناء في تلك الغرفة!!

ثمّ قُلّصت فترة الزّيارة حتى من خلف النّافذة الزُّجاجيّة الّتي لا تُظهر إلاّ نصف النّزيل العلويّ . قُلّصت إلى عشر دقائق ، وكانت في السّابق تصل إلى عشرين دقيقة ، وإذا كانت ساعة رحمانيّة عند أفراد الشّرطة فقد يسمحون لك بنصف ساعة تُحادِث زائرك . لم يكن من المعقول مثلاً أنّ أبي سيقطع أكثر من (٣٠٠) كم من أجل أن يتحدّث معي عشر دقائق أو أقلّ ، إنّه لظلم ، واستهتار بمشاعر السّجناء . . . وإذا كانت الزّيارة بالنّسبة للسّجين القابع في هذا السّجن الصّحراويّ الجنوبيّ كقطرة الماء النّازلة على الأرضِ المُقفرة ، فإنّ عشر دقائق لا تروي من هذه الأرض الشّاسعة الممتدّة صحراءَ من كلّ الجهاتِ شيئًا . . .!!

ثمّ مُنعت كثيرٌ من الكتب الّتي كانت تصلُ إلينا من الخارج لقراءتها ، وتذرّعوا أنّها - أي الكتب - ممنوعةٌ ولا يمكن أن تدخل لأنّها تُفسد عقليّة السّجين ، وتُخرِب فكره . وأتساءل : أما دخلت الأردّن؟! فكيفَ لم تُمنَع من دخولها الأردنّ ، ومُنعت من دخولها إلى سجنٍ في الأردّن؟!! هل السّجن دولةٌ أخرى ، ووطنٌ آخر؟! ربّما .

كان عكرمة أكثرنا تلهّفًا على طلب الكتب من الخارج ، وكانت خطيبته تبعث له الكتب بانتظام ، وتزوره بانتظام ، وأعترف اليوم بأنّ لها في بعض ثقافتنا فضلاً لا يُنكَر ؛ ذاك أنّ الكتب الّتي استطاعت أن تُدخِلها كانت تصل إليّ بعد (عكرمة) ، فقرأتُها جميعًا . . . ولم تكن كتبًا عاديّة ، أو كتبًا متوافرة في مكتبة السّجن ؛ كانت كتبًا ينتقيها (عكرمة) بذكاء ، ويطلب من خطيبته أن تأتي بها . . . صحيح أنّ عمليّة إدخال الكتاب في البداية كانت تمرّ بمراحل عديدة ، تمرّ على الضّابط المسؤول ، ثمّ

على الأمن الوقائي أو البحث الجنائيّ، ثمّ على مسؤول المهجع، وأخيرًا على مدير السّجن، ثمّ بعد أكثر من خمس مراحل وموافقات تصل إلى السّجين في مهجعه، وأحسب أنّ كثيرًا من أصحاب السّلطة في هذه المراحل لم يكن يقرأ الكتاب ولا يفهم ما في داخله، وقد يَمنعُ المسموحَ دون أن يُدرك، ويسمحُ الممنوعَ دون أن يدري!! ومع كلّ هذه التّضييقات إلاّ أنّه كانت تصلُ إلينا في النّهاية بعض الكتب . . . أمّا اليوم وفي خضمّ هذه السّلسلة من التّضييقات فقد مُنعت الكتب إلى غير رجعة!!

ثمّ مُنع إدخال الملابس إلى السّجناء بوجهٍ عامّ، وحُصرت الملابس المسموحة بملابس الرّياضة، وبلونين فقط هما الكحليّ والأسود. وحُكِمَ على السّجناء جميعًا ألاّ يروا إلا هذين اللّونين القاتمَين؛ كأنّ سواد السّجن كان محتاجًا إلى ما يزيده سوادًا!!! ولم يكن أمام كثيرٍ من السّجناء إلاّ أن يعيشوا بأفرهول السّجن الأزرق الوحيد، وبعضهم كان محكومًا لعشر سنوات أو أكثر، وبعضهم كان محكومًا بالمؤبّد!!

ثمّ أصبحتْ أقلّ عقوبةٍ لسجين يريد مأمور المهجع أو الضّابط معاقبته أن يُسجَن في الزّنازين الانفراديّة لمدّة قد تزيد عن عشرين يومًا، وقد تصل إلى أربعين. وكلّ السّجناء يُدرِكون أنّ الزّنازين الانفراديّة هي سجنٌ داخل السّجن، وقد تكون أقسى عقوبة يتلقّاها السّجين هنا؛ حيثُ تُصبح إنسانًا معزولاً عن العالم الخارجيّ كلّه وعن البشر والحيوانات والشّجر وكلّ شيء . . . فقط أنتَ وحدكَ مع الجدران الأربعة الّتي تُضيّق الخِناق عليك ولا تسمح لك حتّى بالحركة داخلها . . . وحين تقتلك الوَحْدة والعزلة ولا تجد من تُحدِّثه هناك، تصبح تتّخذ من نفسك شريكًا لك في الزّنزانة وتبدأ بمحادثته، فلا يشكّ مَنْ يراك على هذه الحالة بأنّك مجنون، وبالفعل فإنّ الحبس الانفراديّ إذا طال فقد يؤدّي بصاحبه إلى الجنون!!

وقد طالت مظاهر التّضييق على السّجناء الآخرين أيضًا، واختلط الحابل بالنّابل، وتململ الكثيرون، غير أنّهم رضُوا بما آتاهم الله، واستكانوا

إلى الإذعان . وهنا بدأ السّؤال الصّارخ يطرق أذهاننا بشدّة : ماذا يُمكن أن نعمل؟! وكيف نواجه ما نحن فيه؟! وتداعى عدد من الشّباب للتّفكير في الأمر ، وكان الاقتراح الّذي وجد بعض التّأييد هو : الإضراب عن الطّعام ، وإيصال صوتنا وقضيّتنا إلى الخارج على المستوى السياسيّ والإعلاميّ والاجتماعيّ .

نعم ؛ إنّ فكرةً مثل فكرة الإضراب عن الطّعام ليست فكرةً تتلاقى حولها كلّ التّوجّهات السّياسيّة في السّجن ، وانقسمْنا إلى آراء متعدّدة ؛ فأمّا حِزب التّحرير فيرى فيها قتلاً للنّفس ، وأنّها انتحار ، وبذلك فهي حرامٌ شرعًا ، وقد أجمعوا كلّهم على عدم الاشتراك بها ، واحتجّوا بقوله تعالى : (وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) . وأمّا جماعة التّوحيد (بيعة الإمام) فقد كان رأيهم معروفًا ، ومُشابِهًا لرأي حزب التّحرير ، وهم يقولون : إنّهم إذا تعرّضوا للتّضييق ، وسُلبت منهم بعض الحقوق ، فإنّهم يستردّونها بالقوّة وبالمواجهة وليس بهذا الخَوَر الّذي تُسمّونه : الإضراب عن الطّعام . وقد كانت لهم سابقة في ذلك فقد احتجزوا شرطيًا قبل أكثر من أربعة أشهر ، وحدث ما حدث ، وتحمّلوا في ذلك كلّ ما لحق بهم من أذىً دون أن يضجروا أو يلينوا!! وأمّا بقيّة الشّباب فقد انقسموا بين الرّأيين . . . وأمّا أنا فقد كنتُ متردّدًا في البداية ، ثمّ عزمتُ أمري معهم على الدّخول في الإضراب عن الطّعام .

نعم . . . سنُضرِبُ عن الطّعام إلى أجلٍ غير مُسمًّى ، وحتّى تتحقّق مطالبنا جميعها دون استثناء . كان على كلِّ مُضرِبٍ أن يتقدّم باستدعاء إلى مدير السّجن يُعلِمُه بعزمه على الدّخول في هذا الطّقس . وحين تصل الورقة إلى المدير يستدعي السّجين ، ويحاول أن يعدله عن رأيه ، ويلبس أمامه لِباس الواعظ النّبيل والنّاصح الأمين . . . ولم يتزحزح واحدٌ مِنّا عن نيّته ، ولم يتأثّر بما قاله المدير البتّة . . . وعليه فقد حُلقت شعور رؤوسنا كأنّنا سندخل سجنًا جديدًا ، وأُمِرنا بأن نلبس أفرهولَ السّجن الأزرق ،

وأعطي كلّ واحد منّا بطّانيّتين أو ثلاثًا ، وفُتِّشْنا تفتيشًا دقيقًا ، ومُنع أن نُدخِل معنا أيّ شيء ؛ كان التّفتيش الدّقيق يستهدف بالدّرجة الأولى الطّعام والشّراب ، أمّا الكتب فلم يدقّقوا عليها كثيرًا . . . وأمّا أنا فأدخلتُ معي عددًا من الكتب الّتي كانت معي في الغرفة لتكون أنيسي في وحدتي في مرحلة الإضراب .

وَوُزِّعنا على الزّنازين الانفراديّة دون أن يدري كلّ واحد منّا عن مكان زنزانة الآخر . كان عددنا في البداية (١٢) سجينًا ، فوزّعونا على زنازين مهجع (٢) ، ولستُ متأكّدًا أنّنا جميعًا كنّا في زنازين هذا المهجع ، أمّ أنّهم وزّعونا على مهجع آخر أيضًا ، لأنّني لا أتوقّع أنّ الزّنازين الانفراديّة في المهجع تتّسع لأكثرَ من عشرة أشخاص ، فَعددها هو عشر زنزانات ، ولا يوضع في الزّنزانة غير سجين واحد .

أُغلِقَ باب الزّنزانة رقم (٦) عَلَيّ ، وتُركتُ وحدي في مواجهة عالَمي الجديد ، ولَفَحتْني - أوّل دخولي إلى الزّنزانة - نفحةُ هواء باردة ، إنّها تحيّة الاستقبال الأولى ، كانت باردةً إلى الحدّ الّذي اضطرّتني إلى أن أرتجف رجفةً سريعةً من أسفل قدميّ إلى أعلى ذقني دفعةً واحدة ، وكانت حادّةً مرّت بأنفي لتملأه بغبار الّذين قضَوا هنا أيّامَهم قبلي ، ثمّ لفّتْ جسدي كلّه ، فَسَرتْ قشعريرة غامضة في جميع أوصالي ، ثمّ غادرتْه إلى أعلى رأسي ، وصعدت إلى سقف الزّنزانة آخذةً منّي شيئًا لم أجد إلى وصفه سبيلاً إلى اليوم . أدرتُ نظري في موطني الجديد ، كانت الزّنزانة مستطيلة ، متران طولاً ، وأقلّ منهما عرضًا ، وفي الزّاوية اليُسرى هناك مربّع مرتفع عن الأرض حوالي (٣٠) سم ، يقع فيه مكان قضاء الحاجة ، وبجانبه صنبور ماء تقبع تحته مباشرة (علبة بلاستيك) مشقوقة من الأعلى لملئها بالماء عند الحاجة . . . أمّا الأرضية فخالية من كلّ شيء ، فقط كان البلاط البارد القارس سيّد المكان ، وفي الأعلى نافذة الزّنزانة في أقصى ارتفاع في الجدار ملاصقٍ للسّقف الّذي كان يرتفع سقفُها حوالي أربعة

أمتار، كانت النّافذة مفتوحة على الهواء البارد المُميت الّذي ينفذ من خلالها بحريّة تامّة، وكانت القضبان الحديديّة السّميكة تقف بشكل عموديّ على مدى طول هذه النّافذة الّذي يقرب من مترٍ ونصف. أجلتُ نظري في أرض الزّنزانة أبحث عن أفضل مكان لأجعلَ منه مَجلسي ومنامي، فاخترت الجانب الأيمن؛ كونه الأبعد عن منفذ الهواء، وكذلك الأبعد عن مكان قضاء الحاجة، ولكنّ الزنزانة مكشوفة كلّها للشّرطيّ الّذي يستطيع أن يرى السّجين في كلّ مكانٍ فيها من خلال الفتحة الموجودة في أعلى باب الزّنزانة، كان المفروضُ في هذه الفتحة أن تكون مستورةً بالزّجاج، غير أنّ هذا الزّجاج الّذي كان يُغطّيها في السّابق قد كُسر منذ زمنٍ، فشاركت النّافذةَ العلويّةَ في إدخال كمّيّات إضافيّة من الصّقيع والبرد...

فرشتُ إحدى البطّانيّات تحتي، ولففتُ إحداها لتكون مِخدّتي، وهيّأتُ الثالثة لتكون غِطائي... كان حجم البطّانيّة الواحدة لا يكفي لأن يكون وسادة توضَع تحت الرّأس، وكانت برودة الأرضيّة تحتي لا تحجبها بطّانيّة واحدة ولا اثنتان ولا عشر... وهكذا سبحتُ في البرودة من أوّلها... لم يكنْ من خيارٍ لديّ لدفع شيءٍ من هذا البرد سوى أن أداوم على الحركة داخل الزّنزانة... ومع أنّ المسافة طولاً لا تزيد عن مترين، إلاّ أنّني عوّدتُ نفسي على الحركة خلال هذه المساحة، ووجدتُ فيها وسيلة لا بأسَ بها لطرد شبح البرد المتربّص بي في كلّ لحظة...

مرّ نهار اليوم الأوّل سريعًا، وهبط اللّيل كطائرٍ متلهّف إلى الهدوء التّامّ... وبدأ اللّيل يفرد جناحيه حولي فيغطّي على كلّ شيء، وبدأت العتمة تتنفّس من حولي ثلجًا، فتحيل كلّ ما كان مرئيًا إلى خيال أو إلى طيوف تستمرّ في التّلاشي والاختفاء، حتى يغيبَ في أمواج اللّيل كلُّ ما كان ظاهرًا، ولا يشفع بياض الثّلج في قهر شيءٍ من الظّلمة الدّاكنة الّتي تلفّ حتّى أرواح الموتى!!

في عتمة اللّيل تسلّلتْ إليّ ذكرياتي ، وجلستْ إلى جانبي ، وحدها يومذاك استطاعت أن تضيء شيئًا من الظّلام المُحدِق بكلّ شيء ، وبدأتُ آنس بوجودها . . . بدت الذّكريات فتاةً يلفّها الغموض توغل في الهرب منّي باتّجاه الأفق . . . كان الأفق رماديًا ومزمجرًا بالعواصف . . . من بعيد صرتُ ألمحها تظهر بين الغيوم تارةً وتختفي أخرى . . . غير أنّ ظهورها الفجائيّ غير المُنتَظم كان يُشيع قليلاً من الطّمأنينة في جوّ ينضح بالرّعب من كلّ الجهات ، باردًا كثلاّجة الموتى ، قارسًا كصقيع الرّوح ، مؤلمًا كسكّين ذكرى . . . قريبًا من الأفق لاحت الوديان السّحيقة ، وهي تهوي في الأرض من على حافّة الجُرُفات الكثيرة . . . على الحوافّ ركضتُ ، وقريبًا من السّقوط لهثتُ . . . شيءٌ ما كان يشدّني إلى الأعلى كلّما شارفْتُ على السّقوط ، ويدٌ حانية كانت تمتدّ إليّ من بين الغيوم والعواصف والوديان السّحيقة ، ظلّت هذه اليد رفيقتي في ذلك المساء المُرعب كلّه . . . كانت يدَ أمّي . . . حينما لاح لي وجهها من بعدُ شعرتُ أنّ سحابةً من الأمان تلفّني وتحجب عنّي كلّ أذى . . . في ظلالها تفيّأت ، وفي برد سلامها ألقيتُ كلّ مخاوفي ، وتخلّصت من كلّ أوهامي . . .

آه أمّي . . . تحضرين في القلب والوجدان حين تشفّ الرّوح ، وتنهمل دموع القلب . . . وحينَ يتربّص رُمح الظّلم بشامخ العنق تبدين كأسماء في ثبات الرّواسي ، وشموخ الجبال . . . لفّ اللّيل كلّ شيءٍ في الزّنزانة ، وأحاط بها دورات متتابعة مثل وشاح حول خصر فتاة . . . . وغادر في النّهاية . . . وغادرتُ معه اليقظة . . . غفوت ويد أمّي ما زالت في يدي تملؤها بالدّفء ، وتطرد عنّي كلّ البرد الآثم!!

صحوت في صبيحة يوم الأحد ١٩٩٦/١٢/١٥م ، وكنتُ قد نمتُ نومًا هانئًا في اليوم السّابق . . . كانت الدّماء تملأ فمي ، طعمها المالح نبّهني إلى وجودها ، تحسّسْتُ فمي بيدي لأجد أنّ الدّماء ملأت الاثنين معًا ، سارعتُ إلى الزّاوية ، لفظْتُ ما تبقّى في فمي من دمٍ بعد أن ابتلعتُ

أكثره ، ثمّ عبثًا رحتُ أحاول أن أهدّئ فَوَران الدّم منه . . . شعرتُ بارتخاء تامٍّ في جسدي ، وبدأ بعض الطّنين يلفّ أذنيّ ، وغام جدار الزّنزانة أمامي ، وتماهى صنبور الماء مع الدّم وكدتُ أسقطُ لولا أنّني سارعتُ برشف غُرَفات من الماء ، ثمّ نهضتُ مترنّحًا وعدتُ إلى بطّانيّتي ، واستلقيتُ على ظهري ، ورفعتُ رجليّ على إحدى البطّانيّات ، ورحتُ أملأ رئتيّ من الهواء بشهيق واسع . . . بعد أن هدأتُ قليلاً اعتدلتُ في جلستي ، كان بعض الدّم قد ملأ صدري ، وسال شيءٌ منه على الأفرهول الأزرق ، فشكّل بأحمره لوحةً تراجيديّةً فانتازيّةً فريدة ، كانت الأحمر والأزرق يُنتجان لونًا قرمزيًا ثالثًا ، وراحت الخطوط الّتي سالت عشوائيًا ، والقطرات الّتي تناثرت بداهةً تشكّل معالم هذه اللّوحة (الفان كوخيّة)!!

مرّ يومٌ كامل لم يدخل في جوفي أيّ طعام . . . ولكنْ لا بأس ، لستُ خاسرًا في هذه الجولة : إذا لم تدخل جوفي كسرة خبزٍ واحدة ، فلقد دخلت إلى عقلي آلاف الكلمات الرّائعات ، واستقرّت في جوف ذاكرتي آلاف الصّور ، وتراقصت هناك أطياف الأدباء والمفكّرين والشّعراء و . . . والمجانين . . . نهضتُ إلى صنبور الماء ثانيةً ، ملأت يديّ ماءً وشربتُ ، وأعدتُ الكرّة حتّى رويت . . . كان الماء ينزل من فتحة الصّنبور ومعه أشياء كثيرة ، بألوان متعدّدة . . . غير أنّ البقاء على قيد الحياة كان أهمّ من التّفتيش على نظافة الماء . . . تذكّرتُ في هذه اللّحظة ذلك الغريق الّذي استصرخ أحد القريبين من النّهر لينقذه ممّا هو فيه ، وقبل أن يمدّ الرّجل يده إلى الغريق انهال عليه بسيل من الأسئلة : مَنْ الّذي جاء بك إلى هذه النّقطة من النّهر؟! إنّها خطيرة ألا تعلم ذلك؟! لماذا لم تستشر أحدًا قبل أن تسبح هنا؟! هل . . . وقبل أن يُتِمَّ الرّجل عواصف أسئلته صرخ به الغريق وهو يُشرِف على الموت : أنقذني الآن ، وبعد ذلك سأجيب عن كلّ أسئلتك؟! نعم ؛ هل كنّا نسأل أنفسنا أو الآخرين أحيانًا أسئلةً في غير مواضعها؟! أو نتفلسف في موطن التّأمّل؟!

كانت وجبتي الأولى بعد يوم كامل من الامتناع عن الأكل، هي هذه الغَرفة من الماء الّتي شربتُها، وأتبَعتُها غُرَفات أخرى حتّى رويت . . . شعرتُ بعدها أنّني أيضًا شبعتُ . . . لا أدري: هل تكون جرعات الماء وجبةً كاملة يستغني بها الإنسان عمّا سواها؟! قد . .!! غير أنّ الأمر يعود إلى نفسيّة السّجين الّذي يكون قد هيّأ مشاعره، وجهازه الهضميّ والعصبيّ على استقبال هذه الحالة الاستثنائية!! أيّها المُتخَمون: انتبهوا . . . قد تكون بعض قطرات الماء كافيةً لأنْ ينعم الإنسان بحياةٍ طبيعيّة هانئة!!

عدتُ إلى بطّانيّاتي . . . استلقيتُ على ظهري، وبدأتُ أترنّم . . . حضرتْني أشعارٌ ربّما مرّ على آخر مرّة تلفّظْتُ بها أكثرُ من سبعة عشر عامًا . . . تذكرتُ سيّد قطب، وترنّمتُ برائعته:

أَخِي أَنْتَ حُـرٌّ وَرَاءَ السُّـدُودْ
أَخِي أَنْتَ حُـرٌّ بِتِلْكَ القُيُـودْ
إِذَا كُنْتَ بِالله مُسْتَعْصِمًا
فَمَاذا يَضِيْرُكَ كَيْدُ العَبِيدْ؟!

وأكملتُها . . . وصرختُ بها . . . وكرّرْتُها مرّات ومرّات . . . ثمّ قفزتْ إلى الذّاكرة سيمفونيّة هاشم الرّفاعي:

أَيُّهَا السَّائِرُ بَيْنَ الغَيْهَبِ
عَاثِرَ الخَطْوِ جَلِيَّ التَّعَبِ
ضَارِبًا فِي لُجَّةٍ غَامِضَةٍ
مِنْ مُحِيطِ العَالَمِ المُضْطَرِبِ
أنْتَ لا تَعْرِفُ مَنْ أَنْتَ وَلَمْ
تَقْرَأِ التَّارِيخَ يَا ابْنَ العَرَبِ

وكان أبي قد علّمني هاتين القصيدتين عام ١٩٧٩م!!

بعد انتهائي من وجبة التّرنّم، كان لا بدّ من اللّجوء إلى وجبةٍ

أخرى . . . بعض الكتب الّتي دخلتْ معي إلى هنا كانت (لِفكتور هيجو) ، وبعضها (لسيّد قطب) ، وبعضها (لجوته) ، وأخرى لآخرين . . . بدأتُ بقراءة (أحدب نوتردام) . . . لغتها الرّائعة والمؤثرة لعبتْ بمشاعري في كلّ الاتّجاهات : أبكتْني كما أضحكتْني . . . وأدهشتْني كما صدمَتْني . . . وأمتَعتْني بسرديّتها الرّاقية . . . عشتُ مع أبطالها كما لو كانوا أصدقائي ، وتعاطفْتُ مع الأحدب الّذي عشق الحسناء ، ومع دمامة خَلْقه ، واحديداب ظهره ، وقصَر قامته ، إلاّ أنّه استحقّ التّقدير والتّعاطف لأنّه كان يفيض نبلاً وأخلاقًا ، وكان مستعداً للتّضحية من أجل مساعدة الفتاة الجميلة . . .!!

صنعتْ الرّوايات الّتي أدخلْتُها معي إلى هذه الزّنزانة الانفراديّة عالمًا فسيحًا همتُ في سُبُحاته ، وطِرتُ في أجوائه . . . استطاعت هذه العوالم الّتي شكّلَتْها قراءاتي هنا أن تخفّف شيئًا من قتامة الجدران المحيطة بي ، وأن تُطامِن قليلاً من ارتفاع الحواجز الّتي تحجب العالَم الخارجيّ عنّي ، وأن تُعوِّضَ النّقص النّاتج عن انعدام الكلام مع أيّ إنسان بأيّة لغة كانت . . .!!

مرّت سحابة الظّهر ، وفي وقت ما بعده سمعتُ وَقْع أقدام كثيرة . . . كان الصّوتُ قادمًا من النّافذة العلويّة المواجهة لباب الزّنزانة ، قفزتُ على قدميّ ، واشْرأبَبْتُ بعنقي أحاول أن أتبيّن شيئًا ، فلم أستطع ؛ ذلك لأنّ النّافذة كانت أعلى منّي بمتر ونصف أو مترين على الأقلّ . . . كانت تحتها صاجات التّدفئة المُعطّلة ، تسلّقتُ عليها بصعوبة بالغة ، إذ كانت ملاصقة لجدار الزّنزانة ، وكان جسمي يتهاوي إلى الخلف دون شيء يسنده كلّما حاولتُ ارتقاء هذه الصّاجات . . . ولكنْ بعد محاولات عديدة نجحتُ ، ووقفتُ بكامل طولي فوق الصّاجات ، وصار طرف النّافذة السّفلي قريبًا من ذقني ، وبهذا أصبح المشهد أمامي مرئيًا بوضوح من خلال قضبان النّافذة العموديّة . . . يااااه . . . لم أستطع ابتلاع المفاجأة وأنا أفتح عينيّ على هذا العدد الكبير من السّجناء . . . لقد كانت هذه الزّنازين الانفراديّة

مُحاذية للطّريق الّذي يؤدّي إلى مطبخ السّجن . . . وكان وَقْع الأقدام الّذي سمعتُه من قبلُ ما هو إلاّ صوت السّجناء النّازلين إلى المطبخ فيما يبدو لتناول طعام الغداء . . . هالَني المنظر ، وأسعدني في الوقت نفسه . . . شعرتُ بالحميميّة مع هؤلاء المساجين ، صحيح أنّهم من قضايا أخرى غير قضايا السّياسيّين ، وصحيح أنّني قد لا أعرف واحِدًا منهم ، إلاّ أنّنا جميعًا شركاء في هذه المأساة ، ونتقاسم جميعًا هذه الرقعة الجغرافيّة المُشتَرَكة من الوطن الّتي تُدعَى السّجن ، وتذكّرتُ شوقي حين قال :

فَإِنْ يَكُ الجِنْسُ يَا بْنَ الطَّلْحِ فَرَّقَنا

إِنَّ المَصائِبَ يَجْمَعْنَ المُصابِينَا

مرّ سرب الغزلان من أمامي برشاقة متناهية ، وبخفّة ظلٍّ سريع الزّوال . . . ولم ينتبه أحدٌ إلى وجودي . . . كانوا على بعد بضعة أمتار منّيَ يجتازون الممرّ المتعرّج الموصل إلى مطبخ السّجن . . . هممتُ بالصّراخ لأقول لهم : إنّي هنا ، غير أنّ انتشار الحرّاس الكثيف على طول الممرّات منعني من ذلك . . . ثمّ إنّهم لا يصبحون قريبين جداً منّي أي لبضعة أمتار إلاّ في مسافة لا تزيد عن عشرة أمتار عبر الممرات ، ذلك أنّ حلزونية الممرات المُفضيَة إلى المطبخ تباعدهم وتقاربهم!! على أيّة حال غمرتْني موجةٌ من السّعادة . . . مرّوا أمامي كما لو كانوا فرسانًا وأبطالاً يستعرضون قوّتهم أمام الجمهور أو العامّة . . . نزلتُ من عُلُوِّي الشّاهق وأنا طافحٌ بالأفكار . . . كيف يمكن أن أستثمر فرصة مرورهم من هنا . . . لا أدري!! على أيّة حال كان السّبب الأكبر في شعوري بالسّعادة هو أنّ العالَم الخارجيّ ما زال موجودًا ، ويمكن مراقبته عن كثب إذا تعذّر التّواصل معه . . . كانت مجرّد رؤية هذا العالَم تُشعر السّجين بأنّه ليس مفقودًا إلى الحدّ الطّاغي ، وأنّ هناك بصيصًا من الأمل يمكن الاهتداء به في ظلمات اليأس!!

جلستُ على بطّانيّتي الرّماديّة ، وبدت من حولي الكتب وقد تناثرت

على الأطراف كأنّها أوراق وَرْدةٍ جوريّة ، قطفتْ يدُ عاشق بعضها وأبقتْ بعضها الآخر . . . أمتعني التّشبيه ، ورحتُ أبتسم في داخلي . . . تابعتُ قراءاتي . . . وانتظرتُ المغرب ، توضّأتُ ، وتناولتُ وجبتي المائيّة ، واستقبلتُ القِبلة . . .

بدأ الجوع يقفز في معدتي ، لم يكن يريد إزعاجي على ما يبدو ، كان فقط يريد أن يقول لي إنّه هنا ، وأنّني مهما حاولتُ أن أتجاهله او أتناساه فإنّه لن يتجاهلني ولن يتناساني . . . ربّتُّ على كتفيه ، وطلبْتُ منه أن يجلس إلى جانبي دون أن يُصدِر أيّة حركةٍ أو إزعاج ، فإنّني أهمّ بقراءة (البؤساء) لهيجو ، وتحتاج هذه الرّواية إلى بعض الهدوء . . . استجاب الجوع ، وقرفص بجانبي كضفدع خضراء ، ولم ينقّ مرّة واحدة حتّى بلغ بي التّعب كلّ مبلغ . . . فهويتُ إلى بطّانيّتي كثمرة جوزٍ يابسة سقطت من فرع عالٍ في الشّجرة الباسقة!!

يبدو أنّها ليلة الأحلام . . . من أين تتسلّل إلى منامك هذه الأحلام . . .؟! كيف تجد طريقها دون أن تضلّ وهي تسكن في الذّاكرة الكُحليّة العميقة . . .؟! ماذا ينقص الإنسان حتّى تُتِمّه له أحلامُه؟ أتكون القدرة الفائقة في الأحلام تعوّض العجز الكامل في الواقع؟! لا أدري . . .!!

كان يقف على قارعة الطّريق ؛ الطّريق المحاطة بجبال صخريّة من كلّ الجهات ، وببعض أشجار البلّوط المقطوعة ، لم تكنْ أشجارًا ، كانت جذوعًا مرّ عليها آلاف السّنين ، ولم أتبيّن إنْ كانت آلاف السّنين الّتي مرّت على هذه الجذوع المقطوعة قد مرّت قبلي أم بعدي؟!!! وكان هو بنصف وجه ؛ لم يبدُ منه إلاّ طرف وجهه الّذي تُغطّيه قلنسوة تتهدّل على كتفيه ، وتبدي كذلك نصف لحيته البيضاء الطّويلة ، لم أشكّ لحظة في أنّه عاش ألفَي سنة . . . ظلّ على وقفته نصف الواضحة ونصف الغامضة ، ولم يتزحزحْ من مكانه ، ودون أنْ يقول كلمةً واحدة دعاني إليه ، وأنا الّذي فهمتُ ذلك

اقتربْتُ منه ، وعندما لم يحجز الفراغ بيني وبينه شيئًا ، أطرق برأسه محاولاً ألاّ يبدو من وجهه شيء ، غطّى بعضه بقلنسوته ، وغطّى بعضه الآخر بلحيته ، مدّ يده نحوي ، أعطاني خُبزًا وبعض الماء في إبريق زجاجي تراقصت أمواهه داخله على نفاذ أشعّة الشّمس . . . كان جوعي يحتّم عليّ أن أنحني وأقبّل قدمي الرّجل عوضًا عن أن أقبل هديّته ؛ هديّة الحياة . . . غير أنّني قاومت انهيارًا لا يستمرّ لأكثر من لحظة . . . ما بين الصّمود والسّقوط لحظة إيمان بحتميّة النّصر . . . هكذا خاطبتُ نفسي . . . حينَ بدا هذا الشّيخ في البداية صديقًا يُمكن أن آنس بوجوده ، بدا الآن وهو يمدّ إليّ خبز الحياة عدوًا يتربّص بي شرًا . . . تلبس العداوة أحيانًا ثياب الأصدقاء ، وتتستّر الطّعنة في كفّ قاتلٍ يمدّ يده الأخرى بالسّلام ، وتختبئ الأفعى في عنقود عنبٍ ناضج . . .!!

- خُذْ يا بنيّ (قال الشّيخ) الطّريق طويلة . . . وأنتَ محتاجٌ إلى شيءٍ يبلّغك المَقيل!!

يراني متردِّدًا ؛ ربّما لأنّني رأيتُ فيه غريبًا ، غير أنّ نوعًا من الألفة العجيبة كان يغلّف قلبي تُجاهه . . . هذا الغريب الأليف يحمل معه رمق الحياة الأخير ، وأنا في هذا الضّعف والضّياع أتعالَى على ما في يديه!!

- الطّريق طويلة (هتف بي) وأنتَ مُتعب!!

- لستُ كذلك ، وأنا أقوى منكَ!!

- إن لم تستمع لي سوف تهلك!!

هبطت عليّ ردّة فعل غريبة ، استجمعتُ كلّ قواي ، وصرختُ بانفعال مَنْ يُشرف على السّقوط :

- مَنْ أنتَ حتّى تخوّل نفسك الحرصَ عليّ . . . أنتَ مجرّد غريبٍ التقيتُه قدرًا على الطّريق . . .

- يا بنيّ . . . أنا أحبّك . . . الّذين يموتون هنا سواك . . . أنتَ يجب أن تعيش . . . مَنْ يحمل الغاية يجد الخلاص . . . ومَن سار بلا ماءٍ

هَلَك . . . ومَن لـم يعـرفْ وجْـهـتـه ضَلّ . . . ومَنْ يَعِشْ يَعِشْ كي يرى المَطاف . . . وفي المطاف هناك النّور للمركز وحده . . .!!

- ضَعْفي يُوصلني . . . أنا واثقٌ من النّجاة . . .!!

- يا بنيّ . . . أكانت الفراشات تهتدي إلى النّور أم تضلّ في النّار . . . لا تستخدم عقلك في استبطان الغيوب . . .!!

- فراشة الحقّ لا تحوم إلاّ حول النّور . . .

- يا بنيّ . . . أكـان حـبّي لـك يُنقـذك من المقـدور . . . إنّمـا أنا رسول . . . خُذ هذه اللّقيمات فإنّ محبّتي لك دليلُ نجاتك . . .

- تحبّني !! لماذا تقول لي ذلك . . . ولم أركَ من قبل!!

- مُخطئ . . . كنتُ معك طوال الرّحلة . . . صِدْقُ الطوّيّة نجّاك!!

- أيّها الشّيخ : هل يُصلح الصّدقُ ما أفسد القلبَ؟!!

- خُذْ ولا تُتعب الرّاحلة!! (يمدّ يده بِكِسَرِ الخبز ، وزجاجة ماءٍ رَقراق ينفذُ من خلالها شعاع النّقاء) .

بدت صورته الجليّة تخبو شيئًا فشيئًا ، وتخفت قليلاً قليلاً . . . رأيته يختفي ، ويُصبح هالةً من النّور لا يبدو فيها منه شيء إلاّ طيف اللّقاء . . .

سقطت كِسَرُ الخبز في يدي ، والتقطتُ زجاجة الماء . . . كان هذا آخر ما تبـقّى منه ، ومـا تبـقّى من نومي . . . صـحـوتُ مـذهولاً . . . نظرتُ في سـقف الزّنزانة . . . لم أتبـيّنْ شـيـئًـا ، يبـدو أنّ الـفـجـر لم يطلعِ بعـدُ . . . استعدتُ وعيي شيئًا فشيئًا ، وقمتُ إلى الصّنبور فشربتُ ماءً ، وأزحتُ غمامة الحلم عن عينيّ ، وتوضّأتُ ثمّ أقبلتُ على الله .

قيّدتُ الأحلام هذه المرّة قبل أن أعود إلى النّوم من جديد ، عدتُ بلا أحلام ، ونمتُ حتّى العاشرة والنّصف من صبيحة اليوم الثّالث للإضراب عن الطّعـام . . . جاءني شُـرطيّـان ، وأُخِـذتُ إلى الزّنزانة رقـم (١) في هذا المهجع الّتي حُوّلت إلى عيادة طارئة ، كان الطّبيب في استقبالي هناك . . . لم أرَ طبيـبًـا من قـبلُ مـثله . . . قـامَ بما هو مطلوبٌ منه بصـمتٍ مُطبِق ، لم

أسمعه يتلفّظ بكلمة واحدة . . . أخذ عِرقَ يدي اليسرى وضغط عليه بإبهامه ، ونظر في ساعته وقاس النّبض ، ثمّ أخذ ساعدي ولفّ حوله الشّريط ونفخ الأنبوبة نفخات مُتتاليات ، وقاس الضّغط . ثمّ أخذ السّماعة بيده ، وأشار بيده الأخرى لأستلقي على ظهري على فَرشةٍ أُعدّت لهذا الغرض في تلك الزّنزانة فسمع دقّات قلبي . . . لم أعرف ماذا قالت له تلك الدّقّات في ذلك اليوم . . . ثمّ أشار بيده مرّة أخرى فاستلقيتُ على بطني وصنع بظهري ما صنع ببطني . . . ثمّ لملمَ أغراضه ، ودوّن في سجلّه بعض الملاحظات ، وخرج دون أنْ يَنْبِسَ بحرفٍ واحدٍ . . . وأعادني الشّرطيّان إلى زنزانتي ذات الرّقم (٦)!!

بعد أن عدتُ هُرِعت إلى الكتب . . . التهمتُ ما تبقّى من (البؤساء) ، ووضعتُ (العدالة الاجتماعيّة في الإسلام) على القائمة . . . سوف آكل هذا الكتاب في الوجبة القريبة القادمة . . . وجبة الغداء حانت ، قمتُ إلى صنبور الماء فشربتُ حتّى رويت . . . وأكلتُ ماءً مُلوّنًا حتّى شبعت . . . ثمّ وقفتُ معتدلاً فنظرتُ إلى بطني وقد تراجعت عن عليائها ودخلت إلى الجوف بتواضع تامّ!!

درتُ حول نفسي وتلمّستُ بطني . . . لقد غارت بشكلٍ واضح . . . يبدو أنّني في أضعف حالاتي جسديًا وفي أمتعها شعورًا . . . شعور أنّك تخلّصت إلى اليوم ممّا يقرب من عشرين كيلوغرامًا من وزنك شعورٌ طافحٌ بالأمل والفرح . . . قفز إلى ذهني سؤال بشكلٍ مُفاجئ : ولكن إلى متى سوف نبقى مُضربين عن الطّعام؟! أليس هناك من أحد ليقول لنا : كفى . . . ولكم كلّ مطالبكم . . .!! يبدو أنّه ما زال الوقتُ مبكّرًا على الاستجابة للمطالب!! داهمَتْني بعدها مئات الأسئلة : هل وصلَ خبر إضرابنا عن الطّعام إلى الخارج وإلى الصّحف؟ هل عَلِمَ أبي بالموضوع؟! ماذا يفعل أهلي الآن من أجل المحنة الّتي نحن فيها . . . ثمّ . . . ثمّ ماذا حصل مع بقيّة الزّملاء المُضربين؟ هل ما زالوا على إضرابهم ، أم أنّ أحدًا

منهم فكّ إضرابه وتراجع عن قرار صعب وقاتل كهذا؟! ما هي أحوالهم . . . هل من أحد أُغميَ عليه؟! أو أُخِذَ إلى المستشفى خارج السّجن؟! هناك مَنْ ينزل ضغطه من أوّل يوم . . . ماذا حصل مع هذا الصّنف من الزّملاء المُضربين . . . ما أحوال صحّتهم إلى الآن . . . هل خارت قواهم وبان ضعفهم وهُزالهم . . . أم أنّ هناك قوىً خفيّة تقاوم هذا الضّعف وتستقوي بالإرادة والعزيمة ، فتبدو مُصرّةً على ما هي عليه ، ماضيةً في الشّوط إلى نهايته!! لا أدري . . . تصارعتْ حولي عشرات الأسئلة ومئات التّساؤلات . . . ولم أجدْ لأحدها جوابًا . . .

فجأة وأنا في غمرة التّصدّي لسهام الأسئلة النّازفة ، سمعتُ صوتًا عميقًا قدّرت أنّه قادمٌ من بئر مدفونةٍ تحت الأرض . . . غير أنّه كان صوتًا غليظًا قريبًا إلى وقع أقدام منه إلى صوتِ إنسان . . . أرهفتُ السّمع . . . وأملتُ أذني باتّجاه الصّوت فبدا لي أنّه يعلو ويتتابع . . . وأنّه قادم عبر أرضيّة الزّنازين . . . جثوتُ على رُكبتيّ ، مِلتُ بجذعي إلى الأسفل ، ووضعت أذني اليمنى على بلاط الزّنزانة أُصيخ السّمع . . . انتظرتُ بضع ثوانٍ حتّى جاء الصّوت مرّة ثانية . . . كانت دقّات باليد على الأرض تصل عبرَ البلاط من زنزانة أخرى . . . رحتُ أردّ على الدّقّات الأرضيّة بدقّات مُشابهة ، فراحت الدّقّات من الطّرف الآخر تُجاوبني ، فتحمّسْتُ بشكلٍ صارخ ، ورحتُ أهوي بكلتا يديّ على الأرض ، وأستمتع بطرْق بلاط الزّنزانة ، كما لو كنتُ عازفًا على آلة موسيقيّة . . . عرفتُ حينها أنّه أحد المُضربين معنا وأنّه يحاول أن يتواصل مع الآخرين بأيّة طريقة ، واخترع هذه الوسيلة . حينها لم يكفّ عن دقّاته ، ربّما كان ذلك فرحًا بأنّ أحد زملائه قد التقط إشارته ، وبالفعل شاركْتُه هذه الفرحة ، ورحتُ أتبادل مع طريقته في التّواصل . . .

وضعتُ أذني على الأرض ، فجاء صوته عبر البلاط : أنا (جهاد) . . . مين إنت؟! فرحتُ بهذا الصّوت كما لو كان صوتًا قادمًا من السّماء في

غـابة قـد ضللتُ فـيـهـا الطّريق ، ووجـدني هذا الصّـوت فـدلّني على الدّربً . . . إنّه صوت النّجاة من اليأس ، وصوت الفرح بالحديث مع طرف آخـر . . . وضـعتُ فـمي على أرضـيّة الزّنزانة وصـرخت بملء طاقـتي : أناً (أيمن) . . . أحسستُ بأنّه قفز من الفرح هو الآخر . . . فها نحن نستطيع التّحادث بعد ثلاثة أيّام من انعدام التّواصل على الأصعدة كافّة . . . صرخ فيّ الطّرف الآخر قائلاً :

- اسمع أيمن . . . حين أسألك سؤالاً ، ويكون جوابه (نعم) فدُقّ على الأرض دقّة واحدة (طُبْ) ، وإذا كـان لا فَدُقّ عليـها اثنتين (طُبْ طُبْ) . ماشي؟!

- دققتُ دقّة واحدة : (طُبْ) .

- زارك الطّبيب؟!

- طُبْ . وأنت؟!

- طُبْ . طُبْ .

- عددنا (١٢)؟!

- طُبْ . طُبْ .

- قدّيش صرنا . . . عشرة؟

- طُبْ .

- أجاك حدا من الضّبّاط؟

- طُبْ . (وأنتَ؟)

- طُبْ . طُبْ .

- إنت بجانب الممرّ اِلْبْرُوحْ على المطبخ .

- طُبْ .

- معناته إنت بزنزانة رقم (٦) .

- طُبْ . وأنت؟!

- زنزانة (٢) .

واستمرّت المُحادثة بيني وبين جهاد حوالي السّاعة . . . ثمّ تعبْنا ، وسلّمنا على بعضنا ، ورجع كلّ واحد إلى بطّانيّاته .

مرّ مساء يوم ١٢/١٦ ثقيلاً . . . قرأتُ (العدالة الاجتماعيّة) قبل أن يهبط المساء . حين يلفّ الظّلام كلّ شيء هنا في الزّنزانة ، يبقى قبسٌ من النّور يتسلّل إلى هنا من النّافذة العلويّة الّتي تسمح لبعض الضّوء الصّادر من الأعمدة المُقامة على جانبيّ الطّريق الحلزونيّ المؤدّي إلى المطبخ ، وهناك نزرٌ يسيرٌ منه يتسلّل عبر شقوق الباب من الممرّ الواصل بين الزّنازين وباب المهجع بالكامل ، حيث يفتح الباب على (المردوان) الّذي يصل بين المهاجع جميعها .

وفي المساء تسلّلت نفحاتٌ قارسةٌ من البرد عبر نافذة الزّنزانة العلويّة ، وسمعتُ صوتَ تساقط بعض قطرات المطر . . . بدأتُ أصغي إليها . . . فبدأت تزداد إيقاعًا على الأرض ، وسمعتُ بعضها قريبًا جداً من قلبي . . . للشّتاء رائحة . . . رائحةٌ تفتح القلب على الذّكرى ، وتوقظ الحزن في خلايا الرّوح . . . هتفتُ بكلمات السّيّاب حينها :

أَتَعْلَمينَ أَيَّ حُزْن يَبْعَثُ المَطَرْ؟!
وَكَيْفَ تَنْشجُ المَزارِيْبُ إذا انْهَمَرْ
وَكَيْفَ يَشْعُرُ الوَحِيدُ فيه بِالضَّياعْ
بلا انْقطاع . . . كالدَّم المُراق كالجياعْ
كَالحُبِّ . . . كَالأَطْفالِ . . . كَالمَوْتَى . . . هُوَ المَطَرْ

كان السّيّاب في ذلك المساء الشّتويّ أنيسي ، استرجعتُ له في ذاكرتي أنشودة المطر وغريب على الخليج وحفّار القبور والمومس العمياء والمعبد الغريق . . . وغيرها مِمّا تفرّق . . . وظلّ الحزن في تلك اللّيلة يعبث بقلبي حتّى نمت .

في السّاعة السّادسة فجرًا من يوم ١٢/١٧ تناهى إلى سمعي وقع الأقدام ، صار مألوفًا هذا الصّوت ، فهو يقطع خلوتي في السّادسة صباحًا ،

وفي الواحدة مساءً . . . عَنَّ ببالي أن أشاهد سرب الغزلان هذه المرّة ، ففي مُشاهدته أُنسٌ للقلب بعدَ وَحشة ، وريٌّ بعدَ ظمأ ، وشِبَعٌ بعدَ جوع . . . تسلّقت على صاجات التّدفئة ، وصرتُ أخفّ هذه المرّة . . . ووقفْتُ على رأس قدميّ ، ومَدَدْتُ عنقي . . . كانوا يسيرون بانتظام في صفّ طويل متعرّج ، وفي زوايا المنحنيات يقف الحرّاس . . . شاهدتُ أحدهم ، وكنتُ قد تعرّفتُ إليه في جولاتي السّابقة على المهاجع ، عندما كنتُ أقوم بذلك من أجل الاطّلاع على قضايا الآخرين ، وأخذ العِبرة والخبرة . . . كان هذا أحد المحكومين في قضايا شيكّات ، ومدّة محكوميّته بسيطة لا تتجاوز بضعة أشهر ، وهو سوريّ الجنسيّة . . . أشار إليّ من بعيد ، ففهمتُ أنّه يريد أن أنتبه إليه . . . ولكنّه كان يتلفّت حوله بحذر لئلاّ يراه الحرّاس من أفراد الشّرطة ، وعندما وصل قريبًا من نافذة الزّنزانة رأيتُه يهتف بي بصوتٍ خفيض مُحاولاً أن يُسمعني دون أن يسمعه الشّرطيّ : أيمن . . . مُدّ إيدك . . . خُذ . . .

وتفاجأتُ بقطعة كأنّها حجرٌ بُنّيّ تتوجّه صوب نافذة زنزانتي . . . كان على هذا الشّجاع الشّهم أن ينتظر حتى تصبح المسافة الفاصلة بين النّافذة وبين خطّ السّير أقلّ ما يُمكن ، ويرميها بزاوية معيّنة ، ثمّ يخفض يده ويسير بشكل طبيعيّ كأنّه لم يفعل شيئًا قبل أن يلاحظه أحد الشّرطة وتقع الكارثة . . . صعدت الكتلة البُنّيّة باتّجاه نافذتي ، ولّما صارت قريبةً منّي مددتُ يدي لألتقطَها وسرعان ما تبيّن لي أنّها قالبٌ صغيرٌ من التّمر المعجون ، هويتُ بسرعةٍ تاركًا النّافذة وقافزًا على أرضيّة الزنزانة قبل أن يرانا الشّرطيّ الّذي أحسّ بحركةٍ مَريبة . . . عندما صار القالب بين يديّ ، تملّيته ، وملأت من جَماله عينيّ ، لقد كان يساوي كنزًا بالنّسبة لي . . . وهتفتُ في سرّي : أستطيع بهذا القالب أن أبقى مُضرِبًا عن الطّعام لشهرٍ على الأقلّ . . .

كم قدّرتُ لذلك السّجين هذه المساعدة التّاريخيّة . . . وكم أحببْتُ

فيه جرأته ونخوته ، لم يكن صعبًا أن يكتشفه الشّرطيّ ويستجوبه ، ولأنّه غير سياسيّ ولا أحدَ يدعمه فلربّما يُوضَع في الحبس الانفراديّ بقيّة المدّة ، وقد يُشبَح على أشباك الإدارة ، فيُعذّب ويُهان أمام مرأى الجميع الرّائحين والجائين عند الإدارة من أفراد الشّرطة أو السّجناء . . . وفكّرتُ أنّه ربّما حاول مثل هذه المحاولة في اللّيلتين السّابقتين ، ولم أكنْ أصعد إلى النّافذة لمشاهدة السّجناء ، فلمّا لم يرني لم يُغامِر بِرَمْيها دون أن أدري أنّ شيئًا ثمينًا ما يستقرّ على حافّة نافذتي . . .

كان عليّ أن أقنّن استخدامي لهذا القالب المعجون من التّمر . . . كان لا يتجاوز وزنه (٢٠٠ غم) في تقديري ، ولكنّي قرّرتُ أن أقسمه إلى عشرين قطعةً ، كلّ قطعة بحجم حبّة تمر صغيرة ، وقلتُ : سآكل كلّ صباح منها قطعةً واحدة . . . فهذه تكفيني لعشرين يومًا . . . تخيّلوا أنّ الإنسان يستطيع أن يعيش على غرامات من التّمر لشهر كامل . . . نعم . . . كان هذا ما سيحدث لولا أنّ الأقدار تسير بما كتب لها الواحد القهّار . . .!!

خَبَأتُ كنزي الجديد في تلافيف إحدى البطّانيّات ، وجعلتُه لا يسقط منها حتّى ولو فُردت البطّانيّة في حملة تفتيش لا سمح الله . . . عدتُ لأنام . . . ولكنّ النّوم جافاني ، فهُرِعتُ إلى القراءة من جديد . . . ماذا لدينا . . . أيُّ مُبدعٌ سأعيش معه في هذا الصّباح . . . قلّبتُ كتبي ، وتناولتُ (آلام فارتر) لجوته . . . كان طافحًا بالرّومانسيّة . . . غير أنّه لم يقنعني . . . كان مستوى الحبّ في قلبي أكبر من أن يصله كتاب (جوته) هذا . . . كنتُ عاشقًا استثنائيًا ، وشاعرًا مذبوحًا من الوريد إلى الوريد . . .

في العاشرة والنّصف رأيتُ صوت باب الممرّ الخارجيّ المؤدّي إلى الزّنازين يُفتَح ، صريره العالي ، ومن ثمّ أصوات الأقدام العسكريّة الّتي صرتُ أميّزها بمجرّد سماعها ، أدخلا في رُوعي هلعًا ، وشكًا في أنّ أمرنا أنا وذلك السّجين قد كُشِف ، وأنّ العقاب قادمٌ لا محالة . . . فُتِحَ باب

الزّنزانة ، ووقف الضّابط نائب مدير السّجن ذو القبّعة الزّرقاء والحمراء في المقدّمة ، واصطف خلفه وعن يمينه وعن شماله ثلاثة أفراد من الشّرطة . . . توقّعْتُ الأسوأ يومها ، ولكنّ الله سَلّم . كانت الزّيارة مُناورة من إدارة السّجن لِثَنْي مجموعتنا عن استمرارها في الإضراب عن الطّعام .

قال لي الضّابط يومها :

- ما رأيك في أن تفكّ إضرابك عن الطّعام ، وتعود إلى جماعتك ، فهم ينتظرونك ، ولا يفتؤون يسألون عنك!!

- لن أفعل .

- ولماذا؟! أنتَ رجلٌ مهندس ، وتفهم الأمور بشكلٍ جيّد ، وأنا لا أريد إلاّ مصلحتك .

- مصلحتي مع زملائي المُضربين .

- أيّ زملاء . . . لقد فكّوا الإضراب جميعًا ولم يبقَ سواك وواحد أو اثنين . . .

(صَعَقني بهذا الكلام ، وهزّني من الأعماق . . . . أيكونون بالفعل قد فعلوا ذلك وتركوني وحيدًا في هذا الميدان ، غير أنّي سرعان ما تذكّرت هذا الأسلوب في التّعامل لتحطيم نفسيّة السّجين ، ودفعه إلى ما يريد منه سجّانه بأهون الطّرق ، فهي خدعة ناجحة ، ولكنّها بالنّسبة لي قديمة ، وأنا الآن متأكّد أنّه قال مثل هذا الكلام أو قريبًا منه لزملائي الآخرين ، كُلاً على انفراد) فهتفتُ بثقة :

- حتّى ولو لم يبقَ سواي ، فلن أفكّ الإضراب!!

- نحن نريد الاطمئنان على صحّتك ، ويهمّنا أمرك .

- كلّ واحدٌ يهتمّ بأمر نفسه .

- يا رجل ، نحن نعاملك بالقانون ، والقانون قد يدفعنا لإجبارك على فكّ الإضراب .

- لن تستطيع أنتَ ولا قانونك أن تفعل هذا!!

- يا رجل . . . اهدأ . . . دعْني أقلْ لك شيئًا : لقد اتّصل بمدير السّجن رجلٌ مهمٌّ من الخارج ، وذَكَرَكَ بالاسم ، وهو يريد الاطمئنان على صحّتك . . . لماذا تعلّق أمرك بالآخرين ، دعْكَ من الآخرين ، فلم يتّصلْ بشأنهم أحدٌ . . . أنتَ وحدك الّذي وصّى عليك الرّجل المهمّ جدًا .

- لا أريد توصيةً من أحد . . . أنا مع زملائي . . . بدأتُ معهم . . . وإذا أنهيت ، فسأُنهي معهم!!

- يا رجل . أنا أعرف أنّك جائع ، وأنّك تتمنّى لقمةً ساخنة . . . ما رأيك أن آتيك بالطّعام الشّهيّ من الدّجاج والأرزّ والسّلطات وأنتَ هنا دون أن تغادر هذا المكان . . . ما رأيك بالدّجاج المُحمّر ، سأجعل هؤلاء الشّرطة يخدمونك بأشهى ما في المطبخ اليوم . . . ماذا قلتُ . . .

(سال لُعابي بالطّبع على ذكر الأطعمة ، وأنا الّذي له أكثر من تسعين ساعةً لم يأكل ، غير أنّي بلعتُ لعابي . . . وقاومتُ رياح شهوتي ، ورفعت شِراع صمودي عاليًا) وهتفت :

- لا . . . لا . . . لن أفكّ الإضراب أبدًا . . .!!

- أنتَ رجلٌ عنيد . . . ولا تريد مصلحتك . . . أنتَ حرّ . . .

أطبق باب الزّنزانة في وجهي ، وخرج هو وشرطته غاضبين . . . بعد أقلّ من ساعة على هذه العاصفة ، جاءني شرطيّ ، ونظر إليّ من فتحة باب الزّنزانة ، وأخبرني أنّهم سينقلونني إلى زنزانة أخرى ، فهيّئ أغراضك في غضون خمس دقائق . . .

سارعتُ إلى إخفاء كنزي الثّمين ، ولم أجد غير ملابسي الدّاخليّة ، لأخبئه في داخلها . كنتُ أعلم أنّهم سيقومون بتفتيشي عند نقلي ما بين المكانين . . . نُقلت في هذا اليوم الرّابع إلى زنازين مهجع (٤) . . . وكان نقلاً عقابيًا فيما يبدو .

بدت زنازين مهجع (٢) جنّة بالنّسبة لزنازين هذا المهجع الجديد ، أُلقِيت في زنزانةٍ مُخيفة ، حَمَلت الرّقم (١٠) . . . كانت أشدّ برودةً لأنّها

كانت أقلّ عُرضةً - فيما يبدو - لأشعّة الشّمس . . . زنزانتي الجديدة مربّعة ، متران طولاً وعرضًا ، شبّاكها مفتوح كسابقتها ، غير أنّه يمتد على طول الزّنزانة تقريبًا ممّا يعني برودةً أشدّ . . . كانت الرّائحة المنبعثة من مكان قضاء الحاجة كَريهةً جداً ، وقد أصابت الجَنْزَرة الخضراء صنبور الماء ، فطعم الماء النّازل منها أشبه بطعم الصّدأ . . . أمّا جدران الزّنزانة فكانت تعجّ بالرّطوبة والبرودة . . . تيقّنْتُ أنّهم يريدون إذلالي ، وقتل عزيمتي ، وإرغامي على ما يريدون . . . دَعهم يحلمون ؛ فأنا مستعدٌّ أن أموت دون أن أحقّق من مطالبهم شيئًا!!

في المساء وقف البرد أمامي بكبرياءَ باذِخة ، وبكلّ هدوء مدّ يدًا من جليد إلى بطني ، وضغط عليها فأصابني المغص الذّابح ، لففتُ يديّ عليها أحاول أن أُدفئَها ، فأزاحها بقسوة ، وشعرتُ أنّها تكسّرت لبرودتها فصرتُ بلا يد . . . لَم أعد أُحِسّ بأطرافي أبدًا ، كلّ شي حولي كان كتلةً من الصّقيع . . . أزحتُ بعض البطّانيّات لألفّها على بطني فلم تحجب من البرد شيئًا ، وبدت متواطئةً مع البرد كما لو كنتُ ألفّ نفسي ببطّانية ترشح ماءً مُجمّدًا . . . ماذا يفعل البرد بي . . .؟! وماذا يحتاج منّي لكي يغادرني أو أغادره؟! أنا مستعدّ أن أجثو بين قدميه ليرحل؟ أو ليجلس بعيدًا عنّي في الزّاوية ويتركني وحدي مع آلامي . . .؟! لم يكن مساءً عاديًا ؛ كان بردًا دخل إليه المساء سهوًا ، خُيّل إليّ يومها أنّ البرد محور الكون ، وأنّ كلّ ما تشكّل من عالَم قد تشكّل داخل قبّة هذا البرد المُحيط بكلّ شيء . . . كم كنتَ صديقًا قاتّلاً أيّها البرد في ذلك المساء ، وكم كنتُ قتيلاً بائسًا!!

بدأت الأخبار تنتقل إلينا عبر الحَمام الزّاجل ، كان الفضاء يرسم لنا صورًا ملوّنة من حين لآخر . . . وقفت الحماماتُ على شبّاك قلوبنا وألقتْ برسائل العالَم البعيدً من هنا ، عالَم الأحياء أو الأموات لم أكنْ متيقّنا بعدُ من ذلك . . .

فجر يوم الأربعاء ١٨/١٢/١٩٩٦م لم يمرّ سرب الغزلان ، ولم يرقص

قلبي بين ضلوعي كعادته لمجرّد أنّ يقظتي كانت تنتشي بإيقاع الغزلان قريبًا من سور كرامتي وكبريائي . أنا الآن وحدي مع بردي وجوعي ، صنع البرد والجوع في أعماقي مجرّات من الحزن الّذي انداح كفكرة فغطّى كلّ عروقي . . . صرتُ الآن قطينًا ظاعنًا عن سرب الغزلان ، فقرّرت أن أجعله يمرّ في قلبي إنْ حرمني الحُرّاس من مروره بجانب شبك زنزانتي . . . ها هو . . . ها أنذا أوقظه ، فينهض ، تبدأ الغزلان الجاثمة على فم الطّريق بالنّهوض أوّلاً ، ثمّ تتبعها أبناؤها الصّغار من بعدها ، أيكون هذا حقيقةً أمّ أنّ (زهيرًا) خدعني ، واستغلّ ضعفي وهذياني؟!

وَدارٍ لَهــا بِالرَّقْــمَــتَــيْنِ كَــأَنَّهــا
مَــراجِــيعُ وَشْمٍ في نَواشِــرِ مِــعْــصَمِ
بِهــا العِينُ والآرامُ يَمْــشِــيْنَ خِلْفَــةً
وَأَطْلاؤُها يَنْهَــضْنَ مِنْ كُلِّ مَــجْــثَمِ

نعم . . . ها أنذا مع سرب الغزلان ، يجد المرء هناك ما كان يفتقده . الذّكريات دِثار الخائف من غَلَبة الدّموع ، وإذا قبستَ من نارها فإنّك تُزيح عن غشاء القلب ما تراكم من برد السّنين . . . كنتُ مفرغًا من كلّ شيءٍ إلاّ من الحزن الّذي عوّدته على أن يَحملني إذا هاجَمتْني ذِئاب الوعي . . . لم يكنْ لديّ وطن لأدافع عنه ، كنتُ أصنع من قصائدي ذلك الوطن ، وأرضى أن أدفع من عمري ضريبةً من أجله ؛ أليس على العاشقين أن يقبلوا ببعض الأذى من أجل عيون مَنْ يُحبّون؟!

طُفتُ على الجُدران ، الرّطوبة المنبعثة من الطّلاء المهترئ زادت من كآبة المكان ، استوقَفَتْني بعضُ العبارات الّتي لم أكن قد انتبهتُ لها في السّابق ، كانت تبدو فيها أفكارٌ متعدّدة ، يبدو أن أرواح من سكنوا هذه الزّنزانة قبلي قد سالتْ على هذه الجدران ، أدركتُ أنّ هذه الأرواح كانت مختلفةً في تحليقها وفي عذاباتها ، بعضُها اصطبغ بفكرة الأصوليّة ، وبعضها بالعلمانيّة ، دلّ على ذلك السّياقات الفارقة إذ ترسم صورة

أصحابها . . . قرأتُ في هذه الزنزانة المتجمّدة :

* يا مُخنَّثَ العزم أينَ أنتَ والطّريق!!

* طريقٌ تعب فيه آدم ، وناح لأجله نوح ، وأُضجع للذّبح إسماعيل ، وسار مع الوحش عيسى ، وزاد على الدّرب صبر أيّوب ، وبِيع يوسف بثمنٍ بخس ولبث في السّجن بِضع سنين ، وتحمّل أنواع الأذى محمّد صلّى الله عليه وسلّم .

* ترى أنّك في لهو ولَعِب . . .

* آه من قِلّة الزّاد ، وبُعد السّفر!!

تفقّدتُ الجدران من جديد ، فوجدتُ في الجدار الّذي ركنتُ على طرفه بطّانيّاتي ثُقبَين ؛ أحدهما كان كافيًا ليُطلعني على ما وراء الزّنزانة إذا اقتربتُ منه قليلاً ، كان هذا فتحًا عظيمًا ، بدا الثّقب سخيًا فيما يعرضه من صُور ، وصار نافذتي على العالَم الخارجيّ ، أحسستُ لوهلة أنّه الثّقب ذاته الّذي أُحدِثَ في سدّ يأجوج ومأجوج ، وأنّ الخلاص قريبٌ ، والهلاك مثله أو أقرب ، وكلاهما ؛ الخلاص والهَلاك بدوَا وجهًا واحدًا ، أو اللّوحة ذاتها حين تتقاسمها الألوان ، وتتشاطرها الخطوط . في حدود أطرافه استطعتُ أن أدرك أن توافه الأمور تأتي بما لم يكن في الحُسبان ، كان مشهدًا سينمائيًا ، وتلفازًا مُدهِشًا هذا المنظر الّذي يدخل عبر هذا الثّقب الفارِه . جلستُ في ذلك اليوم بعد ذلك الاكتشاف أكثر من أربع ساعات أراقبُ بصمت ساخر ما يجري في الخارج .

تربّعتُ كأنّني في مَعبد ، واقتربتُ من الفتحة مسافةً كافيةً ، وشبكتُ يديّ معًا ، وأسندتُ ذَقني إليهما ، ورَكَزْتُ عينيّ ، وراح المشهد يتبدّى بتفاصيله أمامي . . . ها هو ، ظهر من بعيد ، راح يذرع الخُطا بترفٍ ، توقّف برهة ، تلفّت حوله بهدوءٍ كجنرال ، ثمّ ما لبث أن تابعَ سيره . فتحَ المشهد شهيّتي على أن أتابعه ،.كان مِثلُ هذا المشهد قد غاب عنّي في شقاوات الطّفولة ، أيّامَ كان الكون تختصره حبّة حلوى ، أو قطعة نقود . . . عدتُ

إلى مراقبتي له ، مدّ جسمه وتمطّى كما لو كان يستريح من معركة قُتِل فيها كلّ رفقاء دربه ، ثمّ احتمى بجدار لجأ إليه ، بدا الجدار بقَدْرِ ما أتاحت لي الفتحة ، ركنَ جسده إليه ، وألصقه به ، وراح يحكّ كلّ بوصة من جسده بذلك الجدار ، تساءلت : لِمَ يلجأ إلى مثل هذه الاحتكاك؟ أيّ متعة يتيحها احتكاكٌ بعيدًا عن أعين الرّقباء؟! لا بدّ أنّه كان متأكّدًا ألاّ أحدَ يراه ، ولم يَدُرْ في خَلَده أنّ هذا السّجين القابع خلف جدران زنزانته الباردة يراقبه لحظةً بلحظة . . . ظلّ يحكّ جسده حتى أشبع رغبته ، وقضى وطره من تماسّ جسمين أحدهما ينضح بالشّهوة والحياة ، والآخر لا حياة فيه إلاّ أنّه موطن الاحتكاك . . . ثمّ جلس . ظَلِلْتُ أراقبه ، أحاول أن أتوقّع له الخطوة القادمة ، فأسبح في بحر التّوقّعات . . . كان وحده ، لم يكن معه من أحدٍ سواه ، استغلّ وحدته فتصرّف كما يهوى ، كانت عيناه صافيتين حادّتين ، أترى تصفو العينان بعد اجتياح الرّغبة خلايا الجسد؟! أم كانتا خلقَ الله شُكّلتا على هذا النّحو لتلائم طبيعة الحياة الّتي يحياها . . . راح يبتعد عن الجدار ، ورويدًا رويدًا بدا من بعيد قافلاً من الحياة نفسها ، وظلّ يتهادَى ، حتّى قفز في النّهاية خلف الشّبّاك ، وذاب في لحظةٍ خاطفة كأنّه كان يمثّل دوره أمامي لكي يسلّيني!!

أخبرنا الحمام الزّاجل في هذا اليوم أنّ كثيرًا من الأمور قد استجدّت ، وأنّ صحيفة (السّبيل) الأردنيّة قد كتبت بالخطّ العريض عن الإضراب ، وحذت معظم الصّحف الأسبوعيّة حذوها ، وأخبرنا أنّ صحيفة (شيحان) ستُجري مُقابلةً مع (ليث) حول الإضراب وأسبابه وأهدافه ، وأخبرنا - كذلك - أنّ شباب (حزب التّحرير) قد رفضوا طعام السّجن احتجاجًا على ما نحن فيه ، وأنّ عشرة من شباب (بيعة الإمام) ينوون الإضراب عن الطّعام مساندةً لنا!! وهكذا جمعتْنا المصائب ، ووحّدت فيما بيننا ، بعد زمنٍ من الخِلافات والاختلافات!!

في المساء ، أخرجتُ كنزي البُنّيّ من مخبئه ، ورحتُ أتفحّصه ،

هممتُ بأنّ أتناول جزءاً منه ؛ فهو يكفيني لعشرين يومًا حسبما قدّرتُ ، كنتُ في اليوم الخامس للإضراب عن الطّعام ، وبين الرّغبة والتّردّد قضيتُ لحظات صعبة ، كان تردّدي مبعثه أنّني قادرٌ على الصّمود اليوم كما صمدتُ كلّ الأيّام السّابقة دون أن يدخل جوفي غير الماء ، وأنّه حتى أحافظ على إضرابي أطول فترة مُمكنة فعليّ ألاّ آكل من هذا التّمر المعجون إلاّ عندما أُشرِف على حافّة الهلاك . . . وقد يتحقّق هذا الأمر بعد عشرة أيّام من الإضراب عندما أشعر بأنّ الإعياء والتّعب والجوع قد أخذ منّي كلّ مأخذ ، فأقتات شيئًا يُعينني على الصّمود . . . أمّا هذا اليوم الخامس فلا زلتُ قادرًا على الاستمرار دون اللّجوء إلى اقتطاع جزءٍ من هذا الكنز الثّمين . . . تأرجحتُ بين الأمرين كبندول ، ولكنّني في النّهاية تناولتُ القطعة الصّغيرة ، وقلت في سرّي : سوف أظلّ صائمًا ومُمتنعًا بعدها ثلاثة أيّام حتّى أتناول القطعة الّتي تليها . . .

فجّر السّجنُ في اليوم السّادس للإضراب يوم الخميس ١٩/١٢/١٩٩٦ مفاجأة من النّوع الثّقيل ، في حوالي السّاعة الحادية عشرة والنّصف صباحًا ، سمعتُ أصوات الأقدام المألوفة إيّاها ، لم يخطر ببالي أنّ هذه الأقدام العسكريّة تحمل أعلى رتبةً في جهاز الأمن العامّ ، فُتِحَ باب زنزانتي ، ووقف الجنرال (نصوح) في مواجهتي تمامًا . كان أبي قد هاتفه عندما علم بإضرابنا عن الطّعام ، قائلاً له : ألا يكفي أنّكم سجنتم ولدي بغير حقّ ، أفتحجرون عليه في السّجن ، وتضيّقون عليه . . . أكان مُجرمًا لتفعلوا ذلك معه؟!! أيّ أسلوبٍ هذا الّذي تتعاملون فيه مع أصحاب الحقّ والرّأي . . . ويبدو أنّ مدير الأمن العامّ قد قرّر بعد هذه المكالمة القويّة أن يزورنا بنفسه ، وينهي هذه المسألة الّتي تردّد صداها أيضًا في الإعلام!!

لم أكن أعرف مدير الأمن العامّ إلاّ من خلال صوره في الصّحف قبل أن يُزَجّ بي في السّجن ، وقف بكامل هيئته العسكريّة الفارهة ، ووراءه مدير السّجن ، ونائبه وعدد من الضّبّاط ، أكثرهم توشّحتْ ياقة قميصه

باللّون الأحمر . . . كان عليّ أن أبتلع المفاجأة فأنا في حضرة كوكبة من جنرالات الأردنّ ، ومن آمريه الكِبار . . . خاطبني وجاهةً بعد أن ظلّ كلّ مَنْ خلفه صامتًا كحجر ، وثابتًا كتمثال :

- لماذا أنتَ مُضرب عن الطّعام؟!

- بسبب سوء المُعاملة .

- مستحيل . . . أنتم هنا تتلقّون رعاية فائقة!!

- ليس صحيحًا!! ليس من يرى كمنْ يسمع!!

- يا بنيّ . . . لقد زرتُ كلّ سجون العالَم واطّلعتُ على أوضاع نزلائها ، أنتم هنا تتمتّعون بأشياء لا يحصّل عليها سواكم إلاّ في الخيال!!

- نعم . . . تعالَ وانظر . . . هذه الزّنزانة الّتي أنا فيها . . . ليس فيها مكان للوضوء ، ولا حتّى مكان لقضاء الحاجة . . . ولا حتّى شيءٌ يُشرب فيه الماء . . . ولعلّك تشمّ الرّائحة العفنة والكريهة المنبعثة من كلّ زاوية . . . وهنا . . . انظر ماذا يسقط مع الماء من الصّنبور . . .!!

- خير . . . خير إن شاء . . .

وأدار ظهره وخرج ، وخرجتْ معه جوقته ، أغلق الضّابط الأخير باب الزّنزانة عليّ ، ورمقني بنظرةٍ حادّة كادت تخترق عضلة القلب يومها!!

في الواحدة والنّصف ظُهرًا من اليوم نفسه ، استُدعِي كلّ المُضربين عن الطّعام إلى غرفة مدير السّجن ، أوّل مرّة يُسمَح لنا بدخول هذه القلعة الحصينة ، وهذه الغرفة الأثيرة . حين شاهدتُ إخوتي قادمين من بعيد قفز قلبي من صدري فرحًا ، كانوا أشباحًا تتهادَى في الممرّ الطّويل الواصل إلى غرفة المدير ، كنتُ قد سبقتُهم إلى هناك ، وعندما صاروا قريبين منّي لم أستطع أن أعانق أيًا منهم . كان الموقف لا يسمح بذلك ، غير أنّي دون وعي هويتُ أحضنهم في خيالي جميعًا ، وشعرتُ بدفء المودّة تسري في كياني كلّه ، وانسابت حرارة الحبّ فيما بيننا ، وكأنّنا عشّاق هاموا على وجههم في الصّحراء والتقوا بعد طول غياب . . . كانت الصّحراء قد فعلت

فينا فعلها فبدونا غيرنا عندما شاهد بعضنا بعضًا في البداية ، كان الجوع قد ألبس كلّ واحدٍ منّا وشاحًا من الشّحوب ، ودِثارًا من الهُزال ، فتغيّر فينا كلّ شيءٍ إلاّ قلوبنا ، ظلّت على تحدّيها ، وعلى حبّها ، وعلى إيمانها . . .

جلس مدير الأمن العامّ مكان مدير السّجن ، وقبع مدير السّجن كأرنبٍ في حضرة الأسد . . . ووقفنا نحن في صفٍّ واحدٍ في المواجهة ، كنّا قد بدأنا (١٢) مُضرِبًا عن الطّعام ، وانتهينا إلى (٩) : أنا ، وعكرمة ، وعليّ ، ويوسف ، وخالد ، ومحمّد ، وزكريّا ، وجهاد ، وسالم .

كان مدير الأمن العامّ أكثر سلاسةً في الحديث ، وبدا أنّه يريد إنهاء هذه القصّة ، ولو تطلّب الأمر القفز على كلّ أوامر مدير السّجن الحاليّ وكسر رغبته وإرادته ، وطلب منّا أن نتحدّث عمّا نريد ، وراح يُصغي بكلّيّته . أمّا نحن ، فانتدبْنا (عليًّا) ليتحدّث باسمنا ، ويحدّد مطالبنا . قال :

– يجب أن تفتحوا لنا ساحات التّشميس ، فهي مُتنفّس السّجين ، وأكسجينه الّذي به يعيش ، وإغلاقها تضييقٌ على الأعناق ، وغَلٌّ للأيدي والأرجل!!

– وفي هذه السّاحات يجب ألاّ يكون هناك اختلاطٌ مع بقيّة السّجناء إذ إنّ كثيرًا من ملابسنا قد سُرِقت من قِبَلهم ، وأخلاق بعض هؤلاء لا تتورّع عن أن تفعل أيّ شيءٍ هناك!!

– على إدارة السّجن أنْ تسمح لبعضنا بإكمال مرحلة الماجيستير والدّكتوراة ، إذ إنّ السّجين أقدر على إتمام البحث هنا إذا توافرت الكتب والمراجع . . . وخاصّة أنّ بعضنا قد أكمل موادّ الماجيستير ، ولم يتبقّ له غير الرّسالة!!

– تسهيل زيارتنا للعيادات والمستشفى إذا اقتضى الأمر ، وعدم مماطلتنا في الدّور ، بحيث يأتينا الدّور بعد أن يكون المريض قد أكل منه المرض كلّ شيءٍ ثمّ غادره!!

- السّماح للكتب الخارجيّة بالدّخول دون تعقيدات ، فنحن هدفنا من إدخال هذه الكتب أن نثقّف أنفسنا ونحمي عقولنا من الاهتراء ، ولا شيء آخر ، وخاصّة أنّ الكتب الّتي نطلبها أو نريد إدخالها هي كتبٌ منشورةٌ ودخلت الأردنّ أو هي نُشرِت ابتداءً في الأردنّ ؛ فأين مُسوّغ المَنع إذاً؟!!!

في الثّانية ظهرًا من يوم الخميس ١٩/١٢/١٩٩٦م كنّا نسير كما تسير الذّئاب العجوزة . . . عبرنا الأشباك ، وجميع مَنْ في المهاجع يُبحلقون بهؤلاء السّياسيّين الّذين تحدَّوا إدارة السّجن وانتصروا على ضعفهم واستطاعوا أن يحقّقوا مطالبهم . . . لم تكن كلّ الأعين ترمقنا بإعجاب . . . . كانت بعض العيون تُحملق في الفراغ . . . وبعضها ذاهلةً لا تُدرِك أنّنا نفعل ذلك من أجل استعادة إنسانيّتنا . . . وبعضُها يودّ أن يقول : ما أبطَرَهم!! وأخرى تقول : ما أَرْوَعَهم!! وبين البطر والرّوعة حثثنا خُطانا إلى غُرَفِنا نتّقي سِهام الأعين الّتي أصابتْنا في كلّ شبرٍ من أجسادنا الضّامرة!!

(١٣)
«اقْرَأْ كِتابَكَ»

على باب المهجع استقبلَنا مَنْ تبقّى منّا في الغرفة ولم يلحق بنا في رحلة الإضراب عن الطّعام . . . كان (بَكر) أوّل المستقبلين ، فتح قلبَه ذراعين من شوقٍ واحتضننا بكلّ ما أوتي من قوّة ، وكان قد عَلِمَ بأنّ مفاوضاتنا مع مديرِ الأمن العامّ ستُفضي إلى فكّ الإضراب والعودة إلى المهاجع ، فجهّز لنا كمّيّات كبيرةً من الحليب ، يومَها نصّب (بكر) نفسه طبيبًا شخصيًا لنا جميعًا ، سكب الحليب لكلّ واحدٍ منّا في كأس فدارت الكؤوس البيضاء كأنّها عرائس راقصة على الجائعين إلى كلّ شيء ، ومنَعَنا (بكر) أن نمدّ أيدينا إلى ما سواه خوفًا على صحّتنا ، فهو يرى أنّ فترة الإضراب قد فاقَمَت من حساسيّة المعدة عندنا ، فعلينا أن نشرب السّوائل الّتي تُهيِّئ المعدة لاستقبال الطّعام ، وبعد أن أفرغنا كؤوس الحليب في أجوافنا ، مدّ لنا ببضع تمرات لنأكلها ، وحَجَر علينا الأكل لمدّة ثلاث ساعات ، حتّى نتناول جميعًا فيما بعد طعام العشاء ، وفي اعتقاده أنّ المعدة حينها بعد أن رُوِّضت بالحليب وما فيه من الفيتامينات ، وبالتّمر وما فيه من السّكّريّات تكون جاهزةً لاستقبال الطّعام على تنوّعه . . . ولكنّه أيضًا نصح بعدم الإكثار منه في اليوم الأوّل ، ودعا إلى أن ننام خفيفين في ذلك اليوم على حدّ تعبيره . . .

في السّاعات الثّلاث الّتي تلت أكؤس الحليب ولقيمات التّمر كنّا جوعى إلى الحديث ، راحت سيول الكلمات تشقّ طريقها عبر الآذان ، وكلّ واحدٍ منّا يروي قِصّته وما حدث معه . . . كانت السّاعات الثّلاث

مزدحمةً بالضّحكات وبالطّرائف وبالسّخرية المرّة ، وكنّا نهوي على الأرض أوراقًا من ربيع تأجّل موعده . . .!!

مـرّ زمن ٱلسّـجن بطيـئًا بعـدها ، اسـتـقـرّت الأحـوال على اضطراب تعوّدناه ، تعـايشنا مع كوننا سجناء كبقيّة السّجناء ، لم يكن قد مرّ وقتٌ على نضجنا كـمـا يجب ، أحـسستُ بعـد صـفـحـة الإضـراب أنّ كـتـاب السّجن صار يُفتَح في كلّ يوم على صفحة مُشابهة لما قبلها ، والحقّ يُقال أنّ بعضنا أصابَه اليأس والكمدُ ، وهاجَمَتْه فرائس الاكتئاب العاديةُ خلف الطرائد فانزوى بعيدًا ، واتّخذ من الصّمت أيقونةً لعالَمه الخاصّ ، وتركنا في مهبّ عواطفنا المتماوجة لا ندري ماذا نفعل ، ولعلّني كنتُ سأكون أحد هؤلاء لولا أنّني سارعتُ إلى حماية نفسي بالقراءة . . . كنتُ أقرأ في الأسبوع كتابًا أو كتابين ، أمّا الآن فهُرِعت إلى الكتب أقرأ في اليوم أو في بعضه كتابًا ، ألتهم ما فيها كأنّني أهرب من شيءٍ لا أعرف كنهه ، أفزع إلى الصّفحات أُبَحْلِقُ فيها من أجل أن أدفع عن نفسي غُول الكآبة ، ومِعطف المرض النّفسي الّذي ارتداه عددٌ منّا طواعيةً .

لماذا كنت أقرأ؟ لا أدري . . . لماذا كان هذا الجنون؟! لا أدري؟! من أيّ شيء كنتُ أهرب وأنا أفعل ذلك؟ لا أدري . . .!!

أحاط بي (عكرمة) ، كان هو الآخر مهووسًا بالقراءة ، بل لقد كان وجهه كتابًا ، وعيناه صفحات ، وأصابعه كلمات ، وشَعْرُ لحيته حروفًا . استفزّني لأحتمي بالقراءة كما لم يفعل أحدٌ من قبل ، كنّا نقضي وقتنا بين عبادةٍ في محراب الكتاب ، أو رياضةٍ في مضمار النّقاش ، أو مناكفةٍ في حَوْمة الآراء . . .!!

عشرات الكتب ، ومئات الكُتّاب ، وآلاف العقول وقفتْ أمام جلال روعتنا في حلبة القراءة ، حضرتْ جيوشٌ من الأرواح لتؤنسنا ، اكتشفْنا أنّنا حين نقرأ لا نقرأ سطورًا ، بل نقرأ أرواحًا ، وأنّ السّطور في البداية تظلّ سطورًا جافّة ، لا تُجاوز المعنى ، ولكنّها تتحوّل بعد المِران والدُّربة وإجبار

العقل على الخضوع لسطانها إلى أرواح ، وما أمتع أن تحاور روح الكاتب ، ويخرج هو من بين ثنايا كِتابه ليجلس في حضرتك ، عابرًا مواضيَ سحقية ، وبلادًا بعيدة ، ومستقرًا بين يديك . . . لا تعترف الرّوح بتطاول الزّمن ، قد تنخدع اللّغة بذلك فتتغيّر حين تتبدّل الأطوار ، غير أنّ الرّوح هِيَ هِيٍ مهما مرّت العصور وكرّت الدّهور ، وحينها تلفّك بشَهْد تجربتها خالصةً لوجه المعرفة الكريم!!

قرّرت إدارة السّجن أن تشرع أبواب المكتبة يومًا واحدًا في الأسبوع لكلّ سجناء سواقة ، غير أنّه كان من النّادر أن ترى سجينًا غير سياسيّ يرتاد المكتبة ، فخلا لنا الجوّ ، وفتحتْ الكتب لنا عن صدرها ، و كشفت عن ذراعيها ، وقالت لنا بكلّ شوق : هيتَ لك!! فقلنا لها : هاتِ لنا!!

كان عددنا في الغرفة تسعة أشخاص ، كثيرًا ما كنّا نستعير كتبًا على عددنا ، وكانت مدّة الإعارة أسبوعًا واحدًا ، وهكذا كان يجتمع لنا في الغرفة ما يقرب من تسعة كتب لأسبوع ، فيقرأ أحدنا الكتاب ، ثمّ نتبادل ما نقرأ مع الآخرين ، فتكون وفرة وخضرة . غير أنّ بعضنا كان يستعير لنا أكثر مِمّا يستعير لنفسه ، ندفعه إلى استعارة الكتاب حتّى ولو لم يكن يرغب في القراءة البتّة ، ونقول له : ما دام يحقّ لك ذلك فأَفِدْنا به إن لم ترغب أنت بالاستفادة منه!!

كانت مكتبة السّجن فوق ما نرجو ، وقريبًا مِمّا نطمح ، كانت فيها بعض الكتب الّتي لهثْنا ونحن خارج السّجن نطاردها لنمسك بها وهي تتأبّى علينا ، إمّا لندرتها ، أو لعدم توافرها بسهولة . . . أمّا هنا في السّجن فقد وجدناها مبذولة موفورة ، فكتابٌ -مثلاً- كمذكّرات الملك عبد الله الأوّل كان عزيزًا خارج السّجن ، ولكنّه في مكتبة السّجن كان يتربّع على أوسع رَفّة وأفرهها ، ومثله يُقال لمذكّرات وصفي التّلّ رئيس وزراء الأردنّ الّذي اغتيل في بداية السّبعينات من القرن المنصرم .

أمّا لماذا كانت مثل هذه الكتب النّادرة ، وأحيانًا الممنوعة موجودةً في

السجّن ؛ فذلك لأنّ معظم الكتب هنا قد اختارَتْها لجنةٌ من الصّليب الأحمر ، وهي الّتي رتّبتْ أمر دُخولها ، ومعلومٌ أنّ ما لا يرى الصّليب الأحمر بأسًا في دخوله هو ما لا ترى الدّولة في دخوله أيضًا بأسًا ، ولم يكنْ أيّ شيءٍ يدخل عن طريق الصّليب الأحمر خاضعًا للمراقبة أو التّفتيش ، وفي ذلك نعمةٌ منّ الله بها علينا هناك في صحراء الجنوب ، حيث الصّحراء تتمثّل في كلّ شيء ، ولا يمكن أن تغادرنا إلاّ إذا نحن غادرناها عن طريق ما نزرعه نحن فيها من ورود القراءة ، فنُحيل اليباس فيها إلى خُضرة ، والجفاف إلى رُواء . . .

ماذا أقول لكم اليوم عن الّذين قرأنا لهم؟! عمّن أحدّثكم بالضّبط؟! وعلى منْ أدير قلم الذّاكرة فأقتنص به شجرة التلقّي فأبسطها بين أيديكم لتستظلّوا بظلّها؟! إلى مَنْ أدعوكم لتفيئوا إلى واحاته؟! وعلى أيّ أرضٍ سألقي الرّحال لأعرّفكم إلى جَماله؟! آه لو كانت الأيّام تُسعف المفؤودين مثلي!! آه لو كانت الكلمات تسقي العطاشى المحرومين مثلي!! آه . . . وماذا تُفيد آه . . .!!

اتبعوني فإنّني ما زلتُ أحتفظ في جيب قميصي ببعض الورود ، وما زلتُ أملأ كِنانتي من قَصَب الذّكرى . . . اتبعوني فأنا أحتفظ للّذين أحبّهم بمنزلةٍ لا تموت مهما تقادم الزّمن ، ولا تتبدّل مهما عصفت الرّياح . . .

ماذا أقصّ لكم مِمّا قرأت : (الولاء المُطلَق يعني انعدام الوعي) / (إنّ جريمة الفكر لا تُفضي إلى الموت إنّها الموت نفسه) قال ذلك (جورج أورويل) في رواية (١٩٨٤) .

(هو النّصّ الأوفر سطوعًا والأكثر قوّة داخليّة ، والّذي يشمل بأقصى حدٍّ من الاختصار التّجربة والتّاريخ الإنسانيّيْن اللّذَين دارا تحت نظر الله) قال ذلك هشام جعيط عن القرآن في كتابه : (الفتنة ؛ جدليّة الدّينيّ والسّياسيّ) .

(إنه الوعي لجماعةٍ من الجماعات تصل اليه فجأةً على أساس من

تاريخها وتناقضاتها ومشكلاتها وبالتأثير على عوامل الانحطاط في مجتمعها ، هي الوعي المقترن بالعشق والإيمان هذا هو نوع الوعي الذي يحدث فيخلّص المجتمع الذي كان قد توقف عدة مئات من السنين بل عدة آلاف من السنين ذلك الوعي يحدث فيه قوة معنوية تفعل فعل سحر مثير للدهشة فتقضي على كل الأشياء التي كان قد اشتد رسوخها في علاقاته الاجتماعية عبر آلاف السنين) قال ذلك (علي شريعتي) في كتابه : (العودة إلى الذّات) في حديثه عن الوعي المستقلّ .

(فمعنى الاستحمار إذاً في تزييف الإنسان نباهته وشعوره ، وتغيير مساره عن النّباهة الإنسانيّة والاجتماعيّة ، وأيّ دافع لتحريف الفرد أو الجماعة عن هاتين النّباهتين ، هو دافع استحمار وإن كانً من أكثر الدّوافع قدسيّة) قال ذلك أيضًا علي شريعتي في كتابه : (النّباهة الاستحمار) .

(كلّ شيء ساكن ، مسالمٌ جداً إذا نظرت إليه من الخارج ؛ الكتب والثّقافة وكلّ شيءٍ آخر ، ولكنّ اجتناب الخطأ مستحيل ، ولذلك ثمّة نظام خارجيّ ، بينما في الدّاخل فوضى ولا أحد يستطيع فهم الآخر) قال ذلك مكسيم غوركي .

نِمت وبين يدي كِتابٌ ظلّ يرافقني كأنّه حلمٌ في ليلةٍ سرمديّة . . . للكتب مَذاقُ الخلود ، ونكهة الأمل ، ولمسةٌ من شجنٍ ، ورفّةٌ من عِشق . . . نعشق فنقرأ!! نجوع فنقرأ!! يُباغِتنا الحِرمان فنهرب إلى القراءة ، ويأكل النّدمُ أصابِعَنا فنعيد ترميمها بتقليب صفحاتِ كتابٍ استبقيناه في ذاكرةٍ حُلوةٍ لم تُطلِ المكوث!!

ها أنذاً . . . أقاوم الكآبة بالنّظر إلى صفحةٍ واحدة ، يكفي أن أرى سُطورًا مُبهمة تتناثر في مدى الرّؤية لأشعر بشيءٍ من الطّمأنينة . . . أين يبيعون هذه الطّمأنينة؟!!! وقد كانت إلى اليوم طائرًا حُرًّا أَنِفَ أن يَدخل معنا داخل هذه الأسوار، بقينا نراقبه على توق من بعيد يُحلّق فوق الأسوار العالية ، وينشر جناحيه على المهاجع النّائمةً . . .!!

(١٤)
«وَتُخْفِي في نَفسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ»

لا تأتيك الأحلامُ سهوًا ، تنتظر جوعك إليها ، وتأتي على نهَم وشوق!! كنتُ ولا أزال أملك قلب شاعر ؛ تقتله الذّكرى ، ويمزّقه الحنين ، وتوزّعه الآلام مذبوحًا على الطّرقات . . .

وما في الدّهرِ أَشْقَى مِنْ مُحبٍّ
وإنْ وجدَ الهوى حُلوَ المذاقِ
تراه باكِيًا في كلِّ وقتٍ
مخافةَ فرقةٍ أو لاشتياقِ

العشق امتلاء النّفس بمن تحبّ ، حتّى لا يعود لكَ فيها منها شيءٌ ، كلّك له ، فما بال بعضك الّذي يكتب كلمات الحبّ وينثرها على جروح العاشقين وردًا وياسمين ، وزنابق ورياحين . . .؟!! دَعاني العشق في ليالي الشّتاء الباردة ، فلبّيتُه طائعًا ، إنّه يكتب قَدَري الّذي ظلّ سكّينا مغروسةً في خاصرتي إلى اليوم ، هيّأت للعشق الفضاء الرّحب من قلبي ، وزرعتُ فوقه رايات الاستسلام!!

ظلّتْ تؤرّقني ، منذ أن حلّت ضيفًا دائمًا على السّويداء . كانت عيناها وطنًا من اللّهب المُقدّس ، في غوريهما هويّت ، وفي لجّهما غرقت ، وما زال فمي بمائهما ملآنَ عَطَشًا وريًا . . . كيف لي بعد سنيّ الاغتراب القسريّ ، وبعد الطّعنات المئة أن أقف على قدميّ ، وأن أفسّر ما حصل معي!! أيّ جنون يُصيب الشّعراء عندما يعشقون؟! وأيّ نار تشبّ في أطرافهم عندما يتنازلون طوعًا عن كلّ كلماتهم السّاحرة من أجل نظرةٍ عابرة!! عابرة!!!

نعم ؛ ولكنّها عبرتْ شغاف القلب مليون مرّة ، وأسالتْ دمَ الحبّ مليون مرّة ، وأبكتْني مليون مرّة ، وجمعتْني وبعثرتْني ، وأبعدتْني وأدنتْني ، وأماتتني وأحيتْني ، وأعطتْني وحَرَمتْني ، وأعزّتْني وأذلّتْني ، وتدلّلت وتمنّعت ، وكانت نارًا وبردًا ، وسلامًا وحربًا ، وبقاءً وفناءً ، وحزنًا وفرحًا ، كانت كلّ ذلك ملايين المرّات . . .

أسَجْنًا وقيدًا واشتِياقًا وغُربةً
ونأيَ حبيب إنّ ذا لَعظِيمُ
وإنّ امرءًا دامت مواثيقُ عهده
على مثلِ ما لاقيتُهُ لَكَريمُ

إنّها أنا في تجلّيها الأعظم ، كانت تعصف بي في الصّقيع فأتهاوى مثل الورقة اليابسة تحت قدميها ، وتدّعي أنّها لم ترني وأنا بين يديها هشيمًا تذروه الرّياح ، وعَصْفًا تتقاذفه خطوات العابرين . . . لم يعُدْ بين يديّ منّي شيء ، صرتُ أبحث عنّي في الممرّات ، وفي الكلمات ، وفي القصائد المنسيّات ، وفي الجروح الغائرات ، فأجد منّي شيئًا هنا وشيئًا هناك ؛ ولكنّني فشلتُ في أن أجدني كُلاً فأعودَ ذاتًا واحدةً موحَّدة!!

كان الحبّ وسيلتي الأنصع في البقاء على قيد الحياة ، لم تكن الوسيلة الأبرأ ، كان عذابًا وموتًا ، ولكنّه كان حياةً ؛ لأنّ الموت فيمن تحبّ خلاصٌ من الموت نفسه!! تَصارَعا ؛ الموت وهو يتخفّى تحت بُردة الحبّ ، والحبّ وهو يتبدّى في صاعقة الموت ؛ وانتصر الحبّ على الموت ، وظلّ الحب شعلة الرّوح الباقية في جسدٍ تهالك منذ ١٢/١٩ ، وتهاوى في الجبّ السّحيق!!

سَقَوْني وقالوا : لا تُغَنِّ ولو سَقَوْا
جِبالَ حُنين ما سُقيتُ لَغَنّتِ
تَمنَّتْ سُلَيْمى أنْ أَموتَ بِحُبِّها
وأسْهَلُ شيءٍ عِنْدَنا ما تَمنَّتِ

أكنتُ في سجن سواقة محتاجًا إلى مزيدٍ من الغربة ، ألم يكن الحبّ وحده غربتي عنّي حينَ لم أعد أعرفني؟! أكان على هذا السّجن أن يُضيف نكهةً فارقةً إلى طعم الغربة الجارح؟! ألا أيّها الرّاحلون عنّي عودوا فإنّ لكم في القلب ألفَ وردة ، وألفَ قُصاصة كتبتُها في ليالي العشق المُسافرة ، وخبّأتها من أجلكم كي تستدفِئوا بنار كلماتي النّازفة حينَ يطعن البرد كلّ مَنْ حوله!! ألا أيّها الرّاحلون أقيموا قليلاً ، فإنّ الحادي ظلّ يُكذّب قلبي وهو يرقص مذبوحًا على مرأى منه!! ألا أيّها الرّاحلون ، لا تظعنوا فإنّ قلبي لم يعد يعرفني ، ولم يعد بين جوارحي ، أفهانَ عليكم أن تتركوني هنا في اللّيالي القارسة والمساءات الدّامسة وحيدًا بلا قلب؟!! أنا الّذي حملتُكم في المحطّات كلّها ، وحدّثتُ عنكم كلّ الورود الّتي لقيتها في الطّريق ، وأفشيتُ لها كلّ أسراري ؛ كنتُ كلّما بُحتُ بكلمة نبتتْ في الرّوض وردة ، وكلّما همستُ بدفءٍ في رئتي الأرض الباردتين بَزَغت في القفر زهرة ، وكلّما سقطت من عينيّ دمعةٌ اخضلّت زنبقة . . . من يستطيع اليوم أن يُنكر أنّ كلّ هذه الرّياض الّتي تمتدّ بالخضرة الكاشفة امتدادَ البصر هي سِقاءُ دموعي ، وارتواءُ ماءِ جفوني؟!!!

كانت حبيبتي تأتي في المساء ، وحدي أراها ، لأنّ رفقائي لم يتعلّموا الكشف بعد ، وحدي أراها لأنّها لم تكن إلاّ لي ، وحدي أراها لأنّ الحبّ وحده قادرٌ على أن يجعل العميان مُبصرين ، ولم يكن أحدٌ عاشقًا بمثل مستوى عشقي :

وَلَوْ مَسَحَتْ بالكَفِّ أَعْمَى لأَذْهَبَتْ
عَماهُ وَشِيكًا ثُمَّ عَادَ بِلا عَمَى

تأتي مساءً ، فيختفي المساء ، وبردًا فيزول البرد ، ويكون صبحٌ ، وتكون نارٌ ، وتشتدّ الأضلاع ، وتصطفق الجوارح ، وتلتهب الجوانح ، فمن أيٍّ أحمي نفسي؟! أمن النّار المُحرقة ، أم من لسعات البرد المُهلكة ، أم من اللّيل العامي؟! تأتي فيقول الحبّ : أين أنت الآن منّي؟!! تذوب الحدود ،

وتتلاشى الحواجز، وتغيب الشّهودُ، وتشهدُ الغيوبُ، ويكون امّحاءٌ وانصهارٌ وإحساسٌ فوق الإحساس، ليس له من وصف، وليس لوصفه من حدّ، وليس لحدّه من نهاية!!!

مشيتُ حافيًا على الشّوك في الطّريق الواصل بين القلب والشّوق، ومن قطرات الدّم النّازفة لوّنتُ لوحاتي، وصُغتُ كلماتِ قصائدي، ما أعذب الشّعر تكتبه يدُ الجِراح!! وما أوقعَ اللّحن تُغنّيه القصيدةُ الشّجيّة!!

تركتُ عتبة الباب المُفضِي إلى المهجع، وسرتُ بين المهاجع بلا روح، طالعتْني الوجوه من بين الأشباك وهي واجِمة، تمنّيتُ طيلة وجودي في هذا السّجن أن يكون لي مُصطلحاتي الخاصّة في توصيف النَّظَرات، للآن لم أنجحْ!! سرتُ حتى وصلتُ مطبخ السّجن، لم أكن أشعر بوجود أيّ سجّان حاول منعي من الاستمرار في حركتي، عبرتُ الممرّات المتعرّجة الّتي كانت تُساق فيها الغزلان أيّام زنزانة الإضراب، وتابعتُ حتّى وصلتُ بوّابة البهو الكبير الّذي يمتدّ عشرات الأمتار، وتصطفّ على مُحيطه مقاعد الآكِلين، دخلتُ ولم يُوقِفْني أحد، أو هكذا خُيِّلَ إليّ!! ثمّ قطعتُ عُرضَ القاعة الفسيحة في هذا البهو الممتدّ حتّى وصلتُ إلى فاصل الطّبّاخين، كان الفاصل عبارة عن جِدار مُبلَّطٍ يرتفع أكثر من متر، يحجز خلفه غُرَف الطّبخ، وأمامه يصطفّ السّجناء بالدّور ليأخذ كلّ سجينٍ وجبته. أسندتُ مرفقي على بَسْطَةِ هذا الحاجز المُبلّط، واتّكأتُ كمن ينتظر شيئًا. لم يكن الوقت وقتَ غداء، ولم يكنْ أحدٌ من السّجناء موجودًا في تلك القاعة الفسيحة، كانت فارغةً بالكامل، تناهى إليّ وأنا أعبرها صدى طَبْطَباتِ (شُبْشُبي) على الأرض. ولم يكنْ من صوت بعدها سوى صوت شهيقي، وزفيري الرّتيب الّذي رحتُ أنفثه وأنا متّكِئ على ذلك الحاجز. بَحْلقتُ في الفراغ، لم يكن هناك أحدٌ سواي . . . . انتظرتُ برهةً من الزّمن، ولم يأتِ أحدٌ، أو يكلّمني مخلوقٌ حتّى ولو كان عِفريتًا. وانتبهتُ بعدها، وهززتُ رأسي مرّات عديدة كمن صحا من حلمٍ، وانعقدَ لساني

أمام هدير الأسئلة الّتي راحت تصفعني من كلّ اتّجاه؟! لم أكنْ حتّى هذه اللّحظة أدري كيفَ وصلتُ إلى هناك دون أن يوقفني أحد، ولا السّبب الّذي دعاني إلى أن أعبر كلّ تلك الممرّات والمهاجع؟! كنتُ أمشي كمن استحوذتْ عليه قوّةُ سيّرَتْهُ دون دليل. عدتُ. وفي الطّريق ظللتُ مدهوشًا ممّا حصل معي، وعندما دخلتُ إلى المهجع (٦) توقّعتُ أن يسألني أحد الزّملاء أين كنتُ؟! ولماذا ذهبْتُ؟! لم يفعل أحدٌ منهم ذلك!! ممّا زادني حيرةً واندهاشًا. حدّقتُ في العيون لعلّي أجد سؤالاً يترقرق في المآقي. لم يكن هناك من أحد يبدو عليه أنّه شعر بي وأنا أغادر!!!

اليوم لم أنمْ، لم أكنْ قرأتُ بما فيه الكفاية؛ لذا جافاني النّوم، تُساعدني قراءةُ وجهِ مَنْ أحبّ على الهذيان والدّخول في عالم الأحلام، غير أنّه:

لم يطلْ ليلي ولكنْ لم أنمْ
ونفى عنّي الكرى طيفُ ألمْ
نفّسِي يا عبدَ عنّا واعلمي
أنّنا يا عبدَ من لحمٍ ودمْ
إنّ في بُردَيَّ جسمًا ناحِلاً
لو توكّأتِ عليه لانْهدَمْ

في المساء، رتّبْتُ حُزمَ الذّكريات؛ بياضُ الورقة النّاصع كان يبسط جسده لي نهرًا من شهوة، وقلمي الأسود كان يستعدّ للدّخول رمحًا من كلمة. هي، هي!! لا أستطيع للحبّ تفسيرًا!! كان يومًا ماطِرًا، وقد مشيتُ مسافةً طويلة حتّى أصل إلى المكان، تبلّلتْ ثيابي؛ لم يكن ذلك عائقًا، بل كان مُشجّعًا!! دخلتُ القاعة المهترئة، والفارغة من كلّ شيءٍ إلا من بضع مجانين جاؤوا ليسمعوا كلماتي. الجدران كانت قديمة وبالية ومقرورة وحامضة!! طِلاؤها الّذي مرّتْ عليه عقود انعقد كُتَلاً وتهاوى على الحوافّ. وفي مُختَتم هذه القاعة الصّغيرة حضر اسم نزار قبّاني، وحضرتُ

أنا تحت لافتة توشّحتْ باسمه غائبًا، وباسمي حاضرًا!! والطّاولة الّتي كانت تربض أمام الجمهور الغفير جدًا كانت هي الأخرى تشكو من كُساح في رِجْل، وعَرَج في الأخرى، لم يرحّب بي وأنا أدخل القاعة سوى الشّاعر الصّغير السّاكن في أعماقي. يومها دخلتُ غريبًا، وخرجتُ أكثرَ غربة. غير أنّ الغربة الّتي تفاقمتْ فيما بعدُ وملأت حِبرَ دواتي رياحين، كان سببُها إحدى الحاضرات في ركنٍ قصيّ من القاعة. لم أكنْ أدري يومها أنّني رأيتُ هذا الوجه قبل ألف عامٍ؟!! ولم يَدُرْ في خَلَدي أنّ الوجوه أقدم من القلوب، وأنّ العيون سرُّ كلّ نظريّات الصّوفيّة الحقّة. آه من عينين أشعلتا النّار في دمائي ثمّ نامتا!! آه من عينين أحيتْ كلّ ميّت في الصّدور الفارغة!! آه... حين يبدأ تاريخي من عينين، وينتهي بعينين، ويشمخ بهما، وبهما ينسحق!!

كان ذلك اليوم ماطرًا لكنْ بالعشق، فَمَنْ يُعيد لي مطرًا لا تُغدقه رحمة السّماء إلاّ مرّة واحدة!! نعم عرفتُ بعدها أنّ طائر الحبّ قد استيقظ، وأنّ خفقانه سوف يذبحني من الوريد إلى الوريد في قابل الأيّام، وأنّ صفحة التّاريخ سوف تتّسع لعاشقٍ جديد ينضمّ إلى القافلة المتّصلة!!

لملمْتُ أوراقي، بعد أن كتبْتُ بضعةَ أبيات، وحدّقتُ في النّافذة، كانت مُغلَقة، والمطر يتساقط على رُقعتها الفضّيّة، كان رِهامًا. يشتدّ حينًا ويخبو حينًا، يبدو في لحظة أنّه يُداعب بحبّاته القضبان القائمة خلف الزّجاج، ويبدو في لحظةٍ أخرى أنّه يُعاتبها. ركّزتُ في القطرات ورحتُ أحاول عَدّها، تُدهشني حين تلعب الرّياح بدَفقة من دفقاتها، وبمجموعة من حبّاتها فتُميلها بهذا الاتّجاه أو ذاك، وهي في الحالين مستسلمةٌ للرّيح الباردة. اختفى صوت القطرات لفترة، وسكتَ إيقاعها السّاحر، وظلّ عُواء الرّيح يُساورُ جدارَ الصّمت الّذي خيّم على القلب، ويُغالبه.

بعد ساعتين درتُ بعينيّ أتفحصّ أسرّة الزملاء، كانوا قد أَوَوْا جميعا

إلى أوكارهم كما لو كانوا ثعالب قد دخلت إلى جحورها أملاً في بيات شتويّ طويلٍ . وحدي بقيتُ ساهرًا . بدتِ الأسرّة كالتّوابيت ، غُطِّي بعضها وظلّ بعضها الآخر مكشوفًا . وسهر اللّيل قاتِلٌ إذا كان مملوءًا بمن تحبّ!!

ليس من سبيل إلى النّسيان إلاّ بالقراءة . الكتب موجودةٌ وغير موجودةٌ . لم يكنْ كثيرٌ من القاطنين هنا يهتمّون بقراءتها ، هي بين أيديهم عوالم من التّجربة الإنسانيّة ، وصفحات من عُصارة الفِكر ، ولا أحد يهتمّ . كان هذا يغيظني أحيانًا ، وربّما يُريحني . لا أدري . يريحني حين يجعل عدد المقتسمين للكنز قليلاً ؛ أنا وعكرمة في المقام الأوّل ، وأحيانا خالد أو يوسف . ويغيظني حينَ أجدُ تهمةَ شُحّ القراءة عند أصحاب الاتّجاهات الإسلاميّة ماثلةً في أحد صورها الصّادقة أمامي . اليساريّون استغلّوا السّجون للقراءة ، ولبلورة أفكارهم . بعضُنا قطعها وهو يبكي على الأطلال ، وينوح على الآثار ، ما أبعد البَوْن بين الحالين!!

ظللتُ أقرأ تلك اللّيلة حتّى قفزت الحروف عصافير من أماكنها وراحت تنقر عينيّ . ورحتُ أقاوم الألم النّاتج من نَقْر العصافير ، بالذّهاب إلى المغسلة وسَكْبِ الماء البارد على الوجه . حانت منّي التفاتةٌ إلى المرآة المشروخة الّتي تحتفظ لنفسها ببعض تفاصيل الوجه المُحدّق فيها ، ركّزْتُ النّظر إلى عينيّ ، كانتا حمراويْن ، بدتا تسيلان دمًا ، استمتعتُ بمنظرهما الدّامي ، ورحتُ أفكّر : أهي دماء الحبّ؟! أهكذا يجد المرء في الحبّ وسيلةً ليوسّع مساحة الصّبر الّتي أوشكت على النّفاد؟!! أهذا أنا أم سواي؟! أعيناي أم عينا العاشق؟! أَلِي أم لِغيري؟!!

عُدتُ إلى (بَرْشِي) ، قفزتُ بخفّة غزال إلى الطّابق الثّاني من السّرير ، وتمدّدتُ ، سحبْتُ البطّانيّات عليّ ، ورُحتُ بنظرات هائمة أُطالع سقف الغرفة . كم مرّ علينا هنا بعد الإضراب؟! لم أعد أذكر تمامًا ، قدّرْتُ أنّها عشرون يومًا ، كان الإضراب نقطةً فاصلةً في مسيرة الحياة هنا ، لم أعد

بعده كما كنتُ قبله ، صنعتْ أيّامه السّبعة منّي إنسانًا آخر ، أشياء كثيرة تركتُها ورائي هناك في الزّنازين ، وأشياء أخرى حملتُها فوق راحة روحي إلى هنا مع هؤلاء الفِتية . فقدتُني بعد الإضراب كما لم أفقِدْني بعد أيّ شيءٍ!! سهّلَ الإضراب انسكاب الدّموع من عينيّ لأقلّ سبب ؛ ووسّع مساحةَ الرِّقة إلى أبعد حدّ ، وقتل الاكتراث بأيّ شيءٍ إلى أعمق مدى!!

في الفجر ، خرجْنا من قبورنا ، يبدو أنّ (عليًا) أوشك أن يُقيم الصّلاة ، كان صوته يأتي شفيفًا مبحوحًا بعض الشّيء وهو يهزّ كتفي من أجل الاستيقاظ ، صَنَعَ معي هو و(يوسف) من بعده معروفًا لا يُنسَى أيّام كنتُ آوي إلى فراشي مُقرّح العينين من السّهر والقراءة والعِشق . لم يكنْ من سبيل إلى الاستيقاظ إلاّ بذلك الصّوت الشّجيّ مع هزّة الكتف تلك ؛ بِهما شعرتُ بدفء الأخوّة ، ومعهما عشتُ أحلى لحظات الوقوف بين يديّ الله . لم يكنْ (عكرمة) يمتلك تلك الطّاقة الرّوحيّة ؛ لكنّه استطاع أن يحرّك خلايا العقل الرّاكدة ؛ بدأبه المتواصل في استفزازي من أجل القراءة ، وبشغفه المجنون بالنّقاش حتّى ولو لم يكنْ من سببٍ قائم له!!

(يوسف) الخَدوم ، وبكر الشّغوف بالذّهاب إلى مطبخ السّجن كفيَانا جميعًا قاطني هذه الغرفة من مهجع (٦) مؤونة الطّعام . يصبح الإفطار جاهزًا مع طلوع الشّمس ، فلا تكاد صلاة الفجر تنتهي حتّى تُشرَع أبواب المهاجع ، ويبدأ صوت الأقدام النّازلة من تلك المهاجع يتناهى إلى السّمع ، وهي تشقّ عباب الصّباح الباكر الموسوم بأوّل خيوط الشّمس ، والمصحوب بلسعات الهواء الصّباحيّة الباردة . ينضمّ (بكر) و(يوسف) إلى هذا الموج المتدفّق في مسيله إلى بيت الأرزاق ، ونبقى نحن في أماكننا ننتظر عودتهما الميمونة . كانت (الفلافل) تحضر في وجبة الإفطار ، والخبز والزّيتون ، وحبّاتٍ من البندورة ، وأصابع من الخيار ، وأحيانًا الجبن الأصفر ، والحمّص والفولٍ . وحين تنبسط المائدة الصّباحيّة على أرضيّة الغرفة ، نشعر أنّنا الحواريّون أمام مائدة عيسى ، غير أنّنا حاضرون دونه!! لا

متعة تفوق صباحًا يبدأ بصلاة الفجر، ومائدةٍ تُمَدّ على أرض الودّ، وأحاديث تُتجاذب على بساطِ الأمل!!

لم أكنْ أجد طعمًا في موائد الصّباح إلاّ لأنّ بعضًا منك كان يُشاركني تلك الصّباحات في حضورٍ طاغ. ولم أستسغْ شرابًا إلاّ لأنّ خيالاً منك تراءى خلف صفحة الزّجاج الحاملًة لذلك الماء:

والله ما طَلَعَتْ شَمْسٌ ولا غَرَبَتْ
إلاّ وذكْرُكَ مَقْرونٌ بأنْفاسِي
ولا خلوتُ إلى قَوم أحدّثهمْ
إلاّ وَأنتَ حَدِيثي بين جُلاّسِي
ولا هَمَمْتُ بِشُرْبِ الماءِ منْ عَطَش
إلاّ رأيتُ خيالاً منك في الكاسِ

إذا نَهضَ طائر الحبّ من القلب انفتح بابُ السّجن، فخرجتِ الرّوح مع مَنْ تحبّ، كان السّجّانون أعجزَ من أن يسجِنوا شاعِرًا مثلي، كنتُ العاشقَ الّذي لا تقف في وجهه الأبواب، ولا تَعوقه الأسوار؛ كنتُ أصنع عالَمِي الفسيح خارج كلّ الحواجز، ولم يكونوا يملكون إلاّ جسدي؟! مَنْ قال إنّ الشّعراء يملكون أجسادهم، ومن قال إنّ غيرهم يملكون أرواحهم؟!

دخلتُ المكتبة يومَ الثّلاثاء، رافقني (عكرمة) كالعادة، سارعْنا إلى الكتب المصفوفة بشكلٍ فوضويّ على الرّفوف مثل أطفال انفلتوا على قِطَع من الحلوى. كان (عكرمة) يُتقِن الحديث عن كلّ الكتب حتّى تلكَ الكتب الّتي لم يقرأها؛ كان قادرًا على الانتقال بين مئات الكتب ذاكِرًا أسماءها، وأسماء مؤلّفيها وهو يُحدّثني عن كتابٍ واحدٍ بين يديه انتقاه دون تخطيطٍ من رفٍّ ما!! أيُّ قارئ نَهم هذا؟! أيّ مهووسٍ بالكلمات هذا؟! كان لا يتوقّف عن الحديث إذا بدأه حولَ كتابٍ أو فكرةٍ، حتّى وإن كانت كلّ جارحة فيّ تستصرخه أن يفعل!!

بحثتُ في الرّفوف عن الشّعر، كان الشّعر حاضرًا بفتور في كتب تلك

المكتبة ، بعض الشّعراء المشهورين لم أظفر بدواوين لهم ، ولولا أنّ ديوان المتنبّي كان موجودًا لقلتُ إنّ المكتبة خاليةٌ من الشّعر تمامًا . رحتُ أدور بين الرّفوف وأقلّب أغلفة الكتب علّني أجد روايةً أو كتابًا يتحدّث عن العشق ، فقد كان العاشق الّذي يسكنني نازِعًا إلى ذلك بشكلٍ تامّ ؛ وجدتُ بعضَ ما يُشبع فضولي ، وعدتُ مع عكرمةَ إلى مهجعنا .

صارت الكتل الشّحميّة المتراكمة على جانبَي خصري تختفي اختفاءً كاملاً ، تخلّصْتُ من (٢٥) كغم من وزني حتّى الآن ، أسعدني ما وصلتُ إليه ، وتمنّيت في سرّي أن يستمرّ هذا الفقدان الرّائع . . . كان التّوق إلى إنسان جديد بالكامل جسدًا وروحًا يسيطر عليّ في تلك الفترة ، وكنتُ أقول دائمًا : إنّ النّصر يقود إلى نصر ، والهزيمة تقود إلى هزيمة ؛ وبما أنّني في حالة انتصارات متلاحقة على كرشي الّذي تهاوى أمام ضربات التّخفيف من جثومه على القلب ، فإنّني سأستمرّ في ذلك حتّى لا أُبقي خليّة شحميّة واحدة تُزعجني .

لم يكن ذلك فحسب هو ما أتوق إليه ؛ مظهرًا جديدًا كلّيًا ، كنتُ في داخلي أريد أن أبدو وسيمًا في عينِ مَنْ أحبّ ، وأن أمشي بخفّة فهد ، وأقفز برشاقة أيِّل . كنتُ أريدُ أن أُغيّب صورتي السّابقة عن كلّ من عرفوني حتّى عن نفسي ، ولذلك هربتُ منّي حين كنتُ متكرّشًا لأعودَ إليّ حين أكون خفيفًا . وفكّرتُ باستراتيجيّات جديدة للتّخلّص من المزيد من الوزن . ولم يكنْ مكانٌ أحسنَ من السّجن ليحقّق فيه المرء آماله العِراض هذه .

كان (عكرمة) يحدّثني عن أصدقائه في الجامعة الّذين تغلّبوا على أوزانهم ، ولأنّه كان يجدني مستمعًا جيّدًا ، فقد كان يروق له إنْ لم يجد فكرةً أو كتابًا ليناقشه معي ، أن يُسهِب في الحديث عن هذه النّماذج . حدّثني عن صديقه الّذي كان يملأ حقيبته جَزَرًا ويظلّ يلتهم منه كلّما جاع ، ليُسكِتَ صُراخ بطنه . عجيبٌ هذا الرّجل ؛ حتّى في مثل هذه

الأشياء لم يكنْ يعدم مساحةً من الحرّيّة للانتقال عبرها ، مع أنّه كان شديد النّحول ، صغير العينين ، رفيع الذّقن ، تتمثّل هيئته أمامي وقتها كأنّه هيئة صعلوك على زمن الشّنفرى ، أو السّليك ، أو عرفان ، أو جحدر ؛ من أولئك الّذين أكلت الصّحراء أبدانهم ، وجفّفت الحياة نضارة جلودهم ، فعادوا هياكل متحرّكة ، ولكنّها تُخفي تحتها ثورةً قادمة :

أُدِيمُ مِطالَ الجُوعِ حَتّى أُمِيتَهُ
وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فَأُذْهَلُ
وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْ لا يُرى له
عليّ مِنَ الطَّول امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ

تداخلت الغمامات ، عادت صورتُها تتراءى أمامي طيفًا من نور ، كلّما رجعتُ إلى ذاتي ، وكلّما جلستُ أفكّر فيما مضى من حياتي ، كان الحبّ وسيلتي للحياة . في سجن سواقة تأخذ الحياة معنىً آخر ، تصبح أكثر من مجرّد مرور أيّام ، وكرّ شهور وسنين ، فقد يُصبح النّظر في المرآة المشروخة متعةً فائقة ، والوقوف على حافّة السّرير لمجرّد الشّموخ بالجسد قليلاً أمتع من الوقوف بين يدي مَلِك أو زعيم . ويُصبح إنهاكُ الجسد في مشي متواصل حول حلقة مُفرَغةٍ طقسًا ذاتيًا لا مفرّ منه ، إنّ التّخلّي عنه ليومٍ واحد يعني تراكم الخبث على الرّوح ، ومن ثمّ فسادها . الحياة هنا باختصارٍ تصنعنا على طريقتها الخاصّة ؛ هي مهتمّة بكلّ تفاصيلنا ، ونحن نرمي بين يديها أجسادنا طائعين .

الحبّ ، وحده كان دافعي الأكبر من أجل البقاء . صراعي مع الفناء واجهتُه بسلاح الحبّ ، لو لم أكن قادرًا على الحبّ في سواقة لأصبحت هيكلاً ميّتًا . كانت الهياكل الميّتة تملأ سجن سواقة من أوّله إلى آخره ، عرفتُ ذلك من العيون الزّائغة ، والنّظرات الهائمة ، والخطوات التّائهة ، والبدايات الّتي تشبه النّهايات . وحدي حميتُ نفسي من الموت بالحبّ ، ها أنذا بعد كلّ النّزيف الّذي نزفْتُه من أجلها ألهج بالشّكر لقامتها الطّاغية

لأنّها علّمتني كيف أحيا في محيط تنفذ فيه سهام الموت إلى كلّ القلوب ، وتخترم كلّ الأفئدة .

وحده الحبّ يملك هذا الوهج القادر على إبقائنا في دائرة البشريّة . الحقد يأكل صاحبه ؛ أسهل الطّرق إلى الموت . إنّه الوصفة السّريعة الّتي تُفضي إلى الهلاك . ملأتُ قلبي بقطرات الحبّ لأواجه صحراء الجنوب ؛ ظلّت الصّحراء تُمعن في تعذيبنا بالهجير في النّهار وبالبرد في اللّيل . في اللّيل يتناهى عُواء ذئب من بعيد فألقي لديه السّمع ، أنا أعيش حياة كاملة التّفاصيل هنا ؛ لكلّ شيءٍ طعمٌ يَعْذُب في الفم حتّى ولو كان مُرًا . أوّاه من أيّام قادمة لا أجد فيها طعمًا لشيء!!

في الرّسالة الّتي بعثتْها إليّ ، ظلّتْ يدي ترتجف كلّما أمسكتُ بها ، توقّفتْ دقّاتُ قلبي للحظات وأنا أهمّ بقراءتها في المرّة الأولى ، كانت عيناي تقرآن الحروف قبل أن تراها ، وقلبي يشعر بوهج الكلمات قبل أن يفوه بها ؛ ما الّذي كان يحدث؟! لا أدري . ما الّذي ركّز راية الحبّ فوق قلبي في سنوات الحرمان من كلّ شيءٍ؟! لا أدري . الحبّ يأتيك حين تُدير عنه صفحة قلبك!!

قرأت الرّسالة ، وصنعتُ من كلّ حرفٍ فيها قصيدة!! وما الغرابة؟! أنا أصنع من الخيال قصائد ساحرة ، فكيف إذاً كانت لديّ مادّة للسّحر تَقطُر شَهدًا؟! ظللتُ بعد ذلك أقرأ الرّسالة في كلّ ليلة كطائر مذبوح ، وأحفظها كطفلٍ في الابتدائيّة يحفظ نشيدًا مُمتعًا . يصنع الخزّاف من الطّين أواني مُدهِشةً . ويرسم الفنّان بالرّيشة الجامدة لَوحةً باهرة!!

سمّيْتُها ميسون ، دون أن أعرفَ لماذا ؛ غير أنّ الشّعراء يُبدعون معشوقاتهم من خيالاتهم تمامًا كما يُبدع النّحاتون تماثيلهم ؛ يبدو التّمثال في النهاية تجسيدًا لاختمار فكرة الإبداع ، ومزيجًا قائمًا من الحقيقة والخيال ، وخليطًا من الثّقافات والقراءات والتّجارب والانتصارات والانهزامات . . . هكذا صنعتُ ميسون في شعري . . . غيرَ أنّني استطعتُ

أن أحاصِرها كما حاصرتْني هي من قبلُ ، توصّلتُ معها إلى اتّفاق ، وتركتُ لها حرّيّة أن تعبث بدمائي كما تحبّ ، وتعيش في أبياتي كما تشاء ، حتّى لو أرادت أن ترتقي إلى أسطورة ، ولكنْ بشرط ألاّ تُغادر فضاء ديوان الزّنابق . . . هناك في ذلك الدّيوان أوجدتُ معشوقتي ، وهناك أيضًا دفنْتُها ، كان عليّ أن أفعل ذلك ، حتّى لا أفعل بها ما فعل بجماليون بتمثاله . . . الحلول الوسط في العشق تبدو كارثيّة وإنْ كانت لا تُفضي إلى الموت ؛ إلاّ أنّها تغيّبك في المنطقة الرّماديّة الخافية عن الأعين كلّها . . .!!!!!

هذه ليلة من اللّيالي الأخيرة في عمر سنة ١٩٩٦م ، في ليلة ١٢/٢٩ حيثُ يأخذ الصّقيع أبعد مِمّا تُوحي به الكلمة ، والهدوء القاتل يلفّ المكان بغمامة من الحزن الجارح ، وأنا كتلةٌ من الذّكريات تتكوّم فوق سرير ، وأوراقي عرائس من زمنٍ مؤجّل ، وقلمي ثورةٌ لغد آت . نزلتُ كذئبٍ جريح من سريري ، وقد هجع الجميع ، وبقيت وحدي متسكّعًا في الغرفة مثل ناجٍ وحيد من مذبحة فجائعيّة . يومها قرّرتُ أن أفعل شيئًا مُختلفًا ؛ ماذا يعني أن أدّعي حبّكِ دون أن أقدّم دليلاً على ذلك؟!! توجّهتُ إلى الجدار البعيد الخالي إلاّ من روحي الّتي ظلّ طيفها يرفرف في المكان حتّى خرجتُ من السّجن إلى غير رجعة . اقتربتُ منه ، وأسندتُ إليه كتفي ، وظللتُ ساعاتٍ طويلة واقفًا دون أن أحرّك ساكنًا ، كان البرد يتسلّل من قدمي الحافيتين ، فيصعد عبر ساقيّ إلى جسدي ثمّ إلى قلبي ، فيجمد الدّمُ في القلب ، فأمدّ إصبعي إليه بكلمة الحبّ ، فيسيل من جديد ، فأملأ من دمه طرف بناني وأبدأ الكتابة على الجدران . بقيت طول اللّيل حافيًا وشبه عارٍ أخطّ على الجدار كلمات قصائدي ، حتّى كتبتُ عشرات القصائد ومئات الأبيات وآلاف الحروف . . . صحيحٌ أنّ بعضها ذاب على جدار السّجن وصار جزءًا منه إلى اليوم ، ولكنّ بعضه حملتُه إلى ديوان شعري ، وهو الآن يشكّل عددًا من قصائده . لم يكن ذلك

هذيانًا ؛ كان حقيقة ؛ حين تقرؤون قصائدي الّتي رسمتُها هناك ستتأكّدون مِمّا أقول!!!

وَمَــاذا عَــسَى الواشُــونَ أَنْ يَتَــحَــدَّثُوا
سِــوَى أَنْ يَقُــولُوا : إِنَّنِي لَكِ عــاشِقُ
نَعَمْ ، صَــدَقَ الواشُــونَ ، أَنْت كَــرِيمَةٌ
عَلَيْنا ، وَإِنْ لَمْ تَصْفُ مِنْكِ الخَــلائِقُ

(١٥)
«قَالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ»

برتابة الزّمنِ هنا ، زمنِ السّجناء البطيء ، نسيتُ كيف تسير السّيّارات في الشّوارع!! وكيف يحملَ طلاّب المدارس حقائبهم وهم يعبرون الأزقّة ذاهبين إلى مدارسهم!! وغاب عنّي في ممرّ الأيّام مشهد الواقفين في طابورٍ طويل ليحصّلوا بعض أرغفة الخبز!! نسيت أكثر المشاهد اعتياديّة لي في الصّباحات الباكرة حيث يخرج النّاس أفواجًا إلى أعمالهم ؛ سيّارات (السّرفيس) العابرة إلى مجمّع عمّان الجديد هل ما زالت تمرّ من الشّارع الموجود أمام بيتنا؟!! هل ما زال دُخانها المنبعث من (الأكزوزت) يُضبِّبُ صفو الصّباحات الباردة؟!! أما زال صوت الزّيت المقليّ في صاج الفلافل عند مطعم (الحشّاش) له نفس الرسّيس ، وتنبعث منه نفس الرّائحة . . .؟! ذلك الّذي كنتُه حين أذهب إلى جامعة العلوم والتّكنولوجيا أما زال موجودًا؟! أما زال يشتري جريدة الصّباح من الكشك ومعها ثلاث حبّات (أندلسيّة) بطعم النّعنع؟! أما زال يُصلح هندامه وهو يعتني بأزرار قميصه (الكاروهات) الضّارب إلى الحُمرة!! أما زال ينسى لحيته في خضمّ الانشغالات بالدّراسة والشّعر والحبّ وهو يعتقد أنّه سيكون أقرب إلى قلوب الصّبايا بهذا الشّكل الشّاعريّ (المبهدَل)!! أما زال هو هو؟! أما زالت تلفت انتباهه تلك الصّبيّة الّتي تقرأ جريدة الجامعة فيتخيّل أنّها تقرأ قصيدته المنشورة فيها؟! كم كان يُداخِله الزّهو الّذي يذهب ضريبة خيال يبدو كاذبًا على أغلب الظّنّ!!

بقيتُ في تلك اللّيلة أتذكّر كثيرًا من الأشياء الّتي مرّ زمنٌ طويلٌ عليّ

دون أن أعيش متعتها . . .

السّجن ليس حقيقة!! إنّه حلم!! أكثر الأحلام سذاجةً!! بل هو أكثرها حموضةً!! لا . . . لم نكن مَسجونين . . . السّجن خدعة باردة!! أينَ من يستطيع أن يقنعني أنّني أقبع في سجنٍ كُلَّ هذه الأيّام والأسابيع ، وكلّ هذه الشّهور؟! لم تعد الفكرة - كما كانتْ في السّابق - تشغلني!! أنا هنا ، في حديقة للحيوانات تُدعَى عند المغفّلين : سجن سواقة!! مَنْ هذا الأبله الّذي اقتنعَ أنّ حدائق الحيوانات تُسمّى في اللّغة سجونًا؟! أنا في مصحّ نفسيّ؟؟ ربّما!! في حاوية بشريّة؟؟ ربّما!! في زريبة للأنعام والدّوابّ ذات الفائدة اللّحميّة؟؟ ربّما!! أين أنا؟! صار هذا السّؤال المكوّن من كلمتين يقتلني!! من يستطيع اليوم أن يقنعني أين أنا؟! من يستطيع أن يُفهِمني ما اسم المكان الّذي يُحيط به سور حجريّ بدلاً من الشّيك ، ويُعامَل فيه النّاس كالحيوانات الأليفة ، وتأكل هذه الحيوانات وتشرب وتنام تمامًا كغيرها؟! هاتوا لي شيئًا غير العلف لأحسّ أنّني لستُ دابّة!! هاتوا لي شيئًا من الحقيقة لأستعيد فكرتي بأنّني كنت إنسانًا!! هاتوا لي شيئًا غير الحبوب والأعشاب لأستعيد بشريّتي!!

كانت أطرافي مُخدّرة ؛ أعلم أنّها موجودة ولكنّني لا أحسّ بها ؛ كذلك كانت علاقتي مع نفسي ومع العالَم الخارجيّ . . . كنتُ على يقين أنّه ما زال هناك متّسع من الوقت قبل أن تقوم السّاعة ، وأنّ هذا العالَم الّذي نتوق إليه وقد نصنعه أحيانًا في أحلامنا موجودٌ ، ولكنّنا فقدْنا التّواصل معه!!!!

فقدتُ الشّعور بسكّين الوقت زمنًا ما ، ظلّت الأيّام تدور مع عقارب السّاعة ، وظَلَلْنا ندور معها ، أيّام لا نعرف منها إلاّ عَدّها قبل أن تُشرق شمس الحرّيّة ، نقفز مئةَ يوم إلى الأمام وربّما مئتين ، وسنةً وسنتين ، وعَقدًا وعَقْدين من سنوات الصّبر المُرّ لنحلم أنّ يوم الإفراج قد أطلّ برأسه من بين القضبان الحديديّة ، تلك القضبان الّتي تغوّلت علينا حتّى صارت

تحتلّ قفصَنا الصّدريّ بدل الأضلاع الموجودة فيه . . . ها هي بوّابات السّجن الكبيرة تُفتَح ، أحلُم . . . ها أنذا أخطو وكبرياء جامحة تعصف في أعماقي ، أترك كلّ الماضي ورائي ، وكلّ الأوجاع ، وأنظر إلى الأمام ، لا بدّ أنّ في الغد ما هو جميل من أجل هذا الصّبر الطّويل على أملِ قُدومه!!

ماذا تعني لي الحياة في هذا الخضمّ المتطاول من الرّتابات القاتِلة . . .؟! مرّت عليّ أيّام هناك في اللّيالي الباردة وأنا أفكّر بجدوى الخروج من السّجن!! لماذا يتوق المحرومون من ضياء الشّمس إليها؟! لماذا ركّب الله فينا غريزة الانعتاق من الظّلام من أجل حفنة من النّور؟!! لا أدري . . . كنتُ غارقًا في بحر هَذَياني مُنكِرًا أنّ شعوري الجامح للخروج من هنا حقيقيٌّ ، وشاكًا في تفاوت القِيَم خارجَ السّجن وداخِله . . .

مَنْ يُنقذني منه وهو يفترسني؟! مَنْ يُخلّصني من بين براثنه وهو يغرز أظفاره في قلبي؟! ها أنذا أراه تملأ شِدقيه دمائي وتسيل على أطرافهما بقايا من لحمي ولا أستطيع أن أفعل شيئًا سوى الاكتفاء بالمراقبة العاجزة اليائسة !!! ها هو ينتقصني شِلوًا شلوًا ولا أقدر على شيء كأنّني سواي . . . آه يا زمن الحزن الذّابح شاقَتْني مُداك فلا تتركْني دون تمزيق . . .!!

فكّرتُ ذاتَ ليلة يأسٍ جليديّة : ماذا بعدُ؟! لقد سَحَقَ بندولُ الوقتِ قلبي . نعم استطاعت القراءة أن تُخرجني من دائرته قليلاً ، ولكنّ بعضَ عوالم الكُتّاب الّذين قرأتُ لهم زرعت في دمائي حُزنًا أسطوريًا ، وغرقتُ في طوفانه ؛ أريدُ فسحةً من السّخرية ولو كانت مُرّة . ها أنذا أَجِدُها ؛ كسرتُ قوقعة الحزن وخرجتُ منها ، وتسلّيتُ برسم الشّخصيّات ، مررتُ على السّجناء واحدًا واحِدًا . . . ها أنذا أرسمهم على صفحة خيالي ، وأنتقي خُطوطَهم على مُفرَدات شاعريّتي . . .

رجلٌ يميل إلى الطّول ، مكتنزٌ ، صوتُه أجشّ ، كان لا يفتر عن الإمساك بالمِسبحة ، والطّقطقة بحبّاتها لمجرّد التّسلية لا للتّسبيح ، كان

يتصنّع الابتسامة، دخل السِّجن لأنّه قتل ابنة أخيه في قضيّة شرف، كيفَ يكون لهؤلاء قلبٌ وهم يُقدِمون على ذلك، على عكسِ ما توقّعتُ فقد بدا مزهوًّا بفعلته تلك، حُكِمَ عليه بالسّجن لسنةٍ ونصف. عندما سمحتُ لنفسي بالتّعرّف إليه كان قد تبقّى له شهران لكيْ يخرج من هنا. لطالما لفت انتباهي بهدوئه وثقته بنفسه، كان أسمر الوجه، خمسينيّ العمر، ملأتْ صفحةَ وجهه السّمراء بعضُ الأخاديد. سيجارته الّتي لا تنطفئ حوّلت صوته إلى جاروشه، وأسنانه إلى أنياب ذئب اجتهد في إخفائها كي لا يفقد مظهره الهادئ أمام مُحدّثيه، كانت أكثرَ عبارة يردّدها: (نوم الظّالمين عبادة)... إذا مرّ بجانبه أحد السّجناء قالها له بلهجة توبيخيّة: رُوْحْ نَامْ؛ (نوم الظّالمين عبادة)... كانت هذه العبارةُ القُفل في كلّ أحاديثه، ظلّ يُعرَف بين سجناء مهجع رقم (٦) بـ صاحب: (نوم الظّالمين عبادة)، حتّى خرج فجأةً ونحن في غمرة ذِكره بين الحين والآخر، أفرجَ عنه بعد انقضاء محكوميّته، وغاب في دهاليز الحياة، وغرق في لجُها الطّامي، ولم يبقَ منه في السّجن إلاّ عبارته الأخيرة.

وهذا رجلٌ آخرُ؛ يميل إلى القِصَر، سمينٌ، شكّل كرشُهُ عَجَلاً حول خصره، كان دائم التنقّل من مهجع إلى آخر، وكثيرًا ما كان يُضبَط في غير مهجعه فينال عقوبةً بالشّبح لساعاتٍ، أو بالحرمان من وجبة، وأحيانا إذا تراكمت عليه العقوبات عُزِلَ في زنزانةٍ انفراديّة... لم تزل صورته ماثلةً وهو يجرّ خلفه (حفّايته) الّتي تصطفق ببلاط السّجن فتُصدِر صوتًا عاليًا صار مُلازمًا له. كان فمه قد ازرقّ لكثرة تحشيشه أو تدخينه، وكانت الكآبة لصيقةً به لا تُغادِره، وأمّا عبارته الّتي شكّلت طريقة التّعريف به، فهي: «لمن تشتكي حبّة القمح إذا كان القاضي دجاجة»!! عبارة بسيطة لكنّها حملت دلالات ودلالات لأمثال هؤلاء السّجناء؛ من الشّعور الصّارخ بالظّلم من جهةً، وبفقدان الثّقة بإنصافهم من جهةٍ أخرى،

وباستسلامهم الأليم للواقع من جهةٍ ثالثة . كان هذا هو بيتَ المتنبّي ولكنْ بأسلوبه الفريد :

يا أعــدل النّاس إلاّ في مــعــاملتي
فــيك الخِــصــامُ وأنتَ الخــصمُ والحَكمُ

بدأت علاقتي مع السّجناء بعد كلّ هذه الشّهور الطِّوال تفتُر ، صارت اعتياديّة ، أصبحتُ أعتاد على أشكالهم كما لو كانوا موجودات تتحرّك عبر الفراغات ، لا أناسيّ بقلوبٍ أو بعقول . ما عادت قضايا المسجونين تنال نصيبًا من فلسفتي وتأمّلاتي ، صار باهتًا طعمُ كلّ شيء هنا . تساءلتُ في نفسي : أهي فترةٌ مرتبطةٌ بحالتي النّفسيّة ثمّ تمرّ كأنْ لم تكن؟ أم أنّها ستستمرّ حتّى تسحقني؟! وتقضي على ما تبقّى من الشّاعر الضّاجّ بالأحاسيس في داخلي!!

بدأتُ أنفصل - طائعًا - عن العالَم الخارجيّ وأمواجه البشريّة ، وتجمّعاته الإنسانيّة ، وأنسحب إلى داخليّ ، أتقوقع عليّ ، وأتكوّر حول نفسي ، وأدور بين ذاتي . صار لا بدّ من هذه المرحلة ؛ عرفتُ أنّها طبيعيّة ، أو هكذا أقنعتُ نفسي . قلت : يجب أن أنحاز إليّ في الفترة القادمة من أجل أن أفلسفَ ما تبقّى لي من عمر في هذا المكان ، وصرختُ بملء أعماقي : علّمنا يا ربَّ السّجن!! ها أنذا أضع كلّ مواهبي بين يديك من أجل قطرة ماء واحدة من بحر الحِكمة!!

كان (طارق) في الغرفة المقابلة تاجرًا من طرازٍ فريد ، علّمه السّجنُ ما لم تعلّمه الحياة خارجه ، اعتُقِل لانتمائه إلى حزبِ التّحرير ، وفُصِل من الجامعة الأردنيّة وهو طالبٌ في كلّيّة الصّيدلة لأسبابٍ سياسيّة أو أمنيّة . بالطّبع لم تكنْ معلومات الأعشاب والأطعمة الصّحيّة تُفيدنا كثيرًا وهو يتلوها على مسامعنا بين الفينة والأخرى بطلبٍ أو دون طلب . لم تكنْ ذات كبير فائدةٍ لأنّنا في السّجن لم نكن نختار شيئًا ، الطّعام كلّه غير صحّيّ ، ولا تتوافر فيه شروط السّلامة ، وأمامك خياران : إمّا أن تأكل أو

تموت . بالنّسبة لي صنعتُ خيارًا ثالثًا قائمًا بينهما ، اخترتُ أن أجوع أكثرَ أيّامي هنا .

كان (طارق) ماهرًا كذلك في أمور (الرّهن)!! نعم (الرّهن) ، كان (بَرْشُه) يعجّ بالمرهونات الكثيرة ، تجد عنده ساعاتٍ من أصناف شتّى ، وأحذية متنوّعة ، ومعاطف وبناطيل من أنواع عدّة ، وكتبًا ، ومدّخرات ، وأصنافًا لا تخطر على بال . كان يقوم بإقراض السّجين من (بنكه) الماليّ ؛ إذْ كان يحتفظ بسيولةٍ لم يكنْ مدير السّجن بذاته يحتفظ بمثلها . يدور على المساجين عارضًا قروضه على زبائنه ، وينتقيهم انتقاءً ؛ ينتقي المحتاجين للمال السّريع من أجل رغباتٍ خاطفةٍ . طبعًا القرض ليس لوجه الله ، خُذْ قرضك وارهنْ مقابله عندي شيئًا ثمينًا من أشيائك . وخلال فترة السّداد تظلّ مادّة الرّهن بأمان عند طارق ، يستوفيها المُستقرض إذا سدّد ما استلف من مال . غير أنّ طارق والرّاهن كذلك كانا يعلمان أنّ السّداد في الفترة المطلوبة كثيرًا ما يكون متعذّرًا ، حينئذٍ تؤول السّاعة أو البنطال أو الجاكيتة إلى مُلك طارق ، وبعدها يتفنّن صاحِبنا في التّدليل عليها ، وعَرْضِها للبيع أمام كلّ السّجناء الّذين كان يرى فيهم طارق زبائن مُحتملين!! ويربح أضعاف ما دفع من مالٍ للرّهن قبل أن يؤول المرهون إليه . أذكر أنّ عكرمة اشترى منه (جاكيتًا) بعشرين دينارًا تساوي اليوم أكثر من مئة دينار . لم أكن أعرف (الماركات) يومها ، وإلاّ كان لا بدّ أن أحتفظ في ذاكرتي باسم لجاكيتٍ يساوي هذا المبلغ الكبير!!

في القضايا الصّحّيّة والأدوية كان (طارق) نافعًا . معلوماته من دراسته ما زالت طازجة ، وبالرّغم من ذلك لم تكن أنواع الأدوية الموجودة في السّجن تتيح لنا الاستفادة من نصائحه الطّبّيّة ، كان الدّواء شحيحًا ومُقتصرًا على الأنواع الشّائعة الّتي لا تُغني من الصّحّة شيئًا . المهمّ أنّ مواهب (طارق) لم تقف عند هذا الحدّ فقد تجاوزته إلى آفاق أخرى اقتحمها هو بإعمال ذهنه ، وصرف طاقته في ذلك الاتّجاه . سأكون أحد

زبائن طارق في المستقبل القريب ، وستساعدني مهارته على تعميق شعوري بالانفصال عن عالَمي الخارجي عبر مواهبي الخاصّة أيضًا!!

بدأت مرحلة النّقاشات على مستوى المهجع تتبلور ، قادَها يوسف . صرنا نجتمع حول مائدة الحِوار . قضيّة سياسيّة أو فِكريّة أو ثقافيّة تُقتَرَح من قِبَلِ أحدنا ، وتبدأ حولها التّجاذبات في الآراء ، كانت هذه المرحلة من المراحل الغنيّة ؛ على هذه الطّاولة ألقينا بخلاصة ما مرّ بنا من تجارب اكتسبْناها من خلال القراءة أو من خلال الأحداث الّتي عِشْناها خارج السّجن وداخله .

ناقشْنا ذات مرّة شعور السّجين بالتّهمة المُسندة إليه ؛ هل يعترف بها أو يُنكرِها؟! هل يتقبّلِ حلول لِباسها عليه ، أم يخلعه عنه؟! هل يستسلم للوصفة الجاهزة قانونيًا الملازمة له أم لا؟! كيفَ يبدو في عينه وفي عيون السّجناء ، وفي عيون السّجانين . كيفَ يشعر حينَ يصنّفه العالَم ؛ عالَم السّجناء إلى مُجرِم ويتعامل معه على هذا الأساس ، نظرة الازدراء الّتي قد تصفعه صباحَ مساء الّتي تشعّ من عيون الآخرين ، هل تقتله فتنكسر نفسه ، أم يتعالَى عليها فيحمي نفسه من الانكِسار؟!

أسئلة كثيرة دُرنا في فلكها ونحن نحاول أن نخرج بإجابة!!

كان (طارق) ضخم الجسم ، مفتول العضلات ، حادُّ النّظر ، جمّ المعلومات . كان جسمه يحتاج إلى أن يُحافِظ على رياضة (الحديد) الّتي كان يُمارسها خارج السّجن ، ولأنّ المكان هنا ليس فيه أثقالٌ حديديّة ولا أجهزة تمكّنه من مواصلة رياضته ، فقد ألجأْته الحاجة إلى اكتشاف بديلٍ مناسب لهذه الأثقال ؛ فقام هو بصنعها ؛ لا أدري كم استغرقه ذلك من التّفكيرٍ ومن المُخاطرة حتّى خلص إلى النّتيجة الّتي خَلُصَ إليها ، ولكنّه بالنّهاية صنع الأثقال الّتي تابع بها رياضته المُفضّلة . أحضر علب الحليب الحديديّة ، وملأها بالتّراب وأضاف إلى التّراب بعض الموادّ والماء وخلطه حتّى صار طينًا جامدًا ، وقبل أن يجفّ غرسَ بين كلّ علبَتي الحليب عصا

(قشّاطة) ليحمل بها أثقاله . وتفنّن صاحبنا في أطوال هذه الأثقال وفي أحجامها ، وظلّ يمارس رياضته هذه بانتظام .

أمّا أنا فقد أوكلتُ إليه مهمّة صُنع طاولة لي ؛ كنتُ أريد أن أستخدمها لأكتب الأشعار فوقها ، ولأقرأ عليها . وفي غضون أقلّ من أسبوع كانت لديّ طاولةٌ قويّة أستخدمها مكتبًا لي ، تُضاهي في قوّتها أفضل الطّاولات المجهّزة في أحسن المصانع . ولكنْ كيف استطاع هذا العبقريّ أن يفعل ذلك؟! علّمتْه دراستُه السّابقة لعلم الصّيدلة وكيميائها أن يعرف طبيعة التّفاعلات بين بعض الموادّ ، فاستخدم هذه المعلومات وسخّرها لخدمة أفكاره الإبداعيّة .

كان سطح الطّاولة مُكوّنًا من كراتين عُلَبِ (السّيرف) ، فصل أجزاءها وَبَسَطَها لتشكّل الوجه العُلويّ لسطح المكتب ، وفعل الشّيء نفسه بالسّطح السّفليّ لهذا المكتب ، أمّا ما بينهما فقد وضع مئات علب السّجائر الفارغة ، وصفّفها بجانب بعضهما حتّى شكّلت سطحًا متلاصِقًا وسُمْكُه هو سُمْك علبة السّجائر نفسها ؛ ولكنْ كيف ألصق السّطحين بهذه العلب الفارغة للسّجائر؟! قامَ بصُنع (غِراء) خاصّ من تجاربه ؛ كان يصنع هذا الغِراء من قِيامه بتفتيت قطع الخبز الصّغيرة جِداً ، ووضعها في دلوٍ كبيرة ، وخلطِها بالماء ، ولا أدري إذا كان يُضيف إليها شيئًا آخر ، ثمّ يُعرِّض هذا الخليطَ لأشعّة الشّمس لفترة محدّدة ، فيتشكّل لديه (غِراء) قويٌّ جداً ، ويقوم هو بإلصاق علب السّجائر أوّلاً بترتيبٍ وتصفيفٍ على وجه السّطح السّفلي للطّاولة أو المكتب ، وبعد أن يتأكّد من جفافها ومتانتها ، يقوم بإلصاق السّطح العلويّ للمكتب فوق علب السّجائر هذه ، فيتشكّل بذلك لديه وجه متينٌ للطّاولة!! ولكنْ كيف يصنع أرجل هذه الطّاولة؟! كان يأتي بعلب (الهايبكس) البلاستيكيّة الفارغة ، ويُدخل أعلى إحداها بأسفل أخرى ، ويظلّ يفعل ذلك حتّى تتشكّل له ساقٌ بطول مناسب ، ويصنع أربعةً من مثل هذه السّاق ، ثمّ يجهّز لها زوايا لكي يركّبها على أطراف

السّطح المُعدّ مُسبقًا ، ويلصقها في أماكنها ، ثمّ تكون بعد ذلك الطّاولة جاهزة!!

نعم!! اشتريتُ منه هذه الطّاولة ، وأنا مُمتنٌّ له ولأفكاره الإبداعيّة ، إذ ساعدْتني هذه الطّاولة في القراءة والكتابة ، وأحيانًا للهروب من شبح الاكتئاب بممارسة طقوس الإبداع فوقها!!

اعْتَدْنا على نَفَسِ الحياة الضّاجّ بالعاطفة ، الغنيّ بالخيالات الجامحة ، الفقير إلى الحرّيّة المسلوبة ، الجائع إلى الانعتاق من كلّ شيءٍ حتّى من قيود الجنس الّذي فرضَها الزّمان والمكان حينها . .!!!!

صار جيبُ بِنطالي دافئًا ؛ فقد امتلأت محفظتي بالنّقود التّي كان يترُكها بعضُ الزّائرين من الأهل والأقارب على شَبَكِ الزّيارة ؛ كانت تصلنا عَبْرَ إيصالٍ نقديّ يُكتَب على طرفه اسمُ السّجين ، ورقم مهجعه . . . وما زلتُ إلى اليوم أحتفظُ ببعض هذه الإيصالات . صارت مساحة الحرّيّة في الشّراء تُغرينا بوجود نوعٍ - وإن كان فاترًا- من هذه الحرّيّة ، وصارت الدّعوات على الأطعمة المُشتراة من العصائر والبِزر والقضامة وبعض أنواع البسكويت تجد رواجًا عندنا جميعًا ؛ (مَنْ كان ذا فضل فليعدْ على مَنْ لا فضلَ له) وصِرنا نتفنّنُ في الكمّ والنّوع . . . وصرتُ أنا (أُبعزقُ) النّقود مثل أميـر ، كان شعورٌ طافحٌ من الدّاخل يدفعني إلى ذلك ، أنادي على الشّاويش ، أُملي عليه قائمة المُشتريات بلا مُبالاة ، وأدفع له ثمنها من النّقود ببذخ ، وأعطيه بقشيشًا فيفرح ، وأشترِطُ عليه أن يأتيَ لنا بالمطلوب على عربةٍ تُجرّ جرًا ، كنتُ أريد مَسْرَحةً لهذا البذخ المُصطَنع ، وكنتُ أريد أن أشعر بسيادتي المتمرّدة على قمع القضبان الخانق ؛ هكذا تتجلّى سِيادتي ولو على بضعة دنانير تخرج من جيب بنطالي ، وأيّ بِنطال؟!! إنّه البنطال الّذي هو أحد قطعتَي أفرهول السّجن!!!!!!

نعم ؛ جاءتْنا الأنْعُمُ من كلّ مكان ، فشكَرْنا وما كَفَرْنا ، وسَهِرْنا وأكلْنا ، وضَحِكْنا ملءَ أفواهنا ، و . . .

شَـرِبْنا على ذكْـرِ الحَـبـيبِ مُـدامـةً
سَكِرْنا لهـا من قبلِ أنْ يُخلَقَ الكَرْمُ

واندلقتْ دماءٌ حارّة من المودّة في شرايينا ، وشعَرْنا أنّ العالَمَ ما زال ضاحِكًا مُبتسِمًا في الخارج ، كما نفعل نحن مع نُسختنا منه في الدّاخل!!

كم نسينا في غمرة التوادّ واللّحظات السّارّة واقِعَنا الناضح بالحِرمان . كنّا كمن غاب في الطّيوف ، تحدونا السّعادة إلى رياض النّسيان ، فإذا أفقنا على الحقيقة خرّت طيور السّعادة مذبوحةً تحت أقدام اللّحظة الجارحة . . . ولكنْ حَسْبُنا في كلِّ ما فعلْنا أنّنا استطعنا أن نُداريَ المرارةَ بالبسمة الصّافية ، وأن نُخبِّئَ مُدية الذّبّاح في معطف الغفلة . . . .

دخل رمضان ، ضيفًا عزيزًا ، يعمّق مساحة الحزن الشّفيف في السّجن ، مصحوبًا بأيّام الشّتاء السّريعة ، ولياليه الطّويلة القارسة . دخل رمضان ، فقام المهجع كلّه على قدم واحدة لاستقباله!! يا خيرَ غائب يُنتَظَر!! ويا شهرًا يصنع في عالَم القضبان عالمًا من الرّوحانيّة لا يُمكن أنْ يوجد في أيِّ مكانٍ في العالَم إلاّ هُنا!!

دخل رمضان كالطّيف وخرج كالطّيف ، وكنّا بين الطّيفين طيوفًا تحاول أن تنهل من ماء الطّهر ، وتَروَى من معين النّقاء ، وتذوب في لجّة الضّياء ؛ وكان رمضان قادرًا أن يفعل ذلك كلّه مجتمعًا!!

دخل رمضان ليُعطِي للجوع الّذي عِشتُه في الأيّام السّابقة مستوىً جديدًا ، ويقفز به مراحل إلى الأمام ، جاء ليُخثّر مساحة الحرمان الّتي تصنع فضاء الحرّيّة ؛ حرّية الانعتاق من سجن الجسد ، والانطلاق في أفق الرّوح!! لم يكن الجوع إلاّ صديقًا حميمًا ، جاء رمضان ليؤكّد على علاقته الرّاسخة بي ، وأمّا أنا فقد استقبلْتُه بالأحضان ؛ كأنّما جاء ليُنقذني ويأخذ بيدي خارج أسوار العبوديّة!!

دخل رمضان ، ودخلتْ معه غرائب في التّأمّلات ، ودقائقُ في الاستبصارات ، لم نكنْ من قبل لنلتفت إليها!! صار الكون العظيم ينطوي

في نظرةٍ صوفيّة إلى صغيرةٍ هنا ، أو دقيقةٍ هناك ؛ لا فضل لها إلاّ أنّها استقطبت شُعاع السّرّ في تلك اللّحظة الفارقة .

لم يختلف برنامج الخروج إلى الملعب لِلَعِبِ كرة القدم إلاّ عند قليلٍ منّا ، ظللْنا ننتظر ساعة الرّياضة الّتي كانت تُمنَح لنا مرّتين في الأسبوع بفارغ الصّبر ، ندور حول الملعب لخمس دقائق للتّحمية ، ثمّ يبدأ - كالعادة - تشكيل الفريقين بالانتخاب ، كان الانتخاب عَلنًا وبكلّ شفافيّة ، بخلاف كلّ انتخابات مجالسنا البلديّة والنّيابيّة في وطننا العزيز . . . وبعد أن نكون قد فرّغنا ما تبقّى من طاقةٍ في أجسادنا ، نعود مُنهَكين إلى مهاجعنا ، نستحمّ ، ثمّ نصلّي صلاة الظّهر جماعةً ، ثمّ يؤوب أكثرنا إلى الرّاحة ساعةً من الزّمن يُزيل بها عنه أثقال التّعب ، ليصحو خفيفًا نشيطًا ، وبعدها تبدأ الدّروس والمحاضرات ، تقطعها صلاة العصر . . . لم تكن الدّروس راتِبةً ، غير أنّ (يوسف) على ما أذكر كان أكثر واحدٍ فينا يهتمّ بتنظيمها ، وتبويبها ، وإعطاء عنوانٍ لكلّ درسٍ فيها . . . .

ثمّ تبدأ فترة الأصيل ، صلاةً العصر جماعةً في المهجع ، وقد يتسنّى لنا أحيانًا أن نصلّيها في مسجد السّجن ، ذات المسجد الّذي كنّا نؤدّي فيه صلاة الجمعة ، وكانوا يأتون لنا فيه بخطيبٍ من مرتّب الأمن العامّ ، كان أكثر شيءٍ يُتقنه هذا الخطيب هو عدم إقامةً جملةٍ واحدةٍ في العربيّة مكانها ، وكنتُ أشعر أنّه وهو يطعنني برفع المفعول ، ونَصب الفاعل ، يتلذّذ هو الآخر بخربطاته المُرّة ظنًّا منه أنّه هو الخطيب المُفوّه ، والبليغ المِصقع ، والأريب الحصيف . . .

بعد صلاة العصر ، غالبًا ما تكون السماء غائمة ، والجوّ يرشح بردًا وريًحا ، كنّا نتنفّس البرد مع الهواء ، هواء صحراء الجنوب - بلا شكّ - أشدّ وقْعًا في سكاكينه الحادّة من هواء الشّمال . . .!! لم نكنْ نضيّع فترة الأصيل بلا طائل ، قد تُملأ بدرسٍ ما ، أو نقاشٍ ما ، أو نقطعها بقراءة وِرْدِنا اليوميّ من القرآن الكريم . . . هذه الفترة - فترة الغروب - من أجمل

الفترات في رمضان، ربّما لا تُضاهيها في الجمال إلاّ فترات اللّيل السّحيق وقوفًا بين يدي المولى . . . والسّبب أنّ الجسم يكون أخفّ ما يكون، فتشفّ حينها الرّوح، ونشعر بسعادة لا نعرف لها تفسيرًا، نابعةٍ من هذا الانقطاع التّامّ عن الشّهوات، والإقبال الصّادق على الله . . . ثمّ تزيدها قراءة القرآن جمالاً وروعة، وترتفع بها إلى مستوياتٍ جديدةٍ من الطّهر والرّوْحانيّة . . .!!

أمّا الفترة الّتي تسبق الإفطار بدقائق معدودة فكانت مستوىً باهرًا من الرّوحانيّة الفائقة . . . كان (سالم) يتولّى خَلْط عُلبِ اللّبن في عُبوات فارغة، يُضيف إليها قليلاً من الماء والمِلح ويرجّها حتّى تتجانس، فتغدو شرابًا أقرب إلى (الشّنينة)، صوتُ رَجّها وخَضّها داخل العُبوات كان أعذب من الموسيقى، منظرها في يدي (سالم) كان أشهى من غداءٍ ملوكيّ. يشرع صاحِبنا بعد ذلك بتجهيز قِداح الماء، ويصفّفُها في ترتيبٍ وانتظام، ويوزّع حواليها بعض العُلَب الورقيّة الفارغة يملؤها ببعض حبّات التّمر، لم يكن التّمر من الأنواع الجيّدة، ولم يكنْ لنا خيار في ذلك؛ كان تمرًا أقرب إلى النّوع المعجون، حبّاته يتداخل بعضُها في بعض، فيقوم (سالم) بفصلها محاولاً أن يجعل كلّ حبّة قائمةً بذاتها، غير أنّه مع العافية كان أطيب من أفخر أنواعه في الأسواق، وينسّق الماء واللّبن والتّمر في انسجام وانتظام، وتبدو المائدة حينذاك شهيّة ساحرة . . . ووالله إنّ جلوسنا حولها بعد سماع: الله أكبر مُعلِنًا الإفطار لَمتعةً لا يجد المرء في كلّ متع الدّنيا ما يُدانيها أو يُداني عُشرها . . . ولم يكن الطّعام بعد ذلك مهما كان فيه من الأطايب أجملَ من تلك اللّحظات الأولى للإفطار حيثُ نجلسُ بمودّة طاغية، وبمحبّة طافحة. لقد كنتُ أشعر أنّنا طيورٌ مُتآخية تَحُفّنا الملائكة، وتمدّ أمامنا بِساطَ الرّحمة!!!

كان الصّيام رياضة روحيّة بامتياز، لم يكن الحرمان من الطّعام في نهاره إلاّ مساحاتٍ من الفيوض الإلهيّة الّتي تهبّ علينا من كلّ

اتّجاه . . . . كان الحِرمان يومذاك وجهًا آخر من وجوه العطاء ، وكان الامتناع سبيلاً آخر إلى الانداياح!! مَنْ ذاق طعم الأخوّة عرف أنّها النّعمة الّتي لا تسبقها إلاّ نِعمة الإسلام ، وهي لا تكون إلاّ بها ، فهما متناسلان متماثلان . . . ويح المحروم ، يظنّ أنّه في سعادة ، والشّقاء يلفّه من كلّ جانب!!

كانت دُكّانة السّجن تحوي (الهريسة) و(الوَرْبات) ، نشتري منها ونتحلّى بعد الإفطار . لم يكنْ أحد يُماري في أنّ هريسة السّجن كانت طيّبة جداً ومُستساغة تمامًا ، بالرّغم من أنّ حبّة الفُستُق الّتي تستقرّ على وجهِ كلّ قطعة كانت محروقة ، إضافةً إلى أنّ بعض الأحجار تتناثر داخل هذه القِطع ، ونكتشفها حين تصطكّ تحت أسناننا مُضيفةً إليها طعمًا جديدًا . أمّا (الوَرْبات) فكانت الجبنة الّتي بداخلها ناشفة وجافّة ، ومع ذلك كان صحنُها يدور علينا واحدًا واحدًا ، فنلتقط منه حبّة حبّة ، ويسيل لها لُعابنا قبيل أن تستقرّ في أفواهنا ، ثمّ نذهب بعيدًا في الاستمتاع بمذاقها تحت اللّسان ، ونلعق أصابعنا خلفها ، فلا نبقي من حلاوتها شيئًا دون الظّفر به . ثمّ نشرب بعدها الماء ونُنشد بصوت واحد :

أكلتُ هريسةً وشَربْتُ ماءً
كأنّي لا أكلتُ ولا شَربْتُ

بهذه البساطة كانت أيّامنا تسير في رمضان . (زكريّا) نقلَنا إلى مرتبة أخرى من السّحر في هذا الشّهر ، كان جميلَ الصّوت ، داكنَ العينين ، طُوالاً ، حبيبًا إلى القلب . وكانت الصّلاة خلفه حينئذ تُعادل الصّلاة خلف إمام الحرم المكيّ أو المدنيّ . غير أنّه لم يكنْ في غرفتنا ، بل كان في الغرفة المُقابلة . فطلبْنا من إدارة السّجن أن تفتح الغرفتين على بعضهما في رمضان ، وخصوصًا في وقت صلاة التّراويح . وكان لنا ما أردْنا ، ولكنّهم كانوا يُغلقون هاتين الغرفتين بعد تلك الصّلاة مُباشرةً فحُرِمنا من قيام اللّيل معه!! أمّا في ليلة السّابع والعشرين من رمضان فقد فُتِحت الغرفتان على

بعضهما طوال الّليل وحتّى شروق صباح الثّامن والعشرين . وتلك ليلة خيرٌ من ألف شهر!!!!

(أحمد) بسيط ولمّاح وكريم ، وأحببْتُه لذلك ، وما زلتُ إلى اليوم أُكِنّ له كلّ الحبّ والشّوق . كانت نظّارتاه أبقى أشيائه حين أستحضره في ذهني ، أوّل ما أتذكّره هو ضحكته الحادّة الّتي تضيق معها عيناه ، وهما من الأصل ضيّقتان من خلف زجاج النّظارة . . . هيئته تلك زادتْه منّي قُربًا!! لم يكنْ قد نجح في الثّانويّة العامّة حتّى تلك الأيّام ، فيما بعد استطاع أن يجتاز تلك المرحلة . كان يسمع أكثر مِمّا يتكلّم بخلاف عكرمة . ربّما ثقافة عكرمة جعلتْه يتكلّم حتّى مع نفسه ، أمّا أحمد فبسيط في الظّاهر ، بحرٌ من الغموض أحيانًا ؛ فقد ينقفُ سمعكَ برأيٍ تتوقّف أمامه مليًا ، وتصمت قُبالته دهريًا!!

مضى رمضان يومًا بعد يوم ، كما تمضي الحياة . تضيع فينا أو نضيع فيها؟! لا أدري؟!!! لم أبرأ من الحسرة على ما فات إلى اليوم ، ظلّ عمري ورقةً جافّة في ريح عاصفٍ ، لم أقدر على شيءٍ منه . (أبو نواس) ذو اللّهو والمجون وعَظَني يومهاً ، وهو يقول :

أفنيْتَ عُمْرَكَ والذّنوبُ تزيدُ
والكاتبُ المُحصي عليكَ شهيدُ
كم قلتَ لستَ بعائدٍ في سَوْءة
ونذرْتَ فيها ، ثمّ أنتَ تعودُ

تفعل الذّنوب بالقلب ما تفعله النّار بالرّياض الغنّاء ، ويظلّ القلب بعدها قاعًا صفصفًا ، فاحِمًا ، تنبعث منه الرّوائح السّوداء . ثمّ يأتيك ربٌّ غفور ، فبرحمةٍ منه تُعيد اخضرار الرّوضة إلى القلب ، غير أنّها لا تخضرّ دون ماء ، وكانتْ العينان كفيلتين به . تظلّ حرقة البكاء تزيد في خضرة القلب حتّى يصبح قويًا منيعًا أمام نيران الخطيئة!!

وكلّ سـلامـةٍ تَعِـدُ المنايا
وكلُّ عِـمـارةٍ تَعِـدُ الخَـرابا
أراكَ وكلّمـا فُـتِّـحَتَ بابًا
من الدّنيـا فـتـحتَ عليكَ نابا
كـأنَّ مـحـاسِنَ الدّنيـا سـرابٌ
وأيُّ يـدٍ تـنـاولَـت الـسّـرابا؟!!
كَـبِـرْنا أيّهـا الأتـرابُ حـتّى
كـأنّا لم نكنْ حـينًا شـبـابا

نَثَرت الشّهواتُ أعمارنا على شوكِ الأنفس التّوّاقة ، صِراعنا معها ظلّ دائرًا ، وأيّ امـرئ نجا منه؟!! غـيـر أنّ النّدامـةَ طويلة ، والحسـرة مـوغلة ، واللّيالي لا ترحم الضّعاف .

في العشـر الأواخـر من رمـضـان ألقيتُ كلّ الكتب خلف ظهـري ، وأقبلتُ أقـرأ المعـجـزة ، يكتـشـف المرء أنّه : (إنْ هذا إلاّ سِـحْرٌ يُؤثَر) . وفي سحره تنشأ التّأمّلات ، وتنمو الأحلام والرّؤى ، وتفيض الطّيوب . الرّجل العجوز عادَ مرّة أخرى لينكأ أحلامي من جديد ؛ أهو أنا حينَ تشيخ بي السّنون؟!! كم بكيت تلك اللّيلة ، حتّى آذتْني عيوني ، وانتشرت الحرقة في مجاري الدّمع حتّى يبست عروقي رغم كلّ مظاهر الاخضلال .

حينَ هبطَ الظّلام أوقدتُ نارًا خلفَ جذع شجرةٍ مقطوعة ، ومن بعيد سمعتُ الأمواج تزأر أو تبكي ، لم أستطع أن أتبيّن علىً وجه الدّقّة ماذا كانت تقول!!! أمّا أنا فأخرجتُ ما معي من زاد ؛ ورحتُ آكل بعد تعب شديد ، وجوع غرز أظافره في جِدار معدتي . ظلّلتُ آكل كأنّ الطّعام لا ينتهي ، وكأنّ البطن لا تشبع ، ومع كلّ ذلك لم أجد له مذاقًا ولا طعمًا!! ألقيتُ الجِراب بعيدًا عنّي ، واقتربْتُ من النّار أستدفئ بها ، وأحتمي بأوراها من برد ينخر العظامَ نخرًا . لم يكن البحر بعيدًا عنّي . من خلفي تراءت بعض الرّبوات الّتي انتشرت مُقابل السّاحل كأنّها بيوت الخُلد!!

ومن أمامي امتدّت الرّمال وادعةً صامتةً كأنّها قبورٌ دَرَستْ منذُ ألف عام .
اشتهيتُ كأسًا من الشّاي أغليه على هذه النّار الودودة . قمتُ لأُدنيَ الجِراب منّي مرّة أخرى ، وأبحث فيه عن الشّاي والإبريق . صفعني الحالُ : وأيّ إبريق والجِراب فارغ؟!!

كان يبدو أنّني سأذهب إلى البحر وحيدًا ، فخلفه تقع القرية الّتي أقصدها منذ ثلاث ليال ، قِيل لي إنّ فيها (صالحًا) و (حُسينًا) . وأنا متشوّق إلى لقائهما من القِدَم ، وأرجو أن أجد عندهما جوابًا لأسئلة كثيرة ظلّت تُحيّرني خلال عقدين ماضِيَيْن من الزّمن . بدت النّار وكأنّها ستخبو ، قمتُ لأبحث عن بعض الحطب كي أغذّيها فينبعث لهيبها من جديد . درتُ حول المكان ؛ كان الخوف وحشًا فاغرًا فاه يكاد يبتلعني ، ارتجفتْ قدماي حين حانت منّي التفاتة إلى التلال الرّابضة خلفي ، ورحتُ أتخيّل قطيعًا من الذّئاب والضّباع مختبئًا خلفها ، تبرق عيونه بذعرٍ متطاير ، وقد ينفلتُ من خلف تلك التّلال فجأة فيعدو نحوي . اصطكّتْ أسناني من الخوف ، وزادتْ برودة الجوّ من ارتجافي ، فرحت أحثّ الخُطا ، وأُحِدّ النّظر إلى الأرض . التقطتُ بعض الحطب ، كان أكثره طريًا قد بلّلتْه أمطار اللّيلة السّابقة ، يبدو أنّ السّماء قد مدّت من الأمطار حِبالاً حينها!!

ألقيتُ بما في يديّ من الحطب في النّار ، راح صوتُ طقطقاته يرتفع ، وبعض شراره يتطاير ، أدخلَ المنظر إلى قلبي شيئًا من الطّمأنينة ، وسرى بعض الدّفء في جسدي فهدأتْ نفسي قليلاً . رحتُ أتأمّل اشتعال النّار ، وانذواء الحطب فيها ، بدت النّار سيّدة الموقف!! فكّرتُ : لماذا عبَدَها الأقدمون؟! لمعانُ ألسنتها على صفحات الوجوه ، وقدرتها على أن تبتلع كلّ ما يُلقى في جوفها ، ودِفئُها الّذي ينتصر على سكّين البرودة ، وتراقص شواظها في كلّ اتجاه عُلوًا ثمّ هبوطًا ؛ ربّما شكّل محاولةٍ منّي للإجابة عن مثل هذا السّؤال!!

غلبني النّعاس أمام النّار؟! غير أنّني قرّرتُ أن أبقى مُستيقظًا . لم

أستطع أن أطمئنّ إلى النّار فأنام بين يديها ، خفتُ أن تغدر بي فتمتدّ ألسنتها إليّ فأكون حطبًا لها ، وقربانًا من أجل أَلاّ تنطفئ . . . فكّرتُ : لمَ لا أنام بعيدًا عنها وآخذ احتياطاتي!! أجبتُني : لا!! النّار لا تعترف بالحدود ، لسانها طويل يصل إلى الفريسة دون سابق إنذار . هتفتُ : سأصحو حتّى يطلع الفجر . ولكنْ : متى يطلع الفجر؟!!!

بدأ جسدي يرتخي ، دبّ فيه الخَدَر ، كان صدري دافئًا حارًا ، وظهري مُتثلّجًا ، لففتُ البطّانيّة حول جسمي ، وأَمِلتُ أن أتّقي بعض البرد الهاجم عليَّ من الخلف . بعض المحاولات يُصرّ عليها المرء وهي تأكل من عمره ثمّ تذهب سُدى . لا يعرف الإنسان قيمة الحركة إلاّ إذا دبّتْ في قدميه العفونة!! مَنْ يشتري الصّبر لا يبيعه بكنوز الدّنيا . ومن يستيقظ عقله لا يؤتَى وإنْ نام . ومَنْ يملك الحِكمة لا يُلقِي بها في النّار .

قمتُ لأتمشّى . قد يُساعدني ذلك على الاستيقاظ . أخذتُ أسعل ، كان البرد قد فاقم من حِدّة سُعالي ، بين كلّ سُعالٍ وآخر كان يُخيّل إليّ أنّ ذئبًا من خلف التّلال يعوي . أمّا أحشائي فكانت تخرج مع كلّ سعال . ظننتُني سأنتهي هنا وأموت على هذه البقعة غريبًا . تركتُ النّار خلفي واتّجهتُ إلى الشّاطئ . ظلّ دفء النّار يلحّ عليّ بألاّ أبتعد ؛ في النّهايات تتجلّى البدايات لِتُشعرك كم كنتَ تسير في الطّريق الخاطئ .

لم ألتفتْ إلى طيفي الّذي ظلّ جالسًا حول النّار . تجاهلتُه طواعيةً ، ومضيتُ إلى الشّاطئ . خلف الشّاطئ المُلتَقى ؛ القرية الّتي وُعِدتُ بأن أجدَ فيها ضالّتي . قيل لي : هما حكيمان ؛ أعني : (صالحًا) و(حسينًا) . وعندهما إجاباتٌ لأسئلتي الّتي لم يستطع سواهما أن يشفي صدري بإجابةٍ عنها!! وقيل لي : هما دَهريّان ، عاشا في كهفٍ وغذاهما أحد الملائكةً فأخذا عنه العِلم المتفرّد ؛ علم السّماء والأرض . وقيل لي : هما قَبْران ، غير أنّه على دِمنتهما نبتت أوراق الحِكمة وفيها جوابٌ لكلّ سؤال . وقيل لي : هما سِرّان ، جِئتَ أنتَ منهما . وقد كانا في حياتهما

يُحبّانك ، ولن يبخلا بعد مماتهما بإجابة كلّ سؤال يصدر عنك . وقيل لي : هما طيفان ، ولن تراهما ما لم تحدّق في العالَم المستور!!

ظللتُ أمشي باتّجاه الشّاطئ . خُيّل إليّ أنّني إنْ ألقيتُ نفسي فيه فسأنجو!! دُهشتُ من هذا الخاطر ، أيكون في الموت الحياة؟! أم يكون في الغرق النّجاةَ!! أزحتُ هذا الخاطر المُرعِب عنّي ، وحدّقتُ في الأفق الّذي امتدّ فوق البحر ، كانت الغيوم تبدو من خلال النّجوم وِشاحًا ناصعًا . ليس بشفق ولا غسق ، فلم يكن الفجر قد بزغ ولا اللّيلَ في أوّله ، كنتُ ما بينهما ، وكان القمر قد اتّسق ، بقيتُ أمشي مدفوعًا بقوّة غامضة نحو البحر ، شعرت بأنّ قدميّ تتحرّكان لا إراديًا ، وأنّ يديَّ ترتفعان إلى مستوى صدري كما لو أنّ أحدهم كانَ يقودني ، وأيقنتُ أنّني أسير إلى النّهاية ، وأنّ في النّهاية كلّ الإجابات . قطعتُ الشّاطئ ، ولمستْ قدماي برودة الماء ، قال الماء لي : أخيرًا وصلت . سمعته يقول : كم من أناس قبلك ضلّوا وما عرفوا إلى الماء سبيلاً!! هنيئًا لك ، سأقودك إلى (صالح) و(حسين) وهما كذلك إليك بالأشواق ، وينتظرانك على قَدَر . غمَر الماء وسطي ، وما زلتُ أسير كالمأخوذ دون أن أملك إرادتي . غالبني الموجُ وحاول أن يدفعني إلى الخارجِ ، غير أنّه فَشِل في إبعادي . كاد الماء يدخل إلى جوفي ، ابتلعتُ قليلاً منه ، وناداني ملكٌ من السّماء ، التفتُّ إليه ، ثمّ شعرتُ بنفسي أُحمَلُ بين يديه . . . . وغامت الدّنيا . . .

من بعيد بدت الأضواء في القرية تلمع كأنّما تُرحّب بي ، حثثتُ سيري ، استقبلني على الأبواب الثّمانية أناسٌ طيّبون بثياب بيضاء ، أخذوني إلى (صالح) و(حسين) ، دخلتُ عليهما من كلّ بابٍ وعند أعتابهما استقرّ السّلام!!!!!!

كُلُّ مَنْ مَاتَ أَفاقْ . . . تَرْقُصُ الدُّنيا عَلَى عُرْيِ المَلَذّات وَمَا الدُّنيا سوى لَيْلٍ مُحاقْ . . . أَيُّها القابِسُ مِنْ نارِ التَّجاريبِ أَعنِّي ؛ فَلَقَدْ ذوّبني لَهَفٌ إلى الْخُلْدِ وتَوْقٌ وَاشْتِياقْ . . . ضَلَّتِ الدَّرْبُ فَمَنْ يُرْشِدُنِي العُمْرَ إذا

عُمْرِي أَضاعَتْهُ الرِّفاقْ . . . شَدَّتِ الأَهْواءُ والدّنيا على قَلْبي مِنَ البُعْدِ وَثاقْ . . . فَمَتى يَا رَبِّ هَذا الكَوْن يَأْتِي الانْعتاقْ؟!!!

لَيْسَ عُمْرُ المَرْءِ إلاّ نَجْمةً ضاءَتْ كَبَرْق ثُمّ غابتْ في الفَضاءْ . . . قَبْلَها مِلْيونُ نَجْمَةْ . . . . بَعْدَها مِلْيُونُ نجْمَةْ . . . . وَالمَلايِينُ بِلا وَجْه يَذُوبُونَ بِأَمْواجِ السَّماءْ . . . أَيْنَ تَمْضِي . . . أَيْنَ تَبْقَى . . . أَيْنَ تَحْيا . . . أَيْنَ تَفْنَى . . .؟! هَلْ لِهَذا الحالِ بُرْءٌ وَانْتهاءْ . . .؟! أَيُّها العالي أَغِثْني قَطْرَةً مِنْ بَحْرِ خُلْد في مَجَرّاتِ الفَناءْ . . . لا تَدَعْني أَكَلَتْ عُمْرِي ذُنُوبٌ لَبِسَتْ ثَوْبَ الأَمانِي وَالعَطاءْ . . . وَهْيَ حِرْماني وَلَكِنْ لَيْسَ لِي إلاّ عُيونُ القَلْب هَلْ تَعْمَى القُلُوبْ؟! فَأَغِثْني حِيْنَ تَنْداحُ الدُّرُوبْ . . . حِينَ لا يَنْفَعُ إلاَّ بَصَرٌ مِنْكَ فَعَيْنُ اللهِ أَشْفَى لِلذُّنُوبْ . . .!!!!!

فُتحت الغرفتان، وبدا كأنّ صحن المسجد الأمويّ قد فُتحَ أمام الزّائرين المُصلّين . وجلسنا جميعا في السّاحة الفاصلة بين الغرفتين، وقد مددنا بعض (الحصائر) و(الحرامات) من أجل أن نُصلّي عليها، كانت الملائكة بلا شكّ تُشاركنا المجلس، فلم يكنْ واحدٌ منّا إلاّ ذاكرًا أو مُسبّحًا أو قارئًا للقرآن أو قائمًا في المحراب مُصلّيًا . وانتظرنا نصف ساعة كي تُقام الصّلاة، وخلالها كانت الرّؤوس محنيّةً على الصّدور في خشوع تامّ، وبعضها كان يهتزّ اهتزازةً خفيفةً تتناغم مع ما يتلو من آيات الذّكر الحكيم!!

قُمنا، وشعرتُ أنّ المهجع كلّه قام لقيامنا، ووقفْنا بين يدي الله متذلّلين تذلّل العبد الخاطئ أمام سيّده . وكبّر (زكريّا) للصّلاة فشعرتُ أنّ جُدران السّجن بأكمله كبّرتْ معه، وأحسسْتُ أنّ كلّ العاصين والمذنبين والمُجرمين في السّجن قد كبّروا معه . ثمّ بدأ صوته الشّجيّ يتغلغل في القلوب قبل الأسماع فلم يبقَ أحد في الحاضرين إلاّ بكى، وأمّا أنا فقد: (شرقتُ بالدّمع حتّى كادَ يشرقُ بي) . يومها كانت جدران السّجن تبكي، لم يبق أحد إلاّ لانت مشاعره، وذابت جوارحه، حتّى الحجارة سالتْ

على خدّيها الدّموع : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعًا مُتصدِّعًا من خشية الله)!!

وفي ركعة الوتر ، رفعنا الأكفّ ، فرفعت القُضبان معنا أكفّها ، وفتح الله على (زكريّا) فأشجى وأبكى ، وأحزنَ وأفرح ، وطال الدّعاء ساعةً كاملة ، ما شعرنا بها إلاّ عندما كبّر للسّجود ، فأردْنا أن نخفض أيدينا فما استطعنا إذ تجمّدتْ على هيئتها تلك لطول مُكوثها ، فغالبْناها حتّى أطاعت . ثمّ كان الهُوِيّ الأخير أمام جبّار السّماوات والأرض ، كانت الجباه تلتصق بالأرض في خضوع ، فتملأ الأفئدة بالعزّة والرّضى . لم يكنْ الخضوع بين يدي الله إلاّ رِفعة ، ولم تكن العبوديّة له إلاّ سيادة ، ولا يذلّ إلاّ (كلّ مُتكبّرٍ لا يُؤمنُ بيوم الحِساب) :

وَمِمّا زادَني شَرَفًا وَتِيهًا
فَكِدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِك : (يَا عِبَادِي)
وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا

ونام الفؤاد مطمئنًا . ومضت اللّيالي ، ليُطلّ العيد برأسه ، وهاجت الأشواق ، واصطفّت الذّكريات على الأبواب ، وناح الوُرق على الأيك ، ووجدَ القلب من اللّوعة ما وجد .

أينَ أمّي؟! حالت بيننا القُضبان ، غير أنّهم لم يحولوا بيني وبين طيفك في كلّ مساء . أيّتها الطّيّبة أبدًا : يخجل الطفل السّاكن في أعماقي حين تقفز شقاواتي بين يدي رحمتكِ . كنتِ في كلّ عيدٍ تُعدّين لنا أقراص العيد ، تفوح رائحة الخبز من بين يديك ، فيشعر المرء بأنّ الملائكة هي الّتي عَجنتْ وخَبَزتْ ووضعتِ الزّيتَ وأنْضجتْ!! أذكر أنّ أبي كان يعشق هذه الأقراص تصنعينها بيديكِ الطّاهرتين ، وكان يطلب منك ذلك ، فهل ما زال يفعل إلى اليوم؟!

صفراء مع بعض حبّات القِزحة ، يقطر منها الزّيتُ قَطْرًا ، ورائحة

تحميصها أشهى من أيّ رائحة أخرى ، وساخنة وحارّة وشهيّة ، كنت أجلس حواليك وأحيانًا يفعل ذلك أبي وربّما بعضُ إخوتي الآخرين ، تمتدّ أيادينا إلى بعض هذه الأقراص المخبوزة فنأكل منها ، فلا تكادين تُنهينَ فوجًا منها إلاّ ونكون قد أتينا على أكثره ، ومع ذلك نسترق النّظر إليك فتبدو بعض ابتسامات الرّضى ، فنتشجّع أكثر ، وإن كان بعضُنا يلقى أحيانًا نهرةً خفيفةً ، أو تأنيبًا عابرًا . . . أينَ يُمكن أن أعيش مثل هذا المشهد اليوم ، وفي أيّ موقف داخل الزّمان والمكان أو خارجهما أستطيع أن أستعيد صورتك فيه أيّتها الملائكيّة الطّاهرة!! تُرانا صدقنا معك الوعد؟! تُرانا - حينما كبرنا - صرنا كما أردتِ أن نصير؟!! تُرانا حققنا لك أملاً واحدًا أو حُلمًا واحِدًا أن تري أبناءك وقد شبّوا عن الطّوق بعد أن كانوا صِغارًا وهم يَكبَرونَ على ما حلمت به أن يكبروا عليه؟! أم أنّنا عَقَقْنا وكَذبنا ونسينا كلّ شيء؟! هل أيمن الّذي عرفْته طفلاً كبر كما تريدين أم أنّه خيّب ظنّك فيه؟!! هل ما زلتِ تحبّينه كما لو كان طفلاً؟! هل غفرتِ له شقاواته وبَدَواته وأخطاءه ؟! هل غفرتِ له أنّه نسي قلبَ أمّه حين ألجأَها أن تفتقده عند كلّ طعام يجلس حوله إخوته الصّغار فلا تملكين لدموعك ردًا؟! هل غفرتِ له قصائدَه الّتي لم تفكّر بأنّها ستجرح قلب أمّ وهي تودي بابنها في غياهب السّجون بعيدًا في الصّحراء؟!! آه يا أمّي كم يذبحني النّدم حينَ أشعرِ أنّني لم أوفِ حقّك معشاره!! أيّتها الطّاهرة النّبيّة : ها أنذا بين يديك رجلاً يركع تحت قدميك لتمنحيه الرّضى ، فإن فعلتِ وغفرتِ له كلّ ماضيه فما أسعده وما أرضاه!!!

صلّينا صلاة العيد في مسجد السّجن ، ولَبِسَ السُّجناء أجملَ ما لديهم ، وكان أجملُ ما لديهم أن يتخلّص بعضهم وليس جميعهم من أفرهول السّجن ذي اللّون الأزرق الدّاكن ، ويستبدِلوا به بدلات الرّياضة ؛ لم تكن بناطيل القِماش مسموحة ولا القمصان ، ولا أيًا من ذلك ، أكثر ما يمكنه السّجين فعلَه : أن يغسل بدلة الرّياضة ، ويعرّضها للشّمس - إذا

كانت الشّمس تطلّ في تلك الأيّام الشّتويّة - لتجفّ، ثمّ يكويها بوضعها تحت برشهِ ليوم كامل لتأخذ هيئتها من خلال الضّغط عليها الواقع من الفرشة وجسمِ السّجين، ثمّ يعلّقها فوق رأسه انتِظارًا ليوم العيد البهيج . . .!!

ماذا يفعل السّجناء يوم العيد؟! يتزوارون. فَعلْنا. كانت الزّيارة فقط قد فُتِحت للغرفتين في المهجع، وسُمِحت بعض الحرّيّة في التّنقّلات الأخرى بين الغرف. الآخرون من المساجين غير السّياسيّين كان ينتظرهم عقابٌ قاسٍ فيما لو تجرّؤوا وقاموا بزيارتنا!! دخلْنا في طقسِ استعادِ بعضَ البهجة، غيرَ أنّ حزنًا شفيفًا كامنًا في النّفوس كنتُ ألحظهُ مرتسِمًا على الوجوه. كيفَ يشعر المرء ببهجة العيد وهو في السّجن، بعيدًا عن الأهل والأحبّة؟

سَهِرْتُ بعدَ رَحيلِي وَحْشَةً لَكُمُ
ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَارْعَوَى الوَسَنُ

مرّ العيد دون كعك ولا خبزٍ ولا حلوى من يدي أمٍّ حانية، مرّ دون عناق لِمَنْ تحبّ، مرّ دون كلمة دافئةٍ من فم سخيّ، مرّ دون مُكث كأنّه ما مَرّ، وبَقيت بعده الغُصص تتلو الغُصَص، وبدأت الخيالات الجامحةً تمارس هوايتها في الانتقام من الهدوء الّذي يحظى به السّجين أحيانًا. وانتقلنا إلى مرحلةٍ جديدة من الأوجاع . . .!!!!

كاد شهر شباط ينتصف في السّجن، بعض الدّفء الّذي زارنا يوم العيد رحل فجأة تاركًا خلفه الصّقيع، بدا البرد في هذا الشّهر جزّارًا بلا رحمة، وكنّا نحن ضحاياه المُبتغاة؛ كان البردُ جرّاحًا قاتلاً أو قاتلاً تعلّم الجراحة في أبشع صورها، يستخدم مِرطه اللاّمع، أو سكّينه النّاقمة، ويبدأ بِحَزٍّ جلدنا، وحين تَنفثِئ أوّل قطرةِ دم من الجُرح، لا تكاد تصعد إلى سطح الجلد حتّى تتجمّد هناك؛ لم يكن يَسمح لها الجرّاح بأن تسيل؛ إنّها فكرته الخبيثة في أن يصرعها بعد أوّل انفثاءٍ لها. ثمّ يكون الألم الّذي

لا يُطاق ، ثمّ تكون الأمانيّ الّتي لا تُطاق أيضًا . أكثر هذا الأمانيّ المؤلمة : حِضنٌ دافئٌ تجد فيه شفاءً لكلّ هذا البرد القاتل ؛ حضنٌ مؤنسٌ يدفع عنك كلّ هذا الصّقيع المُوحِش!!

لم يرحمنا البرد في النّهاية رغم كلّ التّوسّلات ، قرّر أن يلعب معنا لعبته المُفضّلة ، ولم نكن نملك لها رَدًّا!! بدأت الأمراض تنهشنا من كلّ عضوٍ ؛ في منتصف شباط بعد ليلة باردةٍ وكان طعام الغداء فاسدًا على ما يبدو ، وكثيرًا ما يكون مفتقِرًا إلى كلّ شيء ؛ كانت عشرات الكيلوغرامات من البطاطا تُلقَى في قُدور كبيرةٍ دون أن تُغسَل ، ومثلها العشرات من البندورة ، والعشرات من أكياسِ المِلح ، وتِلالٌ من (الزّهرة) القادمة من التّراب مباشرةً إلى هذه القدور الجائعة ، لم تُستخدم المياه في غسل أكثر الأطعمة ، ولكنّها كانت تُضاف - وهي المليئة بالحرافيش - إلى كلّ هذا الخليط في تلك القدور ثُمّ تُوقد تحتها النّار لِتُنضِجها ، ثمّ يأتي المساجين المساكين ، يهبطون في فترة الغداء من كلّ مهجع قد نهش الجوع في الأيّام الباردة أمعاءهم الخاوية فهُرعوا ليُسكتوا صفيرها بأيّ شيءٍ . . . وتمتدّ الأيدي إلى الصّحون ، ثمّ ترتفع إلى الأفواه ، ثمّ تُزدَرَدُ اللُّقم ، وليحدثْ بعد ذلك ما يحدث ، فصبْر السّجين على كلّ أنواع الأمراض النّاتجة عن هذه الأطعمة كفيلٌ بأن يُنهي المسألة!! وهل للسّجين الحقّ بأن يشكو؟! لا . وهل له الحقّ بأن يسأل طبيب السّجن عن الأفاعي الّتي تتجوّل داخل معدته؟! لا . ما هذا الدّلال أنحن في فندق أم سجن؟! أنحن في قاعة تشريفات أم في مهاجع وقضبان؟! صحيحٌ أنّ السّجناء لا يستحون إذْ يفكّرون بزيارة الطّبيب لمجرّد أن ألَمًا خفيفًا أصاب عضوًا ما في أجسادهم الّتي هي مملوكةٌ للدّولة تحتفظ بها في زرائب يومذاك!!!

باختصار أصابني في ذلك الشّهر إسهالٌ لم تنجح كل الدّعوات بإيقافه ، ولا كلّ الرّجاءات بالتّخفيف من حدّته ، ظلّ يعذّبني ويتسلّى بتعذيبي ، ثمّ ارتخى جسدي فصرت ورقةً صفراء ملقاةً على القوارع

تدوسها الأقدام . كان الجميع منشغلاً عنّي ، معظمهم عانى مثلي وزيادة ، لم تكن الشّكوى ولا لأيّ فردٍ منهم مُجدِية ، إذ ما نَفْعُ أن تذهب - وأنت مسهول - إلى زميلٍ لك مزكومٍ يكاد لون أنفه الأحمر يبخّ في وجهك صقائعه!!

تمدّدت على السّرير ، ولم أغادِره لحظةً واحدةً إلاّ للصّلاة في ذلك اليوم ، كنتُ أبقى أكثر من (٢٠) دقيقة وأنا أفكّر بالقيام من فراشي وأنويه ولا أستطيع حتّى يأتي فرج الله فأقوم بعد عناءٍ طويل . . . . يومها كان التمدّد على السّرير مثل التّمدّد في القبر ، وكانت فكرة الموت تحوم فوق رأسي ، شعرتُ للحظة أنّ الموتَ راحةٌ ، وأنّه يُمكن أن يكون أمنيةً في بعض اللّحظات العصيبةً . ألقيتُ يديّ على جانبي جسمي المُسجّى على الظّهر في هيئة الميت تمامًا ، وانتظرتُ رحمة الله . لم تشكّل الحياة في ذلك اليوم لي أيّ معنى ، كانت فكرة قبول الموت قائمة ، ويمكن أن أرضى بها!! فكّرتُ : رمضان لم يغادرنا منذ زمنٍ بعيد ، وربّما غفر الله لي فيه ، أبي وأمّي راضِيان عنّي ، لم أسِئ إلى أيٍّ أحدٍ هنا في المهاجع ، ولا يحمل أيّ واحدٍ منهم لي شحناء أو بغضاء ، أخواتي وإخوتي يحملون لي ودًا وحُبًا ولم أذنب بحقّ واحدٍ أو واحدةٍ منهنّ ؛ إذًا الوقت مُهيّأٌ تمامًا لاستقبال ملاك الموت ؛ صرختُ في أعماقي : فلتكنْ مشيئة الله!!

لا أدري كم نمتُ بعدها ، أو كم غِبتُ عن الوعي ، ولكنّي استيقظتُ وتلفّتّ حولي كمن يريد أن يرى غير الحياة الّتي عاشها ؛ يريد أن يرى الحياة الآخرة ، ولكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث ، كانت عينا عكرمة الصّغيرتان تنظران إليّ من بعيد ، وهو يفترّ عن ابتسامة تكاد تلحقها ضحكة خفيفة . . .!!

تقرّب منّي في تلك الأيّام (خليل) كان يمرّ بحالة عاطفيّة صعبة ، وكان يجلس معي لساعات وهو يحدّثني عن أولاده وأهله وأحوالهم ، ثمّ تُصيبه فجأة موجةٌ عارمة من الحنين إليهم فيبكي . . . تنهمر دموعه من

عينيه قطراتٍ متتابعاتٍ على الخدّ الأسمر من العينين اللّتين أحاطت بهما هالةٌ سوداء . . . وجد عندي بعض السّلوى ، أوّل ما يحبّه فيك ذو القروح أن تكون مُستمعًا جيّدًا ، إذا تابعتَ كلامه ، وجاريَته عليه ، وخفّفتَ عنه ، وصبرتَ إلى أنَ يُلقي بكلّ النّفثات والآهات والزّفرات من صدره فسيجد عندك ضالّته المنشودة . . . ثمّ قد يمتدّ الحديث عند المصدور إلى جوانب أخرى ، يجد فيها متعته وهو يُفضفِض عمّا احتقن في أعماقه . . . ظلّ (خليل) يومها يحدّثني وأنا مُصغٍ إصغاءً تامًا ، كنتُ في الحقيقة شبحًا قادمًا للتّوّ من القبور ، لا يملك منَ طاقة الحركة شيئًا ، ولأنّك لا تبذل مجهودًا عضليًا في الاستماع فقد ظللتُ أستمع . . . أخذ الحديث منحىً آخر . . . برزتْ لأوّل مرّة في حياتي علاقة الجنّ بالإنسان من خلال أحاديث خليل!!

دخلَ إليها الجنّ - يعني شقيقته - ولا ندري كيف ، فصارت منزويةً لا تُكلّم أحدًا ، بدأت تنفر من كلّ شيءٍ حتّى مِمّا يُبقي رمق الحياة في الإنسان ، فامتنعت طواعيةً أو مُكرهةً عن الأكل ، بدأ جسمها يذوي ، صار وزنها يهبط بسرعة . . . حاولنا معها كلّ المحاولات فلم تنجح . . . وقفنا مشدوهين أمام حالتها!! ما الّذي حدث لها؟! ما الّذي أصابها يا تُرى؟! وهي التّقيّة الّتي لم تترك فرضًا إلاّ أدّته على أكمل وجه؟! ما الّذي أدخل هذه المخلوقات الّتي لا تُرى إلى جسدها المتّصل بربّها؟! لا ندري!! ثمّ تدهورت صِحّتها بعد ذلك ، فقرّرتْ أمّي الذّهاب بها إلى الطّبيب ، كان طبيبًا مشهورًا وحاذقًا هكذا قالوا لنا ، غير أنّه وقف أمام حالتها عاجزًا لا يُحيرُ جوابًا ولا يملكُ لها تفسيرًا!! فرجعنا من عنده خائبين . . . . ولكنْ بدأنا نحن نخاف على حياتها ، صارت أقرب إلى الشّبح منها إلى الإنسان ، صارت هيكلاً عظميًا ، لم تعد بعد مرور أقلّ من شهر على هذه الحالة تزن أكثر من (٤٥) كغم . صار الفزع يحتلّ مساحة كبيرةً في قلوبنا . . . في اللّيل تبدأ المعاناة المرعبة ، يبدأ الجنّيّ يُمارِسُ هوايته في

تعذيبها ، تصرخ . . . تستغيث . . . تتأوّه من الألم . . . تُهرع أمّي والعائلة إليها ، نُمسِك بالمصاحف ، نتلو آياتٍ من القرآن الكريم . . . تعلّمنا أن نقرأ لها آية الكرسيّ ، تهدأ قليلاً ، ثم نعودً نحن إلى غُرفِنا ، وتبقى أمّي عندها تتلو عليها سورة البقرة كاملةً!!

لم تُجدِ هذه الأمور كثيرَ نفع ، لا يلبثُ هدوؤها أن تتلوه العاصفة ، تسكنُ نفسُها إلى آياتِ القرآن الكريم ، ثمّ تثور من جديدٍ في خلوتها المستمرّة مع نفسها منذ أربعين يومًا . . . لم تترك طبيبًا إلاّ زاته أمّي بمعيّتها ، دفعْنا من الأموال ما ذهبَ هدرًا أمام النّتيجة الّتي نراها بأمّ أعيننا ؛ تدهورٌ مستمرٌّ في الصّحّة ، وانزواءٌ وانطواء ، وجِسمٌ يتحول إلى عظام مُكوّمة ، وعينان حمراوان من البكاء أو السّهر لا ندري . بدأنا نفقد الثّقة في كلّ شيءٍ إلاّ في الله . . . . مَنْ رأى أختي على تلك الحال لم يتمالك نفسه من البكاء عليها . . . . نحن أنفسنا بدأنا نبكيها كما لو كنّا فقدْناها بالفعل . . . أن ترى أختك تموت بين يديك ولا تملك أن تدفع عنها شبح الموت مع كلّ المحاولات لذلك أمرٌ قاتِلٌ وجارحٌ ومُفجع!!

بدأنا نخترع أو قل نجرّب حلولاً جديدة ، نسيت أمّي في غمرة حبّها وحزنها المتواصل على ابنتها أنّ الذّهاب إلى العرّافين حرام . . . ولكنّ عقلها لم يكن يعمل آنذاك ، وكانت العاطفة وحدها هي الّتي تسيّرها ، فانغمست في الخروج من عند عرّاف للدّخول إلى آخر . . . صِرْنا في قلب الضّياع!! صارت أمّي - بناءً على توصيات العّرافين والدّجّالين - تسقيها ماءً مالحًا وتقرأ على الماء بعض الغمغمات والخُزعبلات ، فتزداد حالتها سوءًا ، جرّبت أن تنقع لها مِخلب قِطٍّ في ماءٍ مغليّة وتسقيها إيّاه فلم تنجح . جرّبت أن تضع في عَنقها التّعاويذ والتّمائم والحُجُب الّتي كتبها الدّجّالون فلم تعمل في جسدها إلاّ مزيدًا من الانهيار ، جرّبت أن تضع في عنقها الخرز الأزرق ، دلّها على ذلك بعضُ العرّافين ، ففعلتْ ؛ لم تترك خرزًا أزرق في السّوق إلاّ اشترتْه ونظمتْه في قلائد وأحاطت ابنتها به فلم

يزدها الأمر إلاّ سوءاً . . .!!

صارت أختي تنام لساعات طويلة في اللّيل أو النّهار ، فنعتقد أنّها أسلمت الرّوح لبارئها ، ثمّ تئنّ في منتصفِ ليلةٍ من اللّيالي فنعلم أنّها ما زال تُقاوم الموت بذبالةٍ أخيرة من الحياة .

كَلّت عقولنا وأدمغتنا ونحن نحاول أن نبحث عن حلولٍ جديدة . توجّهنا هذه المرّة إلى الشّيوخ ، من البداية قلتُ لهم أن يفعلوا ذلك ، لم يقصدوا ألاّ يستمعوا لي ، ولكنّ الشّيطان ربّما أغراهم بغيرهم أو أنساهم ، كنّا نأخذها لأحد الشّيوخ المعروفين بالصّلاح والتّقوى ، قرأ عليها ، كان يقرأ بآياتٍ معيّنات ، قال لنا في النّهاية : إنّها مسكونةٌ بالجِنّ ، وسبب ذلك حسدٌ وسحرٌ معًا!! وقد يكون أحد أقربائها أو قريباتها فعل ذلك!! فسألناه ما العمل؟! فقال : قراءة القرآن عليها؟! ووجّهنا إلى آياتٍ محدّدة لنفعل ذلك . التزمنا بأمره حرفيًا ؛ فصارت أختي تعاني أكثرً من ذي قبل ، فساورتْنا الشّكوك بأنّ هذه الطّريقة لن تنجح ؛ فقد كان صُراخ أختى يصل إلى عِنان السّماء ، وكنّا نستغرب أنّ صُراخًا بمثل هذه القوّة الكبيرة يخرج من مثل هذا الجسد النّحيل!! تركْنا الأمر فترةً فعادت أختي إلى بعض الهدوء لكنّ جسمها لم يتبقّ منه شيء ، كانت لا يتحرّك منها شيءٌ إلاّ عيناها . راجعْنا الشّيخ في الأمر فنصحنا بالاستمرار في قراءة القرآن ، ففعلْنا . كانت أمّي تواظِبُ على ذلك باستمرار ، كان الأمر ينفع بشكلٍ مؤقّت لا دائم . استغثْنا بالشّيخ فجاء أخيرًا ليخرج الجنّ من جسد أختي!!

كان الشّيطان يصرخ على لِسانها صائحًا بألم فظيع : لن أخرج من جسدها مهما فعلتَ ، يُخاطب بذلك الشّيخ الّذي أحضرْناه . فيردّ عليه الشّيخ بحدّةٍ وبقوّة : ستخرج أيّها الشّيطان اللّعين الكافر بسلطان القرآن . فتصرخ هي ، وهي في هذه الحالة شيطانٌ : لا . . . لا تعذّبني!! فيردّ الشّيخ : سأعذّبكَ ما دمتَ في جسدها . اخرج واتْركْها بسلام ، فأنت الّذي عذّبْتَها . . . ثمّ يُتابع قراءة القرآن بتلذّذٍ وتشفٍّ . فيبدأ صراخُ أختي

أو صراخه لا أدري من كان صورةً للآخر في تلك اللّحظة : آآآآآه . . . آآآآآآخ ، فيعلو بنفس الدّرجة صياح الشّيخ : اخرجْ . . . اخرجْ . ثمّ يتلو بعض الآيات : ويصيح بعدها : اخرجْ . . . اخرجْ أيّها الكافر . . . أيّها الشّيطان اللّعين من سمح لك أن تسكن جسد هذه الفتاة الطّاهرة . . . وتصيح هي أو يصيح هو : آآآآآآآآه . . . يكفي . . . يكفي . . . سأخرج سأخرج . . . أمّا أنا فكانت يداي ورجلاي ترتجفان في حمّارة القيظ من الخوف ، كان منظر أختي يومها مُرعِبًا ، كانت بالفعل كأنّها شيطانٌ ، لم أستطع أن أديم النّظر إليها أكثر من لحظاتٍ معدودات خاطفات . . . كانت تنظر إليّ برعبٍ هائلٍ كأنّها تستغيث بي ، وأنا لا أملكُ لها أيّ شيءٍ ، كنتُ مشدوهًا ومأخوذًا بما يجري أمامي ، ومشلولاً عن الحركة من الرّعب باستثناء الرّجفة الّتي أصابت أطرافي ، والقشعريرة الّتي سرت في جسدي كلّه . . . لم أكنْ أسمع إلاّ صراخ أختي والشّيخ . قال الشّيخ لها أو للشّيطان : هل ستخرج كما وعدتَ أم أقرأ مزيدًا من الآيات؟! فاستغاثت استغاثة الطّريدة أمام الوحش المُفترس : لا . . . لا . . .سأخرج . . . سأخرج . . . فصاح الشّيخ : اخرج أيّها اللّعين من إبهام قدمها . . . من تحته أيّها الشّيطان الكافر . . . في تلك اللّحظة علا صراخ أختي ثمّ سكت فجأة ، ورأيتُ جسدها انتفض في فِراشه كأنّ أحدًا رفعها قليلاً عن الأرض ، ثمّ سقطت مغشيًا عليها . صاح الشّيخ من الفرحة : الله أكبر . . . الله أكبر . . . الحمد لله . . . الحمد لله . . . خرج اللّعين . . . خرج إبليس . . . لقد كادت تموت . . .!!

ظلّت قِصّة خليل تأتيني في المنام أسبوعًا كاملاً بعد ذلك . بالفعل أصابني رعبٌ مِمّا أخبرني به ، ومع أنّني لم أوقن بقصص الجنّ ، ولم أؤمن بأخبارِ وُلُوجِهم إلى أجساد البشر ، إلاّ أنّ خيالي أعاشني أسبوعًا في هذه الدّائرة ، وهَيّأَ لي من المناظر المُرعبة ما كاد يُقعِدني من نومي فَزِعًا في اللّيالي الطّويلة الباردة . . . كانت أجساد رفقائي في الغرفة تتبدّى لي في

تلك اللّيالي أشباحًا مرعبة . . . هتفتُ في أعماقي : ما كان أغناني عن أن أسمع مثل هذه الأحاديث ، وإذا كنتُ لا أؤمن بها ، فلماذا تُخيفني الآن إذًا؟!!!

أخرجني عكرمة بأفكاره الواقعيّة ، وثقافته المتنوّعة مِن الأجواء الّتي أرجحني فيها خليل . عُدتُ إلى الجلسات الطّويلة الّتي تأخذ فيها النّقاشات مداها . تعرف قيمة الأشياء حين تفقدها . تُدركَ حماقتك حينَ تسكنك البصيرة . البصيرة عين القلب . من رأى بعينَي قلبه رأى ما لا يراه الآخرون في العالَم المكشوف . في العالم المستور عيون القلب وحدها تعمل أمّا عيون الجسد فعمياء جهلاء!!

المرآة المشروخة في السّجن كانت صديقتنا جميعًا ،لم تسلم من الحوار بلغة الجسد أو اللّسان من أيّ سجينٍ في هذه الغرفة . لا أدري لماذا كنتُ أستغلّ فرصة خروج الرّفقاء من الغرفة ، لأبقى وحدي فأحاورها على راحتي ، أدور حولها أعرض جسدي على مساحتها الضّيّقة ، لأرى كم صرتُ رشيقًا كغزال ، خفيفًا كغيمة ، طاغيًا كملك . . . أهيئها لهذه الخيالات كي تَقبَلني ، أمرّ بكفّي على شعري فأرتّبه كي أبدو وسيمًا في نظرها فتقع في شِباكي ، فرصتي في أن أخلو وحدي بها تمتدّ لوقتٍ قصير قبل أن يُهاجِمنا متطفّل آخر فيقطع علينا خلوتنا ، في هذه اللّحظات أعرض عليها كلّ هواجسي وأحلامي وآمالي . . . بدت هذه المرآة المشروخة في السّجن قادرةً على صنع فضاءٍ من الحرّيّة في واقعٍ يكتظّ بالاحتقان من كلّ جوانبه!!

ظلّت الزّيارات تتوالى . . . وظلّ أبي سيّدَها ، وظلّت الوجوه الأخرى الّتي لم أعرفْها تزورني أيضًا ، زارني أناسٌ من الكرك والطّفيلة والعقبة وجرش والسّلط وإربد وعمّان والرّمثا ، وجميعهم مِمّن لم أعرف ، كان يشدّهم إليّ الموقف أكثر من المعرفة ، سَمِعوا بهذا الشّاعر الّذي دفع ثمنَ قصيدته سجنًا في الصّحراء نائيًا عن الأهل والأحبّة ، فجاؤوا لِيثمّنوا

موقفه . بعضهم كان يأتي للسّجناء السّياسيّين الآخرين كأبي محمّد المقدسيّ وأبي مصعب الزّرقاويّ وعطا أبي الرّشتة وآخرين ، فيزروني معهم ، وكانت الزّيارة نعمةٌ كبيرةٌ ، كنّا نستظلّ بفيئها من الوحدة الشّعوريّة ، وكانت تعني لنا الكثير . . . عبر شبك الزّيارة تمكّنتُ حتّى اليوم من إخراج ما يزيد عن عشرين قصيدةً أو مقالةً ، ظلّ شبك الزّيارة المتنفّس الأكبر لإخراج إبداعاتي . ومن سيقرأ ديوان السّجن (المشارق) يُدرك فضل تلك النّوافذ الزّجاجيّة ذات الحواف المبخوتة من أجلِ تهريب الأوراق المكتوبة . . . بالطّبع كانت هناك وسائل أخرى ، تحدّثتُ عن بعضها في الصّفحات السّابقة من هذه المذكّرات . . .

ولكنْ ما الّذي يحجزنا هنا . . .؟! أسلاك وأسوار!! فهل يُمكن اعتلاء هذه الأسوار وقطع تلك الأسلاك ثمّ الهرب باتّجاه الحرّيّة المُطلَقة؟! قد . . . ربّما . . . لا . . . نعم . . . في النّهاية تبدو نعم كبيرة عِملاقة بجانب اللاءات والتّشكيكات السّابقة . يا عكرمة . . . يا صاحبَ الفكرة الذّابحة تعالَ قل لي كيف؟!

كان (عكرمة) قد خبأ (مِنشار حديد) صغيرة من النّوع الّذي لا يصلح إلاّ لنشر قضبان رفيعة لا يتجاوز سُمكها (٥) ملم ، فكيف الحال وقضبان السّجن يزيد سمكها عن (٢٥) ملم ، وهناك من العوائق ما لا يعرفه إلاّ الله . بالنّسبة لعكرمة كان متحمّسًا جداً لفكرة الهرب ، بخلاف (يوسف) و(عليّ) والآخرين جميعًا على ما أظنّ ، ربّما باستثناء (سالم) الّذي كانت لديه أفكار مماثلة في التّفكير بالخروج من هذه القوقعة الّتي تلفّ بنا من كلّ جانب وتكاد تخنقنا . على الأقلّ هذا ما يُمكن أن أحكم به فيما اطّلعتُ عليه ، وقد يكون هناك (تحت السّواهي دواهي) كما يقولون . أمّا (عكرمة) فقد أسرّ لي بذلك ، وأخبرني بأنّه يفكّر في الأمر منذ مدّة طويلة . بقي (عكرمة) يراقب بنايات السّجن ، ومداخله ومخارجه ، وأسواره وجدرانه العالية ، ولأنّه مهندس معماري فقد استطاع أن يرسم في

ذهنه صورةً كاملة عن مُخطّط السّجن ، حين كان يكلّمني عن مواقع البنايات وأشكالها الهندسيّة لفت انتباهي إلى الفكرة بشكلٍ واضح ، واستثار فيّ خيال الهندسة الّذي كنتُ قد درستُهُ عبر خمس سنين . لم ترق لي الفكرة في البداية كثيرًا ، غير أنّني بدأتُ جدّيًا أفكّر في الموضوع ، وصارت لديّ رغبة في المضيّ في الموضوع قُدُمًا ، أُدركُ اليوم أنّ دافع الفضول والمغامرة والتّجربة كان هو الّذي يقودني في أفكاري وخيالاتي ، ولا أخفي أحدًا أنّني صرتُ أتعمّد الذّهاب لإحضار الطّعام من المطبخ لأدرس الممرّات ، وأشكال البنايات في الذّهاب والإياب . كانت الطّريق إلى المطبخ طويلة ، وتمرّ بكلّ المهاجع ، وتمتدّ خارج مهاجع السّجناء وعبرها ، لتصل إلى بناية المطبخ الّتي تقع في الجهة الشّرقيّة على ما أذكر ، صرتُ أنظر إلى مُنشآت السّجن بغير العين الّتي أنظر بها دائمًا . لوهلةٍ أرعبني مجرّد التّفكير بالهرب ، وبدأت المخاوف تقفز كأرنب برّيٍّ في صدري ، غير أنّني سرعان ما أزيحها عن ذهني ، وأستمر في حياتي الاعتياديّة .

لم يفتر عكرمة في الحديث عن الموضوع كلّما اختلينْا معًا . على بَرشه جلسنا أيّامًا ونحن نتبادل الآراء والأفكار . حماستي للموضوع كانت أقلّ منه ؛ لأنّني كنتُ أجد بعض ما يطرحه ميتافيزيقيًا ، يصعب تطبيقه!!

كانت غرفتنا في مهجع (٦) تقع في الجزء الأخير من مهاجع النّزلاء ، وبناية الإدارة تقع في منتصف المهاجع ، ويمتدّ على يسارها كما على يمينها ستّ مهاجع للسّجناء ، ولكنّنا نقع في الرّكن القصيّ من هذه المهاجع جميعًا ، فقد راودتْنا الفكرة غير مرّة في إمكانيّة الهرب . إذا بدأنا بتطبيق الفكرة ، فهذا يعني أنّ علينا أن نجتاز حاجزين ، الأوّل جدار اسمنتي يعلو لأكثر من خمسة أمتار ، وخلفه مسافة أفقيّة تمتد لحوالي عشرة أمتار مليئة بكاميرات المراقبة ، وبعدها هناك جدار الأسلاك الشّائكة الّتي ترتفع أيضًا لأكثر من ثلاثة أمتار . كانت هذه الأسلاك الشّائكة تظهر لنا جليّة من نافذة غرفتنا الصّغيرة إذا صعد أحدنا إلى الطّابق الثّاني من البرش ،

أصعب ما فيها أنّها - كما قيل لنا - مُكهربة ، فلا تكاد يدك تلامسها حتّى تخرّ مغشيًا عليك من الصّعقة الكهربائيّة ، لم يكن هذا الأمر يخيف عكرمة كما كان يُخيفني ، قال لي : ربّما يُشغّلون الكهرباء عليها في أوقات ويُطفئونها عنها في أوقات أخرى ، سنكتشف أوقات إطفائها ونحاول الهروب آنذاك ، وقد لا تكون مكهربة أصلاً وإنّما هي إشاعةٌ لإدخال الرّعب إلى قلوب المساجين حتّى لا يفكّر أحدهم ولو في خياله بالهرب ، وعلى فرض أنّها مُكهربة (٢٤) ساعة ، فيُمكن التّغلبّ على ذلك بلبس كفوف عازلة وتنتهي المشكلة . ولكنْ هُناك مُشكلة أخرى ، إنّ الجزء العلويّ من الأسلاك الشّائكة يستقرّ فوقه أسلاك أخرى على شكل خطوط دائريّة ترتفع لأكثر من نصف متر ، وحديدها هو عبارة عن شفرات حادّة يُمكن أن تقطع إصبع كلّ من يُمسك بها إذا شدّه وزنُه على الفور!! فكيف يُمكن أن نتجاوز ذلك . . . فكّرنا يومها بعمل ثغرة في جدار الأسلاك الشّائكة تتسع لجسم الواحد مِنّا بقطر نصف متر ، وندخل من خلالها بدل من التّسلّق عليها حتّى القفز من أعلاها!!

أمام السّجين حتّى يُنفّذ كلّ ذلك قبل أن ترصده كاميرا المُراقبة الموجودة في غرفة التّحكّم في الإدارة حوالي (٣) دقائق ، وإذا خدمه الحظّ فقد ينتبه لها الشّرطيّ بعد حوالي (٥) دقائق ، فهل بالإمكان تسلّق الجدار الإسمنتي ثمّ القفز على الجهة الأخرى ، وقد يكون الواحد قد أصيب بكسْر أو ما شابه ، ثمّ إحداث الثّغرة في الأسلاك الشّائكة ثمّ الهرب باتّجاه الفضاء الصّحراويّ في أقلّ من (٥) دقائق؟!! كان الأمر يبدو مستحيلاً لي ، وإنْ كان مُمكنًا عند عكرمة!!

قلتُ له فكّرْ في بدائل أخرى ، فهذا يعني أنّنا نُقدّم أنفسنا لقمة سائغة وصيدًا سهلاً . زمّ شفتيه ولم يُجب . قلتُ له : أما قرأتَ كيفَ هرب صدّام حسين من السّجن ، أو كيف هرب مُظفّر النّواب منه؟! قال : والله مُمكِن . هربا بالطّريقة نفسها ، في عام ١٩٦٦ تمكّن صدّام من الهرب ،

وفي عام ١٩٦٣ تمكّن شاعر العراق مظفّر من الهرب خلال حفر نفق تحت غرفة الزّنزانة ، نفق يمتدّ لأمتار طويلة ، ويفتح على رقعة حُرّة خارج أسوار السّجن ، فعل ذلكً بالـمِلعقةِ والشّوكة كما روى هو في إحدى المُقابلات التّلفازيّة!!

لم يكن لدينا ملعقة أو شوكة من الحديد ، كانت كلّ الملاعق والشّوك في السّجن بلاستيكيّة ، ليس لدينا من المعدن إلاّ سِكّين (ليث) الّتي لم نعد نعرف أين استقرّت ، وعلى أيّ برش تنام مع صاحبها بعد استعادتها ، وهناك هذا المنشار الصّغير الّذي لم أدرِ كيفَ ومن أينَ حصل عليه عكرمة . . . بدت فكرة حفر النّفق مستحيلة ، ولو أنّها مُمكنة بالصّبر فستستغرق أشهرًا أو ما يزيد عن سنة ، وأثناء ذلك من يضمن ألاّ تُكتَشف ، أو يضعف أحد أفراد المهجع فيُخبِرَ عنها؟!!!

عُدْنا إلى فكرة القفز فوق الجدار الإسمنتي ، وإحداث ثغرة في الأسلاك . سألتُه :

- افترضْ أنّنا نجحنا في ذلك ، وكشفتنا الكاميرا بعد مرور حوالي (٥) دقائق؟! أيّ فرصة للنّجاة مُمكنة حينئذ؟!

- حينَ تُصبح خارج الأسلاك وتَشمّ رائحة الحرّيّة تكون قد أصبحتَ حرًّا ، لا شيءَ يُعادِل مثل هذا الشّعور ولو كان ثمنه الحياة كلّها!!

- وماذا بعد هذا الشّعور الطّاغي بالحرّيّة؟! أريدُ الخطوة القادِمة!!

- ابدأ بالرّكض باتّجاه الطّريق الخالية!!

- وماذا عن الرّصاص؟!

- سينهمر خلفكَ كأنّه مطر السّماء!!

- واحتماليّة أن تُصاب؟!

- كبيرة!!

- واحتماليّة ألاّ تُصاب؟!

- كبيرة أيضًا . ولكن ألا يستحقّ الأمر المُعاناة؟!

- قد . . .!!

- أحدهم فعلها قبلَنا .

- حقًا؟!

- بلى .

- وماذا كانت النّتيجة؟!

- قُتِل .

- بكهرباء الأسلاك؟!

- لا .

- بأيّ شيء؟!

- بالرّصاص طبعًا . استطاع أن يهرب لأكثر من مئة مترٍ قبل أن تُرديه الرّصاصات . أنا متأكّد أنّه عاش حياةً كاملةً خلال فترة مئة المتر هذه ، ومات وهو راضٍ عن نفسه!!

- . . . . . .!!!!

ظلّت فكرة الهروب فكرةً قارّةً في الرّأس لم تتجاوزه ، ماتت مع تقادم الأيّام ، وأظنّ أنّني وعكرمة كنّا نناقش ذلك من باب فتح بابٍ جديدٍ للنّقاش ، فقد كنّا استوفينا كلّ ما يمكن الحديث حوله سابقًا في المواضيع كافّة ، وصار بعضُها مكرورًا مُملاً ، فجاءت فكرة الهروب من السّجن لِتُضفيَ نكهةً جديدةً على مذاق نقاشاتنا اللاّنهائيّة!!

(١٦)
﴿فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾

مرّ زمن كأنّه ما مرّ، ومرّ زمن كأنّه سنواتٌ طوال . . . يُتقن الزّمن في الحالين لعبته، ونُصغي نحن إلى إيقاعه، ونبتسم أو نعبس، وهو في الحالين غير مُكترث. نقلتُ اهتماماتي مع الزّمن إلى مستوياتٍ جديدة، صار يروق لي الجلوس على (البرش) في الطّابق الثّاني في أيّام الصّحو من المطر، وشروق شمس الجنوب الدّافئة، فأبدأ بمراقبة المربّع الأزرق الذي تسمح به النّافذة، أظلّ مشدودًا إليه بخيط بصري، مُركّزًا النّظر في إطاره دون أن أتحوّل عنه، فتَفد إليه بعض الطّيور، في ذلك اليوم مرّت طيور كثيرة راقبْتُها عبر أكثر من ثلاث ساعات، جلستُ فيهنّ كراهبٍ في معبد التّبتُّل . . . مرّت (سنونو) مسرعة في تلك المساحة الفضائية، وهبطت فجأة حتّى خُيّل إليّ لهويّها السّريع أنّها سقطت على تراب الأرض، استغربت أن تظهر سنونو في مثل هذا المكان، وفي مثل هذا الوقت من السّنة . . . ظللتُ أفكّر في لونها الأسود الدّاكن وفي ذنبها الّذي يرتسم على شكل شارة النّصر . . . بعد زمن مرّ عُقاب أسود غطّى بعض اللّون البرّاق جزءًا من جناحه، لونان سوداوانِ يملآن القلب غُصّة، تدعوك الحرّيّة إلى أن تتمنّى أن تكون مكانهما . . . قطع السّوادَ بعد ذلك بياضٌ مُطلَق لحمامةٍ لم تطر بعيدًا كسابِقيها، بل ظلّت ترفرف قريبًا من النّافذة حتّى حطّت عليها أخيرًا، كان رأسها وصدرُها مواجِهًا لي، بدتْ كأنّها تنظر إليّ، حدّقتُ فيها النّظر أكثر مُستمتعًا بنقاء ريشها النّاصع، بدا كأنّها خجلت من تحديقي، فلفّت جسدها يمينًا، ثمّ قليلاً إلى اليسار، ثمّ طارت

مُحلّقة في الفضاء مبتعدةً عن عالَمنا المثقل بالقيود . . . لا أدري كيف مرّت السّاعات الثّلاث سريعًا ، يبدو أنّني كنتُ مستمتعًا بذلك . . . أحيانًا تمرّ دقائق كثير لا يظهر من النّافذة إلاّ الفضاء الرّحب والسّماء الخالية من كلّ شيء ، لكنّها تلبس فستانها الأزرق ، وتلفّ جسدها بوشاح أبيض ، يحيط بها تارةً ، ويسقط عن كتفيها تارةً أخرى . . .!!!

إلى أيّ عالم تنتمي الطّيور؟! إلى عالَم السّماء . وأيّ نوع من الحرّيّة تتمتّع به؟! الحرّيّةً المُطلقة . كم يتمنّى المرء أن ينتمي إلى عالَم السّماء كالطّيور ، ويتمتّع بالحرّيّة المُطلَقة مثلها . وماذا يفعل طير الشّعر الخافق في أعماقي بين القضبان أو الأسوار؟! هل فقد صوته؟! هل فقد قدرته على التّحليق؟! هل رضي بالقواقع أم تاق إلى السّحب؟! هل يقبل بوطن يمدّ إليه بندقيّة صيّاد يريد أن يُردِيَه؟! أم يُهاجر في الشّتاء إلى حيثُ تطلع الشّمسُ من جديد؟

وكلّ كـريم يتّـقي الذّمَّ بالقِـرى
وللْخَـيْـر بينَ الصّالحينَ طَرِيقُ
لَعَمْـرُكَ مـا ضـاقتْ بلادٌ بأهلها
ولكنَّ أَخْـلاقَ الرّجـالِ تضـيقُ

لا يا عمرو ، لن تضيق أحلامي بوطني ، مهما فعل مَنْ تسوّده وهو منه براء ، ولن تضيق بترابه الغالي ، فكلّ ذرّةٍ من ترابه درجَتْ عليها أقدام الصّحابة ، وخبّت عليها خيولهم (وهنّ يشددن نحو النّصر في الطّلبِ) ، وفي كلّ شبرٍ من ثراه دمُ شهيد ، وشلو فارسٍ رفع راية الحقّ العالية في وجه راية الباطل المُنَكّسة . . . لن أضيق بوطنٍي ، فهو موئل الأنبياء والأولياء ، وهواؤه من أنفاسهم يستمدّ عبقه . . . إنّه الأردنّ الّذي سيظلّ وفيًا لتاريخ الصّحابة حينَ خلّصوه من ظلم الرّومان ، إنّها بلاد الشّام الّتي صنع فوقها خالد بن الوليد وأبو عبيدة أمجادَ الأمّة ، وقدّم الشّام على أنّها وصيّة رسول الله المُباركة ، فأنّى لها أن تذلّ على أيدي الطّغام . . . إنّها

بلادي الّتي ظللتُ أحلم أن أعيش فوقها ، وأقضي زهرة شبابي بين وديانها وسهولها وجِبالها ، وآمل أن أجد في ترابها مكانًا ليستريح جسدي بعد عناء الرّحلة الطّويل فأدفن في مسك ثراها ، وفي زعفران أشجارها . . .

بلادٌ بهـا حلّ الشّـبابُ تَمائمي
وأوّلُ أرض مسّ جِلدي تُرابُهـا

لمن أترك وطني؟! للضّباع الّتي لا تخرج إلاّ في اللّيل؟! أم للأفاعي الّتي (رمتْني بدائها وانسلّت)؟ أم للغربان تظلّ تمارس النّعيق بدل غناء بلابلها؟! أم للجراد يأكل الأخضر واليابس (فيذرها قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمتا)؟!

ها أنذا أقف على أعتاب الذّكرى ؛ أتذكّر الماضين فأجهش بالنّحيب!! ملأ السّجن ذاكرتي بالورود ، وعيوني بالبكاء ، وأطرافي بالرّجفة ، وأعماقي بالحبّ!! كيف يقدر السّجن على كلّ ذلك مُجتمِعًا؟! ها أنذا أستعدّ بعد أسابيع قليلة للرّحيل من هنا!! نعم سأخرج من هنا دون أن يكون للدّولة عليّ مِنّة من عفو خاصٍّ أو عامٍّ!! أخرج وقد قضيت مدّة محكوميّتي كاملةً دون أن يكون لأحدٍ عليّ فضلٌ إلاّ الله الّذي أراد لي أن أخوض هذه التّجربة الحيّة ، ثمّ أبي الّذي وقف جدارًا منيعًا معي طوال هذه المحنة فكانت بوقوفه إلى جانبي منحةً عظيمة ، ثمّ الآخرون إخوتي وأخواتي ومَنْ ظلّ يزورني ويدعو لي بين الفينة والأخرى . . .!!

شخصيّات السّجن ليست أيّ شخصيّات ، شخصيّات يستحيل أن تعثر عليها ولو خرجت من السّجن مسافة خمسين مترًا ، شخصيّات لا توجد إلاّ خلف القُضبان ، ولا تتشكّل إلاّ حين تطعنها سكّين الوحدة والأمل والتّرقّب والخوف والرّجاء والحزن والفرح والشّكّ واليقين والعبوديّة والحرّيّة و . . . . شخصيّات لا تتعرّف إلى نفسها لو هي أرادت أن تعرف مَنْ هي حينَ تغادر هذه القضبان إلى الأفق الممتدّ بلا نهاية ، أفق الحرّيّة والكرامة . . . مَنْ نحن؟! هل كنّا نحن نحن ونحن خارج السّجن ، ثمّ

داخله، ثمّ خارجه حين تنكسر القيود من حول المعاصم؟!! هل يمكن أن يكون الواحد منّا قبل أن يأتي إلى هذه الجدران هو هو وهو الآن داخلها، وهل يُحافِظ على خطوطه الشّخصيّة حين يَخرج من هنا؟!!!! ماذا يفعل السّجن بنا؟! أيّ يدٍ نحّاتٍ تمتدّ إلى الطّين المتراكم في أجسادنا فتعيد تشكيلها من جديد؟!

كيف تغيّرت اهتماماتنا، وتبلورت، وتحدّرت، وانحرفت، أو استقامت . . . لا ندري، ما المقياس الّذي يُمكن أن نحكم به اليوم على ما كنّا نفعل، أو نعيش؟! هل كانت حياتنا داخل السّجن طبيعيّة وهل ستكون كذلك إذا خرجنا من السّجن؟! كم من العمر أو الوقت يلزمنا لنستعيد ذواتنا الّتي عشناها قبل أن ندخل إلى هنا؟! أم أنّ هذه الذّوات كانت مزيّفة ديكوراتيّة، واليوم في السّجن أعدنا إليها حقيقتها الضّائعة، فلنعش بعد خروجنا من السّجن كما كنّا نعيش داخله؟! هل يقبلنا العالَم الخارجيّ حينئذٍ أم يتبرأ منّا؟! هل يتعرّف إلينا أم يُنكِرنا؟! هل يعدّنا ابنًا شرعيًا له أم غير شرعيّ؟! وهل نحن نقبَله على ما هو عليه دون أن نغيّر فيه أو يغيّر فينا؟!! يا للمأساة الّتي يصنعها عالَم السّجن؟! لا تقل ذلك؟! قل يا للرّوعة الّتي يغرس السّجن شجرتها الباسقة في أعماقنا؟!

كان السّجنُ الّذي اخترعه البشر ليُذِلّوا كلّ من يُدخلونه إليه من خصومهم السّياسيّين عنيدًا . عرف نوايا البشر السّيّئة فقرّر أن يزيد كلّ داخلٍ إليه من أجل الحقّ والدّفاع عنه كرامةً وعزًا، وأنفةً وشموخًا وكبرياءً باذخةً . . . لم يفعل ذلك مع الكثيرين، كان يحتاج إلى صبر ومصابرة دائمَيْن، ومجاهدة لا تكلّ ولا تَني في معظم الوقات، وعدم اكتراث أحيانًا . . . إذا رَضيَتْ عليك جدرانُ السّجن خُيّلت إليك رياضًا غنّاء، وفتحت أمامك آفاقًا ربّما لا يراها سواك، ولو لم ترضَ ستتساقط حجارةً عليك، وتتراكم فوق صدرك تكاد تخنقك وتقضي ما تبقّى لك من حياةٍ إنْ كانت حياة السّجن تُسمّى حياة . . . حاورتُ الجدران والقضبانَ

والأسلاك والأبواب والمهاجع من أجل أن أجدَ لي مساحةً من الرّضى عندها حتّى لا أفقد ذاتي أو أخسر نفسي؟! هل نجحتُ؟! ربّما. هل أخفقتُ؟! ربّما.

كلّ التّفاصيل الصّغيرة والكبيرة حفظتُها، قرأت كتاب السِّجن جيّدًا. وحاولتُ أن أستمتع بكلّ شيءٍ، حتّى بما كنّا نظنّه خارج السّجن بلاهةً وسذاجة... استمتعت بمنظر صرصور يسير على أحد الجدران، راقبْتُه جيّدًا، وتابعتُ حركاته وخطّ سيره، وعندما كان يتوقّف لبرهة توقّعْتُ له الخُطوة القادمة، ذلك لأنّني عشتُ في عالَمه، وفكّرتُ بمثل تفكيره. من قال إنّ الحيوانات والحشرات لا تفكّر، ولا تُمحّص الفكرة قبل أن تُقدِمَ عليها؟! مُخطِئٌ من ظنّ ذلك؟! ومن راقبَها جيّدًا وحاول أن يدخل إلى فضاءاتها الواسعة عرف أنّها - أحيانًا - أذكى من الإنسان، وهي بلا عقلٍ مثله، فكيف لو كانت بعقله، ماذا كان يُمكن أن تصنع؟!

نملةٌ تمشي، على قدمي، فأتركها تتابع سيرها حتّى تمرّ من السّاق إلى البطن ثمّ تصعد عبر الجذع إلى وجهي، لم أمنعها من أيّة حركة، أأقترف معها الحماقة ذاتها الّتي اقترفها السّجّانون معي؟! لا والله! تركتُها حرّة تسبح في فضائها المنشود، ربّما تَعُدّ صفحة وجهي جزءًا من فضائها، فليكنْ؛ لن أمنعها؟! هكذا قادتْها القدرة الإلهيّة إلى هنا، أفأكون سدًا مانِعًا في وجه هذه القدرة؟! كلاّ وألفُ كلاّ!!

عادت المرآة المشروخة لِتُرِيَني كم ظلّ من جسدي الّذي تهاوى أمام ضربات الهبوط الطّوعي للوزن... ربّ ضارّة نافعة، بعد مرور بضعة أشهر ها أنذا أفقد ما يزيد عن (٤٠) كغم... ما أحلى شعور الرّشاقة الّذي يجعلك تقفز كغزال، وتنطلق كحصانِ سباق... ضاعت اللّهاثات الأولى مع الشّحوم الّتي تخلّصْتُ منها، وتركتُ خلفي إنسانًا آخر يزن (٤٠) كغم، تخيّلْ أنّك تخلّصْتَ من وزنٍ مثل هذا كان يرافقك في كلّ أوقاتك؛ في اللّيل والنّهار، وفي الصّحوِ والمنام.

واليوم . . . ماذا ظلّ من (سالم) غير ما كان يرجّه من اللّبن الصّافي ذي اللّون الأبيض النّاصع في أصائل رمضان؟! وماذا تبقّى من (عكرمة) غير أصابعه وهي تعزف موسيقى الثّقافة والعشق؟! وماذا ظلّ من (أحمد) غير ضحكته وعينيه؟! وماذا ظلّ من (يوسف) غير تفانيه في خدمتنا؟! وماذا ظلّ من (عليّ) غير صوته القادم من أعماق وديان عجلون وجِبالها؟! وماذا ظلّ من (محمّد) غير احترافه في الملعب وهو يُرقّص الكرة؟! وماذا ظلّ من (بكر) غير مَسحته الخفيفة الدّائمة على شعر لحيته الطّويل؟! وماذا ظلّ من (زكريّا) غير صوته الشّجيّ في ليالي رمضان، ووقفوفه الطّويل على أعتاب العالي الكريم؟! وماذا ظلّ من (خالد) غير وجهه الأسمر الطّافح بالبشر والرِّضى؟! وماذا ظلّ من (ماجد) غير صمته الدّهريّ الّذي لم يخرج منه إلاّ ليعود إليه سريعًا؟! وماذا ظلّ من (حسين) غير صوته الحادّ ومشيه السّريع وتذمّره من كلّ شيء، لم تُعجِبْه حتّى نفسُه؟! وماذا ظلّ من (خليل) غير حنينه الدّائم وقصصه المُفزعة؟! وماذا ظلّ من (جهاد) غير صبره الطّويل وأمله الأطول بيوم الخلاص؟! وماذا ظلّ من . . . وماذا ظلّ مِن . . . وماذا ظلّ مِنّي؟!!! لا شيء!!!!

وأنا؟! ماذا حملتُ معي من داخل السّجن؟! كُتُبي الّتي قرأتُها كما لم أقرأها في أيّ مكان آخر؟! قصائدي الّتي نزفْتُها دمًا سخينًا على صفحات الورق النّادر؟! أحلامي الّتي حلّقتْ في الفضاء وتجاوزتْه إلى عنان السّماء ثمّ تجاوزتْه إلى ما هو أعلى وأسمى وأرقى انتهاء؟! دموعي الّتي سال من لؤلُئِها على الخدّين ما يكفي أن ينظِمَ عُقودًا لكلّ حسناوات العالَم؟! كلماتي الّتي نثرتُها ورودًا في ساحة رفقاء الدّرب، ونزلاء السّجن حينَ جمعتْنا علاقةٌ استثنائيّة ما خطّطْنا لها يومًا وما كنّا لنفعل لو أردْنا؟! ملابسي الّتي وزّعتُها على مَنْ ظلّ محرومًا من فضاء الحريّة، تفاؤلاً بأن يُصيبه ما أصابني فتنحطم القيود عن يديه قريبًا؟! ضحكاتي الّتي سرقْتُها في غفلة من حُرّاس الحزن لأداري بها جمرةً متّقدة من الألم على وطني

وما يُراد به وله؟! حرّيّتي الّتي عاشت في أعماقي ، وظلّتْ رفيقةً مُخلِصةً لي طوال كلّ هذه الشّهور؟!

نعم الحرّيّة لا يساويها شيء . . . يموت الإنسان من أجل الحرّيّة . . . طعم الحرّيّة لا يمكن أن تجده في أيّ طعم آخر أو حالة أخرى . . . الحرّيّة حياة . . . مَنْ يُسلب حرّيّته فكأنّما سُلبتْ حياته . . . مَنْ يَستبقِ الحياة يجد أنّ استبقاءها عبوديّة ، ولا يمكن أن توهَب إلاّ من أجل حرّيّة يكون فيها الانعتاق كاملاً . . . .!!

كان علينا أنَ نتسامح مع أنفسنا أوّلاً ؛ لكي نشرعَ أبواب الحرّيّة في عالَم الشّعور ، ومن ثَمَّ نكون قادرين أن نُسامحَ كلّ مَنْ حولنا . . . لم أحقد على أحد ، وتلك هي النّعمة الكبرى ، ولم أشعر بالضّغينة تُجاه أيّ جلاّدٍ ، ردَّدْتُ عبر مراحل سجني في السّجون كلّها ، في المخابرات وفي الجويدةً وفي سواقة : (أحبّهم ما أساؤوا لستُ أكرههم) . . . . بطوفان الحبّ القادم من رحمة السّماء قاومتُ نيران الحقد القادمة من سعير جهنّم ، واستطعتُ أن أخرج نقيًا صافيًا كقطر السّحاب ، لأنقذ نفسي فيما تبقّى لي من العمر خارج هذه القُضبان .

مرّ يوم ميلادي حزينًا ، ومع ذلك فقد كان شفيفًا أنيسًا ، جلستُ مع نفسي وتذكّرتُ الأيّام الّتي خطّتْ سطورها على صفحة جسدي . . . مرّ يوم ميلادي حزينًا لأنّ العام الفائت قضيتُ أكثره في السّجن ، من مَنفى إلى مَنفى ، ومن غربة إلى غربة ، ومن ألم إلى آخر . . . مرّ لأقول له ماذا نقصْتني وماذا زِدْتني أيّها اليوم؟! لو كانَ لي قلبك ، لجعلْتُ دماء الحبّ وحدها تضجّ بين شرايينه!!

منذ أكثر من ثلاثة شهور ، ووجهي شاحبٌ ، تكاد قطرةُ زيت أن تنفلت من ذقني فيه لتسقطَ على صدري المليء بكواكب من الحزنً ، وبمجرّات من الأسى ، وبفضاءات من الحنين!! ظلّ شحوب الوجه يريني الأشياء الّتي لا يراها الآخرون ، إنّه وسيلة الشّعراء في استبطان ما خفي

حتّى يعود لهم مكشوفًا ، فينزعوا من طير الغيب ريشةً يعودون بها إلى عالَم الواقع فيُبهِرون السّامعين إذا تحدّثوا . . . شحوب الوجه زادني ارتقاءً روحيًا محضًا ، كان امتناعي عن أكل الخبز والأرزّ طوال خمسة أشهر قد صنع الأعاجيب في جسدي . . . في الأيّام الأخيرة لي المتبقيّة قبل فتح بوّابة السّجن أمامي تركتُ لحيتي على سجيّتها ؛ طالت بكلّ اتّجاه ، وكان شعورٌ بالتّذلّل إلى الله عبرها يغمرني ، وشعورٌ آخر باقتراب انفتاح فرجةٍ في جدار كلّ السّجون يُسيطر عليّ كذلك ، فأُحِسُّ أنّ هذا الجدار سينهدم إلى الأبد ، وتُصبح السّجون جزءًا من الماضي .

كان عليّ أن أُلملم شتات نفسي ، وأجمّع ما تناثر من ذاتي في الممرّات وعلى الأبواب وفوق الأبراش ، وأضمّ قصائدي على قلبي ، وأحمل حقيبتي وأخرج . . . بدا اليوم بعيدًا جِدًا مع قربه الزّمانيّ الحقيقيّ ، بضعة أيّام ويُصبح كلّ ما خلفي من السّجن ذكرى ، بضعة أيّام وتُفتَح بوّابة السّجن الكبيرة ، لأتركها تُغلَق من خلفي على من تبقّى من رفقائي هنا ؛ شعوران متناقِضان يجتاحان كِياني ؛ شعور الفرح بانتصار الإرادة على القيد يتمثّل بخروجي من هنا ، وشعور الأسى والحزن على من ظلّ من الزّملاء وهو يُغالبون دمًا يسيل على الرّسغين من طول ما أحاطت الأصفاد بالمعاصِم!! غير أنّهم شاركوني الشّعور الأوّل ، وتفهّموا الشّعور الثّاني ، وظلّ الأمل طائرًا يخفق بجناحيه في أعماقهم!!

ماذا أفعل في آخر أيّامي هنا؟! أأسير بين الممرّات والزّنازين أملأ عينيّ منها وهي الّتي احتضنتني كلّ هذه الفترة الطّويلة؟! أم أحدّق في بعض الوجوه البائسة وأحمل قضيّتها معي إلى الخارج لأنقل شعورهم إلى الّذين تبلّدت مشاعرهم من المسؤولين ، وتجمّد دم الإحساس في عروقهم؟! أم أصافح كلّ الّذين عاشوا معي هذه اللّحظات بحلوها ومُرّها وأعدهم أن أبقى على العهد دون أن أنساهم ، وأعانقهم عِناقًا طويلاً خالِصًا؟! أم أقطع لهم على نفسي وعدًا بأنْ يظلّوا في القلب مهما تقادمت الأيّام ، وأن

أزورهم ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً؟! أم أخرجُ خِلسةً وخِفيةً لأتّقي سِهام النّظرات الّتي ترمقني وهي تُداري خلفها أمنيّة حادّة بأن تكون مكاني لتنعم بثمار الحرّيّة؟! أم أترك كلّ الماضي خلفي وأنسى أنّني عشتُ هنا ، أو مررتُ من هنا ، أو استلقيتُ على أبراش هذا المكان يومًا؟! أم أصرخ في وجه الجدران : متى يأتي اليوم الّذي تنهدمين فيه ، وتختفين من وجه كلّ هؤلاء المحرومين؟!

مَنْ سيغسل الأطباق والصّحون والدِّلاء والكاسات بعدي؟! مَنْ سيرتّب هذه الأغراض في أمكنتها بعدي؟! هل سيجد (يوسف) صعوبةً في انتقاء فردٍ يشغل مكاني؟! أم أنّه سيوكِلُ أكثرَ من مهمّة لشخصٍ واحد؟! أم أنّه سيوزّع الأدوار بالتّناوب على المُتبقّين؟!

مَنْ سيشغل الطّابق الثّاني من البَرْش بعدي؟! لم يكنْ مكانًا مُميّزًا على أيّة حال ، فهو ليس الطّابق الأرضي الّذي يتمتّع بميزات لا يُمكن حصرها!! ولو كان كذلك لرأيتَ العيون قبل القلوب هفت إلى أن تشغل المكان الفارغ . . . غير أنّه قد يُعطَى للسّجين الّذي يحتلّ الجزء الأسفل منه ، فيوسّع منطقة نفوذه ، فيركن فوقه بعض أغراضه الشّخصيّة ، فتمتدّ بذلك مساحة حرّيته من هذا الباب . . . وقد تفعل إدارة السّجن ما لم يكن بالحسبان ، فتُصادر البرشَ بطابقِيه ، ويذهب السّجين إلى برشٍ آخر يكون فيه الجزء العلويّ شاغرًا!!

ماذا ستفعل بعد أن تخرج من السّجن؟! قالها لي أكثر من زميلٍ هنا؟! أشفقتُ عليهم وعلى نفسي من السّؤال والجواب معًا ؛ فالسّؤال كان يحمل مستوىً من الحسرة من قِبَلِ سائله ، وأنا كنتُ أتحسّر كذلك لأجله ؛ فبعض المحكومين سيقضي هنا مُددًا طويلة من بعدي ، يصل بعضُها إلى المُؤبّد . والجواب كان مُحيِّرًا!! نعم ماذا سوف أفعل حين أخرج؟! هل العدميّة والعبثيّة هي ما سأواجهه؟! كيف سأتأقلم مع الواقع حينَ يكون السّجن قد حرفني إلى جهته ، فتعدّدت البوصلات ، وتمزّق اتّجاه الشّمال فيها؟! ماذا

سأفعل حينَ أرى وجه أمّي يُطلّ من بعيد ، فأسارع إلى احتضانها بكلّ ما فِيَّ من شوق ولوعة ولهفة؟! ماذا سأفعل حين أدخل الجامعة في فصلي الأخير في الهندسة فأحسّ بكلّ العيون ترمقني من كلّ صوب؟! ماذا سيكون شعوري حينَ أعلم أنّ الّتي أخلصْتُ لها الذّكرى ، وملأت لها القلب بالحبّ حتّى لم يعد فيه مكانٌ إلاّ لها قد تركتْني غير آسفة وغادرتْني إلى مراتب البائسين؟! ماذا سأفعل حينَ أرمقها بنظرة أخيرة لا أدري أهي نظرة عتاب أم نظرة عذاب؟! غير أنّ الحبّ أكبر من كلّ ما عداه من المشاعر ، وإنْ كنتُ قد أحببْتُها حقًا فلن أحمل لها إلاّ هذا الشّعور بذاته دون مماراة ، غير أنّ نظرة وداع واحدة تكفي لكي يقول لها القلب الّذي امتلأ بها : وداعًا . . . أرجو أن تجِدي حياتَك مع من اخترته!!

كان يومَ الأربعاء ؛ وها أنذا يا وطني آتيك على قَدرٍ ، وأقبّل ترابك الطّاهر ، وأنزوي ذرّةً في ثراك ، وأعود إليك بكامل عنفواني ، وبِزَهْوِ شبابي الّذي قضيتُ شطرًا منه في السّجن لأجلك . . . وطني يا أكبر من كلّ الأشياء ، ويا أطول من كلّ القامات ، ويا أبقى من كلّ الجلاّدين ، ويا أنصع من كلّ التّهم ، ويا أجمل من كلّ النّساء . . . ها أنذا أخرج من السّجن لأعود إليك هامةً لم تنكسر أمام الرّياح ، ولم تنحنِ أمام الأعاصير :

خرجْنا من السّجنِ شُمّ الأنوفِ
كما تخرجُ الأُسْدُ من غابِها
نمرُّ على شفراتِ السّيوفِ
ونأتي المنيّةَ من بابِها
لِتَعلَمَ أُمّتنا أنّنا
رَكِبْنا المنايا حنانًا بِها

د . أيمن العتوم

عمّان ٨/١١/٢٠١١م .

الفهرس

Y A S A H I B A Y A L - S I J N



يا صاحبَي السجن

في البئر وجد كثيرًا من الكنوز المدفونة .. رموه هناك وقالوا: يلتقطه بعض السيّارة، ولم يعلموا أنّ النبوءة أوّلها إلقاء في الجبّ ..!! مساكين أولئك الّذين ظنّوا أنّ الموت أو الغياب السحيق سوف يودي بصاحب الجبّ. لم يدُرْ في خلَدهم يومًا أنّ الفضاءات المطلقة تبدأ من الجحور الضيّقة .. هناك تصنع الحياة، ويعاد ترتيب مكوّناتها .. هناك يتهجّأ الإنسان حروف ولادته من جديد ..

بين فاصلين زمنيّين يلتقط المرء أنفاسه ليصغي إلى إيقاعها وهي تدور من جديد. بين رصاصتين يلتقط القتيل جسده ليصبح شاهدًا على زمن الظلم، وبين كلمتين يصنع الشاعر مجده حين يتقن حرفَ الحرفِ، ويذهب عميقًا في التأويل والتأمّل ..


9 786144 192900

